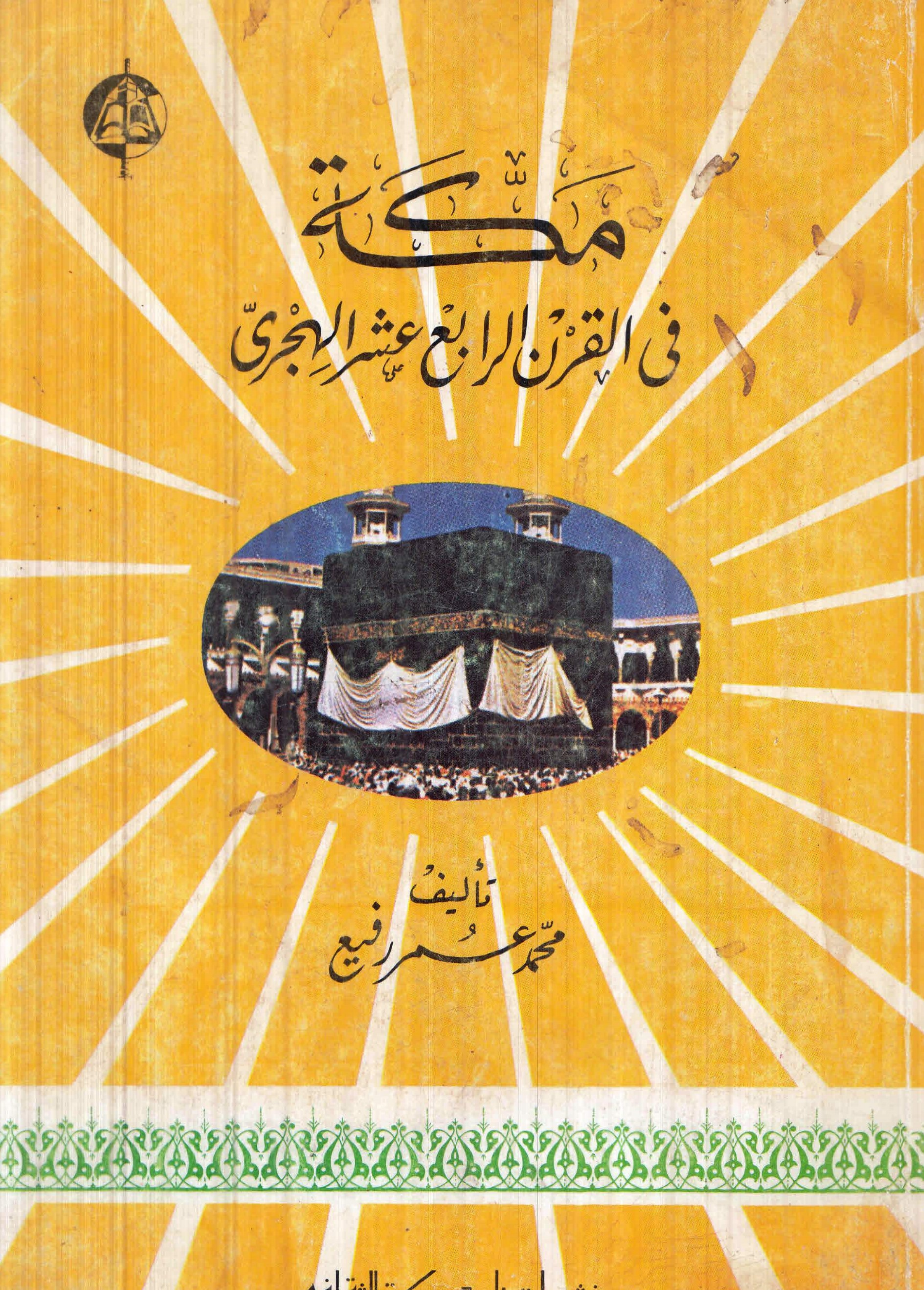
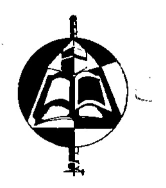

مكة
في القرن الرابع عشر الهجري
تأليف
محمد عمر رفيع
منشورات نادي مكة الثقافي



محمد عمر رفيع

مكة

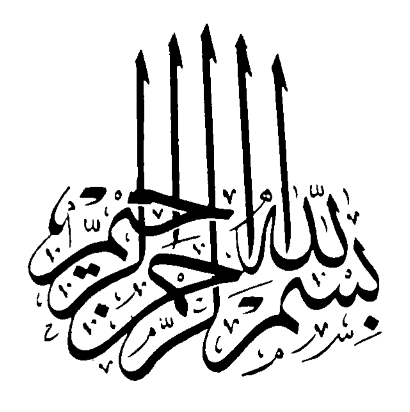
في القرن الرابع عشر الهجري

منشورات نادي مكة الثقافي

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

طبع بإشراف دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع



الإهداء

إلى خادم الحرمين الشريفين ، وحامي حمى البيت الحرام . الى رائد التضامن الاسلامي ، حضرة صاحب الجلالة

(الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود)

ملاذ العروبة وموئلها ، ومصدر الخير للإسلام والمسلمين بعامة ، وللجزيرة العربية موطن العروبة ، والرسالة المحمدية بخاصة .

أهدي كتابي هذا « مكة في القرن الرابع عشر الهجري » داعيا الله لكم وللإسلام ، بجهادكم الصادق ، وكفاحكم النبيل ، كل نصر ويمن وتوفيق .

المخلص



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، المرسل رحمة للعالمين وآله وصحبه أجمعين ، وبعد .

فإنني في مطالعاتي لبعض كتب الرحلات ، وكتّاب من أرخ لمكة حديثا ، وجدت منسوبا لمكة والمكيين حالات وعادات وتقاليد بعضها غير صحيح بل وغير معقول .

ولما كنت كما يقول المرحوم الشيخ عثماني الراضي المكي[1] :

« فانا ابنها من اهلها ورضيعها من ثـديها وربيبهـا في حجـرهـا»

أخذتني حالة أشبه ما تكون بالعطسة تعتري الانسان فلا يستطيع ردها ، فاندفعت أكتب كل ما عرفته وأعرفه من عادات المكيين وتقاليدهم ، بل ومسائل معاشهم وتكسبهم ، ولهجتهم العامية ، وأمثالهم ، وغير ذلك .

وعن الحكومة والحكام الذين سيّروا دفّتها ، كل ذلك قصرته على القرن

---

(١) احد علماء مكة المكرمة وشعرائها . وله قصائد في مدح بعض امراء مكة لمن عاصرهم وقد عاش في اواسط القرن الرابع عشر وقد اطلع خير الدين الزركلي اثناء زيارته للطائف على رسالة مخطوطة وغير تامة في الرد على ما ذكره البتنوني في رحلته اثناء مرافقته لخديوي مصر عباس سنة ١٣٢٧ هـ ذكـر ذلك في كتابه «ماسمعت وما رأيت » . . .

الرابع عشر الهجري مما شهدته أو سمعته ممن اثق به ، وقد أكون افرطت في الاسهاب في بعض فصول الكتاب ، وقد أكون قصرت في بعضها فالكمال لله وحده .

فان شمتني القارىء الكريم فانني اقول له سلفا :

رحم الله قائلاً رحم الله كاتبه

وإن اختلف معي فيما رأيته في بعض الفصول من رأي خاص ، ولم يرق له ما كتبت ، فله ان ينقد ما شاء ، وكيف شاء ، فالله من وراء القصد ، وهو الهادي لسواء السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله الحميد المنعم ، المتفضل الهادي إلى سواء السبيل ، وصلاته وسلامه على المصطفى الأمين ، امام الفصحاء والمتكلمين ، محمد بن عبد الله ، القرشي الهاشمي ، وعلى آله وصحبه الأخيار ، أئمة الهدى وناشري رايات الاسلام ، عفا الله عنهم وعنا بمنه وكرمه ، آمين .

أما بعد ، فإن لهذا الكتاب قصة ، لعل لله سبحانه وتعالى فيها شأن ، فقد ألفه مؤلفه ـ رحمه الله ـ قبل سنوات من نهاية القرن الهجري الرابع عشر ، ثم أعده للطبع وسار فيه شوطاً ، فلم يشأ الله اتمامه ، فوافته المنية .

فذهب فقيد العلم والأدب ، يرحمه الله ، وعن طريق الشيخ الجليل محمد سعيد العامودي علمت قصة الكتاب وموضوعه ، فاتصلت بالاستاذ الفاضل ابراهيم أمين فودة رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي وشرحت له أمره ، فكان كعادته ـ في الاهتمام بكل مفيد ـ استقبل الفكرة بالترحاب ، وكلفني ان اتولى امره ، فاتصلت بأخ عزيز هو الاستاذ هاشم الزواوي وطلبت منه ـ باسم النادي ـ العمل على ايصال الكتاب الى النادي لتتضافر الجهود على اخراجه الى عالم المقروءات ، وما كذب ـ رعاه الله ـ بخبر ، ثم وصل إليّ الكتاب وتم فسحه وعهد إلي سعادة رئيس النادي بتولي النشر ، وهي ثقة أعتز بها .

وعند تصفحي الكتاب واجهتني عقبات ، ارجو ان يوفقني الله في تخطيها وتذليلها ، من هذه العقبات :

عـدم وضوح الخط في بعض الكلمات ، ونقص املائي في بعضها أملته سرعة كتابة المؤلف رحمه الله ، ولأن المُؤَلِّف ـ أي مُؤَلِّف ـ يحفظ ما يريد ان يكتبه فيزل القلم احيانا ويسبق احياناً أخرى ، وخاصة عند ازدحام الفكر ومحاولة ضبطها قبل الهروب !

وهناك مسميات وردت لم يعد يعرفها بعض ابناء الجيل ،مثل : كركون ، وحكمدار وغيرها . وكان غاية الجهد أن يسند التصحيح الى مصحح قدير متمرس في مثل هذه الصعاب ، فان فاته شيء فلا شك أنه ليس في مقدور غيره ضبطه ، لا اقول هذا تنصلاً من المسؤولية ، إنما هو الخبر وبارك الله في من عذر .

وفي الختام : رحم الله المؤلف ، وجزى الله رئيس نادي مكة الثقافي الأدبي كل خير ، لاحتضانه هذا الأثر العظيم ، وشكراً للأخوة الاجلاء العامودي ـ والزواوي ، وزهير ابن المؤلف .

والله أسأل التوفيق والسداد

عاتق بن غيث البلادي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ الكبير

السيد محمد سعيد العامودي

العهد بالكتب التاريخية ، قديماً وحديثاً ، أنها قلّما تحفل بغير الأحداث والوقائع مما يتصل بأمور الحكم من قريب او بعيد . ونادراً ما تتعرض إلى أحوال المجتمعات ، او تتناول بالبحث ما يكون فيها من عادات وتقاليد في مختلف المجالات . ولم يشذ عن هذه القاعدة ما ظهر من الكتب عن تاريخ مكة ، سواء ما أخرجته المطابع للآن ، أو الكتب الأخرى التي ما زالت في عالم المخطوطات محجوبة في زوايا المكتبات العامة ، وقد نجد في بعض كتب الرحلات ، كرحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة ، وغيرهما أشياء عن بعض عادات المكيين في المواسم والأعياد ، ولكنها لمحات عابر سبيل لا تشفي غليلاً ولا تروي أُواماً ، ولا يمكن أن نَرى من خلالها صورة تامة الملامح عن الحياة الاجتماعية لمكة المشرفة في تلك الفترة من الزمان . ولعل المرحوم الأستاذ احمد امين ، صاحب فجر الاسلام وضحاه وظهره ، كان أول من أشار الى النقص في هذه الناحية ، عندما أخرج في مصر كتابه الذائع المعروف من عادات وتقاليد وتعابير المصريين ، وكان من رأي الأستاذ احمد امين ان تقصير المؤرخين في إهمالهم الجوانب الشعبية عند كتابتهم التاريخ ، يعود إلى ما سماه (أرستقراطيتهم) ؛ وليس هذا ، كما يبدو ، هو كل السبب في هذا التقصير ، إذا لاحظنا أن الحياة الاجتماعية لأي شعب من الشعوب ، هي في

الواقع ، يشارك فيها الجميع ، فلا دخل للارستقراطية هنا ؛ وإنما يمكن القول عن سبب هذا التقصير أنه مجرد الإهمال .

وقد اختار الأستاذ أحمد أمين أن يجعل كتابه على شكل (قاموس) ، ورتب موضوعاته بترتيب الحروف ، وجعل عنوانه (قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية) وقد ذكر في مقدمته أنه لم يستقصِ العادات والتقاليد المصرية في جميع عصورها ، لأن هذا عمل شاق طويل ، بل (اكتفيت بها في العصر الحديث الذي عاصرته أو سبقني بقليل) . وقد أقدمت عليه - يقول الأستاذ - وأنا وجل ، لأنه موضوع جديد ، أظن أني لم أسبق إليه ، والجديد عادة غريب ، وأنا اعتقد أنه فتَح باباً يكمله من يأتي بعدي ، وقد دعاني إلى تأليفه ما رأيت من عادات وتقاليد وتعابير كانت حية في زمنَها ، ثم أخذت تندثر بعد زمنها ، حتى أن أولادي قل أن يعرفوا منها شيئاً ، فالمؤرخ في حاجة شديدة إلى تدوينها والانتفاع بها .

ذلك ما يقوله أحمد أمين عن بعض عادات وتقاليد بلده التي رآها تندثر في زمنه ، والحق أن هذا الذي يقوله عن مصر ، أو قد يقوله آخرون عن غير مصر في سائر أنحاء العالم العربي ، يمكن أن نقوله نحن دون أية مبالغة عن بلادنا بصورة عامة ، وعن مكة بطبيعة الحال ، وهي التي خصها صديقنا الفاضل الشيخ محمد عمر رفيع بكتابه الفريد هذا . ولست أُخفي عن القارىء الكريم ، اني منذ طالعت كتاب أحمد أمين سالف الذكر ، تمنيت ان يكون لنا كتاب مثله يتحدث الينا ، ولو في إيجاز ، عن الناحية الشعبية لبلادنا ، أي عن عاداتها وتقاليدها وطرائقها في الحياة . في مختلف مجالاتها ، خاصة وان كثيراً من هذه العادات والتقاليد قد بدأ يندثر بحكم تطور الحياة في بلادنا ، ونحن الذين أدركنا أواخر الجيل الذي مضى ، وشهدنا اكثر هذه العادات ، لا أبالغ إن قلت أننا كدنا ننساها ، فما ظنك بأجيال اليوم ؟ إنني موقن بأن أكثرهم ، إن لم يكونوا كلهم ، لا يعرفون عن هذه العادات كثيراً أو قليلاً ؛ إذن فمن الواجب ان يتصدى لتدوينها بعض الباحثين ، باعتبارها جزءاً مهماً من تاريخنا . ليس من

الإنصاف أن نهمل ناحية من نواحيه .

ومنذ عامين ، فيما أذكر ، كان الشيخ محمد عمر رفيع يحدثني أنه بدأ في كتابة تاريخ لمكة في عصرنا هذا الحاضر ، أو بالتحديد تاريخها في القرن الرابع عشر الهجري. ولم يَدُر بخلدي أن كتابه هذا سيتناول فيه، بصورة أخص ، حياة مكة الاجتماعية وعاداتها وتقاليدها . إلى أن أتى عندي ذات يوم ومعه الكتاب ، بعد أن فرغ من تأليفه قائلاً لي متفضلاً : هذا هو قد تم، وما عليك إلاّ أن تقرأه بإمعان وتبدي لي ملاحظاتك فيه ، ثم تكتب له مقدمة . . . . والحق أنني كنت على يقين من أن ما صنعه هذا الصديق ، وما بذله من جهد في كتابه هذا ، سوف تكون فائدته ، بلا أدنى شك ، محققة ، وسيكون له صداه في نفوس القارئين . ولم يكن حكمي المسبق ، على الكتاب ، إلا لأني أعرف اسلوب كاتبه في التأليف ، منذ قرأت له كتابه الطريف في (ربوع عسير) . فهو كاتب ذو آسلوب واضح ، سهل ، يروقك منه أنه يتناول موضوعه بلا تكلف ، وأنه دقيق في تسجيل ما يسمعه أو يراه . وفي كتابه ، هذا ، عن إخواننا أهل عسير أفاض في حديثه عن عاداتهم وتقاليدهم على هذا النَّسق الجميل .

ولا أطيل . . . فقد كانت فرحتي بالغة أن أتاح لي هذا الصديق الوفي مطالعة كتابه الجديد ، وعلى غير عادتي في القراءة ، فقد وجدتني أُتابع قراءة هذا الكتاب دون توقف ، وأنتهي منه في بضع ليال . ذلك لأنه أطربني حقاً وعاد بي إلى عهود مضت وبقي لها في قرارة النفس أعذب الذكريات .

في كتابه «مكة في القرن الرابع عشر الهجري» ، وهذا هو عنوان الكتاب ، يرجع بنا مؤلفه الفاضل إلى عهود كانت ، على ما فيها من بساطة ، لا تخلو من نضارة ومن أُنس وإيناس ؛ وفي هذا الكتاب وصف لا تنقصه الروعة لعادات وتقاليد ما يزال بعضها باقياً إلى الآن ؛ عادات وتقاليد لا تتسع كلمتي هذه لتفصيلها، مهما حاولت أو أردت ، ولعله من أهم ميزات الكتاب أن المؤلف يستوعب كل موضوع يتناوله بالحديث استيعاباً شاملاً ، فلا يترك شاردة ولا واردة

من عناصر البحث ، كما يقولون إلا وينوه بها ، ويشير اليها .

وستجد في الكتاب ، عدا ما حفل به من حديثه المستفيض عن عادات البلد وتقاليده ، ـ ستجد فيه حديثاً مستوفياً عن بيوت مكة وحواريها ، وعن طريقة البناء في ذلك العهد ؛ عهد ما قبل الحرب العالمية الثانية ، وعن الأثاث ، والإضاءة ، وعن الملابس . . وعن انواع الأطعمة . . . ولست أخفي أن حديثه عن الأطعمة شيق إلى أقصى حد ومغر ايضاً لولا انه لا سبيل . . . على أن معظم ما أشار إليه من أنواع الأطعمة ما يزال باقيا ، إن لم أقل أنها جميعاً باقية دون استثناء ؛ ومن اهم ما تناوله الكتاب المياه في مكة ، وقد قرأت ، في فصله هذا ، عن المياه ، تفاصيل لم اجدها في أي كتاب سابق عن عمارة عين زبيدة وما آلت إليه الآن بعد أن أضيف اليها بعض العيون الأخرى . ويتبع حديثه عن المياه ، بحديثه عن انواع المشروبات والمرطبات ، مما لم يبق له أثر الآن ، كالسوبيا وأخواتها . وفي حديثه عن وسائل النَّقل العديدة يذكرنا بالشقدف الذي كان شائع الاستعمال في الحج وفي السفر بين مكة وجدة والطائف والمدينة ، وبخاصة للسيدات ، ويشير الى ان استعمال الشقدف قديم إذ نوَّه به كل من ابن جبير وابن بطوطة . ثم تقرأ وصفه للشقدف كأنك تراه ويتكلم في إسهاب عن حالة مكة الاقتصادية ، وما كان فيها من تجارة رائجة ، ومن صناعات محلية يدوية اندثر أغلبها تقريباً ، بعد ان تقدمت المواصلات ، وزادت صلات البلاد بالخارج ، واصبح ما يرد منها ، من هذه الصناعات ، أرخص ثمنا ، وأجود صنْعاً ، فهو يغني عنها بطبيعة الحال .

ولا يفوت المؤلف في حديثه عن أوضاع الاقتصاد ان يتحدث عن المطوفين ووكلاء المطوفين ، والزمازمة ، وعن انظمتهم وما كانت عليه في أوائل القرن الرابع عشر ، وما انتهت إليه الآن .

ومن أمتع بحوث الكتاب ما أشار إليه حول لهجات المكيين ، وما يتفقون او يختلفون فيه عن غيرهم من أهل الأمصار الأخرى ، ويورد طائفة من الألفاظ

والمصطلحات مما هو متعارف بين المكيين، وقسم قليل منه يكاد أهل مكة يختصون به ، والقسم الأكثر يشاركهم فيه أهل مصر ، وبعض البلاد العربية الأخرى ؛ وهو يضيف إلى بحثه عن اللهجات طائفة كبيرة من الأمثال العامية التي يتداولها المكيون .

ويستوفي حديثه عن عادات المكيين وتقاليدهم ، وكذلك يتحدث عن الحكومة والحكام منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى العهد الحاضر ، وستجد ، في حديثه هذا ، أشياء كثيرة أغفلها من دونوا تاريخ مكة الحديث . ومن حق مؤلفنا الأديب أن ننوه بعنايته ببحثه هذا ، وأن نشير إلى ما أورده من معلومات لم يذكرها المؤرخون من قبله ، مما يصح وصفه بأنه تاريخ لما أهمله التاريخ . وقد تختلف معه في بعض وجهات النظر ، وقد توافقه في بعض ما كتبه ، غير أن هذا لا يحول دون ان تحترم له رأيه الخاص ، ولكل باحث أو مؤرخ نظرته إلى الامور تتكون لديه من معاناته للبحث ، والمؤلف في كثير مما يورده من معلومات إنما يعتمد في ذلك على مصادر يثق بها .

وهو في بحثه التاريخي هذا ، يستطرد الى ذكر بعض أحداث الحرب العالمية الأولى ، وبعض الأحداث في الجزيرة العربية . مما له علاقة بعهد الشريف الحسين ، ثم ما تلا ذلك من حوادث اخرى .

وهو يسجل للعهد السعودي ، وللملك الراحل عبد العزيز رحمه الله ولخلفه ، قائد بلادنا اليوم ، فيصل بن عبد العزيز ، هذه المفاخر التي نعيشها اليوم ؛ يسجل ذلك باسلوب مواطن يعتز بما يراه من مآثر في هذه الفترة من تاريخ البلاد ، يسجل كل ذلك في إجلال وإكبار .

وفي فصول الكتاب يتناول سير التعليم وما تطور إليه ، وما وصل إليه من تقدم كبير ، ويشير إلى التعليم الجامعي ، وإلى مدارس البنات ، ومدارس تحفيظ القرآن ، ويورد لنا إحصاءاً شاملاً عن حركة التعليم يتبين لنا منه الفرق الواسع بين ما كان عليه في الماضي القريب وما أصبح عليه الآن .

ويتحدث عن الصحة على نحو ما تحدث عن التعليم ، ولا ينسى الصحافة والأدب ، ولا ينسى كذلك ان يطرفنا بنماذج من منظومات عهود مضت ، نقرؤ ها فنزداد إحساساً بانه لا مقارنة أصلا ، بين الأمس واليوم في أي منحى وفي أي مجال .

فاذا كان من فائدة هذا الكتاب القيم أنه يعطي قارىء اليوم صورة واضحة الملامح عن حياة المكيين في القرن الرابع عشر ، وبخاصة في النصف الأول منه إلى ما بعد عام الستين للهجرة بقليل ، أي ما بعد الحرب العالمية الثانية ، بحيث يرى ، من خلال الصورة ، كيف كانت مكة آنذاك ، وكيف كان أهلها يعيشون ويتعايشون ، وأية أوضاع فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية مرت بهم ومروا بها ، أقول إذا كان من فائدة هذا الكتاب البكر عن مكة الحديثة ، هو ما اسلفت ، فحسبه هذا ، ليجعل منه كتاباً فريداً حقاً ، ويجعل منه مصدراً له اهميته بين مصادر تاريخنا .

وأخيراً لا آخراً أزجي للمؤلف الفاضل الشيخ محمد عمر رفيع صادق تحيتي وأسأل الله ان ينفع بكتابه ، ويجزيه خيراً على ما بذله في سبيله من جهد كبير .

محمد سعيد العامودي

مَوقع مَكّة
منَاخهَا وَسُكّانهَا

« تقع مكة على ٢١° و٢٨° عـرضا شـماليا و ٣٧° و ٥٤° طـولا شرقيا وترتفع على سطح البحر الأحمر « القلزم » بـ ٢٧٩ متراً » . هذا على ما جاء في كتاب « مرآة الحرمين » للواء ابراهيم رفعت .أما ما جاء في « تاريخ مكة »للأستاذ أحمد السباعي فكما يأتي :

« تقع مكة على ٢١° ونصف درجة تقريبا عرضا شماليا ، وعلى ٤٠° طولا ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٨٠ متراً » .

وبيوتها كائنة على امتداد الوادي ، ويسميه المكيون « وادي إبراهيم » ، وهو واد يمتد من محلة المعابدة طولا إلى محلة المسفلة جنوباً . وقد كانت جمهرتها في قلب الوادي حول المسجد الحرام ، زال معظمها في التوسعة التي جرت للمسجد في العهد السعودي الزاهر ، ولا تخلو سفوح جبل أبي قبيس شرقا ،وجبل قعيقعان شمالا بغرب من بيوت على سفحيهما بل وعلى القمم منها ، وتكتظ الشعاب المتفرعة من الوادي كشعب بني عامر ، وشعب بني هاشم، الذي عرف مؤخراً بسوق الليل ، وشعب أجياد الكبير والصغير ، ولا تخلو مخارم ما بين الجبال الممتدة على جانبي الوادي من غير ما ذكرت من بيوت قائمة فيها .

وسيأتي بيان واف عن ذلك ، وكيف امتدت وتشعبت وتقسمت الى حوار

ومحال ، خصوصا في العهود الاخيرة .

وجوها حار جاف ، تتراوح درجة الحرارة فيها بين ١٨ درجة شتاء و ٣٠ درجة صيفا بميزان سنتغراد، وتطرقها الرياح من الجهات الأربع ، وقد تتقلب في اليوم من عدة جهات ، واطيب جهة يرتاح الأهلون لهبوب الرياح منها ، الجهة الشمالية ثم الغربية ، ويقولون عنها « هواء بحري » ؛ أما ما يهب من الجهة الجنوبية ويسمونه « الأزيب » فثقيل رطب وحار بسبب مضيافة[1] اثناء هبوبه ، فهو لا يخفف عرقا ، ولا تبرد معه كيزان الماء ، ونادراً ما يهب عليها ريح الصبا من الجهة الشرقية .

والفصول فيها تنقسم الى اربعة كما هو المتعارف : الربيع ، الصيف ، الخريف والشتاء . غير أن قيامها بين مأزمي الجبال الممتدة على طول الوادي ، جعل جوها على العموم حاراً في اغلب الفصول ، مما سوغ للبعض أن يقول : « الصيف في مكة احد عشر شهراً أما الشتاء فشهر واحد » . ويقسمون الربيع الى ثلاثة فصول : الحمل والثور والجوزاء . والصيف الى ثلاثة أيضاً : السرطان والاسد والسنبلة ، وكذلك الخريف الى ثلاثة فصول : الميزان والعقرب والقوس . والشتاء ايضاً الى ثلاثة فصول : الجدي والدلو والحوت[2] .

وفي فصل الجوزاء وطرف من السرطان يشتد هبوب ريح السموم ، مما يضطر معه السائر في طرقاتها أن يلفع وجهه من شدة الحرارة ، ولكنه هواء صحّي على كل حال .

ومعظم سكان مكة اليوم مجموعات من سائر شعوب العالم الأسلامي ، فهي أشبه بباقة من الزهر ، فيها من كل نوع ولون وردة ، ويتفاضلون ويتمايزون فيما بينهم بالعراقة في الهجرة وايغالها في القدم . فمن كانوا أعرق اقامة ، عدوا

---

(١) هكذا في الأصل .

(٢) وقد نظم بعضهم مفردات هذه الفصول بقوله :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورما عقرب بقوسٍ لجدي نزح الدلو بركة الحيتان

أنفسهم هم أهل مكة ، ونبذوا حديث الهجرة ، ووصفوه بأنه آفاقي ، ويقول شاعرهم في مناسبة حدثت :

وظائف الناس قد صارت مفرقة ما بين عبد ومعتوق وافاقي
وأهل مكة قد غارت نجومهموا فما ترى كوكبا يبدو بأفاقي

وقد لاحظت في الشباب الطالع ، والأجيال الجديدة ، أن من كان في شهرته ما يدل على البلد الذي قدم منه ابوه أو جده ، تجنب ذكره في أي مناسبة تعرض لتوضيح اسمه ، فبدلا من أن يقول : فلان ابن فلان البخاري او الهندي ، يقتصر على اسمه واسم ابيه فقط ؛ وهذا دليل على تأثير البيئة المكية على سكانها ؛ واعتزازهم بها وانصهارهم فيها ؛ وقديما قيل « من ولد في بلدة فهو منها » . على أن كثيراً من مهاجري الأقطار إلى مكة ، ينتسب بعضهم إلى أصول عربية ، هاجر أجدادهم ، ثم عاد الأحفاد أو أحفاد الأحفاد ، فكثيراً ما نسمع ممن قطنوا مكة ، فلان الصديقي ، وفلان الفاروقي ، وفلان العمري ، وفلان الجعفري ، نسبة الى جعفر الطيار ، أو فلان الحسني او الحسيني . . . . ولا يبعد ذلك عن الحقيقة والواقع ، فانني أعرف عدداً من أشراف مكة ، وهم من العرب في الصميم والذروة ، منهم من هاجر إلى الهند أو إلى تركيا ، واستعجم أولادهم ، فلا يكادون ينطقون كلمة صحيحة بالعربية ؛ أو يجهلونها تماما ، فيظنهم الظان انهم ليسوا عربا . على ان الاسلام قد طرح التعصب للقومية ، وأبقى على ما هو الحسن منها ، فالناس من آدم وآدم من تراب و« وسلمان منّا آل البيت » كما جاء في الحديث ، والمسلمون لا يتفاضلون فيما بينهم إلاّ بالتقوى والعمل الصالح . ومكة بلد سواء العاكف فيها والباد ، وحسبها قول الله تعالى : « ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب اليم » .

ولم يجر احصاء او تعداد لسكانها حتى الآن وفي ظني انهم الآن لا يتجاوزون الثلاثمائة ألف ، وقد يزيدون ، فالظن يخطىء ويصيب ؛ أما في موسم الحج ، فإن مكة تكتظ بالسكان ، وتحس وكأنها معرض من معارض صنوف البشر من

المسلمين ، وعندئذ حدث عن تعداد سكانها ولا حرج[1] .

ولا يفوتني ان أنوه أن مكة لا تخلو من بعض الأسر من القبائل الضاربة حولها ، والقريبة منازلهم منها ، كقبيلة حرب وهذيل وعتيبة ؛ وغالب هذه الأسر تسكن أطراف البلد ؛ فقبيلة حرب يسكن من يسكن منهم مكة محلة جرول ، وهذيل محلة المسفلة ، وعتيبة محلة المعابدة .

---

(١) ذلك استجابة لدعوة سيدنا ابراهيم فيما حكاه عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : « ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

بيوت مكة وحاراتها

كانت بيوت مكة في اول القرن الرابع عشر الهجري وما قبل ذلك تبنى بالحجر والنورة ، ويعرف الحجر الذي تبنى به بالحجر الشبيكي ، أسود اللون تعتريه نقط بيضاء ضئيلة وهو حجر صامد للغاية . وجلها لا يتجاوز ارتفاعه ثلاث طبقات ، وقد يكون منها ذو الأربع والخمس طباق ، ومعظم البيوت الضخمة كانت حول المسجد الحرام وعلى مقربة منه .

وكانوا في القديم يتغالون في إعلاء عقود ابوابها ، حتى يتجاوز العقد الطبقة الأولى وتحاذي سقفها . ولها «رواشين» صغيرة نوعا ما ، لا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص جلوساً ؛ وعلى جانبي الروشن طاقة ، وكانت الرواشين والطبق، وكذلك الأبواب ، تجلب غالبا من الهند ، وتكون مخرمة على شكل نقوش وازهار تعطيها شيئاً من الزخرف والجمال ، وهي مسقوفة في الغالب بأعواد شجر الدوم ، وسقوف بيوت اثرياء الأهالي ووجهائها معتنى بها بصفائح على شكل طراز حول السقف من خشب الدوم ايضاً ، محلى بنقوش وزخارف مكتوب في بعضها أبيات من قصيدة البردة للأبو صيري ، أو أبيات في مدح صاحب البيت ، أو وصف البيت والاشادة به . وقد رأيت في بعضها مكتوب هذين البيتين :

قسماً بمن رفع السماء بغير طي   واختار خير الخلق من آل لؤي

ما شدتها طمع الخلود وانما هي زينة الدنيا لحي بعد حي

وفي بعضها على بابه :

« يا نعمة الله حلّ في منازلنا وجاورينا رعاك الله من جار »

وتختص الطبقة « الأرضية » بمجالس للرجال واستقبال الضيوف ، يسمونها « ديوان » ، وهي عبارة عن حجرة واسعة الفتحة ، بعقد من الحجر ، امامها ردهة مكشوفة ، وبعض عقود الايوانات تقام من حجر مستخرج من قرية الشميسي « الحديبية » يسمونه (قاحوط) ، احمر اللون ، تخالطه صفرة ؛ لين في النحت عن الحجر الشبيكي الأسود . او مجلس مسقوف بدون ردهة مكشوفة يسمونه مقعدا . وكانت السقوف بعد أن تُصَّفُ الأعواد يعمل لها شبكة من جريد النخل ، توضع على الأعواد ، ويوضع فوقها الحصير ، ثم توضع على الحصير كمية من نبات الأذخر[1] ، ثم يخلط التراب المبلول بمقدار من النورة لتصلب إذا جف ، ثم يكبس السطح بالخليط المذكور .

ولما تواجد الخشب ، كما سيأتي بيانه ، صار الخشب يوضع بدلا من الجريد او الحصير . وأولو السعة يبلطون السقف بعد ذلك بعملية يقال عنها (طبطاب)[2] .

ولما كانت الحاجة ماسة للنوم في الأسطحة لشدة الحر ، فغالبا ما تحاط السطوح بجدار من الأجر يشتمل على شبابيك مخرمة ، بوضع الأجر مخالفة

---

(١) استعمال المكيين للأذخر في سقوف بيوتهم قديما من عهد الجاهلية فقد جاء في الحديث عند فتح مكة قوله صلى الله عليه من حديث طويل . . . «لا يعضد شوكها ولا يختلي خلاء . . . » فقال العباس : « الا الاذخر » فقال فقال عليه السلام : « الا الأذخر » .

(٢) وكيفية عمل الطبطاب هو ان يخلط الحصحاص بالنورة والبطحاء ويفرش ثم يدق بالمطارق ويسمونها « قزم » إلى أن يتماسك ، ثم يملس بآلة مخصوصة ويسوي سطحه تسوية معتدلة إذا كان في الغرف أما إذا كان في السطوح فيكون مع ميل لجهة الميزاب لتسرب ما يتجمع من ماء المطر او اثناء غسل السطح وتسمى هذه العملية : « طبطاب » . أما اذا كان في جدار فانه يقتصر على البطحاء والنورة وتليس ثم يستمر في ذلك عدة مرات ويسمونه «بفريه» .

لتحصل الفجوات ويُحلّى الأجر الذي يصنع منه الشباك بألوان مختلفة ، كالأحمر والأزرق والاصفر والاخضر فيكون لها منظر بهيج .

ويكون في قسم من السطوح غرفة مسقوفة تسمى المبيت وتحفظ فيها أفرشة النوم نهاراً ، ومن كان يعتاد تأجير قسم من داره في زمن الحج فيؤجر الطبقات السفلى ، ويستقل هو واسرته في الاقامة في المبيت او المبيتات ان تعددت مدة بقاء الحجاج في الدار .

وقد كانوا لعدم وجود « الكوالين » والأقفال المعروفة اليوم ، يستعملون آلة خشبية من صنع النجار ، تسمى « ضبه » على شكل صليب ؛ القطعة الافقية منها مجوفة ، والقطعة القائمة عاموديا مركبة في اعلاها قطعة خشبية متحركة يسميها النجارون « لقم » مخرقة ، فاذا دفعت القطعة الافقية ، وسامت، موضع اللقمة من القائم ، ووصل طرف القطعة الخشبية الافقية الى قفيز من الحديد مثبت في الدرفة الأخرى من الباب ، سقطت اللقمة في التجويف ، وبذلك ينغلق الباب ؛ فاذا اريد فتحه توجد قطعة من الخشب ايضاً تسمى مفتاح ، في رأسها مسامير بارزة على وضع أخراق اللقمة ، فيدخل المفتاح في تجويف القطعة الافقية الى ان يسامت موضع اللقمة ، فتدخل المسامير المهيئة على حبسها في اخراق اللقمة ، وترفع إلى الحد الذي يمكن معه سحب القطعة الافقية ، وبذلك ينفتح الباب .

أما من اوائل القرن الرابع عشر فقد تغير شكل البناء ، وذلك لأنه من اوائل القرن بدأ عصر البخار يتضح ، واخذت المراكب التي تسير في البحر بالشرع تسير بالبخار ، واصبح النقل سريعا وسهلا ، فجلبت الى مكة انواع الأخشاب ، كخشب يُسمى « الغني » ، تعمل منه الرواشين والطيق والأبواب ، كان يجلب من الملايا ؛ وأعواد أخشاب سميت « القندل » تجلب من سواحل افريقيا الشرقية . وصارت الرواشن والأبواب ، تصنع محليا ، وما زج شكل البيوت الهندسة التركية ، وأصبح الروشن ، بعد ان كان صغيراً في وسط جدار الغرفة ، صار يصنع روشن كبير بقدر سعة الحجرة ، فيه فتحات تنفتح بتحريك جريدة عامودية ، تنظم سائر

جريد الفتحة المنتصب افقيا . فإذا ما حركت الجريدة العامودية انفرج ما بين الجريدة والجريدة الافقية ، فدخل منها النور والهواء ، ويسمون الفتحة « قلاب » ، واستغنى بهذا القلاب عما كان يوضع قديماً على الطيق والفتحات من ستائر تصنع من اعواد جريد النخل رفيعة يسمونها كبيرية .

وفي الأغلب الأعم تختص كل أسرة بدار تسكنها ، ويسمون الدار « عزلة » ، ولا تشترك الأسر في سكن دار واحدة إلا في النادر النادر ، وقد دام طراز البيوت ، على ما وضعت مؤخراً ، إلى عهد قريب، حين عرف البناء بطوب الأسمنت ، وكانت أول دار أنشئت بطوب الأسمنت أنشئت في جانب من قصر الحكم ، في عهد الأشراف بالغزة ، أنشأها الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية الأسبق في العهد السعودي ، نحت قسماً منها في توسعة الشارع ،ولا زال قسم منها باقٍ الى الآن .

وقال لي بعضهم إن الذي سبق بناء الدار المشار اليها ، وبنى بالأسمنت الدار التي بجياد ، وعرفت بأوتيل مصر .

ولما أخذ البناء بالأسمنت ينتشر أخذت « الرواشين » تختفي وتحل محلها « البلكونات » و« البرندات » وأخذت البيوت والعمارات تتعالى الى عشر طبقات وأكثر ، وفسحت الطبقة إلى شقق ، وألف أغلب الناس سكن الشقق ، واشتركت عدة من اسر متباعدة القرابة في إشغال عمارة واحدة ، أو بيت واحد ، وقلّت الحاجة إلى السطوح لتوفر أسباب التهوئة الصناعية بالمراوح الكهربائية والمكيفات على ما هو مألوف في خارج الحجاز ، ومشاهد به الآن .

وكان جل شوارع مكة ، خصوصا في الحواري ، متعرجة وغير متساوية في السعة ، فترى الزقاق أو الشارع يضيق أحياناً ويتسع احيانا ، فان البناء لم يكن مراقبا كما ينبغي ، بل يبني كل انسان حسبما يريد دون مراعاة لما يجب ان تكون عليه الشوارع ، ولا سيما العامة ، من استقامة وسعة . وكلها كانت متربة ، فإذا هطلت الأمطار ولم تكن جارفة ، عمَّ الوحل سائر البلدة ، وأصبحت كانها مستنقع

من الوحل ، إذا خرج المُضَّطر إلى السوق ، لا يعود الى بيته الا مطيّنٌ الثياب ، فالتوقي يصبح في غاية الصعوبة ، والمكيون يسمون الوحل « رجغاً » ، فتسمعهم يقولون « السوق اليوم مرجغ من المطر » .

ولما بُدىء في الأزمنة الأخيرة بتوسعة المسجد الحرام ؛ جر مشروعه إلى إيجاد شوارع مستقيمة نوعا ما ، وجرى سلفتة كل ما حول المسجد وما تفرع من شوارع .

وبسلفتة الشوارع خف توحل البلد من المطر سيما في الشوارع العامة .

وكانت العناية بنظافة البلدة غير كافية ولا واقية ، رغم تأسس البلدية في عام ١٣٢٦ هـ ، عندما أعلن الدستور العثماني ، وكان أول رئيس للبلدية المرحوم الشيخ عبد القادر الشيبي ، جعل مقرها فيما كان يسمى « كركون الصفا » وقد زال في مشروع التوسعة .

على أن وجود المسجد الحرام في قلب البلدة من العوائق التي عسرًت استقامة كثير مما جد من شوارع واسعة مسلفتة ، لأن الوادي محفوف بسفوح الجبال المحيطة به ؛

وكانت مكة تنقسم الى اثنتي عشرة محلة أو حارة كما هو متعارف ، وذلك الى نهاية عهد الأشراف، وما بعدهم بقليل ، وهي : جرول ـ المسفلة ـ حارة الباب ـ الشبيكة ـ الشاميّة ـ القرارة ـ النقا والسليمانية ـ أجياد أو جياد كما هو متعارف اليوم ـ القشاشية ـ سوق الليل والسفرة ـ شعب عامر ـ المعابدة .

ولكل حارة حدود ومعالم متواطى عليها ، كانت تحمى من أهل الحارة بتقاليد وأعراف ، فاذا حصل من أهل حارة مجاورة خرق لشيء من هذه التقاليد في مناسبة من المناسبات ، وقع شجار ثم قتال بين فتوة المحلتين ، يسميه المكيون « هوشة » فنسمع : « اليوم صارت هوشة »«بين الشبيكة والشامية » مثلا ؛ فإذا حصل شيء من هذا ، يتدخل وجهاء الحارتين وشيخهما ، ويكون القتال قد انفضّ عما انفضّ عنه من مجروحين ، وقد يكونون حتى مقتولين ، وتبدأ

مفاوضات بين الجانبين ، قد يشترك فيها مشايخ واعيان حارات اخرى مجاورة ، وينتهي ذلك بمعرفة المحق من المبطل ، ومن هو البادي بالشر والتعدّي ، فتُقَدّر للمجروحين جراحهم وللمقتول دية مسلمة لأهله ، ووليمة تسمى « يوم سلطاني » او منسفه » ترضية لأهل الحارة المعتدى عليها ، ويقوم أهل كل محلة بما لزمهم ، ويسمون ما يجمعونه لذلك « فرقة » يجمعها شيخ الحارة او نقيبه « وينحشم الشر» على حد تعبيرهم ، وتعود الحالة الى وضعها الطبيعي كسابق العهد .

والمكيون يطلقون على الفتوة كلمة « مِشْكِلْ » والجمع مشاكله ، ويظهر لي أن ذلك كان أثر عهد القبيلة ، وهي امور وأوضاع دخلت التاريخ منذ انقضاء عهد الأشراف، وتطور الحياة بمكة ، وارتقاء الوعي ، وانتشار العلم من جهة ، وحزم الحكومة الحاضرة من جهة اخرى . واصبح عمل شيخ الحارة ، وقد سمي « عمدة » مقصوراً على معاونة إدارة الأمن العام لما هي بسبيله ، وانصرف فتوة الحارات الى ما هو أجدى وأنفع ، وتكاثرت مطالب الحياة ، فألهت الناس عن كثير مما كان يسببه الفراغ .

قلنا إن موضوع مشروع توسعة الحرم المكي جر الى إنشاء شوارع وميادين قضت بهدم سائر ما كان من دور تلاصق المسجد وغيرها ، وسخت الحكومة في تعويض اهلها ، فاندفع الأهلون المعوضون عن بيوتهم إلى استعواض دور عنها ، فلجأوا إلى أطراف البلدة ، فانتفخت محلة جرول ، وتمددت محلة المعابدة ، ووصل العمران فيها الى مقربة من منى ، ونشأت في الشعاب والوديان القريبة من مكة محال ودور وعمارات، فقد كان حي العتيبية المبتدىء من ريع الحجون والمنتهي بريع الكحل خلاءً لا يمر المرء منه إلاَّ خائفا ، ليس به شيء الى المجزرة على مقربة من ريع الحجون ، فأصبح حياً مستكملا كل لوازم الأحياء ، وقامت فيه ، وفيما تفرع منه من فجاج، الدور والعمارات والدكاكين ، ولا يحتاج ساكنه الى شيء من ضروريات الحياة الا وجده فيها . وتمدد حي المسفلة حتى التهم العمران بركة ما ماجد وبُستانها، بل تجاوزه من الجهة الغربية، وكاد يلتقي العمران ملتفا على جبل

الرشايدة بحي التنضباوي وحي شارع المنصور الذي نشأ حديثا ؛

كما نشأ في حوض البقر حي دعي بحي العزيزية ، باسم مدرسة ثانوية أنشأتها الحكومة الحاضرة هناك . وعمَّ العمران حي الزاهر المعروف بالشهداء ، وقديما بفخ .

وامتد العمران عن طريق مكة ـ جدة ، ونشأ فيه حي الزهراء والنزهة من الجهة الغربية الشمالية ، كما نشأ فيه حي الهنداوية جنوبا ، وشقت فيهما الشوارع المسلفتة ، والميادين ، والمحلات ، وزينت بالنوافير التي تتدفق منها المياه ، بعد أن كان كل ذلك خلاء لا أنيس به ولا مكان . وما قام في هذه الأطراف من مبان أغلبها قصور « فلل »[1] أو دارات ، على حد تعبير استاذنا الكبير الشيخ عبد القدوس الانصاري ، تتكون من طابق أو طابقين ، في الغالب ، محاط كل قصر بحديقة تجمع الوانا من الزهور وبعض أشجار الثمار ، مما جعل القادم من جدة إلى مكة يشهد محلات وشوارع مزدانة بالأشجار ، ولم تكن قبل ذلك الا رمال وأحجار .

---

(١) ڤلل : جمع ڤيلا وهي لفظة اجنبية .

مفروشات البيوت والحجر
وما كان وجد من وسائل الإضاءة

مفروشات البيوت والحجر تختلف باختلاف الاستطاعة والوجد ، فمن كان في سعة من الرزق نصب في حجرة او حجرتين دكاكا من الخشب يقولون عنها « كرويتات » واحده كروتية توضع عليها أولا « طواويل » من الطرف وجرارات من القطن لإلانة الجلسة ، تسبل على الدكاك ستائر من مختلف الأقمشة ،وتُحلّى الستائر المذكورة بزخرفة من صنع القطان ؛ يقولون عن الستار (سجاني) واحدها سجنية ، ثم يضعون على اللبانات القطنية غطاءاً من الحرير أو القطن الناعم ويسمونه « بتيس » ، محلاة أطرافه « بالدنتله » ، ويضعون بين جلسة الشخص والشخص مخدتين على بعض رصا على الدكاك ، ويحيطون جدار الدكاك بمساند من الطرف ملبسة من نفس قماش الستائر الآنفة الذكر ، وتغطي المساند الى النصف بغطاء من جنس الطوالات ، وبعضهم يضع الطوالات مباشرة على الأرض بدون دكاك ، وهذا هو الأكثر ، لأنهم يعتادون الجلوس على الأرض في كثير من الأحيان ، ومما كان يستعمل غطاء للطوالات حنابل من الصوف ، يسمونها حنابل مقصص ، من مصنوعات تركيا ، تستعمل أحيانا غطاء للشقادف أثناء السفر الى المدينة او الحج .

اما اراضي الحجر ، ففي بيوت الأثرياء والوجهاء والأعيان يفرشونها بالبسط الايرانية الصوفية ، بل وكثير من متوسطي الحال يفرشون الحجر بها على اختلاف

في الجودة ؛ والفقراء ، ومن هم دون الوسط ، فيفرشون غرفهم بحنابل من القطن مخططة بالأسود والأحمر والأزرق تجلب من الهند ، او ببسط يسمونها شمال ، تصنع في جبال سراة الحجاز ، او في بيشة وأبيدة والطائف ، تصنعها نساء البادية بأيديهن ، كل ذلك لا زال متعارفا استعماله الى الآن وان مازجه الكثير من مصنوعات اوربا . كما اخذ يمازج ذلك أنواع الفرش الأوربية ، وهي عبارة عن أرائك مصنوعة على مختلف الأوضاع والأشكال ، يسمونها « كنب » و« كلاطك » ، على صفة مجموعات « طقوم » كنبة أو كنبتين وعدد من الكراسي ذات المساند والمتكاءات، مُلبّس كل ذلك بمختلف انواع الأقمشة والوانها ، ولا حاجة إلى الإسهاب والتعريف بها فهي مشاهدة ومعروفة اليوم . على أن لأهل مكة ولعاً بتزين منازلهم وتأثيثها وتجميلها بأقصى ما يستطيع الفرد منهم ، خصوصا غرف استقبال الضيوف والزوار .

« الإضاءة »

كانت الإضاءة قبل القرن الرابع عشر الهجري بمكة ، سواء في البيوت او المسجد لا تعرف إلا بالمسارج، والقناديل بالزيت ، والشموع ، ولم تكن إضاءة الشوارع معروفة اللّهم إلاّ على بعض أبواب دور الوجهاء والأعيان ، وكان على القمر مهمة إنارة الشوارع .

واول ما عرفت الأضاءة بالبترول : الغاز او « الكاز » على لهجة المكيين ، في عهد الأمير عبد الله باشا ابن محمد بن عون ، وضعت اول مسرجة « لمبة » على ما أخبرني والدي رحمه الله . كانت من اللمبات الزجاج المعروفة « بنمرة اربعة » في دهليز بيت الإمارة ، أخذ الناس يتقاطرون على مشاهدة هذا الضوء الوهاج الذي لم يكن لهم به عهد ، ومنذ ذلك التاريخ اخذت الإضاءة بالغاز تنتشر ، وأخذ السماكرة يبدعون في اشكال الفوانيس التي توضع في جوفها اللمبات ، وتحليتها بنقوش وأنواع من الزجاج الملون على شكل طراز في اعلى الفانوس . والفوانيس الممتازة تصنع عادة ،وفي الغالب ، مسدسة الأضلاع لزيادة انتشار الضوء ، في

وسطها إصبع مفرغ ، تغرس فيه اللمبة بزجاجتها، وصنعت للفوانيس الكراسي المحلاة بأصبغة من اللك المكوّر تُغشى به قطع الكرسي اثناء خرطه ، ويسمونه كرسي ملكك .

كما أخذت تتوارد لمبات سميت كشافات ، بعضها للتعليق ، وبعضها للوضع على الكراسي الخاصة ، وهي عبارة عن لمبة ذات فتيل مدور أقوى إضاءة وتوهجا . اما ما يتعلق منها فله صينية من الصفيح المدهون تعكس الضوء الى أسفل ، محلاة أطراف الصينية بأفريز مزخرف تتدلى منه شرابات من البلور الكريستال ، معروف شكلها ، ولأنها تستعمل في تحلية النجف المتداول استعمالها الآن . والكشافات كانت تقوم مقام النجف الآن ، وهي على اشكال يختلف أثمانها بحسب كبرها وزخرفتها .

ثم تواردت مسارج سميت « قمريات » ، لا حاجة معها ، إلى ما يوضع على أعلى المسرجة من زجاج لامتصاص الدخان ، بل هي مزودة بآلة تملأ كما تملأ الساعة ، تدير مروحة صغيرة في جوفها تطرد الدخان . وجاء بعدها ما يسمى «بالأتاريك » ذات فتيل مخصوص ، وتركيب مخصوص منها ما يعلق ، ومنها ما يوضع على كرسي ، له ضوء أبيض يضاهي ضوء الكهرباء ، تمتاز في تركيبها بأنه يخالط الغاز ، بدفعه بقدر ضئيل إلى ثقب في قطعة من النحاس الصلب ، يدفع الهواء الغاز من الثقب الى جوف الفتيلة بعد ان تشعل بالإسبيرتو « الكحول» ، تظل بعدها مضيئة إلى أن ينتهي الغاز أو يضعف ضغط الهواء المخالط للغاز .

ولا زال لذلك بقايا الى الآن ، يستعملها من لم تسعفه ظروفه ، بإدخال الكهرباء الى بيته ، أو في أطراف البلدة ، وفي بعض المنعطفات من الشوارع التي لم يمتد إليها بعد التيار الكهربائي .

أما المسجد الحرام فقد جُنِّبَ في العهدالعثماني وإلى أواخر عهد الحسين ، الإضاءة بالكهرباء أو الغاز بل ظل يُنار بقناديل الزيت والشموع . فيُنار الحجر وباب الكعبة المشرفة بشمعدان من المعدن المموه بالفضة او من النحاس

الاصفر ، وكانت الشموع ضخمة ، تصنع خصيصا لذلك ، وكان حول المطاف سياج من القناديل المضاءة بها الأوراق ، وكان في الحصاوى أعمدة على شكل نخل مدلى من طرف كل جريدة قنديل اذا أسرج كان منظره ظريفا . ازيلت هذه الاعمدة ، ووضع مكانها أعمدة بمصابيح كهربائية عندما عمم تنوير المسجد بالكهرباء .

على ان الملك الحسين ، في آخر عهده ، كان قد أضاء الحجر بالأتاريك ، وأخيراً جلب آلة صغيرة أُضيء بها المطاف ، وسيأتي بيان عن ذلك عند الكلام على عهده ، وكانت حلقات الدروس التي تقام في المسجد بوضع بجوار المدرس فانوس يحوي شمعتين او ثلاثة ، اما الطلبة فكان يصحب كل واحد منهم مصباحاً يسمونه « لاله » ، وأظنها كلمة تركية ، ذات قاعدة وعامود توضع الشمعة في جوفه على سلك لولبي يدفعها كلما تآكلت ، وفي رأس العمود زجاجة مكورة لأشاعة الضوء . اما الآن وبعد أن أُضيء المسجد كله بالكهرباء أصبح النور متوهجا فيه في كل جانب ولم يعد الطلبة ، او من يأتي المسجد للمذاكرة ، بحاجة ان يصحب معه شيئاً للإضاءة فقد أمسى المسجد شعلة من النور .

ملابس المكيين
وما حصل فيها من تطوّر

تنقسم أوضاع الملابس وأشكالها إلى ثلاثة أوضاع بحسب الطبقات . فأولاد الحارة ، كما يسميهم المكيون ، من الصناع والبنائين والعمال والحماره ، ومن على شاكلتهم ، لباسهم مبسط ثوب أبيض أو أزرق يحتزم الواحد عليه بحزام ، كل على حسب سعته وأغلى الحزم أحازيم تسمى « خرساني » من الصوف كأنها من مصنوعات خرسان ، أو أحازيم من الصوف أيضا يقال لها « كشميري » وتسمى « بقشه » وهي من مصنوعات كشمير بالهند ، مطرزة أطرافها ووسطها بخيوط من الصوف ملونة . وغطاء الرأس « كوفية » من البفت مطرزة بخيوط يلتحم الخيط في الخيط ، حتى اذا نشيت بالنشاء تظل جدارها واقفة متماسكة ، وهي مفروقة ، ولا يزال قسم من الأهالي يستعملها الى الآن ؛ ويعتمُّ الكثير منهم ،سيما في المناسبات ومواسم الاعياد ،بأحاريم مطرزة تسمى « غبانى » كما يلبس بضعهم أثناء المناسبات صديري او ميتان ؛ والفرق بين الصديري والميتان : ان الصديري بلا اكمام ، والميتان يحلى بخيوط مخصوصة حول الرقبة والجيوب وأطراف الأكمام تسمى « قيطان » ويختم البعض بخواتم من الفضة والنعل حذاء من الجلد من صنع اليد بأشكال مختلفة سيأتي وصفها .

وأوساط الناس وطبقة التجار يلبسون الثياب البيض أيضا . في الأغلب ،

إما من البفت ، أو الكتان ، أو اللآس الحريري ، أو مختلف المنسوجات التي عرفت مؤخرا ، وكان من المألوف ، خصوصا في زمن الصيف ، لبس قماش يسمونه « دابزون » شفاف خفيف النسيج لا يحجب ما تحته ، وتحت الثوب سروال طويل الى الكعب ، بخلاف سراويل أولا الحارة ، فإنها الى الر كبة . ويُحلُّون ذيل السروال وأطراف الدكة بخيوط من الحرير الابيض ، وأحيانا الأسود أو الازرق . وكذلك الثات تحلى أطراف أكمامها بأشكال من التطريز يسمى « نسلة جاوى » ، وشكل آخر يسمى « لف » ، وكانوا يلبسون تحت الثوب قميصاً من الشاش الابيض ، ولما عرفت الفنايل مصنوعة جاهزة فشى استعمالها ، ولم يعد يستعمل القميص . وفي المناسبات يلبس فوق الثوب« شابه » من أنواع من الاقمشة بما يناسب الفصول ؛ فإن كان الزمن صيفا كانت الشابه من قماش ، من أنواعه نوع يسمى « الشرخانة » وأن كان الفصل شتاءً كانت الشابه او الصابه من قماش سميك ، من نوع يسمى حلبي مطرز بخيوط من الحرير له نفس لون القماش ، وغالبا ما يكون اللون أبيض أو نباتياً . ويحتزمون فوق الشابه بحزام رهيف صيفا ، وسميك او من صوف يسمى السليمي شتاءً ، معقود فوق السرة بعقدة مخصوصة .

وعندما عرف عمل« الجاكتات » او «الأكوات» وهو كالميتان ، إلاَّ انه آنق في التفصيل المماثل للجسم ، قل استعمال الميتان ، بل واستعمال الشابات ، واقتصر على استعمال الكوت فوق الثوب ومن فوق الجبة . والجبب تكون صيفا من اللاس الحرير ، او من الصوف الرهيف ، أو من الكتان ، أو ما شاكلهم ، من انواع الأقمشة الرهيفة ، وشتاء اما من الجوخ ، أو من قماش يسمى « أتفورى » ، من الصوف ، بالوان مختلفة منها الوردي والاحمر والأزرق والبصلي والبني والأسود ومختلف الألوان .

ومن أنواع الأقمشة التي كان متعارف عمل الجبب منها ، غير ما ذكرت ، قماش يسمى « قرمسود » ذو ألوان مختلفة ، وتموجات براقة ، في علمي انه يجلب من الهند !!

ولباس الرأس كوفية ، هي ما وصفتها عند الكلام على البسة اولاد الحارة ، مع شيء من الجودة . وفي الايام العادية يعتمُّون على الكوفية بأحرام ، إما من الغبانى ، أو أنواع اخرى ، أغلاها أحرام يسمى « سليمى » من الصوف ذي نقوش في الحياكة ، بعض هذا النوع غالي الثمن ، كان ثمن الأحرام من عشرة جنيهات ذهبا الى خمسين جنيها ، ونوع آخر من الأحاريم يسمى « بريمي » من الحرير المطرز بنقوش وألوان مختلفة ، يغلب فيها الأحمر والاسود ، لا يتجاوز قيمة الجيد منها خمس جنيهات . أما في المناسبات والاعياد فتلبس « العمامة الألفى » وهي عبارة عن كوفية من الخيزران ملبس بقماش ، مكون من قطع صغار من قماش القرمسود ، مخيطة في بعضها البعض بالوان مختلفة ، يغلب فيها الأصفر والاسود والبني ، يعصب فوق الكوفية شاش أبيض رهيف بطريقة مخصوصة ، يترك طرف من الشاش قريب من جهة الجبهة بارز كالريشة .

ولباس العلماء ، وخطباء المسجد الحرام ، وأئمته لا يختلف عما وصفت ، إلاَّ أن الجبة واسعة الاكمام عن المألوف ، وتسمى (فرجيه) ، وتمتاز العمامة بأن لفة الشاش لها وضع مخصوص متدرج الطيات ، وبعضهم يترك عذبة من الخلف ، تتجلى هذه الفوارق في المواسم والأعياد والتشريعات الحكومية ، واكبر مظهر للتزين والتجميل يكون في ايام عيد الفطر ؛ أما عيد الاضحى في مكة فليس له مظاهر عيد الفطر ، لأنه يندمج في أيام مناسك الحج .

والحذاء الذي كان يستعمله غالب المكيين ، يصنع من الجلد المدبوغ محليا او مجلوبا من نجد . فما يصنع محلياً ، يصنع من نوع الجلد يسمى « القرف » ، وكان صناع الأحذية مقرهم محلة « الجودرية » وأهم موسم لهم هو عيد الفطر ؛ على أن موسم الحج بمكة موسم تنفق فيه سائر الاشياء . ولصناع الاحذية المحلية تفنين في قنطرة الحذاء ، فنراها مطرزة بالقصب ، الممزوج بالحرير أحياناً ، بتقوس مقبولة في موضعتها ، ومستملحة ، وأثمانها تتفاوت

بحسب المعرفة والجودة في العلم ، وكلما تعدد خرز نعال الحذاء كان ثمنه أغلى . ويقولون « عنده نعال أبو خرزين » ونوع يصنع بلا قنطرة ويقولون مدابي مدني ويختص بلبسه العلماء تقشفا . وقد زاحم صنانعة الأحذية « الكنادر » ، واحدها كندرة، تجلب من الخارج ، ثم صار لها صناع من التركستانيين ، وفي الأونة الأخيرة شاع استعمال الاحذية النجدية ، وهي تختلف في الشكل عما كان يصنع محليا ؛ ثم طم وعم ما دهمت به البلاد من المصنوعات الأجنبية .

وطغت (الشباشب) المعروفة «بزنّوبة » وأصبحت حذاء معظم الطبقة العاملة ،كما استوردت من اليابان وغيرها انواع متعددة ، وأشكال متنوعة ، منها ما يشبه الأحذية النجدية مما لم يعد معه في الجودرية من صناع الأحذية المواطنين سوى بضعة نفر .

قلنا إن استعمال الشابات خف وقامت بدله الجاكتات ، ثم لما بدأ عهد الحكومة الحاضرة أخذ لبس المشالح ينتشر عما سبق ، بل عم استعملها ، وعمَّ معها لبس الغتر على الرأس وعليها عقال أسود يسمى « شطافة » . صار ذلك بدلا من الاعتمام بالأحاريم ، السابق وصفه، لأن هذا اللباس هو الشائع في نجد « والناس على دين ملوكهم » كما يقولون .

على أنني لاحظت في العهود الأخيرة أن الناس بمكة اخذوا يتخففون كثيراً في اللباس . فقد قل استعمال المشالح ، واستعمال الشطافات ، وخصوصا الشباب ، أصبح الواحد منهم يكاد لا يعتاد سوى لبس الثوب والكوفية النجدية ، بل بعضهم يسير حاسر الرأس . . والمحتشم منهم يضع على الكوفية الغترة اما بيضاء أو من نوع الشماغ ، وهي غتر تجلب في الغالب من الشام ، وشائع استعمالها هناك ، مطرزة بخيوط حمراء او زرقاء . غير ان موظفي الحكومة لا زال الكثير منهم متشبث بلبس الشطافة والمشلح .

ما كان يلبس الأطفال في الأعياد

وكان لأهل مكة اهتمام واعتناء تام بتجميل ألبسة أطفالهم في عيد الفطر ، للمباهات وإظهار النعمة ، والسخاء في الصرف ، فقد كانت لي جبة من المخمل الاسود مرصعة في وسط الظهر ، وعلى سحاف الذيل وأطراف الأكمام بكواكب « ازارير من الفضة » مطلى بعضها بالذهب ، ومع هذه الجبة شابه من قماش يسمى (ريزة) ، وهو قماش محاك بالحرير وخيوط الفضة المطلية بالذهب ، وعمامة من الخيزران الملبس بالمخمل الاسود من جنس الجبة ، وفي وسط الرأس قرص من الفضة من صنع محلي مزخرف ، ويلف على العمامة قطعة شاش ابيض ، ثم يلبس ذلك الشاش بلفائف مطرزة بالقصب الذهبي الوهاج ، ويحتزم على الشابه بحزام من المخمل من لون الجبة ما كان من الفضة من صنع محلي .

وكم كنت أنوء بهذا اللباس الثقيل ، وأود لو تخلصت منه ، فما أكاد انتهي مع والدي من صلاة العيد ، ويسمونها (صلاة المشهد) ، وأرجع الى البيت ، حتى اطرحه جانبا . ولكن أين منه المفر ؟ فالوالدة ، رحمها الله ، لا تسيغ لي الخروج لزيارة الأعمام والخالات إلّا بهذا اللباس الثقيل ، هذه التقاليد في لباس الاطفال دخلت في خبر كان ، فقد اقتصر في اللباس على الثوب ،

والكوت من الأقمشة الحريرية ، ومشلح صغير على طوله ، وغترة ، أما سادة بيضاء او محلاة بتطريز من القصب . وبدلا من الشطافة عقال صغير مقصب ، وأراح الله الأطفال من تلك الأثقال عليهم مما لا معنى له ولا اثر سوى إتعاب الطفل وإرضاء الوالدين لعواطفهم نحو أولادهم .

لباس الأشراف

ولا يختلف لباس الأشراف كثيرا عن لباس الأهلين ووجهائهم ، وإنما يمتاز ببعض أشياء او شكل لفة الشاش على العمامة ، فانه يلف على وضع يختلف قليلا عن المألوف بين الأهلين ، ويجعل منه عذبه من الجنب تكاد تلامس الكتف ، وبدلا من الحزام على الشابة ، فإن الواحد منهم يتمنطق عليها بخنجر ، أو قديمي ، كل بحسب قدرته الماديـة . فقد يكون جفير الخنجر او القديمي من الفضة ، او الفضة المموهة بالذهب أو من الذهب الخالص ؛ والفرق بين القديمي والخنجر هو أن جفير القديمي منعكف ذيله الى اعلى ، أما جفير الخنجر فيكاد يكون مستقيماً .

والجبة هي الجبة ، والقماش هو القماش الذي سبق وصفهما ، إلاَّ ان الجبة تقارب جبب العلماء في سعة الأكمام ، هذا في الأعياد والمواسم ، أما في سائر الايام فالصماده وهي شبه الغترة ، إلاَّ أن الغترة تكون من الشاش الابيض او الشماخ السابق وصفهما ، أما الصماده ، فقد تكون من قماش مطرز أطرافه من الأحاريم الغبانى ، وعليها العقال المقصب ، وفي الأغلب يتمنطق بالقديمي على الثوب من غير شابه ، وفوق ذلك المشلح من الصوف الوبـر أو ما شاكله ، إلاَّ انه في العهود الأخيرة اجتنب لبس العقال المقصب ، وأبدل بالشطافة السوداء ، لأن المتعارف في نجد انه ينفرد الإمام او الملك بلبس

العقال المقصب ليعرف ، لأن اللباس الآخر ، فيما عداه ، مشترك بين سائر الناس ، لا يختلفون فيه سوى بالجودة أو الرداءة .

وقد كان لبس المشلح « العباءة » معروفا بين الأشراف في الايام العادية ، ومن الأهلين في اوقات السفر ، ومن اعيان ابناء الحارة في المناسبات ، لكنه في العهود الاخيرة عم استعماله من الجميع .

ملابس النساء كيف كانت وما آلت اليه

كانت النساء يلبسن في بيوتهن الصديري والسروال ، على أن كم الصديري لا يتجاوز المرفق ، ليكُنَّ اكثر حرية في العمل . ويلففن شعر رؤسهن ، المعمول ضفائرا ، بقطعة من القماش يسمونها (محرمة) ، وكذلك البنات يماثلن امهاتهن في لباس البيت : الصديري والسروال المعلومان ، ويقلن عن الصديري « سدرية » .

يتخذ الصديري غالبا من البفت ، ولا يخلو من تحلية في الرقبة وطرفي الكمين ، وقد تكون أزارير الصديري من الفضة ، متصلة بسلسلة تربطها ببعضها البعض ، وقد تكون من الذهب المرصع بالالماس أو الخالص ، يستعملنها عند خروجهن لزيارة الاصدقاء والاقارب . وغالباً ما تكون الأزارير خمسا : إثنان في الرقبة وثلاثة في الصدر .

وأما السروال ، فغالبا ما يكون من قماش يسمى « الشامي » ، وهو عبارة عن قماش محوك بالأنوال ، يأتي غالبا من سوريا ويباع كل قطعة تكفي لعمل سروال ، القطعة مخططة باللونين الأبيض ، والاسود . وقد يكون لـون السروال قاتما ليتحمل اثر الخدمة في البيت ، كالطبخ والكنس وما شاكل ذلك ، واما المحرمة فهي عبارة عن قطعة من قماش الشاش الأبيض مستطيلة ، محلى

طرفاها بتطريز من الحرير الأسود غالبا : ولما كان المتعارف بينهن ، ولم يكن يعتدن غيره ، هو جدل الشعر جديلتين تبرم عليهما المحرمة المذكورة سابقا ، بحيث تظهر التحلية بشكل لولبي ، ثم تربط الجديلتين على الرأس بعد لفهما بالمحرمة ؛ هذا اللباس العادي في البيت .

أما حين الخروج لزيارة الأهل والصديقات فكما يأتي : سروال من الحرير من مصنوعات مصر ، مخطط طولياً على نسق السروال من القماش الشامي ، وغالبا ما يكون أما ابيض اللون ، او نباتي ، او خربزي . والخطوط في كل منها سوداء . وفي رجل السروال حجل من القصب محوك بشكل مخصوص ، يسمى «حجل سنون » . ويكون تحته على القدم خلخال من الفضة او من الذهب مجدول في صنعه ، وتكون تكة السروال عريضة مشغولة أطرافها بنقوش من الحرير الأزرق او الاسود ، أوسع في الزخرفة وأتقن في الصنع ، مما يستعمله داخل البيت .

والصديري يكون من القماش الابيض ، محلى في الرقبة وفي الأكمام بتطريز والحرير من نفس لون قماش الصديري ، والأزارير ما وصفتها سابقا .

ويلبس على الرأس ، فوق المحرمة ، قطعة من القماش محلاة تسمى « شمبر » ، ويلبس فوق ذلك تلفيعة يسمونها «مُدَوَّرَة » . من الشاش الرهيف او الحرير الرهيف ، يقولون (ملس) ، وهي مربعة محلاة أطرافها بشرابات على شكل طيور أو زهور يسمونها (أوبة) ، يُغالى في شكلها وثمنها ؛ فقد يصل ثمن البعض الى بضع جنيهات ذهبية ، ولهن في لبسها طريقة مخصوصة يسمونها (تقريع) .

ثم تلبس السيدة غالبا على ما ذكر ، حلة من قماش يسمونه (درابزون) ، رهيف جداً لا يحجب ما تحته ، وشكله أشبه بثياب الشناقطة ، ليس له ياقة بل مطوق على أسفل الرقبة ، فيه ازرار من الفضة بعروة بارزة .

ثم فوق المدورة يربط البرقع على الرأس من الخلف ، والبرقع عبارة عن قماش من البفت سميك مما يلي الوجه ، ومما يلي العينين منه شقان مستطيلان يفصل بينهما فاصل في محاذاة الانف ، يمتد طرف البرقع الى محاذاة الرجل او ما دونها بقليل ، هذا الطرف مزخرف ومحلى بالتطريز المسمى « نسله جاوى » ، وبالكثير من النقوش التي تكسب منظره جمالا وحلاوة ، ثم فوق ذلك تلبس السيدة الملاءة من الحرير الباذنجاني اللون فيه خط أبيض قاتم ، يرد على ما أظن من إقليم البنغال بالهند . ولكنهم في مكة يقولن عنها (ملاية جاوي) . يأتي قطعاً ، كل قطعة ملاءة ، يحاك على طرفيها بعد ذلك بحـاق يسمى « حبكة » من الحرير النباتي او الأصفر ، وتتدلى من الطرفين شرابتان من لون حرير الحبكة ، لها صناع مخصوصون ، تكون الشرابات في الأطراف التى تحمل باليد من الملاءة ، ثم تعصب السيدة طرف الملاءة التي لا حبكة فيها على الجبين ، بعد أن تكون قد ربطت البرقع على الوجه ، ثم تشبك طرف الملاءة من خلف الرأس « بمشبك » إبرة أو دبوس ، ثم تتلفع بباقي الملاءة ، بحيث تلف جسمها جميعه . وتلبس بعد ذلك في قدمها خفا من الجلد الأصفر اللون ، ثم تدخله في نعل من الجلد الاصفر ايضا ، مبطن بالجوخ الازرق ويطلقون على ذلك « الخف والبابوج » يجلب عادة من استنبول .

أما لباس البنات ، وكثيراً ما يتحلى في الأعياد ، فهو على شاكلة لباس السيدات ، غير ان تحلية البرقع تكون بالقصب الزاهي ويسمونه « تللي » ، ولا تسبله البنت على وجهها ، بل تطرحه الى الخلف لتتجلى فيه التحلية التي به ، ويكون وجهها مكشوفا ،إلاَّ اذا كانت يافعة ، فانها تتلثم بلثام من القماش المطرز بالقصب ، حتى السيدات مع ما يسدلن على وجوههن من البراقع ، فانها تكون ملثمة بلثام يستر الفم ونصف الأنف ، حتى إذا ما اضطرت الى كشف البرقع ، يكون نصف وجهها محجوباً باللثام . ولا يلبس البنات ثياب الدرابزون التي سبق وصفها ، وقد يكون السروال من قماش من الحرير المخلوط بالقصب والمسمى (ربزه) .

وسائر نساء مكة يتحلين بأنواع الحلي من أقراط في الأذن ، ويقولون عنها (أخراص) ؛ إلى أساور من الفضة والذهب ، كل بحسب سعة حاله ، وقد حدث بدل الخلخال حلقة سميت (تورة) ، وهي عبارة عن خلخال مصنوع بطريقةالتضفير كحلقات مشبك بعضها في بعض ، ومن الحلي التي يستعملنها في الحفلات عقود اللؤلؤ ، والقطع المرصعة بالألماس على الصدر ، وفي الرأس والأصابع .

وفي الثلاثينات زاحم اللباس المذكور اعتياد لبس (الفساتين) ، ويقولون عنها « كُرَت » ، تتخذ من مختلف أنواع الأقمشة ، وقل استعمال ثياب « الدرابزون » بل اختفى . كما شاع استعمالهن للملأة التركية ، وهي عبارة عن قسمين : قسم يشبه ما يسمى في هذه الأيام (الكوتلة) ، حده الوسط ويشد عليه ؛ ثم قسم يستوعب الظهر والرأس أشبه بتلفيقة تعصب على الجبين بعد ان يكون قد وُضِعَ على الوجه منديل أسود ، يسمونه (بيشه) باسمه التركي « بيجه » ، رهيف يستر الوجه ولا يحجب النظر . وأبدل الخف والبابوج بالجزمة « كندرة » ، ولكنها لم تكن بكعب عالٍ كما حصل بعد ذلك .

ثم في العهود الاخيرة طغت في ألبستهن الأوضاع الاوربية ، ولم يعد لتضفير الشعر وتربيته قيمة عند كثير منهن ، بل أخذن في قصه وتصفيفه على الطراز الاوروبي المعروف الآن ، ويترك مكشوفا دون أي غطاء . ورغم ان معظم الحجازيات غزيرات شعر الرأس ، فإن بعضهن ، لمحض التقليد ، وإمعانا في الموضة ، يضعن على رؤوسهن عند زيارتهن لصديقاتهن ، أو في الحفلات والمناسبات ، شعراً مستعاراً يسمونه (باروكة) .

ومن تكتفي منهن بشعرها الأصيل تذهب الى الحلاقة ، ويقولون عنها (كوافير) . فقد تواجد من الاجنبيات حلاقات للنساء تصفف لهن الشعر على أوضاع مختلفة .

وهُجِرَ السروال الطويل إلاّ سروالاً لا يحجب سوى العورة الغليظة ،

وأصبحت السيدة في بيتها لا يختلف لباسها عن الطراز الأوربي ، قميص بلا أكمام أو بنصف كم ، وأبدلت الصديري برافع للثديين ، يسمونها« سنتيانة» على أن الكثيرات منهن لا زلـن يلتزمن الاحتشام في ملبسهن .

شجع على ذلك عدة عوامل :

١ ـ مشاهدتهن لمن يُستقدمن من نساء البلاد المجاورة الاسلامية : ممرضات أو معلمات أو لغير ذلك من أسباب .

٢ ـ ما يجلبه التجار من الملابس الجاهزة ويروجون لها بالاعلانات المغرية .

٣ ـ وهو الأكثر تأثيراً ، ما يشاهدنه من أفلام تعرض في التلفزيون .

وكانت الملاءة قد أبدلت بعباءة من الحرير ، واستبدلت البيجة بمنديل خفيف ، ولما كانت الفساتين على الطراز الاوربي ، يقصر عن الساق ، لبسن عليه جوارب من النايلون الخفيف بلون اللحم ، فكأنه لا شيء ، وكأن الساق مكشوفة .

ومن طريف ما اتفق لأبي الرومي قوله :

« وكشفن عن سوق أقمن قيامتي   إن القيامة يوم كشف الساق »

وبناء على عدم ارتياح أولياء الأمر لهذا التطور ، واشمئزاز الكثير من الأهالي لحصوله ، وضجيجهم بالشكوى ، أصدر جلالة الملك الفيصل المعظم ، أعانه الله وأيده بروح منه ، بلاغا يؤنب فيه من استرسل في هذا الوضع الشائن ، ويحذر باتخاذ الإجراءات الرادعة لمثل هذه الحال ، ويدعو إلى المحافظة على تقاليد البلاد ، والوقوف عند حدود الشرع والتعاليم الاسلامية ، ويهيب بالاجانب الذين قضت الضرورة لاحلالهم البلاد ان يراعوا تقاليدها بالاحتشام وعدم التبرج ، حتى لا يكونوا قدوة سيئة .

على أن الحضارة الغربية الاوربية بتقاليدها ، وعجرها وبجرها ، اندفعت على الشرق كالسيل الجارف ، وطغت على كثير من بلدانه بعاداتها وتقاليدها ، وتقليد القوي المتفوق أمر طبيعي في الانسان. فقد جدت في اوربا وأمريكا تقاليع اوضاع جماعة الهيبز ، فسرت عدواهم الى بعض شبان البلاد ، ولكن أفراد هيئة « الأمر بالمعروف » لهم بالمرصاد فاذا ما ظفرت بواحد منهم ساقته للحلاق وأزالت وضره ، ومما يدل على ان الامر محض تقليد لما يشيع في الغرب من « موضات » فإنه في الأيام الاخيرة شاع لبس الفساتين الطويلة، والبنطلونات في النساء ، فاخذ نساء الشرق يقـلدنهن في ذلك ، وكان شر اهون من شر ، وعسى بما هيأت الحكومة من مدارس للبنات وإتجاه التعليم فيها ، في الأكثر ، الى التعليم الديني والثقافة الدينية ، ان يذوب ماران عليهن من عدوى للتقاليد الغربية

« فلا ترجـع الأنفس عن غيها ما لم يكن فيها لهـا زاجر»

وليس معنى هذا الذي سقته ان سائر نساء المكيين كذلك، بل لم تجرؤ منهن على التقليد إلَّا بعض الطبقات ، ممن تيسر لهن الحياة في البلاد العربية المجاورة التي بليت نساؤها بالتقليد الغربي ، والله يهدي من يشاء سواء السبيل .

أطعمة أهل مكّة

جاء في بعض تواريخ من أرَّخ لمكة ان السلطان المملوكي محمد قايتباي المحمودي أحد سلاطين مصر في القرن التاسع الهجري ، حينما حج ، أولم له أمير مكة إذ ذاك ، وليمة ، وكان من جملة الطعام الذي اشتملت عليه المائدة ، طعام استلذه واستطابه . ولما سأل عن اسمه قيل له ان اسمه « كُلْ واشْكُر » غير أن أحداً ممن ذكر الحادث لم يصف ذلك الطعام ، ولم يبين مم يتركب ، وهل هو حلوى كأغلب الظن ام شيء آخر ؟ وهذا ما دعاني كما سيرى القارىء أن ابين كيفية صنع كل طعام ذكرته ، ومم يتكون حتى أصبح فصل الطعام وكأنه فصل في أصول الطهي ، فليعذرني القارىء على ذلك ، لأنني إذا ذكرت ، مثلا ، أن من أطعمة المكيين « المبشور » ، لا يفهم القارىء غير المكي ما هو ، إلَّا إذا ذكرت مم يتركب وكيف يُعمل .

ولما أصبح المكيون خليطا من كثير من الشعوب الاسلامية ، أمسى طعامهم خليطا أيضاً مما تتعاطاه تلك الشعوب .

أما طعام أهل مكة العادي ، فهو الطعام المتعارف في الشرق الأدنى والأوسط ، فالخوان لدى متوسط العائلات ، ويقولون عنه « سفره » ، يتكون في الغداء ، غالباً من صحن من اللحم ، وصحن أو صحنين من الخضار الموجودة

في موسمها ، وصحن من الأرز ، ويطلقون على صحن اللحم (معرَّن) (بتشديد الراء وفتحها وفتح العين) وهو اللحمة بالدمعة في اصطلاح المصريين .

ويستعملون في طعامهم سائر انواع الخضار الثمرية ، والدرنية ، والورقية : كالسلق واللفت والملوخية والرجلة والاسبانخ ، ويقولون عنها (زبالخ) ؛ وأمثال ذلك من الخضار الثمرية : كالكوسة والدباء ونوع مستطيل منهما يسمونها (دبّاء عربي) ، والباذنجان الأسود ، والقوطة ويقولون عنها باذنجان أحمر ، والباميه ، والكرنب ؛ ومن الدرنية : البطاطس ، والجزر الذي يسمونه « جزر يماني » ويقولون عنه في مصر (بطاط حلوة) ، والجزر الأحمر والاسود ويقولون عنه جزر تمري ، وهذا لا يستعملونه مستقلاً بل مضافا إلى غيره او يصنعون منه مربى .

وكانوا إلى عهد غير بعيد يفطرون صباحا فطوراً ثقيلا ، ويجعلون أكلة الغداء قبيل العصر أو بعده بقليل ولا يتناولون مساءً سوى الخفيف من الطعام .

ومن طعامهم في الإفطار : « الفول المدمس » يكثرون عليه السمن ، وبعضهم يضيف إليه كمية من الطحينة ، ويتأنقون فيما يضاف اليه من سلطات وبهارات خصوصا في شهر رمضان على مائدة الافطار .

ولهم في الصباح طعام تقليدي يسمونه (المعصوب) ، وهو عبارة عن أقراص صغار من الحنطة الخالصة ، ويستعملون لذلك نوعاً منها يسمونه الهميس ، يزرع في الطائف وضواحيها ، فاذا نضجت الاقراص في الفرن ، اخرجت وهي حارة ووضعت في ماعون من الخشب يسمى (قدحا) ، ثم يضاف الى الاقراص مقدار من العسل والسمن والموز ، ثم يدق بآلة حادة مخصوصة لذلك حتى يصبح كاللحمة المفرومة ، وبعضهم يضع له بدلا من العسل السكر ، وبدلا من الموز القشطة ، ثم يأكلونه بالملاعق .

ومن الاطعمة التقليدية الخاصة بهم ايضا « المطبّق »، وهو في صنعه عبارة عن الفطير المعروف بمصر . غير أنهم في مصر يعملون العجينة ساذجا ، وإذا

نضجت رش عليها السكر ؛ أما المكيون فيجعلون فيه حشوا من اللحم المفروم ، ومقداراً من الكراث المفروم ، ومقداراً من البيض ، يخلطون ذلك كله بعد فرد العجينة ويطبقونها على الحشو ، ثم يقلونها في صاج من الحديد واسع ، أو يضعون قطعة الفطير في صاج مخصوص صغير ، ويدخلونها الفرن الى أن تنضج مع اضافة السمن اليها في كلا الحالتين ، هذا إذا رغبوا « المطبق » مالحا ؛ اما إذا رغبوه حلواً ، حشوه إما بالموز والسكر أو الجبن الحلو ، وبعضهم يجعل بدل الجبن القشطة ، ولا يبعد ان يكونوا عرفوا « المطبق » عن المصريين ثم طوروه .

ومن الاطعمة التقليدية ايضا « السليق » ، وهو عبارة عن سلق اللحم ثم نشله من المرق ، وطبخ الارز فيه دون اي اضافات اخرى سوى السمن ، عندما يقرب الارز من النضج . وبعضهم يضيف اليه كمية من الحليب ثم يغرف الارز في صوان يسمونها (تباسي) ؛ وأغلب ما يصنعونه ، في القيلات والاجتماعات الخاصة ،بخروف كامل ويسمون الخروف « طلي » والجمع « طليان » على انه اذا اشتهت العائلة أكله صنعوه بمقدار من اللحم، ويختارونه ان يكون من اوائل الطلي : كالاكتاف والرقبة والأذرع وما شاكل .

ومن الاطعمة التقليدية « المبشور » وهو عبارة عن لحم مفروم لكنه متخير مما يلي سلسلة الظهر وأعالي الفخوذ ، ويقولون عنها « خُرصه » وبعد أن ينظفون اللحم من الاعصاب والبشرات الرقيقة المتخللة بين اللحم ، يضيفون اليه مقداراً من شحم البطن ، ويفرمونه بسكاكين حادة وباليدين ، على خشبة مخصوصة ، ويضعون عليه كمية وافرة من الثوم والفلفل الاسود ، ثم يكببونه تكبيباً مدوراً على قدر حبة الليمون «البنزهير» ، ويرصونه في صينية إلى أن يجف قليلا ، ثم ينظمونه في أسياخ من الحديد مخصوصة ، وبعناية خاصة لئلا يتساقط اثناء شويه ، ولزاماً أن يكون فحم نار الشوي دقيق الحجم ، وبعد شيه ، ويكونون قد طبخوا الكمية اللازمة من الارز في مرق العظام التي استخرجوا منها اللحم المفروم ، وبعد وضع الارز في الأطباق ، يرصون عليه حبات الشواء ، وأحيانا يجعلون مقداراً من اللبن الحامض والسمن ، ويضعون معها حبات من الشواء . وبعضهم يصنع من حبات

المبشور محشياً يسمونه « سجق » او « سجك » وهو عبارة عن كمية ضئيلة من اللحم المفروم ، مضافاً اليها بعضاً من الكبود المفرومة ، والارز والبصل ويضعونها بعد الشوي على اطباق الارز مع المبشور .

ومن الأطعمة التقليدية أيضا « مغازلية الكشري » وهي عبارة عن مقدار من الكشري « الماش » بالفارسية ، يحمصونه في السمون ، ثم بعد ان ينتهي التحميص وإضافة ما يُعتاد إضافته من البهارات واللبن الحامض ، يضعون على الكشري كمية من الارز ، ويصبون عليه مرق العظام التي استخلصوا منها اللحم ، وصنعوه مفروماً ، فإذا نضج غرفوه في الأطباق ، ووضعوا على سطحه اللحم المفروم ، بعد ان يكونوا هيأوا عددا من البيض المسلوق ، وحلقوه حلقاً ، ورصعوا به وجه الصحن وقدموه للأكل .

ومن الاطعمة التقليدية ايضا (الندي) ، وهو المعروف قديماً «بالحنيذ» وطريقته أن يذبح الطلي ، ويتخير ان يكون جذعاً ، وبعد إخراج أحشائه ما عدا الكبد والكليتين ، ودهنه بقليل من البهارات مخلوطة باللبن الحامض ، يطرحونه في التنور ، ويقولون عنه (ميفه) . ويكمرونه جيداً مقداراً من الزمن متعارف عليه ، وبعضهم يضع تحت الطلي قِدراً فيها كمية من الأرز ينضج بما يقطر من الكلي من ماء ودهن ، ولذلك طهاة مخصصون . وعلى ذكر « الندي » فإن ما يصنع في الأسواق من رؤ وس الخرفان ، توضع في المبيعة بعد سمطها من الشعر على الطريقة الموصوفة في الندي ، فإذا نضجت تباع لمن يطلب إما في مكان البائع أو تصحب الى البيوت ، ويقولون عن المفرد « رأس الندي» .

ومما هو متعارف صنعه في المآدب والولائم« الكوزي »،وذلك أن يذبح الخروف ويسلخ وتستخرج أحشاؤه ، ثم يكتف بالخيوط الدباره ، ثم يطلى باللبن الحامض المخلوط بالزعفران والبهارات ، ويحمر بعد ذلك في السمن داخل قدر ضيق الفوهة ، فإذا تم تحميره ، تكون قد أعدت كمية من الارز المسلوق ، والبيض المسلوق ، ومقدار الزبيب ، والصنوبر ، أو اللوز المسلوق والمقشر ثم

المحمص في السمن مع قليل من اللحم المفروم ، يدس جميع ذلك في بطن الخروف ويعاد الى القدر ، ويضاف اليه قليل من عصير الطماطم ، ثم تختم فوهة القدر وتخفف النار من تحتها ، ويترك زمنا متعارفا عليه من الطهاة ، إلى أن ينضج فيخرج ويوضع في طبق مخصوص ، بعد أن تفك عنه الخيوط ويقدم للأكل .

قلنا ان المكيين أمسوا خليطا من كثير من الشعوب ، من عدة قرون ، وقد تكاثر أفراد تلك الشعوب في الأزمان المتأخرة ، خصوصا بعد الغارات الاستعمارية على الممالك الاسلامية ، والتي دهمت الكثير من بلدان الشرق ؛ ومن البديهي ان لكل منهم أطعمة شعبية وتقليدية ، شاع استعمالها في مكة . فمثلاً « الهريسة » وهي أكلة حضرمية ، عبارة عن حنطة تبل ، ثم تدق في مدقات مخصوصة خشبية لنفض القشر عن الحب [وهي الطريقة التي يعتاد أهل مكة عمل الحساء بها ، خصوصا في رمضان]. بعد ان تحضر الحنطة كما ذكرنا ، يسلق اللحم سلقا جيدا في قدور ضيقة الفوهة ، ثم تخلط عليه الحنطة المدقوقة ، بعد أن يكون قد نزع كل العظم من اللحم ، ثم يعصر الجميع بمعصرة مخصوصة إلى ان يمتزج اللحم بالحنطة ويصبح مع الحب كتلة واحدة كالعجين ، فتسد فوهة القدر مقداراً من الزمن حتى يكمل نضجه . هذا الطعام أغلب ما يصنع في الاسواق يصنعه بعض أفراد الجالية الحضرمية ؛ ثم عند الاكل يضاف عليه كمية مناسبة من السمن والسكر الناعم ، أو بدون السكر ، فان البعض لا يستسيغ اكله بالسكر .

[والرز البخاري] ، عرف عن جالية بلاد ما وراء النهر ، بخارى وسمرقند وما إليهما . و[الزربيان] محرف عن (برياني) عرف عن الجالية الهندية .

وطريقة عمل « الرز البخاري » هي أن يقطع اللحم قطعا متوسطة الحجم ، ثم تحمر قليلا في سمن يكون قد وضع فيه البصل المفروم بكثرة [كشنه] وحُمْص إلى ان اصفرَّ ، ويضاف عصير الطماطم ، مضافا اليه شيئاً من البهار ، وقليلاً من الكمون والفلفل الاسود ، وبعد ان يقارب اللحم النضج . يكون قد

قطعت كمية من الجزر التمريّ الأصفر شرائح رفيعة ، فتضاف اليه ، ثم يكون الأرز قد غسل وتحضر ، فيوضع فوق الجميع ، ويُترك هنيهة الى ان يكون قد امتصَّ الأرزُ الماءَ ، وقارب الاستواء ، تسحب النار من تحت القدر الا القليل منها ، وتوضع فوق الغطاء ليتم نضج القسم الاعلى من الأرز .

أما « الزربيان » فيختلف عن البخاري بقلة البصل الذي يعمل (كشنه) ، وبدلا من عصير الطماطم ، خليط من اللبن الحامض ، مضاف إليه كمية وافرة من البهارات والزعفران ، توضع كلها على اللحم الذي يكون قد تحمر قليلا في السمن والكشنة ، ثم يضاف الارز بعد سلقه خفيفا الى ما ذكر ، وعند مقاربته للاستواء ، يختم القدر ختماً جيداً ، وتخفف النار من تحته ، وتوضع بعض جمرات على الغطاء ، ويظل كذلك الوقت المقدر لنضجه ثم يغرف للأكل .

على أن البعض يضيف الى الرز البخاري عند تقديمه للأكل كمية من اللوز المقشر المحمر في السمن ، أو الصنوبر مع الزبيب الرازقي عديم البزر ، رشا على الاطباق بعد غرف الارز .

ومن المتعارف في الولائم والبيوت« الرز بحمص » ، وطريقة عمله ان تنقع كمية من الحمص المرشوش ، الخالي من القشر ، مدة في الماء ثم يقطع اللحم قطعا متناسبة ، وبعد تحميره في السمن وإضافة ما يلزم اضافته من البهارات وغالبا هي : القرفة والكمون والفلفل الاسود ، يضاف اليها الحمص الذي كان نقع في الماء كما سبق القول ، ويضاف اليهما القليل من الماء إلى أن يصل الحمص من الاستواء الى درجة ما ، فيوضع فوقه الارز الى أن ينضجا فيقدم للأكل .

وإذا صنع هذا الارز في الولائم ، صنع معه غالباً نوع من الحلوى يسمونها « فني » ، وهو عبارة عن مهلبية متماسكة القوام ، يمكن أكلها بالاصابع لزيادة كمية النشا المعمولة منه بالحليب .

ويوجد في الاسواق كثير من الاطعمة التي لم يكن يعرفها المكيون من

قبل ، فكثيرا ما يصادف المرء مطعماً على الطريقة الاندنوسية ، أو الماليسية ، يرتادها أفراد الجاليتين المذكورتين ، وبعض سكان مكة .

ويصنع القشغريون ، أهل تركستان الشرقية « المنتو »، وهو عبارة عن قطع من العجين تفرد وتقطع قطعا صغيرة ، يوضع في وسطها مقدار من اللحم المفروم المضاف اليه بعض البصل المفروم المشوي ، ثم تجمع اطراف العجين كالصرر ، وتوضع مجموعة من القطع على مصفاة مخصوصة موضوعة على فوهة قدر يغلي بالماء إلى أن تنضج قطع العجينة المذكورة ، وبعد ذلك تعرض للبيع في الاسواق .

ومما يعتاد المكيون صنعه خصوصا في شهر رمضان ، « السمبوسك » ، والصناعة المكية هو ان يفرد العجين فرداً مخصوصا غير رهيف ، ثم يوضع في جوف كل قطعة مقدار من اللحم المفروم الناضج مع مفروم البيض المسلوق وحبات من الصنوبر المحمر ، ويقول عنه المكيون « سن العجوز » ، ثم بعد جمع أطراف العجين رزّاً على شكل نصف دائرة ، اما ان يرص في صينية يدفع بها داخل الفرن بعد رش « السمبوسك » بالسمن ، وتكون قطع العجين في حال عجنها قد مسها شيء من السمن ايضا ، واما ان تقلى القطع في طاجن مليء بالسمن إلى أن تنضج القطعة . وقد عرف عن الجالية الهندية نوع من « السمبوسك » يصنع من عجين مرقوق بأخف من عجين السمبوسك السابق وصفه ، بعد تقطيعه قطعا ، يوضع في وسط كل قطعة مقدار من اللحم المفروم مع البصل بعد طهيه وانضاجه ، ثم تلف قطعة العجين لفا مثلث الزوايا ويقلى في السمن .

وكثيراً ما تصنع بهذه الطريقة في الولائم العامة ويقدم مع « الزربيان » السابق وصفه وذكره ، كما يصنع مع « الرز البخاري » نوع من السمبوسك يسمى « البف » ، وهو عبارة عن عجين تضاف اليه كمية من البيض ، ثم يفرد رهيفا ، ثم يقطع قطعا تحشى باللحم المفروم الناضج على ما سبق وصفه ، وتلف على شكل نصف دائرة او مربعاً ، وتقلى في سمن غزير .

على أن ما يضاف من الحلوى على ما ذكر في الولائم العامة نوع يسمى « طرمبة » ، إن كان المقدم من الرز البخاري . وطريقة عمل الطرمبة هو ان يعجن مقدار من الدقيق الممتاز ، ثم يضاف اليه كمية من البيض بقدر يناسب كمية العجين ، ويعاد عجنه بالبيض مرة ثانية الى ان يمتزج ، تؤخذ قطعة منه وتوضع في آلة مخصوصة معروفة لهذا العمل ، يدفع بقطعة العجين التي فيها بمكبس ، فتخرج قطعة قطعة مشرخة الى طاجن القلي بالسمن مباشرة ، ثم بعد ان تنضج القطع ، التي تكون قد سقطت من الالة (المكبس) في الطاجن ، تنقل وتفرق في مقدار من القطر (شبرة) الى ان تتشبع منها .

واما اذا كان المقدم من الزربيان فتكون الحلوى المقدمة مع « السمبوسك » المثلث هو « المشبك » المعروف في كثير من بلاد الشرق .

ومن الاطعمة المألوفة « هريسة الملوخية » بلحم الضأن او لحم الدجاج . تُخرط الملوخية وتفرم فرماً ناعما وتحمر بالسمن إلى أن تتخلل ويجف ماؤ ها ، يكون اللحم قد سلق إلى أن ينهرا . فتضاف اليه الملوخية وترش بالبهارات ، وقليل من الزعفران ، ثم يضاف السمن الكافي ، ثم يهرس الجميع ، إلى أن يمتزج امتزاجا محكما ، ثم يفرغ في الصحون ، ويكون قد أعدت كمية من الصنوبر المحمص في السمن ، فترش على أوجه الصحون وتقدم للأكل .

ومن الاطعمة التي كانت تصنع في الاسواق « السلات » ، وهو الحظيّ في اصطلاح إخواننا الحضارم ، ويطيب اذا كان من لحم الماعز . يقطع اللحم قطعا صغيرة ، وتكون قطعة من الحجر يسميه المكيون « حجر السلات » رهيف قد وضعت على نار قوية أحمت الحجر بحيث أصبح في حراراتها . فتوضع عليه القطع من اللحم وتقلب ، وكلما استوت كمية منها او كلها قدمت للأكل أولاً بأول .

وقد يصنع ذلك المكيون في البيوت ، ونصنعه « البشك » في القيلات ،

ومما يصنعه المكيون في السوق والبيوت حساء « الكوا رع » ويقول عنها المكيون « مقادم » .

ومن الاطعمة التي تصنع في الاسواق والبيوت « شربة الحب » ، تصنع في الاسواق للطبقة الفقيرة كالعمال وأمثالهم . بعد دق الحنطة الى ان يتقشع عنها القشر ، تكون المعاليق : « السقط » في لهجة المكيين ، وهو مجموعة من الكرشة والفشة « الرئة » والمصران وما إلى ذلك من الكبود والقلوب ، تضاف الى الحنطة المدقوقة بعد غسلها وتنظيفها ، وتوضع على نار قوية الى ان تنضج ، بعد ان يكون قد أضيف الى المجموع البهارات المناسبة : كالقرفة والكمون والفلفل والشيبه وما الى ذلك . تصنعها رباب البيوت خصوصا في رمضان بالكرشة وحدها ، أو بقطع من اللحم ـ

ومما يصنع في الاسواق « الكباب المشوي » أما قطعاً صغيرة ، من اللحم او مفروما على الطريقة المعروفة في مصر وسوريا وتركيا تماماً .

ومما يصنع في الاسواق « الكباب المبرد » ، وأخال أنه عُرف عن إخواننا السنود ، وطريقة عمله ان يفرم لحم الجزور ـ الجمال في الغالب ، ثم تضاف الى اللحم كمية من دقيق الدخن ، ثم يكبب في حجم حبة الليمون «البنزهير» أو أصغر ، ويقلى في الزيت ، وتشتهي بعض العائلات عمله في البيوت فيصنعونه .

ومن الاطعمة الخفيفة التي تلجأ الى صنعها ربات البيوت عند انشغالهم بأشياء أخرى عن الطبخ ، طبخة يسمونها « مرقة الهواء » ، لأنها خالية من اللحم أو أي شيء آخر ؛ وطريقتها ان يكشن البصل في السمن الى ان يحمر ثم يطفى بالماء الصرف ، ويكن الخبز مفتوتاً فيصب عليه هذا المرق ويقدم للأكل .

ومما يصنعه المكيون طعام يسمى « الديبازه » ، وصنعه ان يمرس (قمر الدين) المعروف والمتخذ من ثمار المشمش ، ثم يطبخ على النار الى ان يثخن قوامه ، فيضاف إليه مقدار من الثمر الجاف ، يسميه المكيون « تمر قلادة » لأنه

عند بيعه ينظم في خيوط « قلائد » ويضيفون على ذلك انواع المكسَّرات من اللوز والزبيب الرازقي ، والبندق ، والصنوبر ، والجوز ويسميه المكيون « قعقع » ، ثم يضيفون على الجميع كمية من السمن ويجعلونه على نار هادئة الى ان ينطبخ الجميع . يصنعون ذلك غالبا قبيل أيام عيد الفطر لايام العيد ، فقد كانت في سابق العهود تعطل الاسواق فيها تماماً ، وهذه الطبخة مما لا يعتريها الفساد ، بل تظل أياما على حالها فلم تكن الثلاجات ، والمحافظ الباردة ، معروفة بمكة آنذاك .

ومما يصنعه المكيون في الاسواق « المقلية » وهي « الطعمية » في عرف المصريين ، إلاّ ان ما يصنعه المكيون يختلف عما يصنعه المصريون في المادة والاضافات ، فالمصريون يصنعونها من دقيق الفول ساذجا دون إضافة شيء إليه ، أما المكيّون فيصنعونها من الكشرى ، وهو الماش بالفارسية ، ويضيفون اليه مفروم الكراث ، وقد يرصع بعضهم وجه الحبة عند قليها بالسمسم ، وإذا اشتهت ربات البيوت عملها أضافوا الى العجينة الموصوفة مقداراً من البيض ، والبعض يضيف أيضا كمية من اللحم المفروم قليله .

ومما يصنع في الاسواق وكثيراً ما يشتهي أهل البيت الافطار به فيشترونه « اللقيمات » ، ويقول عنها المصريون وغير المصريين « لقمة القاضي » ولا يصنعونها إلا صباحاً بخلاف ما يصنعه الحلوانية بمصر والشام منها ، فإنهم يصنعونها كأي نوع من الحلوى يتيسر الحصول عليها في اي وقت ، أما بمكة فلا توجد إلا صباحا .

ومما يصنع مع « اللقيمات » شكلاً مفلطحاً من نفس العجينة يسمونها « لَنْقَطَهْ » و«اللقيمات » في مصر والشام تباع محلاة لكن بمكة تباع بدون تحلية ، بل يعطيك البائع « الشيره » في ماعون خاص ان شئت اكلتها بها ، أو مالحة بالجبن .

وعلى ذكر « اللقيمات » فمما يعتاد المكيون عمله خصوصا في أيام العرس

« الزلابية » ، يحتاج من نجمع فيه من الاصدقاء والاقارب إلى إفطار ، فتصنع لهم الزلابية ، وهي نفس عجينة اللقيمات ، لكن تصنع قطعا كبيرة رقيقة عن النقطة مدورة يقدمون معها الشيرة ، والجبن المالح ، وأحياناً السكر الناعم .

ومما يعتاد المكيون الافطار به احياناً « الشعيرية » بعد تحميصها في السمن ، ووضع المقدار الكافي من الماء عليها إلى ان تنضج ، فيصفونها في الاطباق ويرشون عليها السكر الناعم ، وبعضهم يمزجها بالحليب مع إضافة مسحوق « الحب هان » ، ويقول عنه المكيون « هيل » كما يصنعون من الشعيرة حساءً بمرق اللحم .

ومما يفطرون به أحيانا أيضا خصوصا في العائلات ذات الصلة بحجاج المغرب ، أو المقيمين من اهله بمكة « الكسكسو » يأكلونه صباحا بالسكر . « والكسكسو » عبارة عن حبيبات دقيقة من دقيق الحنطة ، لا اعرف كيف يصنعونها ، كذلك يتم نضج طبخها على البخار ، لكن المكيين يضعون كمية من السمن ، ثم يحمصون الحبيبات فيه ، ثم يضعون الماء الكافي لنضجه ، وإلاَّ فإن لدى اخواننا المغاربة قدور مخصوصة لطبخه ، وهي عبارة عن قدر تعلوه مصفاة ، فإذا غلى الماء الموضوع ، وأصعد بخاراً يكون « الكسكسو » موضوعا في المصفاة فينضج عليه .

ومن المآكل التي يفطر عليها المكيون في بعض الايام الشتوية « الفريكة » وهي عبارة عن دقيق البر يعجن ويخبز على الجمر أو بالفرن ، ثم يعرك بالسمن والسكر ، وهي من الاطعمة التقليدية في حفلات الختان ، كما سيجيء ذكر ذلك فيما بعد .

ومما يعتاد المكيون الافطار به « الفطير المطورق » مسقي بالحليب بعد تنقيته وتحلية الحليب ، وطريق عمل « الفطير المطورق » هو أن يُعجن الدقيق ، ثم يفرد ، ثم يعاد عجنه عدة مرات ، فيشكل حجم الفطيرة طبقات .

ومن الأطعمة الشعبية أيضا « رز وعدس » فكثيراً ما يشتهي المكيون اكله يوم

المطر ، والبعض يجمع له خصيصا ماء المطر لأنه اسرع انضاجا للعدس من ماء العين المعتاد لصفائه ونقائه من الأملاح .

وطريقة المكيين في طبخه هو أن تؤخذ كمية من العدس المقشور ، ومثلها من الارز ، وتكون (الكشنه) جاهزة ، فيطرحون عليها الرز والعدس ، ويضيفون عليها الماء الكافي لنضجه ، بعد أن يكونوا قد أضافوا اليه كمية من الكمون والفلفل الاسود ، وكلما كان السمن أوفر كان ألذ وأطعم ، وكثيراً ما يأكلونه في وجبة الغذاء ويستعملون معه مخلل الليمون . وأكل الرز والعدس شائع عند بعض بادية الحجاز القريبين من مكة .

وإخواننا الشوام يأكلون الرز والعدس . إلَّا ان العدس غير مقشور ويسمون طبخته « مجدرة » وكذلك المصريون ويسمونها « كشري » وتختلف طريقة الطبخ عند كل منهم .

وقد كان إلى عهد ليس ببعيد ، وقبل ان تتطور المخابز والافران من العجن بالايدي والخبز على نار الحطب الى العجين بالآلات ، والخبز بالوسائل الحديثة ، يقوم المكيون ، بعجن خبزهم بالدور وإرساله الى الفرن لخبزه ، استنكافا عن تعاطي خبز السوق ، اللهم إلَّا الطبقة الفقيرة ، والعمال ، وغيرهم ، ومن لم تسعفه ظروفه لذلك . لكنهم لايستنكفون من شراء « الكعك » والشابورة » من السوق ، فقد كان لهما مخابز مخصوصة أنظف من مخابز العيش(١) . أما الآن فكلهم ، أو جلهم ، عمادهم في الخبز على ما تنتجه السوق دون استنكاف . فقد تحسن صنعه عن ذي قبل ، واطمأن الى نظافته . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى انعدام الموالي الارقاء ، وشح وجود الخدم ، مما أصبحت معه الاسرة مرهقة بما تقتضيه شؤون المنزل من غير ذلك . ومما يعتاد الحجازيون أكله من أنواع الحلوى ، خصوصا في رمضان ؛ « الكنافة » و«البقلاوة» و « المهلبية » والرز باللبن ، والالماسية والسانورانة . ومما عُرِف عن اخواننا الهندستانيين أنواع

(١) العيش : الخبز .

من الحلوى يصنعونها في الاسواق وهي « اللدو » و « اللبنية » و « المهجمية » و « هريسة اللوز » . وفي ظني ان هريسة اللوز هذه ، وإن كان الذين يصنعونها بمكة من الهنود ، فانها ولدت بمكة وصنعها كالآتي : كمية من مسحوق اللوز ، ومثيلها من مسحوق الحمص ، بعد تحضير ذلك ، يكون قد صنعت الشيرة إلى حد ان يكون لها قوام مطاطي ، يوضع الجميع في طاجن من الحديد ، ويضاف عليها كمية من السمن بحسب كمية مزيج الحمص واللوز ، ثم يوضع الطاجن على نار قوية ، ويؤخذ في تقليبها بآلة ، تستطيع تحريك المجموع ، ومزجه ببعضه البعض تحريكاً مستمراً ، إلى ان يبدو المزيج في حالة تشبه تخمير العجين ،فيدفق في صينية ثم يقسم أقساماً وهو في الصينية،ومن ثم يعرض للبيع.

ومن حلويات مكة التي تباع في الاسواق « الحلاوة الطحينية البلدية » ، وهي رغم منافسة « الحلاوة الشامية » المستوردة من الخارج ، لا زالت تحتفظ بمكانتها ، ولها عشاق كثيرون من الاهالي . وطريقة صنعها كالآتي : يعقد السكر عقداً ذا قوام ، ثم يصب في «تبس» ثم يُعمل حبلا مستطيلاً ويكون في جدر المصنع ، ويسمون مصنع الحلاوة « دولاب » ، وتد مغروس في الجدر ، يوضع عليه حبل السكر المعقود من وسطه في ظهر العامود ، ثم يمط من الطرفين ، ثم تعاد هذه العملية مراراً إلى أن يبيض خيط السكر بياضا ناصعا ، ويكون مسحوق السمسم « الطحينية » معداً في ماعون خاص ، فيعمل حبل السكر على شكل كعكة ، ثم يتقابل شخصان ، كل من طرف ، يفتلان في الكعكة الغاطسة في الطحينة الى ان يمتصها ، وتمتزج بها ، وبعض الحلوانيين، أثناء عقد السكر ، يضيف اليه مسحوق « الحب هان» « الهيل » لتطيب رائحتها ، ثم يجمعون الحبل بعد ذلك على بعضه البعض ، ويسمى ذلكالحلوانية « سفحة الحلاوة » يبعثون بها إلى عملائهم ممن يبيعونها بالمفرق .

قلنا رغم وجود الحلاوة الطحينية الشامية ، بل نشوء مصانع لها بجدة وربما بمكة ايضا ، إلا ان « الحلاوة البلدية » لازالت حافظة لمكانتها ، كما يوجد غير ما

ذكرت من أنواع الحلويات مما يطول وصفه وذكره .

واخيراً ، وليس آخرا ، فقد عرف المكيون طريقة الطهي الاوروبية مما شاع ممارسته في الاقاليم المجاورة ، وأتقن الطهاة والمخابز عملها « فالروستو » « والبوفتيك » « وحساء 'لخضار » وطريقة طهي الخضار وأنواع الحلويات « كالكريم كرملة » « والبودنك » وأشكال الحلويات الاخرى المزخرفة « كالكيك » «والكاتوة» « والطرطه » ، شاع استعمالها خصوصا في الحفلات وليالي الزفاف .

ولا يفوتني ان اذكر ما يصنعه اهالي التركستان من خبز يسمى « التميس » فقد شغف سكان مكة به خصوصا في وجبة الافطار ، وهو عبارة عن عجين فطير يقرص ، ثم ينبش وجه القرص ، ويكون رهيفا نوعا ما ، بآلة مخصوصة ، ثم يلصق في جدار التنور الى ان يستوي ، ويضاف إلى العجين أحياناً ، مقدار من السمن . ولرواج هذا الخبز أخذ بعض المكيين ، ومن جاور بمكة من اليمنيين ، بصنعه بعد أن كان خاص بالتركستانيين « البخارية » .

وعلى ذكر خبز التميس ، فقد كان المكيون يصنعون « العيش باللحم » خصوصا يوم آخر أربعاء في شهر صفر ، ولهم في ذلك أسطورة وعادات سنأتي على ذكرها في فصول قادمة . وطريقة عمل العيش باللحم هو أن يعجن العجين ، وبعضهم يضيف إليه حبات من البيض أو « بي كربونات الصودا » حتى يكون هشاً ، ثم يقرص ويتجوف الوسط وتكون خلطة اللحم المفروم مع الكراث المراق في الطحينة جاهزة ، فَيُملأ القرص ثم يبعث بما صنعوه من ذلك الى الفرن ، وفي يوم آخر أربعاء في صفر تكتظ الافران بهذا الخبز .

ومن المعتاد لدى المكيين أن يتناولوا الطعام جلوساً على الارض ، سواء في الولائم أو في الاوقات العادية في البيوت ، وفي الولائم ينصبون سفرة مستطيلة ، يرصون عليها صحان الطعام ، ويتقابل كل اثنين على طبق ، بما تبعه من حلوى وسنبوسك ، وقد كان بعض الاثرياء في ولائمهم ينصبون موائد لها اسماء ،فمثلا : مائدة يسمونها « الظرافة » لا بد أن تحوي ما لا يقل عن ألف صحن ، من

مختلف انواع الطعام والحلويات . ومائدة يقولون عنها « سماط » تشبه « الظرافة » في كثرة الصحون ، وتمتاز بتزين أطراف المائدة بأبراج من الحلوى للزينة ، مثل ذلك كان اكثر من يفعله الامراء والوجهاء لما في ذلك من البذخ مما لا يطيقه اوساط الناس . على أنه في العهود الأخيرة اخذ الكثير ممن حصل له اتصال بالخارج ، وشهد طريقة الأكل على المنصات ، جلوساً على الكراسي ، يمارس ذلك ، ويطلقون على المنصمة كلمة « ميز » خصوصا فيما يقام للنساء من طعام ليلة الزفاف، كما سيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على عادة المكيين في حفلات الزفاف .

ويعرف المكيون في طعامهم الكثير من أنواع الفواكه ؛ فالعنب والرمان والخوخ والإجاص ، ويسمونه « بخارا » ، وغير ذلك يجلب لمكة من الطائف وما حولها من قرى ، والرطب وما يطلع في المناطق الحارة : كالموز وما شابه يجلب اليها مع الخضار من الوديان والمزارع التي على مقربة من مكة . وفي العهود الاخيرة صارت تجلب من الممالك المجاورة ، ولا ننسى البطيخ الأخضر «الحبحب» والأصفر ويسميه المكيون « خربز » يزرع على المطر او السواقي في الاراضي المجاورة لمكة ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على أسباب تعيش المكيين وأصناف الباعة .

ولا يفوتني أن اذكر ما يصنعه المكيون عند عزمهم الحج او زيارة المدينة ، وهو الكعك المعروف عند المصريين ويسمونه « معمول » غير أن المكيين لهم ، به ، في عمله ، عناية . فهم يصنعونه كعكاً كبيراً فارغ الوسط ، ثم يشكون الوسط بزخارف من نفس العجين ، وينقشون وجه الكعك بمناقش مخصوصة ، ويصنعون منه قطعا مختلفة الاحجام كلها منقوشة مزخرفة ، وأغلب ما يحشونه بالتمر . غير أن المكيين يضيفون الى التمر السمسم المحمص ، وبعضهم يجعل الحشو باللوز أو الفستق أو البندق والجوز . كما انهم عند تقديمه للأكل يضيفون إلى سفرته ، أطباقاً مترعة من المكسرات ومن الغريبة .

وفي العهود الاخيرة لم يعد اهل البيوت ، الا القليل منهم ، يعتني بعمله ، لأن المخابز الحديثة اخذت تجهز من نوع القطع الصِغار على طول العام .

الماء بمكة ، والمشروبات

كان قبل عهد « زُبَيْدة » - زوجة الخليفة هارون الرشيد العباسي ، واسمها أمة العزيز ، وزبيدة لقب اطلقه عليها جدها المنصور عندما كان يلاعبهالبضاضة في جسمها - يشرب اهل مكة الماء من أبار حول المسجد ، ومن عيون أخياف في ضواحيها ، لا يخلو جلب الماء منها من مشقة . وكثيراً ما يتعرض الحجيج وأهل مكة لأزمات في الماء خصوصا في فترات حصول اضطرابات فتن في العالم الاسلامي ، وبين ملوكه . وفي الفترة بين انتقال الخلافة من بني امية الى بني العباس ، حصل مثل ذلك ، إلى أن وفق الله السيدة « زبيدة » المشار اليها رحمها الله ، في جلب عين في أعلى « وادي نعمان » اشترتها من أصحابها بقصـد ايصالها الى قلب مكة . فلما وصلوا الى قرب البلدة بين منى ومكة ، اعترضتهم قطعة صخرية في الارض ، في طول خمسين متراً تقريباً ، في عمق مثل ذلك أو ما يقارب ، فرأت الهيئة او الجماعة التي كانت تشرف على العمل ان يكتفي بالحد الذي وصلوا اليه بالمجرى ، وهي البئر التي عرفت بعد ذلك « ببير الجن » والكائنة بين مكة ومنى ، وجعلوها واسعة الفوهة ، وصنعوا لها درجاً ينزل منها من يريد الماء من السابلة ، وبحثوا عن عين أخرى لإدخالها إلى مكة ، فاشتروا « عين حنين » وهي التي عرفت بينالمكيين « بعين الزعفران » وأوصلوها الى اسفل مكة وجعلوا « عين نعمان » خاصة « بعرفة » في زمن الحج ، وبنوا لها في وسط

« عرفة » البرك والصهاريج ليستقي منها الحجاج .

وقد كانت توجد بمكة برك ، منها بركة كانت في الخريق ، بجوار برحة الرشيدي اليوم ، تعرف «ببركة الشامي» أعرفها فارغة ، دفنت على عهد الشريف الحسين بن علي أمير مكة، بعد أن بنى فوقها خزاناً للماء«بازان» يُستقى منه . وكان في الجهة المقابلة في رحبة الحلقة القديمة ، بركة اخرى دفنت منذ عهد بعيد . على أنه كانت إلى عهد قريب بركة بأسفل مكة ، ومحلة المسفلة ، بركة اخرى عرفت « ببركة ماجد » ، وصوابه ماجل ، إذ هي مشرعة لمجرى عين ينبع من شعب عامر والجبال التي تليه ، وكان عليها زرع ونخيل آلت ملكيتها للاشراف العبادلة ، وأخالها وقفاً ، وقد دفنت البركة الكبيرة من زمن قريب وانكمش البستان ، وانعدم منه النخيل ، ولم يعد يزرع فيه الا بعض الخضر والبرسيم ، وبعد ان كان في خارج البلد اصبح لامتداد العمران في وسط الدور والبيوت ، وماء هذه العين دبج رديخ .

ولما كانت مجاري العيون يشق الكثير منها بطن الوديان المعرضة للسيول ، خصوصا مجرى عين زبيدة ، فانه يمر من قلب « وادي نعمان » وهو واد فحل ، تتلاطم وتتجمع اليه مياه كثيرة من الشُعَبْ المتفرعة منه ، وكثيراً ما ينقطع الماء عن عرفة ومكة بسبب خراب وانسداد الجزر التي على المجرى في الوادي المشار اليه ، فيبادر اهل مكة لاصلاحه وتلافيه ، لكن في بعض السنين يكون الخراب جائرا يعز على كفاءتهم إصلاحه ، ويظل سكان مكة ، والحجيج بعرفة ، يعانون من قلة الماء الكثير من الشدة . وأتذكر ان « قطب الدين النهروالي » مؤرخ مكة ذكر أنه لأول عهد مجاورتهم ، حج مع والده فاشتروا قربة ماء تحمل بالاصبع ، بدينار ذهبا ، أو كلام هذا مفاده .

وفي أواخر القرن العاشر ، حصل مثل ذلك ، فرفعوا الامر الى السلطان سليمان القانوني العثماني ابن السلطان ياوز سليم ، اول من استولى على مصر والحرمين من سلاطين آل عثمان سنة ٩٢٢ هـ ، فاخذته الأريحية وأمر على الفور

بالبدء في إصلاح مجاري العين إلى أن يصلوا بها إلى مكة ، وما أن علمت إحدى كريمات السلطان ، واسمها « مهرماة » او « فاطمة » ان الذي جلب هذه العين الى مكة هي السيدة « زبيدة » حتى رغبت الى السلطان ان يكون تعمير العين باسمها ، وعلى حسابها . وبدأ العمل في الاصلاح واستمر طبيعياً الى ان وصلوا الى المكان الذي توقف فيه عمل السيدة « زبيدة » رحمها الله ، واكتشفوا القطعة الصخرية التي اعترضت عملهاوأنهامما يشق اختراقه ، فرفعوا الأمر الى السلطان شارحين له الوضع ، ولما كانت السلطنة في عهده في أوج مجدها ، فقد كانت له عدة فتوحات في اوربا ، وكانت جيوشه تقرع أبواب « فينا » عاصمة الحكومة النمساوية ، عز عليه ان توسم بالعجز دولة ، هذا شأنها في شق مجرى عين لا يزيد طوله عن خمسين متراً ، هكذا يخيل لي ، فأصر على العمل وكلف القائمين عليه بالاستمرار مهما كلف الأمر ، ولما لم يكن معروفا في تفتت الصخر غير الايقاد عليه النار بالخطب ، ثم تكسيره ، فبدأوا يجمعون الاحطاب ويوقدونها على وجه الصخر ، ثم يضربون الذي أوقد عليه النار إلى أنيتفتت ، وهكذا حتى عز وجود الاحطاب ، فصاروا يجلبونها من أماكن نائية وبعيدة عن مكة ، وعن مقر العمل ، ويقال ان حمل الحطب بلغ ثمنه ديناراً ذهباً ، وناهيك بقيمة الدينار في ذلك العصر ، واستمر العمل عدة سنوات ، بل نحو اثنتي عشرة سنة ، حتى تمكنوا من إيصال الماء إلى مكة . ولما كان الحال كما سبق القول ان مجرى العين يشق قلب وادي لقمان ، وهو عرضة دائما للسيول القوية الجارفة ، فكثيراً ما تخرب المجاري وينقطع الماء عن مكة ، واتذكر انني رأيت ، او قرأت رسالة صغيرة ألفها المرحوم السيد عبد الله بن صالح الزواوي ، مفتي الشافعية في عهد الشريف الحسين بن علي ، فقد أسند اليه رئاسة هيئة عين زبيدة في بدء إمارته على مكة ، وإعادته لتشكيل هيئةعين زبيدة التي أنشاها الوالي عثمان نوري كما سيجيء ذكر ذلك.فيما بعد ارخ فيها حوادث العين إلى عام ١٣٢٧ ، يرجع اليها من أراد التوسع في المعرفة .

وباعث تشكيل الهيئة المشار اليها . انه في اوائل القرن الهجري الرابع

عشر ، نقل بعض حجاج الهند أخبار عُسر الحصول على الماء ، وما ينال الحجاج له مشقة ، فمن ذلك وفق الله أحد سراة الهنود من الميمن ، ويدعى عبد الواحد ، ويعرفه المكيون (بوحدانه) ، وفق ولفيف من رفقائه الى جمع مبالغ من المال غير قليلة من مسلمي الهند ، بغرض اصلاح عين زبيدة ، وتيسير وصول الماء الى مكة . جاء ورفاقه ومعهم ما جمعوه من إعانات ، ومن حسن الصدق ان الوالي إذ ذاك بمكة ، من طرف السلطنة ، كان المشير عثمان نوري باشا ، وهو رجل محب للاصلاح فآزر الجماعة ، وشكل هيئة دعيت (كمسيون عين زبيدة) ، أي « هيئة عين زبيدة » وبدأوا بإصلاح مجاري العين اولاً ، ولما تحقق لهم ذلك ، وكان لا يزال لديهم مال وفير . وكانت الموارد اغلبها ذات فتحة او فتحتين مما يقع معه تعثر وطول وقت لانتظار السقاة بعضهم لبعض (بالنوبه) ، اخذوا بمساعدتها في بناء خزانات ذات فوهات متعددة ، وأنشأوا خزانات في الاماكن والمحال التي لم يكن بها خزانات من قبل ، ومن جراء الاصلاح الكامل كان الماء يفيض عن حاجة البلد ، فرأت الهيئة والوالي ان ينشؤا بستانا في «جرول» يكون متنزها للاهالي يُسقى من فائض ماء العين ، وفعلا انشىء البستان ، وسحبت اليه المياه ،وغرست به اشجار الثمار والنخيل وزهور الزينة ، وهذا البستان هو الواقع الآن خلف دار عبد الله السليمان ، ويعرف عند البعض ببستان البلدية ، وليس كذلك ، بل هو والدار التي فيه يعودان لعين زبيدة ، هذا البستان لم يكن له وجود من عهد الشريف عون الى عهد الحسين بن علي ، فإنه لما تأمّر على مكة اعاد البستان وأعاد تشكيل هيئة عن زبيدة. ولزوال البستان وحل الهيئة ، قصة وحماقة من حماقات الشريف عون الرفيق ، التي سيأتي الحديث عنها عند الكلام على الحكم والحكام بمكة .

ولا يفوتني ان اذكر ان ماء « عين زبيدة » و « عين الزعفران » وما ألحق بهما من عين ماء عرفت بعين المعيصم تتجمع كلها في مكان كائن « بالمعابدة » لصيق لدار تعود لآل الشيبي تسمى « التشمه » كان له فتحة كبيرة يشاهد منها الماء يتدفق من أنابيب صغيرة ودقيقة ، يخرج منها الماء الى المجرى المعد لانسيابه إلى داخل البلدة ، وأخال أنها صنعت كذلك لتصفية ومنع تسرب الحصوات ، وقد

اشترى الدار السيد ابراهيم السقاف ، وبنى بها عمارة على احدث طراز عرف في ذلك الوقت ، سكنها جلالة الملك المرحوم عبد العزيز اول مقدمه الحجاز ، ثم اشتراها منه وهي كانت النواة لما يعرف الآن « بقصر المعابدة الملكي » ، فقد كان منزل جلالته عندما يقدم الى الحجاز فيما بعد إلى أن توفي رحمه الله ، على أن الماء بمكة لم يقتصر على هذه العيون ، بل من عهد غير بعيد اشترت الحكومة الحاضرة بعض أوجاب من عين المضيق وسحبتها الى مكة في مجاري العيون المذكورة ، وأخيراً اشترت من سمو الامير عبد الله الفيصل عين ماء المزرعة الشهيرة « بالقشاشية » ، فقد آلت ملكيتها إليه منذ زمن ، وهي بسبيل سحبها الى مكة عن طريق الزاهر وعمرة التنعيم ، وكانت خزانات الماء على وضعين : وضع مقفل فيه صنابير « بزابيز » يؤخذ الماء منها دون سحب بالدلو ، وقسم فتحات عليها أرشية يسحب منها السقاة الماء بالأدلية .

وأهل مكة يطلقون على موارد الماء « بازانات » واحدها بازان ، وسبب ذلك انه في عهد المستنصر العباسي ، حصل خراب في مجاري العين في حدود عام ٧٢٦ هـ ، فكلف الخليفة نائب السلطنة « جوبان » بتعمير ما خرب منها ، وهو بدوره بعث الأمير « بازان » لتعميرها ، وكان جملة ما احدثه بعد ان عمر العين في « وادي نعمان » ، و« عرفة » ان أنشأ على حدود الحرم مورداً للماء ، يرتفق الحجاج منه ، أطلق عليه المكيون كلمة « بازان » ، وسحب الاسم على جميع موارد الماء بمكة .

ولما حصل من ابتهاج وفرح من تعمير الأمير « بازان » للعين ، سماها المكيون « عين بازان[١] » حتى ان الفاسي في « العقد الثمين » عند ذكر العيون بمكة ، سماها « عين بازان » ثم قال : « ويغلب على الظن انها هي عين زبيدة ، لأن انقطاع الماء عن مكة قبل قيام بازان بالتعمير دام سنين طويلة » .

---

(١) تحريف للكلمة التركية جسمه

ومن أراد المزيد من تاريخ العين ، بل العيون بمكة ، وما جرى فيها من تعمير وإصلاح ، فليرجع إلى رسالة «السيد الزواوي» الآنفة الذكر أو إلى « مرآة الحرمين » تأليف المرحوم رفعت باشا ، أمير المحمل المصري لعدة سنوات ، فقد نقل عن « رسالةالزواوي» و« رحلة صادق باشا » ؛ ونوه عن كثير مما شهده من أحجار سجل عليها أسماء بعض من عمر العين من الملوك والأمراء ، وفي طرف قصر السقاف ، والذي اصبح جزءًا من القصر الملكي ، قبة تغطي مجرىً مكشوفاً لعين « زبيدة » يشاهد الماء فيه ، وعلى باب مدخل القبة حجر من الرخام مكتوب فيه أبيات شعرية في مدح السلطان أحمد العثماني ، وشكره على تعمير « عين زبيدة » وإيصال الماء إلى الحرم ، مؤرخة تلك الابيات بعام ١١٢٥ هـ .

ولم يكن الماء يصل الى البيوت كما هو الواقع الآن بعد أن تغير شكل البناء ، وأصبح بالاسمنت المسلح ، بل كان الذي يوصله الى البيت سقّاء ، وفي لغة المكيين (سكّا) والجمع (سكّاية) ، ينقلونه في قِرَب من الجلد كبيرة ، يسع بعضها ما يقرب من ثلاث صفائح ، وبعضها اقل ، كانت تجلب من فلسطين ، وكان لها خرازّون مخصوصون لتهيئتها للعمل ، وكان أغلب السقاة من الموالي الأرقاء المحررين ، ينقلونها حملاً على الظهر ، ويضعون تحتها قطعة من الجلد معلقة في الرقبة يسمونها « فروة » لتقي الثوب من البلل ، ثم شاركهم في المهنة افراد من سكان جبل السراة ، ويطلق عليهم المكيون « الحجز » اي سكان جبال الحجاز ، وطريقتهم حمل صفيحتين ، كل صفيحة معلقة في طرف عود يحمل على الكتف ، ولا زال لكل ذلك بقايا لايصال الماء الى بيوت لم يصل اليها الماء بالأنابيب .

وكان الماء يحفظ في البيوت في أزيار من الفخار ، ثم لما حدث طراز آخر من البيوت ، كما سبق القول ، صارت تقام في داخل الجدار او خارجه خزانات صغيرة ، سماها المكيون « حنفيات » في أسفلها صنبور « بزبوز » لأخذ الماء منها ، وكانوا يبردون الماء في اكواز من الفخار يسمونها « شِراب » واحدتها «شَرْبَة» يقال عنها في مصر « قلة » أوْ « أُلّه » على اللهجة المصرية . يعتني صانعوالفخار

بزخرفتها بقطع صغيرة من الطين قبل إدخالها المحرقة « الكوشة » .

وكان المكيون يطيبون ماء الشرب بدخان نوع من الخشب يسمونه « قَفَلْ » ، وله محرقـة مخصوصة « مبخرة » بعد وضع قطع خشب « القفل » في « المبخرة » ، لها فوهة توضع عليها « الشربه » الى ان تتشبع بالدخان ، فتنتقل بسرعة من عن «المبخرة » وتملأ بالماء ، وتغطى ، يستطيبون بعد ذلك ريح الماء وطعمه ، ويزعمون ان دخان القفل يطهر الماء من الجراثيم المضرة . طريقة تطيب الماء بالقفل أظنها انقطعت ، ولم يعد يفعله احد ، أما تطيبه بماء الورد ، فالزهر ، والكادي ، فلا زال متعاطى من الكثيرين إلى الآن .

السقاة الذين ذكرتهم قلَّ عددهم بسبب ما جد من عمائر حديثة ، كما سبق القول بذلك ، فقد صار يعمل في أسفل كل عمارة خزان للماء ، يسحب منه الماء بآلة رافعة« موتور » الى خزان بأعلى العمارة ،ومنه يتوزع على الشقق المحتوية عليها العمارة ولم تعد حاجة إلى الأزيار والحنفيات إلاَّ في البيوت التي لم تصلها الأنابيب .

أما وقد انتهينا من ذكر الماء ومتعلقاته بمكة ، فلنذكر ما كان يتعاطاه المكيون من مشروبات ، ما قل منها وما زاد عليها .

المشروبات

لم يكن يعرف المكيون من المشروبات ، أو (الشربات) ، سوى ما كان يصنع بصفة خاصة في البيوت ، مثل شراب عصير الرمان ، والليمون ، والتوت ، وأمثال ذلك من الفواكه حاشا أيام الحج ، فقد يأتي نفر من الشوام والمصريين فيبيعون في الأسواق عصير الليمون والعرق سوس والخروب ، ينادي البائع منهم عليه وهو محمل فوق ظهره ، أو جنبيه في إناء من الزجاج مزخرف ، يصفق بطاسات من الصفر في يده تصفيقا . يجلب النظر إليه ، ولم أعد أشهد مثل ذلك هذه الايام . المشروب الذي كان يصنع في السوق فهما : « البتيع » و « السوبيا » .

« البتيع » : منقوع الزبيب بعد تبريره بالغلي وإضافة مقدار من السكر اليه ، ثم يضعونه في أزيار صغيرة من الفخار ، ولديهم مواعين من الفخار صغيرة أيضا ، لمن يريد ان يذهب بما يشتريه الى بيته .

وكذلك « السوبيا » : فانهم يصنعونها من منقوع الشعير ، وبعضهم يصنعها من كسر الخبز الجاف ، ويقال انها تصنع من الأرز أيضا ، والمواعين التي يأخذها من يشتري شيئا منهما ، تسمى « برادبات » ، أما اذا أ اد المشتري ان يشربها عند البائع ففي مشارب من الزجاج . وقد قل عملهما في الأسواق ولم تعد تصنع إلّا في

شهر رمضان ، من افراد قلائل ، فقد زوحمت بما جدّودهم البلد من مشروبات أوربية أو امريكية وشغف الناس بها . أمثال « الكوكاكولا » « والببسي كولا » « والفنتا » « والميرندا » و « المشن » وأمثال ذلك إلى آخر القائمة مما لا حصر له ولا عد .

وجدت معاصر بالكهرباء لأنواع الفواكه ، وكذلك جلب التجار أنواعاً من عصير الفواكه « كالنقعة » والجوافة » و« البرتقال » و« الاناناس » ، وما الى ذلك .

ومما عرف المكيون تعاطيه مشروب « القهوة » أي البن المحمص ، ولكنهم كانوا يستعملونه ويتعاطونه على غير الطريقة الرائجة اليوم ، وكان لربات البيوت أدوات خاصة : جبنات من الطين أو الجزوة ، المعبر عنها في مصر بالكنكة ، واكواب « فناجين » صغيرة لكل فنجان طبق خاص به ، وكانون من الصفر يسمونه « بنت المنقل » تجمع هذه الأواني صينية « تبسى » من النحاس الاصفر ، ويطلقون على الجميع « نصية القهوة » ولهن في تنظيفها وتلميعها عناية فائقة لأن هذه النصية يكون مقرها عادة في ركن من أركان غرفة الضيوف . فإذا حضر أحد منهن ، قامت ربة البيت أو احد أفراده بصنع القهوة أمامهن وقدمتها لهن في أكوابها المخصوصة ، واذا كان الضيوف من الرجال فتصنع القهوة في مقر الحريم ، ويقدمها الخادم او رب البيت الى ضيوفه في صينية بقدر ما تتسع لعدد الفناجين والضيوف . هذا الوضع أظنه اندرس في كثير من البيوت ، اللّهم إلاَّ من بعض العجائز ، بقية أوائل القرن ، فالله اعلم . وكثيراً ما يضيفون الى مسحوق البن « حب النخوة » بعد تحميصها ، ويسميها المكيون « نانخة » . أما في المقاهي العمومية ، في البلدة ، واطرافها ، فتقدم القهوة بناً خالصاً مطبوخا في الجرن ، وقل من يطلب إضافة السكر اليها .

أما الطريقة الشائعة الآن ، والمشهود تعاطيها ، فلم تنتشر إلاَّ بعد ان سطعت على البلاد حكومة آل سعود ، فهي طريقة نجدية في صنع القهوة ، وذلك انهم يحمصون البن آنياً في محماص مخصوص ، ويدق على الفور في الهاون ،

ثم يغلونه في دلة كبيرة ، فإذا استوى صفُّوه في دلَّة أصغر ، ثم جمع « المقهوى » جملة من الفناجين في يده اليسرى ، والدلة في يده الاخرى ، ودار على الضيوف يسقيهم منها رشفة رشفة ، فاذا استكفى الشارب هز الفنجان ، وهو في يده ، ومعناه استكفى منها ، على ما يعهده كل احد في هذا العصر .

وكثيرا ما يضاف إلى مغلي البن « الحب هان » « الهيل » و« الزعفران » او « القرنفل » ومن الغريب ان القهوة اول ما شاع استعمالها ، اختلف فيها علماء ذلك العصر ، ووصل الحد باحدهم إلى أن افتى بتحريمها[1] :

قهوة البن حرمت فاحتسوا قهوة العنب[2]

واشربوها وعربدوا والعنوا من هو السبب

أما المشروب الوحيد الذي كان ولا يزال له المقام الأول بين المكيين فهو « الشاي » ، ويقولون عنه « شاهي » وللمرحوم الشيخ عبد الجليل براده المدني بيتان من الشعر يبين ما للشاهي من قيمة عند الحجازيين وهي :

ألَا إنَّما مجالسُ أُنسنا جُنُودٌ لِدَفْعِ الهمِّ سُلطانها الشاهي

وما ثمَّ أمرٌ للسرور بدونه وهل ثم امر للجنود بلا شاهي

وقد كان المكيون في العهود السابقة يعتنون بصنعه ، ولبعض افرادهم شهرة في اتقانه ، وله نصية كنصية القهوة التي مر ذكرها ، تتكون من « السماور » : إما من المعدن الابيض او من النحاس الأصفر ، « والبراد » : إما من الصيني أو من القصدير أو من غير ذلك من المعادن او الخزف ، و« الفناجين » من البلور ، لكل فنجان حلقة يمسك منها يسمونها اذن الفنجان ، وله طبق مخصوص ، وملعقة صغيرة خاصة ، ومنشفة لتغطية البراد بعد إملائه بالماء المغلي ، يكون كل ذلك

---

(١) حصل في مكة عند شيوخ شربها اختلاف بين العلماء فمنهم من افتى بحلها على الأصل في الاشياء ومنهم وصف مجالسها وصف مجالس الخمر فأفتى له بحرمتها منهم العلامة عبد الغني بن ابي بكر المرشدي الحنفي والقاضي نجم الدين بن عبد الوهاب بن يعقوب المالكي وغيرهما مشايعة لخناير بك محتسب مكة المكرمة عام ٩١٧ هـ .

(٢) قهوة العنب : الخمرة .

في صينية مخصوصة على كرسي مزخرف ليقعد بجواره الصانع للشاي ، فإذا غلى الماء في « السماور » وضع المقدار اللائق من الشاي في « البراد » ويسمونها « تلقيمة » فإن كان الشاي أسود اللون وضع قليلاً من الماء ، ثم يدلق منه ، ويملأ بعده « البراد » ويوضع على فوهة « السماور » ، ليطلق لونه ؛ وإذا كان الشاي اخضر اللون مليء « البراد » ، ثم نفخ ما على سطح الماء من زبد وغطى بالمنشفة دون وضعه على فوهة السماور ، وبعد ذلك اما أن يحلى الشاي جملة في البراد ، أو قدم في بالصينية ماعون فيه قطع من السكر ، يأخذ الشارب منها بقدر رغبته ، إلاَّ الشاي الأخضر فإنه غالبا ما يحلى في البراد تحلية معتدلة . وقام الساقي على الجلاس بالصينية فيأخذ كل واحد منها فنجانا ، وهكذا تتكرر العملية إلى أن يكتفي من شربه . ونصابه في العرف فنجانان ، وقد يشرب بعضهم اكثر واكثر ويقول شاعرهم :

نصاب الشاي فنجـانان قـالوا وفي رمضان ليس له نصاب

لأن ليالي رمضان ليالي سمر واجتماعات فيشربونه فيها بكثرة ، هذه هي أتقن طريقة في عمله . أما تعاطيه وشربه طول النهار فحدث ولا حرج ، حيثما وليت وجدت الشاهي ؛ تزور صديقك في بيته فالشاي ، في مكتبه ، الشاي ، في دكانه، الشاي ، وحتى المقاهي داخل البلدة وخارجها اكثر ما تُقدِّم الشاي ، إلا أنه في العهود الاخيرة زوحم فيها بالمشروبات الاوربية المبردة بعد أن تيسر الثلج والثلاجات ، فاصبحت المقاهي تحوي هذا وهذه .

والسموارات تصنع على أشكال ، بعضها أنيق يشوق منظره يصنع من المعدن الأبيض أو النحاس الأصفر ، وأتفن ما يصنع منها يجلب من روسيا ، وأظن ان كلمة سماور روسية . على ان السماكرة بمكة يصنعونها ايضا من الصفيح للطبقة الفقيرة ، فان الذي يجلب من روسيا وعلى ما وصفت قد يصل ثمنه الى بضعة جنيهات .

والشاي المتعارف تعاطيه بمكة أربعة انواع :

الشاي المستعمل الآن ، وهو الأكثر استعمالا ، ويقولون عنه « شاي هندي اسود » و« الشاي الأخضر » وكان يستعمل فيما سبق بكثرة ، إلا انه في الآونة الأخيرة خف تعاطيه عن ذي قبل .

« وشاي أسود » يقول عنه المكيون « شاهي مسكوفي » أخف لونا وأقل مرارة من الشاي الهندي الآنف الذكر ، وله نكهة خاصة .

وشاي يخالط طرف الورقة منه بياض ، يقول عنه المكيون « شاهي ابو ريشة » أو « اسطنبولي » ، كأنه أول ما عرف مجلوبا من هناك ، شديد النبتة ، له نكهة وطعم يميزانه عن الآخرين . وهذان الصنفان « المسكوفي » و« ابو ريشة » انعدم ورودهما أو كاد من بعد الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢ هـ . وللشاعر المكي عبد الواحد الجوهري ، المعروف بالأشرم ، ويكنى بأبي الحسن ، أبيات طريفة يدعو صديقا له ليشاركه في شرب الشاهي وهي :

شـرِّف بحقك مجلسي   يا مفرداً عدم النظير
أن السماور لم يزل   يبدي التحرّق والزفير
والشاي راق شرابه   وكؤسه مُلِئَت سرور
لكنها لغيابكم ..   حبست على أيدي المدير

على أن أنواع الشاي جميعها مصدرها آسيا : الصين والهند وما اليهما من جزر ، كأندنوسيا ، وسيلان ، ويندر او يتعذر انباته في غير آسيا لكن علمت مؤخراً انه اَستنبت في افريقيا .

وللشيخ أحمد، أمين بيت المال وأحد أدباء مكة وطلبة العلم بها في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، منظومة في الشاي ، ذكر فيها ، بعد المقدمة ، أسطورة العثور عليه وكيفية استعماله وتعاطيه وغير ذلك مما يتعلق به ، طبعت منذ زمن ، ومعهامنظومة أخرى من عمله أيضا قلب فيها منظومة الشيخ العمروسي لمتن الآجرُّوميّة في النحو إلى ابيات غزلية ، ومنظومته في الشاي تزيد عن مئة وعشرين بيتاً .

وأخيراً تذكرت بيتين من الشعر للشيخ عبد الجليل برادة غير التي سبق ذكرها وهي :

إذا زار من تهــواه يـومــاً مـودة وبادرت بالشاهي يَطُول جلوسه
وإنْ تَسْقِهِ الشربات يا صاح إنه يقـوم متى دارت عليه كؤسـه

وسأقتبس هنا من منظومته في الشاي بعض ما يسمح به المقام ويقتضيه الموضوع ؛ يقول إنه اول ما ظهر في الصين ثم انتشر منها ، ويقول إن اسمه جاي ، وبعضهم يقول صاي ، واهل المغرب يسمونه « الأتاي » ثم يقول : ثم الشهير عندنا في الالسنة « شاهي » بشين ثم هاء بينه ، ثم يذكر منافعه ومضاره ، ثم يقول في فصل كيفية طبخه وطريقة استعماله :

وإن أردت طبخــه يـا صــاح في الليل إن شئت أو الصباحِ
فخذْ من المـاء القــراح الجيدِ وصبــه فـي السماورِ وأوقـدِ
واغلِهِ غليـا جيـداً على الدلا كما أتى في قول بعض الفضلاَ
لا تغتّـر بصــوتــه إذا غــلا حتى ترى البخار في الجو علا
ونـظف البـراد إن فيــه درنْ وضع من الشاي فيه واغسِلْنْ
واسكب عليه الماء إن كـاغلا ولا تضع : لا سكراً ولا حلا
وغـطِّه وضــع عليــه منشفَـهْ واصبـر عليه سـاعة واستعـرفَـهْ
وإن اخَضــرَّ فــأخــرج زَبَــدَهْ وضــع عليه عنبــراً واعتمــده
فهــو عجيب حسن بــالـعنبر مـع الحليب ، يا أخي فاعتبر

إلى أن يقول في بعض ما يضاف اليه من غير العنبر :

وبعضهم ضــاف لــه نعنــاعــا وبعضهم دوشــا فكن منــاعــا
او فاشربن به إذا ما أعجبك ودع مقـال مـانــع إن منعـك

إلى أن يقول في عدد مجلس شربه ووقت استعمال نوعيه :

فاشرب ومعك خمسة أو ستهْ من شـرطـه وإن تــزد فسبعه

لأن شربه مع القوم الكثيرْ لا لــذة لـه فكن بــذا خبير
والأســود اشــربنــه في البلور مـن الفنــاجين ذوات النــور
وشــربــه ثــلاثــة أو اربعــة وإن تـزد فهـو مضـر فـادفعه
كذلك إجعل شربه قبل الطعام وبعده الأخضر، ذا لـلإنهضام
خصوصا، إن أكلت أكلا مفتخر كالكوزي أو مثل الدجاج المعتبر

وقال قبل ذلك :

وبــدلــه الـسحـلب بــالحـليب أقهــوة اللـوز عــن الـطيـب
وفـي الشتــاء ايضــاً الـعبيلة فـهي فـي الـطبقـة جـميـلة

ويقول في استعمال العنبر معه :

وإن أردت شــربــه بــالعنبــر فــاملأ إنـاء من مائك المغور
وفتت العنبـر فيـه كي يـذوبْ وخذ وضع بملعق بعد الصبوب

الى ان يقول:

وبعضهم يـضعــه فـي البـرادِ وبـعضـهـم يـبـخـر الــزبـادي

وعلى ذكر السحلب وقهوة اللوز والعبيلة في منظومة الشيخ احمد امين فإن أهل مكة يعتادون شرب ذلك خصوصا في ليالي الشتاء وفي البيوت ، والجماعة [البشكة] في سحرهم السحلب بالحليب معلوم ، ويكثر استعماله في سوريا وتركيا ، أما قهوة اللوز وبعضهم يسميها قهوة حلوة ، والعبيلة فاليك كيفية عملهما :

قهوة اللوز بالحليب تؤخذ كمية من النشأ وكمية من الحليب ، وتمزج ثم يحلى بالسكر ، وبعد غليها إلى أن يكون قوامها بين السائل والعبيط ، يكون قد قُشر اللوز وحُمص ودق (هروشة) ، اي غير منعم ، فيضاف إلى المغلي من النشاء والحليب ، ويحرك حتى يمزج مزجا كليا به ، ثم يصب في الأكواب ويدار بها على الجماعة عدة مرات ؛

وصنع العبيلة كمـــا يأتي :

تؤخذ كمية من اللحم الخالي من الدهن أو قليله ، ويغلىٰ إلى أن يتفل [لم يعد فيه ما يستفاد منه]. فيصفى منه المرق ، ويضاف إليه كمية من الحليب ومقدار من الزعفران قليل جداً ، أو بدونه ، ومقدار من الملح ايضاً ، ثم يُغلى مرة ثانية إلى ان يستوي الحليب ، ويصب في الأكواب ويدار به على الجماعة . وبعضهم ، في ليالي الشتاء الشديد ، عندما يجتمعون على السليق السابق وصفه في فصل الطعام . يحتجزون قسماً من لحم الخروف ، ويعملون به العبيلة كما جرى وصفه ويشربونها بعد الأكل ، وبعدها الشاهي الأخضر .

ومما يتعاطاه المكيون في سمرهم الشاي الأخضر مقليا في الحليب مضافا إليه قليلا جداً من الأطرون ومحلى بالسكر ويسمونه « شاهي كابلي » .

الدخان

وقد عرف المكيون الدخان « التبغ » منذ ظهوره في منطقة الشرق الأوسط وتعاطوه ، والدخان لم يعرف إلا بعد اكتشاف أمريكا وكان انتشار استعماله تدريجيا ، وقد أرخ بعضهم لظهوره في الشرق الأوسط ببيتين من الشعر هما :

إن خلي عن الدخان سألني   هل له في كتابنا ايحاءُ
قلت ما فرط الكتاب بشيء   ثم أرّختُ (يوم تأتي السماء)
سنة ٩٩٩

وقد تطور استعماله بين المكيين ، وفشى منذ القرن الحادي عشر ، مع أنه لقي عند ظهوره في كثير من الممالك الاسلامية ، بل والأوروبية ، مقاومة شديدة فإنه لما ظهر في المملكة العثمانية ؛ أصدر السلطان مراد الرابع أوامر مشددة في معاقبة من يتعاطاه ، وصلت الى التهديد بقطع الشفاه ، وفي اوائل القرن الحادي عشر شدد الأمير سرور ، أمير مكة آن ذاك ، على متعاطيه العقاب، وكان شربهم له في غلايين ، ثم لا زال في تطور إلى أن عمّ سائر انحاء الدنيا ، وتطورت وسائل استعماله وتعددت أنواعه بحسب منابته ، وتداول المكيون استعمال سائرها ، كما كثر في أوائل القرن التاسع عشر استعمالهم للتنباك المعروف لديهم « بالكازرون » ، نسبة إلى بلدة في ايران ، ثم خف استعمالهم وحل بدله « الحمى » ، وهو ما تنتجه البلاد اليمانية والحضرمية ،

وفي الآونة الأخيرة فشى في مكة استعمال « الجراك » وهو عبارة عن خليط ، نصفه من التمباك ، ونصفه الآخر من بهارات مخصوصة ، وبعض الفواكه ، وأهمها النبق ، والمنجة « الأمبة » ، والتفاح ، ممزوجا بعد ان يدق الجميع ، ويعجن (بالقطر) ، الذي يعبر عنه المصريون بالعسل الأسود ، وهو سائل عبيط يستخرج من قصب السكر ، ويظل بعد الخلط والمزج زمنا غير قصير ، إلى أن يتخمر بسبب المادة السكرية التي فيه ، وكلما طال تخمره كان أجود . على أن الكثرة الكاثرة من المكيين يستعملون (السجاير) وهو التبغ الملفوف في الورق الرهيف مجلوبا من سائر أنحاء العالم .

ومنظر « شيش الجراك » المجلوبة من الهند ذات نقوش جميلة ، ومنظر جذاب . ولبعضهم أبيات في تدخين الشيشة ، وأظنها للمرحوم الشيخ عمر الأنسي ، أحد قضاة بيروت الاسبقين ، وهي

لي شيشة ما نالها كسرى ... لا ولا « ماء السماء » لها حوى
أعدتها لي شاديا يشدو ... على نغم الحجاز إذا ضر بي النوى
غنت فأطربت الجليس بصوتها ... وكذاك من بفؤاده لعب الهوى

وقد شاع زمنا استعمال النشوق ، السوقة تخزيناً في الفم ، والعلية استنشاقاً في الأنف ، ومن يستعمله استنشاقاً يعني بحقه الذي يحفظ به ، ويطيبه بماء الزهر او الورد او الكادي ، وأحفظ بيتا في الاستنشاق هو :

إن النشوق وإن جلت منافعه ... يكفيك منه تعافيش المناخير

وقد كنت أملك رسالة في الشاي والقهوة والدخان للمرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي ، عالم دمشق المشهور ضاعت في جملة ما ضاع لي من كتب أثناء غيابي موظفا بمصر في البعثات العلمية السعودية ، اتذكر انه جاء فيها « أن الدخان تعتبر به الأحكام الخمس» .

والحقيقة ان في تعاطيه إسراف ، خصوصا من الفقراء ، فبعضهم يفضله

على الطعام ، كما ثبت مؤخرا ان له مضار اخر . فقد أشاع بعض العلماء الاطباء في أمريكا وغيرها ، ان نسبة المصابين بمرض السرطان الرئوي تزيد كثيراً في المدخنين ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، فان البلوى به عامة وفي مبدء عهد الحكومة الحاضرة ، كان المنع لتعاطي الدخان شديداً جداً ، لأن علماء نجد يرون تحريم تعاطيه ، إلاَّ ان ذلك أخذ يخف تدريجياً شيئاً فشيئاً ، إلى أن اصبح يتعاطى جهاراً دون عتاب أو لوم مع إستكراه واحتشام وامتناع عن تعاطيه في الاجتماعات الرسمية وما اشبه .

العادات في الزواج

كيف كانت، وإلى أيّ وضع آلت

كان الكثير من المكيين يميل إلى تزويج فتياتهم وفتيانهم في سن مبكرة ، صيانة لهم من آثار الفورة الجنسية التي تعتري الشباب في أول سن البلوغ ، ووجاءاً لما تجره إليه الدوافع الجنسية من مزالق ، قد تؤثر عليه في مستقبل حياته ، غير أن هذا الميل خف لما نشأ من صوارف وتكاليف ، أخصها الدراسة الحديثة ومراحلها التعليمية ، بخلاف ما كان عليه الحال سابقا ، إلى أوائل العهد السعودي ، لقلة المدارس وقلة المنتسبين اليها . فإن الولد ، وإن كان مشتغلاً بالدراسة في المسجد الحرام ، فإنها كانت في أوقات محدودة تجعل له الكثير من فراغ الوقت ، ولم يكن فيها شيء من الإلزام ، أما البنات فقد كان يُكتفى بتعليمهن سوراً من القرآن عند (الفقيها) في الكتاب . ولنتابع خطوات تقاليده خطوة ، خطوة .

عندما يفكر الوالدان في تزويج ولدهما ، يبدآن ، وبالأخص الوالدة ، في البحث فترتاد دور كثير من المعارف ، وغير المعارف ، للبحث عن العروس المناسبة ، فإذا وفقت الى فتاة تنطبق عليها ما تتوخاه من أوصاف ، لمحت لأهلها بالغاية التي زارتهم لأجلها ، فإذا آنست قبولا في تلك الزيارة ، أو زيارة اخرى ، تقدم الوالد بعد التحري عن الأسرة مع لفيف من أصدقائه إلى والد العروس ، ويكون والدها قد علم ما جرى بين السيدات ، وأجرى هو الآخر

تحرياته عن أسرة العريس ، إن كان ممن لا يعرفهما . فإن علم بصلاحيتهم لمصاهرته أجاب بالقبول ، وإلاَّ طلب إمهاله متعللا بإجراء الخيرة لزيادة التأكد ، فإذا عاودوه لأخذ الاجابة ، ولم تكن له رغبة ، أو ظهرت الخيرة غير مبشرة ، قال للوسيط [« الخيرة طلعت بطّالة »] ، وإذا كان القبول ، تواعدا على وقت يقدم فيه العريس مقداراً من سكر النبات ، المكلل بأوراق الذهب ، أو الفضة الخفيفة ، ومعه كمية من العطور المتعارفة ، مثل عطر الورد ، وعطر العود ، مع كمية من « الهيل » [« حب هان »] ، وكمية من القرنفل ، وحبة أو حبتين من « الأترج » الفاكهة المعروفة ، محمول ذلك على كرسي مخصوص ، او كرسيين ، بحسب الكمية إن كانت تستلزم ذلك ، ويسمى هذا الذي ذكرت : « الدفع » . والكراسي أشبه بالطربيزات، مثمنة الأضلاع ، مزخرفة ، منقوشة ومغطاة بغطاء مطرز بالقصب من الفضة المموه بالذهب ، او محلى بالكواكب من الفضة او المعدن التي سبق وصفها في ملابس الاطفال ، وهي معدة عند بعض من يمتهن تأجيرها لمثل هذه المناسبات ، ويسمون هذه الزيارة : « تقديم الدفع » ، وهي أشبه بالشبكة في الوقت الراهن ، ويقرأون في هذه الزيارة فاتحة الكتاب ، ولهذا يسميها بعضهم « قراية الفاتحة » ، وعندئذ يجري التفاوض في مقدار الصداق ، وبعد الاتفاق عليه ، يحدد موعد عقد القران ، ويقدم آل العريس المبلغ المتفق عليه ، وإذا كان المسمى من الذهب ، جعلوا فيه كمية من الريالات الفضة المتعامل بها آنذاك ، تفاؤلا ببياض الفضة ، وقد يكون الصداق قد اتفق عليه فيما سبق فيقدم مع المسمى « الدفع » . وفي الوقت المحدد ، وغالبا ما يكون ليلا ، بل يتخيّرون إما ليلة جمعة ، أو ليلة اثنين ، يتهيأ آل العروس لاستقبال آل العريس ومدعويه ، وما يوزع من حلوى ملزم بها العريس ، يُعِدها بعدد المدعوين ممن يشهد العقد من مدعوي الطرفين . يأتي العريس مصحوباً بمدعويه ، ويكون آل العروس ومدعووهم في انتظار مقدمهم ، يأتي العريس في كوكبة اليك وصفها :

يتجمع مدعوو آل العريس في بيته من بعد المغرب ، فإذا تكاملوا وحضر

من اختاروه لتولي العقد ، وعادة يكون ممن وُسِم بالعلم والصلاح ، على أن الحكومة في الوقت الحاضر خصصت نفراً من طلبة العلم يتولون العقد ، بعد قيده وتسجيله على ما هو معروف في بعض البلاد الأخرى ، أما فيما سبق ، فيكفي أن يكون من طلبة العلم ممن يثق بهم آل العريس ، ولم تكن قيود ولا غيرها ، فإذا تكامل ، كما سبق القول ، المدعوون خرجوا جميعاً صفوفا ، وقد يصحب الجمع احد الجسيسه « المغنّيـن » ، يكون في مقدمة الصفوف العاقـد ، وبجواره الجسيس ، وعن يمينه العريس ، والجميع في أجمل البستهم ، ويتميز العريس ، ويعرف من بين الجماعة ممن اشترك في الموكب ، اما بوضع شالٍ من الصوف السلمي الغالي الثمن اذا كان لباسه الجبة والعمامة ، لأنه قد يكون في صفة من المدعوين من يلبس نفس لباسه ، أو لبس العريس مشلحا« عباءَة » ومن مستلزمات لبس المشلح ، لبس العقال المحلى بالقصب ، ويكون العقال من النوع الممتاز ، بحيث يدل على ان لابسه هو العريس .

وتتقدم الجميع ، عن يمين وعن شمال الموكب ، حملة صواني الحلوى التي تكون قد اعدت فيها بعدد المدعوين ، ويسميها المكيون[معـاشـر] ، ويتقدم حملة الصواني ، عن الشمال وعن اليمين أيضاً ، حملة مصابيح بالشمع تسمى « اويزات » أو « تنانير من البللور الكرستال » ، وبعضهم يقدم بدل « الأويزات » فوانيس مزينة مزخرفة بالشمـوع أيضا ؛ ولما عرفت « الأتاريك » التي تضاء بالغاز ، والتي سبق وصفها في فصل الاضاءة ، شاع استعمالها بدلا من الاويزات والفوانيس .

وقد يكون في الوسط ، أمام الصفوف ، من يحمل مبخرة ينطلق منها رائحة العود الزكية ، وقد يكون أيضا ، زيادة في البهرج ، شخص عن اليمين وآخر عن الشمال يطلق كلاهما (فشاشات برم) ، إذا أشعلت تطاير منها شرر ينبعث الى الجو ، كما تشعل أيضا أطباق صغيرة في حجم طبق فنجان الشاي ، أو أكبر قليلا ، بها مواد فسفورية ، إذا أشعلت انبعث منها نور أبيض يسمونها

« قمرية » ويظل الموكب سائرا مشيا على الأقدام ، مهما بعدت المسافة ، على ما وصفت ، إلى أن يصل إلى بيت آل العروس ، فيقف الموكب هنيهة ، ويزداد هناك اشعال « الفشاشات » « والقمريات » ثم يبدأ المغني ، إذا كان ، فينشد قصيدة من بضعة أبيات نُظمت خصيصا في مدح آل العريس وآل العروس ، والاشادة بمزاياهم ، وبعد ذلك يدخل الجمع الى المكان المعد لهم، ويتصدره العاقد ، ويقول عنه المكيّون [« الْمِمْلِكْ »] ، وعن يمينه العريس ، وعن يساره ولي أمر العروس ، وبعد أن يتخذ العاقد ما يلزم من استشهاد أقرباء العروس على موافقتها ، ووكالة ولي امرها عنها في العقد ، ويتم ذلك همسا بين العاقد والشهود والوكيل ، يبدأ العاقد في قراءة الخطبة ، بعد أن تكون المبخرة قد وضعت في وسط المجلس ، ينطلق منها بخور العود ، ودائما تشتمل الخطبة على فقرات من الخطبة النبوية المأثورة ، والاشادة بمزايا النكاح وما إلى ذلك ، فإذا انتهى وأتم خطبته ، يلتفت العاقد إلى العريس آخذاً بيده قائلا : «زوّجتك (أنكحتك)مخطوبتك فلانة على ما تراضيتم عليه من المهر،قل : قبلت» . فيقول العريس:«قبلت»[١] ويبادر الجلوس بالتبريك له، وتدور كاسات الشربات عليهم ، ثم يعقبها توزيع قراطيس الحلوى ، وهي قديما تتكون من قطعتين من حلوى يسمونها « شقافة » رقيقة رهيفة منبسطة وقطعتين اخريين يسمونها « ابنوته » عامودية الشكل، ومع هذه القطع قطعة أشبه بغطاء الشربه من جنس ما يصنع بمصر من حلويات الموالد ، هذه القطع للأناقة يرصعونها بقطع من أوراق الذهب الخفيف المعروف ، وقد ترقى الوضع فقد أصبحت تصنع صحون من الحلوى بغطاء من الحلوى أيضا ، فخم المنظر ، يضعون في وسطه حبات من اللوز الملبس بالسكر ، وكل ذلك من صنع حلوانية البلد ، ويلف الصحن بقطعة من الحرير الرهيف ، ويسمونه« ملس » ، أما الوضع فيما سبق ، فكانت تلف قطعة « الشقافة » و « الابنوتة » وما معها في قطعة من الشاش ،

---

(١) وعند ذلك يسرع شخص من ذوي العروس الى مقر الحريم ويخبرهم بذلك فتبدء «الغطاريف» تدوي اظهاراً للفرح .

ويكون نصيب العاقد مضاعفا من هذه الحلوى ، التي تقسم ، وبعد ذلك ينفض السامر وينتهي الحفل . أما اليوم فقد استبدلت قراطيس الحلوى وصحونها بعلب انيقة بعضها من المعدن ، وبعضها من الرصاص وبعضها من الخزف ، وبعضها من البلاستيك ، مزخرفة ومنقوشة كل بحسب طاقته ، فان قيمة بعض العلب يصل الى خمسة عشر ريالا ، هذه العلب يوضع في باطنها قطعة من « الشيكولاته » وحبات من اللوزية ، كل ذلك من صنع الخارج ومستورداً .

على أن بعض الأهلين ، تخففا وتبركا ، خصوصاً إذا لم يتوسعوا في الدعوة ، يقيمون حفل العقد في المسجد الحرام ، وغالبا ما يقام في الردهة ـ الحجرة التي خلف مقام الحنفي الذي كان سابقا في الجهة الشامية من الكعبة ، وأزيل في إبان التوسعة مع بقية المقامات التي كانت للمذاهب الاربعة ما عدا مقام الامام الشافعي ، فإنه يؤم المصلين في فسحة مقام إبراهيم التي كانت سابقا وأزيلت للتوسعة في المطاف ـ .

وقد زادت كمية المهور عند الأغلب ، عما كان متعارفاً ، وذلك لكثرة ما جد من مرافق ومطالب وأثاث . وقد كان يطول الوقت بين أيام عقد القران وليلة الزفاف إلى بضعة شهور ، أو أقل أو أكثر ، لأن الجهاز كان يصنع محليا ، فلم تكن تعرف هذه المرافق الجاهزة المتداولة اليوم ، من غرف استقبال ، وغرف نوم ، وغرف طعام ، بل يتفقون مع أحد النّجارة على صنع سرر للنوم في الأسطحة ، ودكاك ويسمونها (كرويتات) ، ومع أحد القطّانة ، يحضرون له اللازم من القماش والقطن ، بعد أن يكون قد تعين نوع القماش بين الطرفين ، وطراز غرفة الاستقبال فقد كاد شكلها يختلف لعدة أنواع ، لها اسماء معروفة بينهم ، ويظل القطان يعمل على مقاس الحجرة التي نصبت لتكون غرفة استقبال الضيوف ، وما يلزم من غير ذلك كطراريح للنوم وما أشبه من « طوالات » من الطرف ، « وليانات » من القطن ، ومخاد ومساند ، على ما جرى وصفه في فصل سابق عن المفروشات ، ويكون في أثناء ذلك والد

العروس اخذ يشتري ما يوجد جاهزاً من ادوات المطبخ ، وصندوقاً لحفظ الملابس يكون أحياناً من خشب السيسم المزخرف او المكوكب ، فلم يكونوا يعرفون حفظ الملابس إلاَّ فيها ، وفي سحاحير تصنع محليا ، ويكون العريس قد هيأ المسكن الذي سيكون خاصا به وبعروسه ، فإذا انجز عمل كل ما ذكر ، تفاوضا في تعيين وقت الزفاف وليلته ، وغالبا ما يكون في أشهر الربيعين أو رجب ، يتحرى ذلك الكثير منهم ، وقد يكون في غير هذه الاشهر لمن لم تسعفه ظروفه للتقيد بالاشهر المذكورة .

وكان من الطريف في إرسال العروس للجهاز الى المكان المعد لسكن العروسين ، أن يحملوه على أكثر عدد ممكن من الحمال ، للأيهام أنه جهاز فخم كثير ممن يشاهده ، فترى الحامل يحمل مسنداً أو مرتبة ، مع ان في طوقه ان يحمل اضعاف ما يحمله ، ومن المحمود ان يتقدم حملة الجهاز حامل مخصوص يحمل على رأسه مصحفا ، تكون الأسرة قد صنعت له غلافا مزركشا من القماش الحرير المطرز بالقصب ، تبركا بالقرآن ، ويسمون الجهاز [« الدَّبَشْ »] وقد يكون مع الجهاز « شربة » ماء مزخرفة ، ومراكن مزروع فيها بعض انواع الزهور المتعارفة بمكة تفاؤلاً . ويتحرون أن تكون ليلة الزفاف ، إما ليلة الجمعة أو ليلة الاثنين ، كما سبق القول عند الكلام على ليلة عقد القران ، فإذا تم الاتفاق وتعينت الليلة ، بدأ آل العروس او « اهل العروسة » على اللهجة المكية بتهيئة منصة « رِيكَة » ، في تعبير الحجازيين ، وطريقة صنعها ان يؤتى باخشاب تنصب في اكبر غرفة من غرف الدار ، أو إذا وجد في الدار ايوان « ديوان » في أسفل الدار ، نصبت فيه « الريكة » على شكل ثلاثة عقود ، عقدان صغيران عن يمين العقد الكبير الاوسط وعن شماله ، وتلبس تلك الأخشاب ، اما بقطع يسمونها « بقش » ، وغالبا ما تكون البقش مرصعة بكواكب من الفضة او المعدن المطلي بالذهب بعضها وبالفضة بعضها ، لها صناع مخصصون يهيئونها ويؤجرونها لهذه الغاية .

وبعد ان تزين العقود تفرش أرض الريكة بالبسط ، ولدى من يمتهن تأجير

« البقش » كرسي ملبس بها ، وله مسند من الظهر مخصوص لهذه المناسبات ، يوضع في وسط العقد الكبير لتجلس عليه العروس أثناء الحفل ، تستقبل وهي جالسة عليه عريسها .

ويسبق ليلة الزفاف هذه يوماً وليلة يسمونه : « يوم الصنيع » يتجمع فيه آل العروس ، وبعض اصدقائهم ، للقيام بالخدمة اللازمة ليلة الزفاف ، يولم فيه آل العروس غالبا وليمة له تجمع بطعام « السليق » وهو بما سبق البيان عنه في فصل الطعام .

في هذا اليوم يتلقى آل العروس الارفاد ، او الرفد كما يقولون ، منه أكياس من الارز والسكر والخراف والسمن والشاي وغير ذلك ، ومن الرفد ان يقدم شخص جملة من الحلي عارية[1] ، لأن الحاجة تكون ليلة الزفاف إلى الكثير من الحلي ، يستعيرها الناس من بعضهم البعض ، وقد وجد من امتهن تأجير أنواع من الحلي ، فيستأجرها الشخص الرافد ويقدمها ، وبالطبع كما سبق القول ، تكون عارية تسترد بعد الانتهاء من حفلة الزفاف .

وكذلك آل العريس ، يتلقون قبيل ليلة الزفاف أنواعاً من المطعوم ، معاونةً لهم في الوليمة التي يقيمونها عادة صباحية ليلة الزفاف .

في أمسية « يوم الصنيع » تحضر الماشطة لتزين العروس ويسميها المكيون « الْمُقَيِنَة» وتكون العروس قد حنَّت اكف يدها وقدميها واستعدت للتزيين بالحلي ، فتأخذ « المقينة » في تنسيق الحلي عليها ، فتربط على الرأس لفة يسمونها « كوكو » ليمكن غرس قطع الحلي المرصعة بألماس على الرأس في شكل تاج ، كما توضع على الصدر رفادة محشية بالقطن حشيا رهيفا ، يسمونها « تخشيشه » تغرس فيها بعض انواع الحلي ، كما تُعلق في الرقبة عقودُ اللؤلؤ ، منها ما يسمونه « لَبَّة » على شكل كتل « ضماضم » من اللؤلؤ ،

---

(١) عارية : إعارة .

يفصل بينها حبوب من الجزع اليماني ، ثم فوق ذلك قلادة ، قد يكون طولها إلى اسفل الساق ، من التفاح الصغار المعروف بمكة « بالبجلي » نسبة الى قبيلة بجيلة ، احدى القبائل التي تسكن « جبال السراة » « الحجاز » ، يفصل بين كل تفاحة وتفاحة حبات من الورد او الفل او اوراق الكادي «ذي الرائحة الزكية » ، وبعض « ضماضم » من « القرنفل » و « الهيل » وتصبح العروس وكأنها تمثال من تماثيل الهندوس ، حين يحلونه في بعض مواسمهم الدينية ، وأخال ان هذه الطريقة سرت بمكة من بعض الجاليات الهندية المسلمة التي جاورت مكة . فاذا انتهت المقينة من كل ذلك ، اخذت العروس من الغرفة التي تزينت فيها ، ويكون قد تجمع النساء المدعوات للحفل ، وقسم منهن متحليات متزينات يطلق عليهن المكيون (المتحضرات)[1] ، وقامت المقينة ، ويسمونها « اللعابه » ، تزف العروس بالغناء المناسب مع الضرب على « الطِيران » الى ان توصلها الى الكرسي المعد لجلوسها عليه ، لتستقبل العريس ، فإذا وصلت وكان العريس قد حضر من بيته مصحوباً بقريباته من النساء ، فتتلقاهم « اللعابه » بالأغنية المناسبة والضرب على الطِيران الى مكان العروس ، ويكون قد أعد له كرسي في مقابلتها ، وتكون العروس قد أسبل على رأسها ووجهها قطعة من الحرير الابيض الرهيف ، ويكون العريس قد أحضر معه عدداً من النقود الذهبية التي كانت تستعمل قديما تسمى « غوازي » رقيقه (« او مشاخص ») رقيقة أيضا ، فإذا استوى جالسا في مقابلة العروس ،

---

(١) من غريب ما جاء في مرآة الحرمين ج ١ ص ٢٠٥ للواء رفعت باشا أن المكيين في اعراسهم يضعون على باب دار العرس ليلة الزفاف قصعة من الحناء وكلما دخلت احدى السيدات المدعوات غمست يدها في قصعة الحناء وكذلك يصنعون في يوم المأتم اذا مات لهم ميت . وهو قول غير صحيح وغير معقول وما أدري هل هو من عندياته أو نقله عن البتنوني في رحلته بمعية الخديوي عباس حلمي سنة ١٣٢٧ هـ لانه جاء بهذا القول في سياق منقولاته عن الرحلة المذكورة ، وفي رحلة البتنوني كثير من الأقوال غير الصحيحة واتذكر ان المرحوم عبد الملك الخطيب رد على ما جاء في كلام البتنوني في سنة صدور الرحلة نشره في احدى الصحف المصرية ويقول الخير الزركلي في كتابه ما سمعت وما رأيت أنه اطلع على رسالة خطية من متروكات المرحوم الشيخ عثمان الراضي يرد فيها على البتنوني ولكنها لم تتم الرد .

« والمقينة » التي زينتها بجوارها كشفت المقينة له عن وجه العروس ما كان مسدولا عليه ، فتكون هي المرة الأولى التي يراها فيها ، فيبدأ يلصق على جبينها تلك الغوازي التي احضرها معه ، وكلما تم إلصاقها جمعتها له المقينة وناولته إياها ، فيكرر العملية بضعة مرات ، هذه الغوازي تحتفظ بها المقينة ، وبعد انتهاء الزفاف يسترضيها عنها العريس ببعض الدراهم ويستردها منها .

بعد ان يتم هذا الذي ذكرت تقوم العروسة والعريس وتنشد المغنية أغانيها « والطِيران » تضرب على نغماتها مدة ، ويسمون ذلك « زفة العروس » ثم يخرج العريس الى مقر الرجال ، وتعود العروس الى مجلسها السابق ، ويتقدم من حضر الحفل من النساء لمشاهدتها في زينتها وتهنئتها ، وبعد ذلك ، ويكون قد مضى أكثر الليل ، تمد مائدة عليها من نوع الخبز ما يسمونه « الشريك » ، يصنع خصيصا ، وأنواع من المربيات والحلويات المتعارفة آنذاك ، مثل هريسة اللوز واللبنية واللدو والمهجمية ، مما سبق ذكره ووصفه في فصل الطعام ، مضافا إليه مقدار من الجبن والزيتون ويسمون هذه المائدة « تعتيمة » . وأظن أن الاسم مشتق من العتمة ، لأنها تقدم في ذلك الوقت . بعد ذلك يكون العريس قد أمضى وقتا مع الرجال المدعوين ، ويكون الصبح قد أوشك ان يتنفس ، وتكون عربة من المصنوعات المحلية ، يقودها حصان ، مزينة بعض الشيء قد أحضرت ، وإن كان العريس والعروس من الوجهاء ، فانهم يستعيرون من مقام الامارة عربة من مراكب الأمير ، يسميها المكيّون عربة « فيتون » ، ولا يمتنع الامير ان يستجيب لهم ويحقق رغبتهم ، تركبها العروس ومعها بعض ذويها من النساء ، وغالبا يكونون أمها واختها ، ويذهب بها إلى دار العريس الذي يكون قد أعد فيها جهازها ، ويكون آل العريس قد أعدوا الافطار للجمع الحاضر لديهم ، وغالبا ما يكون من الزلابية التي سبق وصفها في فصل الطعام ، فإذا اسفر الصبح قدم الافطار لهم ، ويكون العروسان مختلين في غرفتهما ، أو نائمين نوم هجعة خفيفة ، فاذا قام كل منهما ، وبعد أداء فريضة صلاة الصبح قدمت العروس للعريس بدلة كاملة مما يعتاد لبسه تكون محضرة من

السابق ، ويقدم لها أيضا بالمقابل قطعة من الحلي ويسمى ذلك « تصبيحة » وقد تشمل هذه التصبيحة من الزوج على أشياء تقدم لأم العروس تلطفا بها ، فانها تكون مع ابنتها طيلة اسبوع ، ويسمى هذا اليوم « يوم الصبحة » . ويكون الزوج يومها قد دعى الاصحاب والاصدقاء والاقارب ممن يلوذون بالطرفين ، وأولم لهم غداء تكون المائدة والطعام في الغالب الأعم من الارز . فإن كانت الطبخة « زربيان » قدم مع طبق الأرز طبقين في أحدهما ثلاثة سمبوسكات من النوع المثلث ، وفي الآخر حلوى المشبك ، وتكون السلطة معه خيار مدوق مع اللبن الحامض ؛ وإن كانت الطبخة « رز بخاري » قدم معه « سمبوسك البف » « وحلوى الطرمبة » وتكون السلطة خيار مع القوطة بالخل أو عصير الليمون ، ويجلس كل على طبق أرز وما معه نفران متقابلان جلوساً على الارض ، وكل الطعام قد جرى وصفه وكيفية صنعه في فصل الطعام .

هذه الولائم وأمثالها قد يصل المدعوون فيها إلى المئة والمئتين واكثر ، فيستلم طبخ الطعام لهم قدوراً إلى أوان كثيرة ، وقدور كبار ، فوفق الله بعض اهل الخير إلى جلب قدور من الهند ، مختلفة الاحجام ، وصواني (تباسي) من النحاس ، وجعلها وقفا ، يستعيرها من تلزمه الى ما ذكر وأمثاله .

والمكيون على العموم ، في ولائم الزواج ، لا يقتصرون في الدعوة على المعارف والاصدقاء ، بل يدعون ايضا كثيراً من طلبة العلم من المجاورين والفقراء ليشاركوا في الطعام ، وأحيانا يصنع لهم من الأرز واللحم يسمونه « رز بحمص » لأنه يضاف اليه الحمص ، وقد سبق وصفه ، ولا يقتصر الإطعام على من يدعى ، بل يرسل منه الى بيوت الاقارب والأصدقاء ، وبالأخص الى بيوت من قدموا رفداً لكل بيت « معشرة » أي صينية تحوي ما ذكر من الطعام ، وقد تزاد الكمية بحسب كثرة الاسرة او قلتها . وإذا انتهى اسبوع على ليلة الزفاف ، أولم الزوج وليمة مختصرة على أهل الطرفين ، يقدم فيها السليق أو « الكوزي » مع ما يتبعه عادة من الحلوى أو الفاكهة ، وبذلك تنتهي مراسم العرس .

وكان من المعتاد فيما سبق ان لا تبارح العروس بيتها لزيارة أهلها قبل مضي بضعة اشهر ، هذا مما ذكرته قد تغير من زمن غير بعيد كثيرا ، فأخذت شرعة العروس تخف عما وصفت ، الى طريقة عرفها الأهلون من الجالية التركية ، مما يقيمون من أعراس بنيهم ، ولذلك دعوها « شرعة تركي » . وهي ان تلبس العروس أزهى ثوب مما اعد لها وتحلى بحلية معقولة ، وتقام أيضا منصة معقولة تجلس فيها العروس والعريس بجوار بعضهما البعض ، قالوا عنها « كوشة » وهي كلمة تركية معناها ركن ، أما سائر الاشياء الأخرى فقد بقيت على ما هي عليه إلى زمن قريب .

وعندما كثر ارتياد المكيين إلى البلاد المجاورة والغربية ، وانتشرت الصور الفوتوغرافية ، التي تنشر في المجلات لما يقام من أعراس ، اخذ المكيون يقلدونها ، وأصبحت العروس تلبس ليلة الزفاف (فستانا) مخصوصا على الطريقة الغربية ، قد يكون غالي الثمن مع انه لا يلبس الا مرة واحدة ليلة الزفاف فقط . وأخذ التحلي يخف خفة زائدة ، يقتصر فيه على أقراط في الأذن ، وأساور في المعصم ، وحلية خفيفة أيضاً ، على الرقبة ، وأخذ الشعر يصفف كما هو معروف عن الطريقة الغربية ، وتجلس العروس على كرسي مخصوص ، وبجوارها مثله يجلس عليه العريس ، وأدخل على ما يسمى « زفة العرس » التي تقيمها اللعابه ، بعض المطربات والمغنيات ، كما أبدلت « مائدة التعتيمة » بما يسمونه « ميز » وما يوضع عليه من مطعوم كله على الطريقة الاوربية ، مما يعرف بحفلة شاي . فقد أخذت المخابز الحديثة تهيئه وتقاول على تقديمة للحفل بالنفر الواحد ، وهذا أخيراً وليس آخراً فمن يدري ماذا ستكون عليه التقاليد بعد ذلك ؟

أما العروس ، فصارت تنتقل الى بيت زوجها في سيارة ، قد تزين بزهور صناعية ، لأن الزهور الطبيعية قليلة بمكة ، وصار العريس يصحب زوجته في رحلة الى الخارج لقضاء « شهر العسل » على ما يقولون .

ما كان للمكيين
من عادات وتقاليد إذا ولد لهم مولود ،
وما هو باق منها

إذا ولد المولود ، بعد أن تجرى له عادة ما يجرى لمثله ، ويسمون القابلة « داية » ، يأتي أبوه ، أو جده فيؤذن في إحدى أذنيه ، ثم يكبر في الأخرى ، واذا كان المولود ذكراً أطلق عليه اسم محمد تيمنا وتبركا باسم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كان أنثى أطلق عليها اسم خديجة أو فاطمة ، وقد يظل هذا الاسم ملازماً له أو يبدل في اليوم السابع من ميلاده ممايختارله أو لها من اسم ، ولا يخرج عما هو شائع من أسماء الصحابة أو أزواج النبي عليه الصلاة والسلام .

وطريقة ذلك ، إذا كان يوم السابع من ميلاده دعي لفيف من أطفال الأقرباء والجيران وأعدت لهم شموع ، فيكون في يد كل واحد منهم شمعة ، ويحمل الطفل بما أعد له من ملابس على مرتبة مزينة مزركشة في يد إحدى السيدات ، فتطلع به إلى سطوح الدار والشموع موقدة في أيدي الأطفال ، وهم يهزجون بهذا الدعاء :

« يا رب يا رحمان بارك لنا في الغلام »

وإن كان أنثى قالوا :

« يا مالك البرية بارك لنا في البنية »

وهكذا طلوعاً ونزولاً عدة مرات من أعلى الدار إلى اسفلها ، وبعد ذلك ردّوه في مجلسه ويكونون قد اتفقوا على اسم له مما ذكرت ، فيرفده من حضر

التسمية من الأهل والأصدقاء كل بحسب طاقته من النقود او الحلي ، ووزعت على الأطفال ، لكل طفل « شريكة » وقطعة من حلوى « البوتاسا » اللتين سبق وصفهما في فصل الطعام . وكانت الأسماء كما قلت مستوحاة ومستمدة من أسماء الرسول وأسباطه وأولاده مثل : القاسم وحسن وحسين وعمر وأبو بكر أو بكر وعثمان الخ . . . . وإن كانت أنثى ، فخديجة وآمنة ومريم وفاطمة وحليمة وما إلى ذلك ، مثل زينب وأم كلثوم . . .

وأخال أنه في هذه الأيام بطلت الزفة بالشموع من الأطفال ، واستبدلت بالقيام ببعض البهجات من وسائل التسلية ، كالسينما والتلفيزيون أو الراديو إذا صادف حفلة من أم كلثوم المغنية المشهورة ؛ وعندما طغت الحمية القومية بعد الحرب العالمية الأولى أخذ الناس في تسمية أبنائهم بأسماء عربية إسلامية وجاهلية مثل أسامة ، وزهير وطريف ، وقصي الخ . . . وإن كان أنثى فمثل ليلى وناهد وهند ودعد ومنال وهيفاء وما الى ذلك . وإذاانقضى على وجوده أربعون يوماً وكانت أمه قد طهرت ، حملوه بما أعد له من ملابس أنيقة موضوعا على مرتبة مزركشة، وغطى بغطاء خفيف من الحرير ، وذهبت به أمه وبعض أقاربها إلى المسجد الحرام ؛ فإذا وصلوا به صحن المطاف تلقاه أحد الآغوات[1] وحمله بمرتبة الى عتبة باب الكعبة المشرفة ، وتركه بضع دقائق ، ثم رده إلى ذويه ، فينفحون الآغا الذي قام بذلك بما تيسر من نقود ، كل بحسب القدرة والمستطاع ، ويظلون به في المسجد إلى أن يقضوا صلاة المغرب ، لأنهم ينزلون به المسجد عادة قبيلها بقليل ، ويعزون بذلك ، وبأن ولدهم وضع على باب الكعبة .

---

١ ـ الأغوات جمع آغا والآغافي عرف المكيين يطلق على الخصي وهي كلمة يونانية ، معناها أمين المضجع والخصي الرجل المجبوب . ومن هؤلاء الآغوات جماعة بالمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف ، ويظهر من استخدامهم في هذين المسجدين لأجل ان يراعوا شؤون السيدات وعادة استخدام الخصي قديمة ، عرفها العثمانيون عن الرومان عندما استولوا على القسطنطينية ، ولأغوات مكة والمدينة تقاليد خاصة ومراتب وقوانين، والبسة خاصة أيضا ، وعلاوة على رعايتهم خدمة السيدات الطائفات بالكعبة ، اختصوا بخدمة المطاف وكنسه والعناية به وإشعال الشموع على باب الكعبة والحجر قبل عهد الكهرباء والأتاريك ؛وطريقة وصولهم الى =

ما كان من عاداتهم عند ختان الصبي

كانوا إذا أرادوا ختان الصبي ، جمّلوه قبل يوم الختان بالملابس الزاهية ، وألبسوه عقالاً مقصباً وصمادة مطرزة بالقصب ، وأركبوه حصاناً مسرجاً مرختاً ، وأمسك به على الحصان أحد الخدم أو الأقارب ، وطافوا به بعض الشوارع العامة في البلدة ، ثم في صابح اليوم التالي يحضر الخاتن ويسمونه « المطهر » ، ويسمون الختان « طهار » ، وقام بالعملية على الوجه المسنون ، فإذا أتمها وضمد الجراحة ، وكان قد حضر لفيف من الأقرباء ، صُنِعَ لهم فطورٌ من « العريكة » وقد سبق وصفها في فصل الطعام .

الطواف بالمختون في الشوارع على ما وصفت ، لم أعد أراه ، وذاتاً لم يكن يفعله سوى الأعيان والوجهاء أو الأثرياء ، فإنه أثناء الطواف به تكون أمامه

= الحرمين أن بعض الملوك والسلاطين والأثرياء يشترونهم ويهدونهم إلى الحرمين الشريفين وبذلك يكونون قد تنازلوا عن حق الولاء عليهم ، ومن تقاليدهم المتبعة والتي اقروا عليها أنه اذا مات احدهم توارثه رفاقه ، وعليهم شيخ منهم ونقيب ودرجات في الخدمة لا أعرفها ، ولأثرياء المسلمين وسلاطينهم حدب كبير عليهم فكثيراً ما يشترون الأملاك ويوقفونها عليهم حتى اصبحت لهم موقوفات كثيرة غدوا معها في بلهنية من العيش علاوة ما خصص لهم من مرتبات من طرق الحكومة وقد أخذ عددهم يتناقص سواء في المسجد الحرام او المسجد النبوي للتظافر على تحريم الرق من سائر الأمم . وفي حقيقة الأمر ان عملية الخصي عملية غير إنسانية وهي محرمة شرعاً فانها تعد على رجولة الانسان وكثيراً ما هلك منهم عدد كبير اثناء الخصي ولعله مع مرور الزمن ينقطع هذا الواقع مما ورثه المسلمون عن غيرهم ويقال ان اول من اوجد الخصيان في المسجد ابو جعفر المنصور .

طبول تدق ، يسمونها « الطاسة والزير » ومصاريف تنفق في هذا السبيل .

أما الإفطار على « العريكة » فأخال أنه لا زال باقيا ، وعملية الختان ، بعد ان كان يمارسها بعض الحلاقين المتمرنين على ذلك ، أصبح يقوم بها الآن الطبيب الجراح ، فقد تطورت الوسائل الصحية وارتفع الوعي عند الكثيرين ، وكثر وجود الأطباء ، فطالما وقعت أخطاء من الخاتنين سببت طول وقت معاناة الطفل وأثار الجراحة ، فإنهم قد لا يختنون الصبي إلاَّ إذا كبر عن الرابعة والخامسة أو على الأكثر بعد سنتين من ولادته ، أما هذه الأيام فقد يختنونه وهو لا زال في القماط .

عاداتهم في المأتم وعند موت أحدهم

إذا مات أحدهم بادر ذووه بالأتيان بأحد القراء لتلاوة القرآن الكريم الى حين نقله إلى المقبرة ، بل يجعله بعضهم يتلو القرآن في المكان الذي توفي فيه الشخص لمدة ثلاثة أيام . بعد غسل الميت وتكفينه ، ودائماً يكون الكفن من قماش « البفت » الأبيض ، وعند وضعه على النعش الذي ينقل عليه إلى المقبرة ؛

فان كان المتوفى أنثى جعلوا على موضع البطن قفصاً من الجريد ليدل على أنه أنثى ، ثم يغطى النعش إذا كان الميت انثى بقماش من الحرير الغالي الثمن ، وإذا كانت المتوفاة صبية شابة ، يضع بعضهم قطعة من الحرير المقصب ، غير أن هذه عادة بطلت وأهملت منذ زمن .

وإذا كان المتوفى رجلاً ومسنّاً ، كان الغطاء من البفت الأبيض ، أما إذا كان شابا أو رجلاً غطوا النعش بغطاء من الصوف السليمي الغالي الثمن أو مما يشبهه .

ويكون قد فرش لحاف أو طراحة رقيقة ، وتحتها قطعة سجاد ، ويطلقون على المجموع « السلب » . وقد يوجد عند بعض أهل الخير سلب موقوف معد للاستعارة لمن لا يقدر على اتخاذه ، يرد بعد الانتهاء من الدفن ، وأثناء غسل

الميت وتكفينه يكون قد تجمع عدد من الأقرباء والأصدقاء والمعارف ليتعاونوا على نقله إلى المقبرة ، ويبدأ نقله أولا على ثلاث خطوات ؛ ينقل ثم يوضع ، فيطلب أحد المشيعين قراءة الفاتحة على روحه ، فإذا انقضت الحركات الثلاث تبادروا إلى حمل النعش بالمناوبة أربعة أربعة إلى أن يأتوا به المسجد الحرام ، فيبادر أحد طلبة العلم من المشيعين ، أو غيرهم ، ممن يكون موجوداً بالمسجد إلى إقامة صلاة الجنازة عليه ، على مقربة من الكعبة ، فإذا انتهت الصلاة وقف ذووه وأقرباؤه صفاً لتقبل العزاء من الحاضرين ممن لا تسعفه ظروفه بالاستمرار في تشييع الجنازة إلى المقبرة ، فإذا انتهوا . بادر الجمع للمشاركة في حمله على الاكتاف كالسابق ، واستمر أقرباؤه بعد الخروج من المسجد صفاً مستطيلاً خلف الجنازة إلى أن يصلوا به مقبرة « المعْلاة»، ويكون قد سبق من هيأ القبر لانزاله به .

ولعملية حفر القبر جماعة مخصصون ، لهم مقر بجوار المقبرة ، تحفظ فيه عادة الدكاك التي يغسل عليها الميت ، والنعوش التي يحمل عليها ، والكثير منها وقفا من أهل الخير . وأهل مكة يسمون هذا المكان «الشرشورة»، وما أعرف من أين اشتقاقهم لهذا الاسم واتخاذهم اياه ، ربما لأنه أيضاً ، معد لغسل وتكفين من لا أهل له من المجاورين والغرباء؛ فاذا تمت عملية الدفن ، تجمع عادة نفر من الفقراء ممن يحفظ سورة ياسين ، فإذا انتهوا من قراءتها، بدأ أحدهم يلقن الميت الشهادتين ، وتذكيره ببعض أحوال البرزخ ، ثم ينصرف الجميع عن القبر بعد قيام أهل الميت بتفريق ما أعدوه من خبز وتمر على من يوجد من الفقراء بالمقبرة ، صدقة على روح الميت ؛ وكان من العادة أن يغرس على القبر بعد تسويته غرسة من شجر الصبار[١] .

فإذا تم كل ذلك تجمع المشيعون عند باب المقبرة ، ووقف ذووه وأقرباؤه صفا يتقبلون العزاء الأسن فالأسن . وطريقة العزاء أن يتقدم أحد المشيعين

---

(١) هذه عادات كادت تضمحل اليوم وتركها كثيرون .

فيلمس كتف القائم في أول الصف قائلا : (عظم الله أجرك) فيجيبه (جزاك الله خيراً) وهكذا يتعقب الصف واحداً واحداً إلى أن ينتهي كافة المشيعين من اداء التعزية ، ثم يعزي أهل الميت بعضهم بعضاً . ويكون عادة في آخر الصف شخص يعلن عن موعد قيام قراءة بعد المغرب ومكانها ، ليدرك العزاء من لم تسعفه ظروفه وممن لم يتمكن من المشاركة في تشييع الجنازة . بعد ذلك ينفض الجمع ويعود أقرباء الميت الى بيتهم مصحوبين بالاخصاء ، ويكون قد أعد لهم طعام يسمونه « لقمة الجبر » أي جبر الخاطر ، ويكون عادة من الارز الأبيض ، والخبز ، وصحن من اللحم « المعرق » أي « طبخة حزاينى » .

وبعد صلاة المغرب يكون ذوو الميت قد هيأوا عادة مصاحف مجزأة جزءاً جزءاً يسمونها (رَبْعَه) ، يضعون أمام كل شخص ممن يحضر جزءاً يتلو فيه ما تيسر من القراءة ، ويكون مع الجمع قارىء بالغيب ، يطلقون عليه (الفقي) ، يتلو القرآن بصوت خفيض ، يستمر ذلك إلى قبيل صلاة العشاء ، فإذا أذَّن للعشاء ، جمعت الأجزاء ، وبدأ القارىء بالغيب بختم قراءته ، ويدعو بصيغ مألوفة في مثل هذه المناسبات ، وينفضُّ الجمع ، ويكون على باب الدار أقرباء الميت وقوفا صفا على الترتيب السابق وصفه ، يتقبلون العزاء ، وتستمر هذه الحال ثلاث ليال متوالية ، في آخرها يقسم على من حضر حلوى من صنع محلي يسمونها « حلاوة فلاسي » ، وهي عبارة عن قطعة من السكر المعقود على شكل أقراص صغيرة ملبسة بالسمسم ، ملفوفة في قطعة من الشاش ؛ وبعضهم يقيم في يوم الثالث وليمة للأخصاء والأقرباء .

وإذا انقضى على يوم الوفاة عشرون يوماً ، أولموا وليمة يسمونها « العشرية » ، غالبا ما تكون صدقة لإطعام الفقراء والمساكين ، يتطلبونهم من الأربطة والمسجد والشارع ، وإذا تم أربعون يوماً صنعوا ايضاً وليمة ثانية سموها « الأربعين » مثل سابقتها صدقة للفقراء . فإذا انقضت سنة على وفاته ،صنعوا وليمة يدعون إليها مع الفقراء الأصدقاء والأقارب ويسمونها « الحول » . وقد

يتكرر ذلك عدة سنوات بحسب استطاعة الورثة وثروة المتوفي التي تركها ، وقد يكون ذلك بالوصاية منه ، فقد يكون من المتروك وقفا على ذريته تشتمل شروط الوقف على إقامة وليمة في كل سنة صدقة على روحه ، وذكرى ليوم وفاته .

أما النساء ، مع مشاركتهن في « العشرين » و« الأربعين » و« الحول » يكون العزاء لهن من أقربائهن وصوحيباتهن في الأحد والثلاثاء والخميس من كل أسبوع ، وفي ظني أن ذلك يستمر لمدة ثلاثة أشهر أو أكثر ، وقد تقصر عن ذلك ، ثم في نهاية المدة يقيمون وليمة للمدعوات فيها ؛ يسمونها « قطع العزا » .

هذه العادات التي سردتها ؛ أبطل الكثير منها مما لم يكن سُنَّة ، وفتر الاعتقاد ببعضها ، واقتصر في العزاء ، إما على يوم الدفن عند المقبرة أو مد إلى البيت لثلاثة أيام ، دون توزيع أجزاء من القرآن للتلاوة ، بل تقام في ردهة على مقربة من بيت المتوفى ، كراسي لجلوس المعزّين عند توافدهم بعد صلاة المغرب ، ويكون ذووه جلوساً صفاً واحداً ، فإذا تجمع عدد من المعزين ، ومضى على مجيئهم برهة ، ودارت عليهم القهوة المرة ، انتصب أهل الميت وقوفا لتقبل التعزية على الطريقة الموصوفة سابقاً ، فإذا انتهت المجموعة عاد أهل الميت الى الجلوس وإذا تجمع غيرهم تكررت العملية إلى قرب صلاة العشاء ، فيفض الجمع ويتكرر ذلك ثلاث ليالي .

وكانت النساء ، عند تحقق الوفاة لشخص ، تصوت إحدى قريباته بالبكاء بصوت عال ، وكل ما تسامع الأقرباء والجيران وقدمت واحدة صوتت ، فتصوت معها نساء الميت ، وعند إخراجه من البيت للدفن ، صوتوا جميعاً بأصوات عالية فيها من كلمات التحزن والندب وذكرى محاسن الميت ، وهي المناحة التي كانت العرب في الجاهلية تفعلها . وقد بطل ذلك ، وكف النساء عن الصوات ، وصار بكاؤهن نشيجاً ، وبصوت منخفض .

ولباس الحزن لدى المكيين ، رجالا ونساء لباس أبيض ، غير أنه في العهود الأخيرة تهاونوا في التزام مثل هذه التقاليد ، ولم تصبح ذات رعاية واهتمام إلّا عند النساء فقط ، وصار بعضهم يلبس السواد تقليداً للمصرين .

وسائل التسلية لدى الصغار والكبار

وسائل التسلية لدى الصغار

كانت وسائل التسلية عند الاطفال واليفع وبعض الشباب متنوعة ، وسأذكرها حسب ما أتذكرها . فقد بَعُد العهد ، ولم أكن ممن يعنى بها كثيراً أثناء طفولتي .

« لعبة الكورة »:وتسمى فيما بينهم « تيس وتن تيس » . وطريقتها أن ينقسم الأطفال والأولاد قسمين ، ثم ينصب حجر رهيف ، أو آجرة يقف عندها أحد القسمين ، ويكون هو البادي باللعب ، وكانت الكور تصنع محليا ، وأغلب ما تكون في حجم البرتقالة الكبيرة ، من الجلد تحشى بالخروق البالية أو القطن . يخطفها أحد الأولاد من القسم الذي يلي الحجر المنصوب ، ضربا لها بأحدى يديه ، فيلقفها أحد افراد القسم الثاني . فمن يكون منهم قد تلقفها رماها على الحجر المنتصب ، فإن أصابه عد شوطاً من خمسة أشواط وهي : « تيس » و« نحا » و« بقد » و« كلي » ، وهذه الكلي يضرب فيها اللاعب الكورة برجله لتذهب بعيداً ، « وشوربه » . كل لعبة لها ثلاث ضربات الى ان تتم الخمس لعبات . فإذا أصيب الحجر في كل لعبة ، ولو مرة واحدة من المرات الخمس ، عد الفريق الرامي للكورة خاسراً ، ويقولون « دخل فيه الدست » ينتقل إلى القسم المتلقف للكرة مما يلي الحجر مغلوباً ، وهكذا إلى أن يملوا اللعب او يمسى الليل فيتفرقوا .

« لعبة البرجوة » : والبرجوة قطعة حجر يكورها اللاعب تكويرا محكماً ، وتكون في حجم الليمونة البنزهير ؛ أو أكبر قليلا ، ثم يبدأ اللاعب أو اللاعبون في حفر ثلاث حفر صغيرة في الأرض ، بين كل حفرة وحفرة مسافة متعارف عليها ، ثم يبدأ اللاعب بمحاولة إسقاط البرجوة في الحفرة نبلاً من بين أصابعه ،فإذا تم إدخال البرجوة في الحفر الثلاث مرتين ، ذهاباً وايابا ، عد فائزاً . ويقول الأولاد عنه « شَرَّق » ويليه الآخر بمثل لعبه ، فان أخطأ الحفرة نبل برجؤوه بعيداً عنها، وهكذا يتداول اللعب بين اللاعبين ومن يأتي دوره ، ويكون قد أخطأ الحفرة في المرتين ، وضع يده بثني الأصابع ، متوجها بظاهر الكف على مقربة من الحفرة ، معرضا لها للنبل بالبرجوه ، ويبدأ اللاعب ، معه ، أو اللاعبون . بتصويب نبل البرجوة إلى يده المنصوبة ويسمونه « الرقم » ويكون هو من خسر اللعبة ، وأكل الضرب على يده جزاء تقصيره في إدخال البرجوة في الحفر .

لعبة « الغم غماية » : وهي أن تجمع زمرة من الأولاد وتعصب عين أحدهم ، ويجلس بمقربة منه أحدهم مراقبا ، ثم يتفرق البقية مختبئين في دهاليز الدور الكائنة في الزقاق الذي يلعبون فيه ، أو خلف أي شيء يستره ، فاذا غاب جميعهم عن النظر أزال المراقب العصابة عن المغموم ، ليبدأ يبحث عن المختبئين ، فإن تمكن من القبض على واحد منهم كان هو الذي سيغم ، وإن أمكن أن يصل جميعهم إلى مكان المراقب أعادوا غمه ، وهكذا إلى أن تنتهي رغبتهم من اللعب ، وعند فك العصابة عن المغموم يصيح المراقب « شرعت شرعت » تنبيها للمختبئين .

لعبة« الكبت»وهي لعبة فيها شيء من العنف، وقد يلعبها الكبار من فتوات الحارة ، وصفتها أن ينقسم اللاعبون قسمين ، ويخطون فيما بينهم خطاً في التراب ، ثم يبدأ واحد من احدى الجهتين متخطياً « الشخط » كما يسمونه ، مادأ يديه يهمس بالعبارة « شيد البيد البيد » مكرراً لها ، وعندئذ يحاول الفريق الذي اقتحم عليه حدة أن يقبضوا عليه ، وهو ينفلت منهم ، فان لمس واحد منهم وهرب عد الملموس ميتا ، وعد هو ناجحا ، وإن استطاعوا القبض عليه ، حاول بكل

جهده أن يصل ، ولو بطرف إصبع قدمه ويمس الخط ، فان أمكنه ذلك ، عد ناجحاً ومن حاول القبض عليه عُدَّ ميتا وينحى عن اللعبة ، وإن فشل عد هو ميتا ونحي ، ثم يبرز آخر من الجماعة إلى ان ينتهي أحد الفريقين ميتا ، قد قبض على سائر أفراده ، ودخل فيه « الدست » كما يقولون . هذه يكون فيها من المغامرة والعنف ما قد تتشقق معه الثياب .

لعبة « الكبوش »: من الالعاب التي يتعاطاها الصغار ـ وهي العظام التي تأتي بين مفاصل أرجل الأغنام ، يجمعها الصبي ، ثم يختار الأكبر فيها ويسمونه « البرسي » . يأتي اللاعب وزميله فيخطون دائرة على الأرض ، ويرهن كل واحد منهم عدداً من الكبوش بقدر الآخر ، بعد ذلك يمسك أحدهم (البرسيين) ثم يسقطهما إلى الأرض بعد رفع يده بهما ،فمن وقف برسيه على وجه متعارف من وجهي البرسي بدأ هو اللعب ، ويقف الإثنان على مسافة متفق عليها ، ثم يصوب الذي فاز بالأولية بالبرس صف الكبوش المرصوصة داخل الدائرة ، فإن أخرجت الضربة شيئاً منها عن الدائرة عد كسباً له ، وأعيد رص الباقي واخذ من قريب يضرب في الكبوش إلى ان يستأهلها كسبا . وإن أخطأ ولم يستطع إخراج شيء من الدائرة سقط حقه في اللعب ، وبدأ الآخر في العملية ، وهكذا الى ان يأتي أحدهم على كسب ما للآخر من كبوش وينتهي اللعب .

ومن الألعاب « علبة الطَيِرَة » ويجمعونها على طياير او طيرات يمتهن عملها أناس مخصصون ، وأظن أن هذه اللعبة عرفت عن الهنود والجاوين ، والطيرة عبارة عن أعواد من خشب البمبي الرفيعة القابلة للاحناء . وشكلها هكذا :

تلبس الأعواد بورق مخصوص ، ذي ألوان ونقوش متعددة الأشكال والألوان ، يربط خيط في صدر الطيرة ، عند تقاطع العودين المكون فيها هيكل الطيرة ، وطرفه الآخر في ذيل الطيرة ، وقد يجعل لها ذيول من الورق المختلف الألوان ، وقد تعمل على شكل « حدأة » وغير ذلك من الأوضاع ، فيشتريها

الصبي ثم يشتري أيضاً مقداراً من الخيط القوي الرفيع ، ثم يطير الطيرة ، فيدفعها الهواء إلى الأعلى ويظل يلعب بها يمنة ويسرة .

وقد يتبارى إثنان من اللاعبين ، فيأتيان على الخيط الذي يمداه أثناء الطيران ، ويدقان كمية من الزجاج يضاف في محلول من الصمغ ، ويوضع فيه الخيط إلى أن يتشبع بهذا الخليط ، فيخرج ويجفف ، ثم يربط كل منهما خيطه « بطيرته » ، ويطلع بها الى سطوح داره ويرسل الطيره الى الجو ، فاذا بلغت طيرة كل منهما حداً معلوماً ، نكساها على بعضها إلى أن تتشابك ، ثم يرسل كل منهما خيطه ، ويستمر الاطلاق مع التشابك ، فمن كان خيطه أقوى وأحَدّ قطع خيط الآخر ، وانفلتت « الطيرة » في الجو وضاعت على صاحبها ، وعندئذ يصيح الغالب الذي لا زالت طيرته مرتبطة بخيطها [« أشراب أشراب »] ، مطنزاً على رفيقه المغلوب ، وقد يتفق جملة من الاولاد ويطلعون بطيراتهم أحد الجبال التي تعد في وسط البلدة ، ويتبارون بها وإطارتها إلى الجو السحيق .

ومن الألعاب التي يمارسونها لعبة « المدوان » وهو عبارة عن قطعة من الخشب مخروطية الشكل في الذيل الرفيع فيه مسمار قصير ليدور عليه المدوان ، وطريقة اللعب به أن يلف خيط على المدوان لفا متلاحقا ، ثم يجذف ليفلت من الحبل ، ويدور . يقع هذا بين طفلين او عدة أطفال يتبارون ؛ من منهم يكون مدوانه أسرع دورانا وأطول مدة .

ومثله « المرصاع » إلا أنه يتخذ من ثمر شجرة الدوم ، ويخرط ، ويفرغ جوفها ، وتثقب من الوسط من جانب واحد ، ويغرس في أعلاها عود نافذ طرفه لأسفلها لتدور عليه ، فيلف خيط على العود لفاً متلاحقاً بانتظام ، ثم يؤخذ طرفه ويمرر من خشبة صغيرة مثقوبة يمسك باليد ، وطرف الخيط في اليد الثانية ، تسحب الخيط لينفلت «المرصاع» ويدور ، فإذا دار دخل الهواء من الثقب الذي في الوسط فاحدث صوتاً عاليا ورنيناً .

قد اكون قصرت في ذكر بعض الالعاب أو نسيت بعضها فقد اندثر

معظمها ، أو كلها ، ولم يعد لها ممارس .

ومن وسائل التسلية للاطفال وخاصة في عيد رمضان « المدارية » وهي عبارة عن دائرة على وضع مخصوص ، معلق في أطرافها صناديق من الخشب أشبه بالمهد، معلقة على أعواد من الجوانب ، وعلى شكل مخصوص يمكنها من الدوران واللف . يركب الاطفال في الصناديق ، وتدور بهم من أعلى إلى أسفل ، عن اشواط ويسمونها « صناديق العيد » .

ومن الالعاب في عيد رمضان لوحة معلقة من أطرافها الاربع بحبال ، مربوطة في مداد افقي ، يعلو اللوح طفل أو طفلان ، وينفخانه جيئة وذهابا .

أما اليوم فإن اللعبة المفضلة على سائر الالعاب لعبة « كرة القدم » يشترك فيها الكبار والصغار وأصبح لها من الكبار النوادي والفرق والجماعات . واللعبة يقال إنها من إبتكار الانجليز ، فهي لعبة عرفت عن الغربيين ، وصار لكل فريق جمهور يتحيز له ويصفق له أثناء لعبه أو فوزه على الفريق الأخر ، لأن المباراة تقع بين فريقين ، في الأغلب ، كما هو مشهور ومعروف هذه الايام ـ وكثيراً ما يقع الشجار بين جمهور المتفرجين لما يجر اليه هوى المشايعة والتحزب لفريق دون الآخر، حتى حينما تذاع اللعبة في التلفزيون ويفوز فريق على الآخر يحدث ذلك بين المتفرجين ، فانك ترى الناس جماعات جماعات ، في المقاهي التي يكون بها تلفزيون ، يستمعون ويعلقون . وقد صار الصغار من الاطفال يحاكون الكبار في لعبتها في الأزقة او الأماكن الخالية ، وأصبحت هي اللعبة المفضلة لدى الجميع .

على أن النوادي والمدارس اتخذت أيضا بعض الالعاب المعروفة عن الغرب مثل « كرة السلة » ولعبة « التنس » وغير ذلك من الالعاب الغربية .

وقد كان مما يتلهى به الاطفال ، من وسائل التسلية ، أمثال الدمى وغيرها ، فقد كانت ام الطفل تصنع لطفلها شاخصاً على شكل إنسان ، تتخذه من الخروق أو الاقمشة البالية لدى أهل البيت ، كما كان يجلب مع بعض زوار

المدينة المنورة ، من جملة الهدايا هياكل من طين على شكل جمل يركبه ، وغير ذلك من الوسائل البدائية المحلية .

اما الآن ، فقد أصبحت تلهية الطفل والاولاد ، بلعب من مصنوعات أوربا واليابان ، لعب تشابه ما جد من وسائل الحرب وألآته ، وغير ذلك من أمثال السيارات ، والقطارات ، والطيارات والمدافع ، والدبابات ، كما هو مشاهد في هذه الايام . وسبحان مغيِّر الاحوال !

وسائل التسلية عند الكبار

أما وقد انتهينا من وسائل التسلية عند الصغار ، وما آلت اليه ، فلنذكر ما كان من وسائل التسلية عند الكبار وما جد من ذلك .

كانت التسلية لدى « فُتُوَّات » المحلة او اولاد الحارة ، كما يسميهم المكيون ، وأهمها وأحبها اليهم « المزمار » . وللعبة المزمار هذه طبول يسمونها « العلب » تتكون ، في الغالب ، من ثلاث طبلات من النحاس او الفخار على شكل نصف كرة ، ومعها طبل صغير يسمى « نقرزان » . الطبول الكبار يكون الدق عليها باليد ، أما الطبل الصغير فيضرب عليه بعصا صغيرة ، ويتجمع من تهيأ للعب إما خارج البلدة ، أو في ردهة واسعة رحيبة تكون في الحارة ، ويوقدون ناراً من الحطب الجزل ، والغاية منها الإنارة ، لأن أغلب ما يكون اللعب ليلا ، كما إنه إذا تراخى جلد الطبل من أثر الضرب عليه ، قربوه من النار ليشتد ويحسن صوته . ويلتفون حلقة حول النار ، ويجلس الضاربون على الطبال في قسم من الحلقة ، ولهم نقر وطريقة خاصة عليها تتفق مع الهزج الذي ينشدونه من الأغنيات الشعبية ، أمثال « يا سارية خبريني عما جرى خبريني » وغير ذلك من الأغاني ، ومما أخذ الراديو التلفزيون يذيعانه في أيامنا الحاضرة ، كأغنيات شعبية « فلوكلور » . وباقي من يريد اللعب وقوفا في الحلقة ، في يد كل منهم عصاه ، فيسمونها « الشون » ، فإذا بدأ النشيد ، نزل اثنان من اللاعبين وأخذا يرقصان دائرين حول النار ، ملوحين بعصيهما على طريقة اتقنوها ، منهم

من برع فيها . فإذا استملح البقية رقصتهما، نزل واحد واخذ قمشة من تراب نثرها على النار قائلاً : « شوية شوية وكمان شوية»، وهي كلمة يقصد منها أن يستمرا في اللعب ، وهكذا يتعاقب اثنان اثنان والطبول تدق ، وبقية الجماعة يغنون ويصفقون .

وقد يأتي على صوت الطبل ، أو السماع باقامة الحفل ، بعض « فُتُوَّات » الحارات الأخرى المجاورة، للمشاركة في اللعب ، وينتهي اللعب بسلام . وقد يكون بين بعض أهل الحارة التي اقامته ، أو من جاء من الحارات الأخرى ، حزازات على من في الملعب ، فينزل إلى مضايقته ويتكرر ذلك منه ، فيضيقان ذرعا به ، فيقرع عصاه في عصا الأخر ، ويجر ذلك الى التنابذ بالقول ، فتقع المضاربة والشجار ، ويتشيع كل فريق لمن يلوذ به ، وتبدأ « الهوشة » التي سبق ذكرها عند ذكر الحارات ، وتنتهي بأن هذا مضروب في رأسه يسيل دمه ، وهذا مضروب في كتفه ، وهذا مضروب على وجهه ، أو مكسور بعض أعضائه ، والى آخر ما يجر الحماس والنعرة الجاهلية . لهذه الاسباب ، ولأن المزمار من عمل الشيطان ، فقد حرمت الحكومة الحاضرة هذه اللعبة لما تجره من مفاسد ومشاكل وهوشات ومشاجرات .

ومن وسائل التسلية عند أهل الحارة ومن في طبقتهم يسمونه « الصهبة » وذلك أن يجتمع من يعتزم إقامة الحفل ، بعد أن يكونوا قد هيأوا المكان ، وغالبا ما يكون في العراء ، في إحدى رحبات المحلة ، ويبدأ المغني يغني بأناشيد غزلية من ذات الوزن الخفيف ، أمثال :

غيري على السلوان قادر   وسواي في العشاق غادر

وأمثال :

بان ساجي الطرف والشوق يلح   والدجى إن يمض جنح بان جنح

وللتصفيق المكان الأول لدى الجماعة ، لكنه تصفيق تجارى فيه نغمات

المغني مع ترديدهم لما يقوله .

ومن وسائل التسلية الصامتة ، وكانت كثيرا ما تكون في المقاهي ، لعبة « الدومينو » ويسمونه (الضومنة) ، وهي لعبة دخيلة شاع استعمالها في زمن ما ؛ وكذلك لعبة « الدامة » ويشاركهم في هذه الالعاب الطبقة المتوسطة .

ولعبة أخرى تسمى « البشيس »[1] وهي مكونة من رسوم على قطعة من القماش ، على شكل صليب ، في أجزائه خانات مربعة ، ولها قطع مثل قطع أحجار الدامة ، وبضعة ودعات[2] يأخذ اللاعب الودع وينثره على وسط الرقعة ، ولاشكاله التي يستقر عليها أحكام يسيِّرون بها الاحجار في الخانات ، لا اعرف الكيفية المتعارف عليها بين اللاعبين .

ومن الالعاب التي يشترك فيها الطبقة المتوسطة وغيرهم لعبة « النرد» ويسمونها « الطاولة » ، وهي معروفة لا تحتاج الى شرح .

ولعبتان أخريان يختص بهما العلية من الأهالي ، وهي لعبة « الشطرنج » وهو أيضا معروف ، ولعبة « الكنجفة » وهي لعبة أظنها هندية ، عرفت عن الهنود ، مجموع قطع اللعب ست وتسعون قطعة ، عبارة عن قطع من الورق السميك ، مدورة في حجم الريال الفضي ، عليها نقوش بعضها تمثل « بوذا » ؛ لكل مجموعة من القطع أسماء نظمها بعضهم فقال :

جثك قماش براءات ذهب يأكلن بالأقل أكل المنتخب
والفضة البيضاء التاج والسيف يأكلن بالكثير مع عبد الجلب

وهي كما يظهر ثمانية انواع ، كل نوع يكون وحدة من ملك ووزير إلى آخره ، وفيها قطعة تسمى : « ملك الذهب » ويسميها بعضهم « أبو طافش » . يلعب هذه اللعبة ثلاثة أنفار ، يعطي لكل نفر اثنتان وثلاثون قطعة بعد خلطها في

---

(١) تعرف في بلاد الشام ولبنان برجيس .
(٢) المعروف ان عدد الودعات : ست .

بعضها البعض ، فمن ظهر في قسمه « ملك الذهب » أو « ابو طافش » لزم اللاعبين الآخريين ان يعطيه كل واحد منها قطعتين من قسمه ، وهذه اللعبة انقرض لاعبوها أو كادوا .

ومن الالعاب التي شاعت في أواسط العقد الثالث من القرن الرابع عشر ، لعبة « الكوتشينا » وهي لعبة دخيلة ، يسميها أهل مكة لعبة « الاسكانبيل » وهي تتكون من أربع وخمسين قطعة من الورق المقوى ، على بعض قطعها نقط من الواحد الى العشرة ، ذات الوان مختلفة ، لكل لون وشكل اسم مخصوص ، وتنفرد ورقة منها عليها رسم كاريكاتوري لشخص يسمونها « الجوكر » ، وأوراق اخرى عليها رسوم بنات وشباب وشيوخ . والذي اعرفه من أنواع العابها ، فان لها عدة انواع من اللعب ، منها «الباصرة » وهذه يلعبها اثنان متقابلان ، يقسم الورق بينهما ، ولعبة « الجوكر » وهذه يمكن أن يلعبها أربعة ، ويمكن أن يلعبها ثمانية اشخاص ، ينقسم فيها اللاعبون الى فرقتين . ولعبة ثالثة يسمونها « الهندية » يلعبها أربعة انفار ، كل اثنين مع بعض . ولعبة « البلوت » وهي « كالهندية » كل اثنين مع بعض ، وغير ذلك من اشكال اللعب مما لا اعرف كيفية الوضع في العابه .

وقد ولع المكيون بهذه اللعبة وكثر تعاطيها في اجتماعاتهم من أواخر عهد الاشراف وأوائل العهد الحاضر ، وأخال انه قد قل شغفهم بها لتطور الأحوال ، وضيق وقت الفراغ عند الكثيرين ، على انه لا زال يوجد من يمارسها حتى الآن .

ومن الألعاب التي طرأت لعبة « الكيرم » ، وهي من الالعاب الحديثة الدخيلة ، ويطول شرح وصفها .

ومن وسائل التسلية في الاسمار والمناسبات الغناء ، والاجتماع عليه ، ويسمون المغني « الجسيس » ، فاذا خرجوا للنزهة في أطراف البلدة صحب الجماعة ، ويقولون عنهم « البشكة » إما جسيس محترف أو هاو ، وحتى اجتماعهم للسمر في الدور قد لا يخلو من « جسيس » عندما يريدون ذلك ، ويسمون قطعة

الغناء « مجس » وقد يكون « الجسيس » ممن يحسن ضرب العود ، وقد يكون غيره ممن يحسنه مصاحباً له ، وقد يكون معهم الضارب « على الرق والمصقع » ، و« الرق » عبارة عن طار صغير ، و« المصقع » عبارة عن طبلة ذات شكل مستطيل من الفخار . أما العود ويطلقون عليه « العود الصغير » او « اليماني » ، فيصنع محلياً من خشب القفل ، لأنه خشب خفيف صالح للتجويف والتحوير ، وهو الذي جرى ذكره في تطييب الماء بدخانه في فضل المشروبات ، وحتى جلدة الطبلة ، والطار ، وأوتار العود ، كل ذلك يصنع محلياً .

وكان إلى نصف العقد الثالث من القرن الرابع عشر ، من المشهورين في اتقان الضرب على العود الصغير والغناء اليماني ، شخص اسمه « سراج » ولكنه بالكنية وهي « أبو عمر » ـ أشهر .

بهذه المناسبة ، أذكر ان من التقاليد المقبولة لدى المكيين ، ان يكنى من اسمه « سراج » « بأبي عمر » ومن كان اسمه « عمر » « بأبي سراج » . وإن لم يكن له ولد بهذا الاسم . وكذلك من اسمه « حسين » « بأبي هلال » ومن اسمه « حسن »«بأبي علي » ومن اسمه « علي » « بأبي حسن » ومن اسمه « عبد الرحمن » بالوجيه » وغير ذلك مما لم أتذكره الآن ولم يحضرني . .

وممن تلا أبو عمر وصارت له شهرة في الغناء إبراهيم بندقجي ، وصالح حلواني ، وإسماعيل كردوسي ، وحسن جاوا . وهذا الاخير كان يحسن مع الغناء الضرب على العود . ومن شهر بالغناء والصوت الحسن « محمد ركن[1] » وكل هؤلاء قد توفوا ، ونشأ غيرهم ممن لا أعرف اسماءهم .

ومما عرف مع العود الصغير ، العزف على القانون ، ولكن استعماله في سابق الوقت يكاد يكون مقصوراً على العلية من الأهلين ، لكن العود الصغير

---

(١) والانغام المتداولة بمكة هي الانغام المعروفة وتجمعها كلمة (بحمر دسج) فالباء (بنجكة) والحاء (حجاز) والميم (ماية) والراء (رصد) والدال (دوكة) والسين (سيكة) والجيم (جاركة) . ومنها يتفرع بعض الانغام الأخرى ، ومن الاغاني المعروفة بمكة وكثيراً مايتعاطاها سكان الأطراف والطائف غناء يسمونه المجرور .

شائع ومتعاطى به السمر من الجميع . وأخيراً عرف الكمان ، والعود الكبير ، والرق ذو الشناشن ، وأخال ان ذلك عرف لدى المكيين عن طريق مصر وفي عهود ليست ببعيدة .

هذه الاشياء حظرت الحكومة الحاضرة في مبدأ استيلائها على مكة الاجتماع عليها ، بل حتى على الغناء وحده ، وأصبح إتيانها مما يعاقب عليه . فكان الناس قبل التطور الاخير ، وتفشي أجهزة « الراديو » أو « المذياع » ، كما يحلو للبعض أن يسميه ، يسمعون الأغاني منه خفية في البيوت وبصوت خفيض ، أو يخرجون بالجهاز خارج البلدة ، خصوصا في ليالي حفلات « أم كلثوم » التي كانت وما زالت تقام في القاهرة في اوائل كل شهر ، وفي المناسبات . أما بعد أن تأسست الاذاعة بجدة ، وعقبها التلفزيون ، فلم يعد حاجة إلى التخفي ، وصارت كل اسرة تملك جهاز راديو تسمع فيه الغناء ، وكل أسرة تملك تلفزيوناً تشهد ما تقيمه إدارة التلفزيون على الشاشة من حفلات متنوعة . وأصبحت آلات الطرب تباع جهاراً في الاسواق ، وقد تنوعت أشكالها وزادت عما كان معروفا ، مثل « الناي » « والجونيش » وغير ذلك ، والامور بيد الله يقلبها كيف شاء سبحانه ، لا معقب لحكمه .

ولا يفوتني أن أذكر انه مما فشا إستعماله من آلات السماع الحديثة « الفونغراف » وكانوا يسمونه « صندوق الغنا » وعلى ما ذكر لي أن أول من جلبه لمكة رجل سوري جاء به ، وصار يدور به في الأسواق ، ويعرضه بسماعات ، توضع في الاذن ، يسمع فيها الشخص منفرداً ، ما كان مسجلا على الاسطوانة ، ويأخذ على سماع كل اسطوانة جعلا .

وكان الفونغراف أول ما عرف ، كانت وسائل تسجيل الغناء فيه على قوالب اسطوانية ، وكانت مما يمكن محو ما تسجل عليها وتسجيل غيره ، ثم تطورت الآلة بعد ذلك ، وصارت تسجل بسجل على اسطوانات مدورة مسطحة ، والتسجيل فيها ثابت غير قابل للمحو . وصنع للآلة مكبر للصوت . وفشا أيضا استعمال

هذا النوع في الحجاز ، وأظن ان ذلك عرف في أوائل الثلاثينات من هذا القرن .

ولما كان الموالي من أهالي افريقيا كثيرين بمكة ، كانت لهم العاب مخصوصة دالة يعزف عليها يسمونها « الطنبور » وكانوا يجتمعون للسمر والعزف على هذه الآلة ، وتسمى حفلة السمر « الطنبورة » وكان بعض الافراد منهم يربط على وسطه عقوداً من أظفار الأغنام وأظلافها ، فاذا رقص بها سمع لها خشخشة يطرب لها جمعهم .

ما كان من وسائل النقل والتنقل
داخل مكة والى المدن الرئيسة في الحجاز
وما آلت اليه في وقتنا الحاضر

كان مدار النقل والتنقل في داخل مكة على الحمير والبغال والخيل ، أما الجمال فكان النقل والتنقل عليها الى المدن الرئيسية في الحجاز ، وقد يكون على الحمير والبغال أيضا .

وأما الخيل فكان التنقل عليها يكاد يكون خاصاً بالاشراف والامراء عدا بعض أفراد من علية القوم ، كما كان بعض علية القوم مطيتهم البغال ، أما الحمير فهي الوسيلة الشائعة لدى الجمهور .

وكان لهم بها عناية وتجميل لبراذعها ، منها نوع يسمى « التراسية » وهو شكل متواضع ، ثم « المقعد » وهو اجمل التراسية في الشكل ، يعمل لهذين النوعين شرَّابات تتدلى على الجانبين مما يلي كفل « البهيم » ، تصنع من خيوط الصوف المختلف الالوان ، وكان لهما صناع مخصوصون ، ويستعمل أيضا نوع ثالث يسمى « القولاني » ، وهو شكل بين المقعد والسرج ، ولا تصنع له شرابات ، وأغلب ما يوضع على البغال .

وإذا كان الحمار لين المركب ، سريع الجري ، علا ثمنه وتنافس الناس في اقتنائه ، فقد تصل قيمة الحمار ذي المزايا المنوه عنها إلى نحو مئة جنيه ، وناهيك لما للمئة جنيه ذهباً من قيمة في تلك الايام ، فانها على حد تعبيرالمكيين«رأس مال»

يصلح لأن تقوم به تجارة .

أما النقل والتنقل بين جدة ومكة والمدينة والطائف ، فالجمال في الأحوال العادية ، وعليها الشقادف ، وإستعمال الشقادف قديم ، نوه به ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٨ هـ وابن بطوطة .

والشقدف عبارة عن كرسيين بطول الشخص المتمدد ، متماثلين ، لا يستقل احدهما بالوقوف دون الأخر ، بحيث يصلحان للشد والربط على ظهر الجمل ، ويعلو كل قسم قبة على شكل نصف دائرة من أعواد الشوحط القابل للثني ، بحيث إذا ربط على ظهر الجمل بالحبال شكل القسمان قبه كاملة ، يسدل عليها ستر للوقاية من الشمس نهاراً ، ومن البرد ليلا ، وقد يتغالى بانواع الستر ، ويكون الستار على انواع مختلفة ، بعضها أبسطة من القطن ، يسمونها « حنابل هندي » جرى وضعها في المفروشات ، أو من الصوف ويسمونها « حنابل مقصص » وكلاهما مما يصلح للفرش ، وعلى جانب كل شق أجربة يسمونها « مخالي » واحدتها « مخلاة » يوضع فيها ما يحتاجه الراكب من مرافق ، بعد أن تفرش أرض شقي الشقدف بالمراتب او اللحف من القطن ، بحيث إذا اراد الراكب أن ينام ، نام براحة تامة ، وقد يتوسط بينهما راكب ثالث على ظهر الجمل بين الشقين ، يسمى المكان « الوسك » . وعلى جانبي الشقدف من جهة الواجهة التي يدخل منها الراكب الى داخله ، تخاط مكتلين صغيرين مخروطي الشكل من الخمص ، توضع بداخلها شراب الماء ، والغالب نوع منها يسمى « الربعي » يتناول منها من بالشقدف الماء للشرب عند الحاجة .

وسقف الشقدف العادي المكون من أعواد الشوحط يلبس عادة بالخيش ، ثم بما ذكرنا من ستائر ، وبعض الشقادف يتأنق بها أربابها ويكون سقفها مسطحاً لا مقببا ، وجوانب الشقدف مستورة بخيوط الخيزران تجديلا كما هو في مقاعد الكراسي الخيزران المعروفة « الدايزين » التي توضع على وجه كل شق من الشقدف ، تصنع من الخشب الملكك على شكل مزخرف شيق المنظر .

وتكون في جانبي الشقدف نوافذ يطل منها الراكب ، إن أراد ، وتكون ستارة الشقدف إما من الجوخ او المخمل مفصلة على مقاس الشقدف ، ومحلاة بشريط من الحرير لزخرفتها .

ومن المعتاد أن تكون أجرة الجمل الذي يحمل عليه هذا الشقدف ؛ إما مضاعفة ، أو باجرة ونصف من أجرة الشقدف العادي ، لأنه ثقيل لا يستطيع حمله كل جمل ، ويقولون عنه : « شقدف خيزران » .

كما كانت توجد وسيلة أخرى يستعملها الأمراء ، وعلية القوم وأولو الثراء ، ويُعرف بـ « التختروان » . وهناك ايضاً وسيلة أخرى يستعملها علية الأهالي ، والامراء ، وهي أيضا تصنع من الخشب مربعاً ، وجوانبهما مسترة بمجدول الخيزران ، وفي كل جانب شباك يمكن للجالس فيه أن يطل منه ، وله أربعة سواعد ليحمل بها على الدابة ، وهي غالبا تكون من البغال ، بغل من الامام ، وبغل من الخلف ، تُشد كل ساعدين على بغل .

هذه الوسائل في السفر تستعمل ممن يريد الراحة ، ولا يهمه طول الوقت في الرحلة ، لأن سير الجمال وئيد بطيء ، فهو مريح ، لذلك فالسفر عليها إلى المدينة مثلا يستغرق ما بين عشرة أيام ، أو اثني عشر يوما ؛ فالسير بها يكون ليلاً وفي طرفي النهار ، أما اذا حميت الشمس ، فالمقيل في احدى المحطات ، وما كان اكثرها في طريق المدينة ، وحتى الى الطائف ، وقت المصيف ، فان السفر عليها يستغرق ثلاثة ايام من الطريق المعروف « باليمانية » أو طريق « السيل » .

أما من كان ذا احتمال ويريد اختصار الوقت ، خصوصا ، ما بين جدة ومكة ، أو مكة والطائف ، فالسفر عندئذ يكون عن طريق « عقبة كرى » . ولكلا الجهتين حمَّارة مخصوصون ، فحمَّارة ما بين جدة ومكة معروفون ، وعليهم شيخ ، ولهم مقهى يجلسون فيها بمحلة الشبيكة تعرف بـ « قهوة الحمارة » ، يجلسون فيها لتلقي الطلبات . وكذلك حمَّارة السفر الى الطائف عن الطريق المذكور لهم مقهى يجلسون فيها ، ولهم شيخ ، يلجأون إليه عند الحاجة . وسبب

التفرقة أن الحمير التي تسير بين جدة ومكة لا يتيسر لها المسير في « عقبة كرى » لوعورة الطريق ، وعسر السير فيه إلاَّ على حمير متمرنة عليه ، ويطلق على مقرهم في الخريق « الموقف » .

ويحضرني بيتان غزليان للسيد « حسن سحرا » ، من شعراء أوائل القرن الرابع عشر ، فيها تورية في كلمة الموقف وهي :

ومكاريا عاينت في وجناته   ورداً يلوح وجلناراً يقطف
أخذ الكِرا منى وأحرمني الكرى   بيني وبينك ، يا مكاري الموقف

والمسافر بين جدة ومكة يقضي ليلة كلها سهر إلى أن يصل ، وكذلك إلى الطائف وان كانت المسافة أطول ببضع كيلومترات .

وكان البريد بين جدة ومكة والطائف عن طريق شيخ الحمَّارة ، يسلمه المرء الرسالة ، فيجمع ما يسلم إليه من رسائل ، ويبعث بها إلى شيخ حمَّارة جدة ، فيتولى توزيعها ، وبالعكس ، وهكذا إلى الطائف ولدى كل شيخ أناس مخصوصون لتوزيع الرسائل على أصحابها .

استمر ذلك حتى بعد أن أسس الوالي « عثمان نوري باشا » إدارة للبريد ولا أحد يتقيد بالإرسال عن طريق البريد ، بل تسلم إليه الرسائل رأساً ، وحتى ما يتجمع في إدارة البريد ، وأغلبه الرسائل الرسمية، ترسل عن طريق شيخ الحمارة . دام ذلك إلى أن ثار الشريف « الحسين بن علي » أمير مكة على الحكومة العثمانية ، واستقل بالبلاد ، فحظر على شيخ الحمارة قبول الرسائل ، وصارت كلها عن طريق ادارة البريد . هذا بالنسبة الى تبادل الرسائل في الداخل ، أما إلى الخارج فعن طريق إدارة البريد ، وكذلك ما يرد من الخارج فيوزع عن طريق ادارة البريد . وكانت إدارة البريد في بناية صغيرة على مدخل باب الوداع إلى المسجد ، وسيأتي بيان واضح عنها في فصول قادمة .

ومع أن تسيير السيارات قد نشأ في العالم ومتداولة الناس ، وأصبح معروفا

فإن الشريف الحسين ما كان ليرضى أو يرتاح لاستعمالها في الحجاز . بدعوى انها ستعطل وسائل النقل بالجمال ، وستتضرر البادية من ذلك ، لأن مدار نقل الحجاج كان على جمالهم ، ولم يتيسر التنقل بالسيارات بمكة إلا في فجر عهد الحكومة الحاضرة الزاهر وكان ذلك في عام ١٣٤٥ . . ولما عرفت السيارات وأصبح من المتيسر السفر عليها ، كانت قليلة الوجود وأجورها غالية ، لما تتعرض له السيارة من تلف وسرعة اضمحلال لوعورة الطريق فقد كان كما خلقه الله .

أما ونحن في العقد التاسع من القرن الرابع عشر ، وقد تعبدت الطرق بين مكة وجدة والمدينة ، وذللت عقبة جبل كرى وعبد الطريق الى الطائف ، تكاثر وجود السيارات بحيث يخيل لمن ينظر إليها وهي تسير في وسط البلدة على طرق معبدة ، أنها أكثر من الأناس والسكان ، ورخصت الأجرة ، وأصبح أغلاها الى جدة ثلاث ريالات ، والى المدينة عشرين ريالا ، وإلى الطائف أربع ريالات للنفر الواحد . هذا في الأيام العادية ، أما تنقلات الحجاج فلها نظام خاص ومحصور في شركات معلومة ، وذلك لتأمين سفرهم دون التعرض لمشاكل . وسيأتي بعض التفصيل عنها في فصول قادمة . ومما عرف بمكة من وسائل التنقل « الباي سيكل » ويُعَبّر عنها « بالدراجة » على نوعيها العادية والنارية .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية عرف في المملكة السفر بالطائرات وأنشئت في أمهات المدن المطارات[1] اللازمة فأنشىء في جدة مطار ، وفي المدينة مطار ، وفي الطائف مطار ، وفي الرياض مطار ، ولا زالت المطارات تنشأ في غيرها من المدن ، وأصبح السفر بها مألوفا إلف السفر بالسيارة .

ومن وسائل النقل التي كانت معروفة قبل عهد السيارات « النياق » جمع

---

(١) أول مطار أنشىء في المملكة كان إبان الحرب العالمية الثانية ، أنشأه الأمريكان بالظهران ، وقد سلم هذا المطار بعد انتهاء الحرب وإنتهاء الغرض منه إلى الحكومة ، أما أول مطار انشأته الحكومة ، فيغلب على ظني ، أنه مطار جدة » .

« ناقة » بعد تدريبها على الدرهمة في السير ، ليكون سيرها أسرع ، ويطلق عليها المكيون « الركاب » وفي الافراد « الذلول » أي المذللة ، ولكنهم ينطقونها بالدال « الدلول » ، وأكثر ما يستعملونها في زيارة المسجد النبوي ، والقبر الشريف .

عادات وتقاليد

وعلى ذكر زيارة المسجد النبوي والقبر الشريف ، فقد كان من العادات التي زالت في مظهرها ، قيام المكيين بالزيارة في شهر رجب جماعات ، وكانوا يتحينون أن يكونوا بالمدينة ليلة « المعراج » ، فقد كان الاحتفال بها رسميا في يوم ٢٧ رجب وكانت تتخذ عيداً .

يجتمع أهل كل حارة ممن يقصد الزيارة ، ويؤلفون جماعة يطلق عليها الركب ، ولكل محلة ركب مخصوص مستقل في سيره وسفره ، يبدأون بالتهيؤ لذلك من شهر جمادى الثانية ، وكانوا للتشويق لذلك ، يقيمون اجتماعات في كل ليلة وفي كل حارة، وبالأخص في الرحبات القريبة من المسجد . ابتداء من بعد صلاة العشاء والمغرب أحياناً ، ويكونوا قد اتفقوا مع أحد أرباب الأصوات الحسنة ، الملم بالغناء ، فيبدأ بالتغني بالمدائح النبوية ، ويسمون هذا التجمع والعمل « صلوات » ، فتجد مكة في هذه الليالي تعج بهذه الصلوات . ومن أوائل شهر رجب يأخذون في التجهز للسفر ، هذا على ذلول من النياق ، وذلك على حمار أو بغل ، ويزينون سائر الدواب ، الحمير بالمقاعد الممتازة ؛ والركاب بالخرج المخصوصة ذات الشَّرابات من الصوف المختلفة الألوان ، ويسمون مجموع رحل الذلول « البتات » ، ومن المعتاد أن يصحب ركب كل حارة « جسيس » مغني يسمونه «الحادي» ولما كان الجسيسون يختلفون من حيث حسن

الصوت ، وإجادة الغناء ، تقع المنافسة بين أهل الحارات للاستئثار بالأحسن صوتا ، ويبذل له الأجر الوافر ، بل الباهظ أحياناً ، وقد يكون الجسيس من أقام لهم الصلوات السابق ذكرها .

وبهذه المناسبة ، إذ أرادت عائلة زيارة المدينة ، فقبل عدة أيام من الارتحال ، وعادة يكون الرحال على الجمال والشقادف ، يأتون في بعض أيام قبل السفر بمن يُقصّد لهم قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسمون المقصِّد « المُزَهِدْ » ويسمون العملية « تزهيد » ، وذلك إعلانـاً منهم بعزمهم على الزيارة .

وممن يصحب الركب في كثير من الأحيان ، بعض أفراد البدو ممن مساكنهم على الطريق ، ويسمونهم « الرَّفق » ، حتى إذا ما اعترض الركب في طريقه جماعة من احدى القبائل القاطنة على الطريق ، تصدى لهم « الرفق » وردوه بحسب العرف والالتزامات التي بين القبائل ، لان الركب يعتبر في خفارتهم ، ويكون ذلك مقابل أجر يتقاضونه على هذه الخفارة .

يتجمع الركب في ليلة السفر في « الشهداء » « حي الزاهر اليوم » ، ويظلون به ليومهم ، ليتفقد كل منهم ما قد يكون قد نسي ان يصحبه من المرافق ، وما يَعُده لازمـاً ، ثم يبدأون السير ، ومع كل ركب كما قلت جسيس ، ولكل منهم راية « بيرق » يجتهدون في تزويقها وتجميلها ، فقد يكون بعضها مطرزاً بخيوط الفضة المذهبة ، ويكونون قد نصَّبوا عليهم شيخا مدة سفرهم إلى أوبتهم . و(شيخ الركب) يفصل فيما قد يقع بين افراد الركب من خلاف او تشاحن ومشاجرة ، ويظل الجسيس يحـدو لهم طول وقت السفر ، فإذا قارب الركب المدينة تجمعوا في (المناخة) ، ردهة واسعة خلف ما كان على المدينة من سور ، ودخلوا المدينة وهم في أجمل زي ، ووقف الركب بجملته في رحبة باب السلام قبل التوسعة الجديدة للمسجد النبوي ، ويبدأ الحادي يقصّد لهم القصائد من المدائح النبوية ، فإذا انقضى وقت على ذلك تفرق كل منهم إلى

المسكن الذي هُيِّئَ له أو اختير فوراً ، وإذا تم وقت الزيارة المتفق عليها ، وانقضت ليلة المعراج ، عادوا أدراجهم ويمضون في الذهاب والإياب والإقامة نحو شهر .

واذا وصل الركب إلى مكة ، وكان أسرع (الركوب) وصولا ركب محلة الشبيكة ، لأنه يتألف الكثير منهم من ركبة الحمير ، ظل ليلة في « الزاهر » « الشهداء » ، كما فعل عند ذهابه ، وجاء ذوو افراد الركب بما يلزم كلاً منهم من الملابس النظيفة والجديدة ، ويكون من قد تأخر في السير من افراده قد وصل وادرك الجماعة . فيدخلون مكة في ترتيب وزي منسق ، يتوسط ركاب النياق شيخ الركب ، وعن يمينه حامل الراية ، وعن يساره الجسيس (الحادي) مشرعاً صوته بالغناء بالمدائح النبوية ، وقصائد التوسلات ، وما تشتمل عليه من أدعيّة وشكر وحمد على ما نالوه من الزيارة. يبدأون دخول البلدة على هذه الحال ، والجمهور من البيوت ، وعلى الطريق ، صفوفاً ، يشهدون مدخلهم وهم سائرون الهوينا ، إلى ان يصلوا الى الرحبة الكائنة بالصفا ، أمام بيت باناجة قبل أن تهدم البيوت وتدخل الرحبة والبيوت في توسعة المسجد . يظلون وقوفاً مقداراً من الوقت ، والحادي يحدو ، وافراد الركب يرددون الأدعية ، وهكذا يتوالى ركب كل حارة ، وقد يشترك في اليوم الواحد دخول ركبين يليان بعضهما ، إلى أن ينتهي وصول ركوب كل الحارات ، ويستغرق ذلك بضعة أيام كلها بهجة وسرور .

واذا انتهى كل ركب من الوقفة في الرحبة المذكورة ، تفرق أفراده كل إلى بيته ، ويكون أهله وذووه قد أعدوا له وليمة دعي إليها لفيف من الأصدقاء . وقد كانت هدية زيارته تصل إلى بيوت الأهل والأصدقاء في صينية من الخيزران ، يسمونها « معشرة » وتشمل الهدية على طبق او طبقتين من التمر ، وطبق صغير من الزعتر ، ومثله من الأشنان وشربة او شربتين من شراب الماء صنع المدينة ، فإنها أكثر تبريداً ، ورزمة من المراوح اليدوية ، فانها تصنع في المدينة مزوقة ، جميلة الشكل ، وقد تشمل الهدية على غير ذلك من دمى من الطين يصنعها زارع المدينة لعباً للأطفال جرى التنويه عنها في فصل سابق ، وأحياناً مجامر للبخور على نسقها .

بعد وصول الركوب تنقضي عدة أيام في الولائم وتوزيع الهدايا ، فلا تسمع فيها في المجالس أوليالي السمر ، خوصا إذا ما اشتمل على بضعة من الزوار ، إلّا حديث « عشينا ضحينا » أي نزلنا ضحوة ونزلنا عشية في محطات يسمونها . . . .

الزيارة الى المدينة لا زالت تمارس من الأهلين ، ولكن على غير ما وصفت ، فقد تتألف جماعة ، وقد تكون أسرة أو عائلة يستأجرون سيارة توصلهم الى المدينة في وقت لا يزيد عن ثماني ساعات ، فيزورون ويقضون في المدينة من الوقت ما ارادوا ، ويرجعون كما ذهبوا دون هذه الهيلمة التي وصفت .

وقلنا في سياق الكلام عن التقاليد التي كانت تتبع في زيارة المسجد النبوي ، ان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب يتخذ عيداً في سائر مدن الحجاز ، بل وفي سائر الأقاليم الاسلامية ، فلنأت بهذه المناسبة على ذكر ما كان يقام من أعياد ، عدا عيدي الفطر والأضحى بمكة .

ففي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب ، تفرش البسط خلف مقام الحنفي بالمسجد الحرام ، على البلاط الواسع الكائن هناك ، ومن قبل الغروب ، يبدأ توافد الخطباء وأئمة المقامات الأربع التي كانت بالمسجد ، بملابسهم الرسمية : (العمامة المدرجة ، والفرجية الواسعة الأكمام) ، ويقومون صفوفا على البسط ، وبعد صلاة المغرب يبدأ احدهم بقراءة قصة الأسراء والمعراج ، فإذا انتهى منها قام بالدعاء للسلطان ، ويكون قد حضر والي مكة التركي ، وبعض رجال الحكومة ، ومندوب من طرف أمير مكة من الأشراف ، أو هو بذاته ، ثم بعد الدعاء وانتهائهم من صلاة العشاء ، ينفض الاجتماع ، والمظهر الوحيد بين الأهلين هو شراء حلوى المشبك التي تكون قد صنعت في الأسواق ، والتهادي بها بين الأسر والعوائل .

أما الاحتفال بليلة النصف من شعبان ، فيختلف عما ذكرت ، ويقتصر فيه على تجمع بعض الأهلين في المسجد لصلاة المغرب ، ثم تحلقهم بعد ذلك جماعات لقراءة سورة ياسين ، ثم يرتلون دعاء النصف من شهر شعبان ، فان له دعاء مخصوصا بينهم ، ويقولون إنه في هذه الليلة يجري توقيت الأعمار ، وتقدير

الارزاق ، والحكم على المرء ، بأن يكون سعيداً او شقياً ، كما يعتقدون أن ماء زمزم يفور ويتصاعد حتى يصل إلى فوهة البئر ، او يفيض ، فترى الناس يتهافتون ، ويتسابقون إلى الشرب من البئر ويتزاحمون لأجل ذلك .

ومن طريف ما حكاه ابن جبير في رحلته للحج سنة ٥٧٨ هـ أنه سمع هذه الشائعة ، ولم يكن مما يعرفه من كتب الشريعة ، او وقف عليه في رواية معتمدة ، فاخذ حبلا في النهار السابق لتلك الليلة ، وقاس به بُعد مسافة الماء عن فـم البئر ، ثم زاحم تلك الليلة حتى وصل الى البئر ، وأدلى الحبل فاذا الماء قد نقص ، وبعدت مسافته عما أخذه في النهار ، وعلل ذلك بكثرة ما مُتِحَ من الماء بدافع هذه الخرافة[1] .

ومما اتفق في عام ١٣٨٨ هـ في شهر ذي القعدة أن هطل مطر غزير على مكة وشعابها في يوم الاربعاء الرابع منه فسالت منه الاودية بماء غزير دخل حتى تجاوز باب الكعبة ، وكانت الحكومة قد أهبطت بئر زمزم عن أرض المسجد ، ومن غزارة ما هطل على جبال مكة من مطر ، ومنها جبل « ابي قبيس » أحد الجبال التي تمد بئر زمزم بالماء ، صار معه البئر يتدفق ماؤه من الفوهة ، وظل ذلك بضعة أيام كما روى ذلك لي الثقة ، حتى أنه قال إن زمزم نظمت نفسها بنفسها لأن السيل جلب معه بعض الأتربة إلى المسجد ، ودام العمل في تنظيفه وقتاً فلعل منشأ هذه الخرافة أن وضع مثل ذلك في غابر الزمن ، في ليلة النصف من شهر شعبان ، فاعتقد العامة أن ذلك يكون دواما في كل سنة .

ومما كان يحتفل به بمكة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول ، ومكان المولد فيه ، وله سادن ، فإذا كانت ليلة الثاني عشر

---

(١) مما يدل على ان هذه الشائعة قديمة ما قاله تقي الدين الفاسي في كتابه « شفاء الغرام » . ومن خواص ماء زمزم ان يكثر في النصف من شعبان في كل سنة ، بحيث ان البئر تفيض بالماء على ما قبل ، ولكن لا يشاهد ذلك إلّا العارفون ، وممن شاهد ذلك الشيخ العالمي ابو الحسن المعروف بكرباج ٢٥٧/١ ، وما دام لا يراه إلّا العارفون فلا حاجة مني الى تعليق .

بدت السرج بالشموع ، وقناديل الزيت ، وزين المكان ، وجاء بائعو الحلويات بأنواع من الحلوى المصنوعة محليا ، على غرار ما يشاهد في القاهرة في مولد الحسين بن علي رضي الله عنهما، على دكاك تقام مؤقتا ، فيأتي الزوار لزيارة مكان المولد ، فإن من بني القبة عين حتى موقع إهلاله صلى الله عليه وسلم حين الولادة ، وجعل مكانه نقرة مجملة بالمرمر ، يطيبها السادن ، فيأتي الزوار يلمسونها بأكفهم تبركا ويقرأون الفاتحة ، وبجوار موضع المولد مكان يكون فيه بعض الدراويش من أهل الطرق ، يقرأون المولد ، ويقيمون حلقة الذكر[1] ، وإذا قضى الزائر أربه ، اشترى من الحلوى وعاد بها إلى بيته وأولاده . هذا ما يجري في المولد . ومن الأهلين من يقيم في بيته تلك الليلة أو يومها حفلة يدعو اليها من يريد من أصدقائه ، وعندما يتكامل جمعهم ، يقرأ أحدهم قصة المولد ، واكثر القصص ، قراءة وتلاوة ، القصة التي رتبها « الشيخ البرزنجي » من علماء المدينة المنورة ، وهي قصة مسجوعة ، وعند ذكر إهلاله في القصة قام الجمع وقوفا يرتلون كلمات الترحيب :

« مرحبا يا مرحبا جد الحسين مرحبا يا نور عيني » .

تمد الموائد بما تهيأ من طعام ، وينصرف بعد ذلك كل إلى شأنه .

ولسيدنا علي ، رضي الله عنه ، موضع مولد في نفس الشعب ، على مقربة من مكان مولده ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم تكن عليه قبة ، بل مبني على شكل مصلى ، وكذلك في محلة « المسفلة » دار لسيدنا حمزة على شكل مسجد ، ودار لأبي بكر رضي الله عنه ، عليه قبة ، يقام لهم فيها احتفال بيوم الولادة ، ولكن بأقل مما يقام في المولد النبوي .

كما أن بزقاق الحجر بيت السيدة خديجة رضي الله عنها ، وبالطبع فيه مولد السيدة فاطمة ، وهو بها أشهر ، وكان على شكل مسجد ، هو الآخر ، ولكن يمتاز

---

(١) هذه الأعمال غير جائزة دينياً .

بالتقسيم ؛ بجانب منه على أنه مختبأ النبي صلى الله عليه وسلم ، وجانب منه على ان يكون به ساعة نزول الوحي عليه ، كما ان في طرف منه فردة رحى يقال إنها قسم من الرحى التي كانت السيدة فاطمة تطحن عليها الحب .

قبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد سيدنا علي ، ومولد السيدة فاطمة هدمت جميعا ، هدمها جيش الإخوان حين دخلوا مكة تحت امرة الشريف خالد ابن لؤي أوائل عام ١٣٤٣ هـ .

وقد ظل مكانها فارغاً ارضا بيضاء ، إلى أن وفق الله المرحوم الشيخ عباس قطان ، فاستأذن جلالة المرحوم الملك عبد العزيز أن يبني في مكان بيت السيدة خديجة مدرسة لتحفيظ القرآن ، فأجيب طلبه ، ثم بعد فترة استأذنه أيضاً أن يبني في مقر المولد داراً لحفظ الكتب ؛ وكان والده « الشيخ يوسف » أوصى بمبلغ من المال لأعمال خيرية ، فاشترى مكتبة كان أنشأها في بيته المرحوم « الشيخ ماجد كردي » ، اشترى المكتبة وأذن له جلالة الملك بما طلب فأقام بناية في مكان المولد .

ومع الأسف قبل أن يتم البناء توفاه الله ، ولكن ورثته سلموا جميع ذلك إلى ادارة أوقاف مكة ، وهي بدورها بعد أن تم البناء نقلت إليه الكتب ، وزيد عليها ، وتأسست هناك مكتبة يرتادها طلبة العلم للبحث والمراجعة والمطالعة ، ولم يعد للاحتفال بالموالد وزيارة أماكنها من أثر ، وسمعت أن السيد « حسن الشربتلي » بنى في مكان مولد سيدنا علي مدرسة ؛ شغلتها مدرسة النجاح الليلية .

ومن القبور التي كانت عليها قباب في « مقبرة المعلاة » قبر السيدة خديجة و« السيدة آمنة » و« عبد المطلب » « وابو طالب » ، ويطلق عليها المكيون قبور الهواشم . كما أن على قبر « عبد الله بن الزبير » و« عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق » بنايات تميزهما كما كانت على قبر السيد « عبد الرحمن المحجوب » بناية ، وبجواره مسجد ، وعلى قبر « الشيخ محمود » بمقبرة جرول بناية أو قبة ، وكانت تقام لكليهما حفلات مولد خصوصا الشيخ محمود فكانت تنصب في ليلة

مولده دكاك لبيع الحلوى وتقام سرجات على قبره .

لما كان على قبر « عبد الله بن عمر » . بحي الزاهر المعروف لدى المكيين « الشهداء » قبة ومزار ، يقام له في ليلة الرابع عشر من الشهر زيارة وفي إحدى ليالي أحد الأشهر (لا اتذكره الآن) تزاد السرج ، ويسمونها الليلة الكبيرة ، ويخرج الناس إلى هناك للتنزه باسم الزيارة[1] .

هذه الابنية والقباب التي ذكرت ما عدا قباب قبور الهواشم هدمها الشريف « عون الرفيق » أمير مكة الأسبق ، ولم يكن هدمها لها بدافع تنبهه لما تجره هذه القباب والمزارات من مفاسد ، وإستذكاراً لما يفعله العوام عندها من محاذير يأباها الشـــرع وتأباها العقيدة الصحيحة السليمة ، وإنمـا هـي خطـرات من وساويسه ، بل كان ذلك منه بإغراء أحد النجديين القاطنين بمكة للإتجار من أهالي شقراء على ما أعلم ، وكان على جانب من العلم وسلامة العقيدة ويدعى « أحمد بن عيسى » كان يجالس الشريف عون ويسمر لديه في كثير من الليالي ، فأغراه على ما ذكرت من هدم القباب ، وعلى ما كان يتخذه المكيون من توشيح اولادهم بالحجب ، وبعض الصفائح من الفضة ، على شكل هلال أو قمر مكتوب فيها بعض سور القرآن وآياته ، وحتى بعض الكبار من العامة يتخذ مثل هذه الحجب ، وكان « الخزناويه » جلاوزة الشريف « عون » ينتزعون هذه التمـائم ممن هي عليه ، ويتخذون ذلك أحياناً وسيلة لقبول البراطيل .

كما أغراه على ما يأتيه بعض أهل الطرق من خلاعة ورفاعة فيما كانوا

---

(١) هذه الذي ذكرت هو الشائع لدى المكيين وما نشأت على سماعه ، إلَّا أنني وجدت في أخبار مكة للأزرقي ٢/٢٨٩ ان عبدالله بن عمر مات ودفن في قبور / ال عبدالله بن خالد بن أسيد ، قال ذلك عند الكلام على ثنية اذاخر التي تشرف على حائط خرمان ، ولكن المشهور اليوم بالخرمانية . وذكر الفاسي في « شفاء الغرام » ما يدل ان المدفون بحي الزاهر وعلى قبره قبة الى زمانه وهو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فيما قتل ومات معه في حربه مع محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس ، المندوب لقتاله من الخليفة الهادي العباسي وكان القتال يوم التروية سنة ١٦٩ هـ واخال ان حي الزاهر عرف بالشهداء من ذلك التاريخ والله اعلم ج ٢ ص/١٧٩ وحي الزاهر يعرف قديماً بفخ .

يسمونه حلقات الذكر ، خصوصا في حفلات الموالد والمزارات ، ولكنه أبقى على قبة قبر السيدة خديجة ، والسيدة آمنة ، والهواشم ، لأنه خاف أن يحدث هدمها ، خصوصا فيه قبر السيدة خديجة ، ضجة تعكر عليه صفوه وتعلل بأن هذه قبور أجداده وجداته .

وعلى ذكر أفعال بعض أهل الطرق وما يأتونه من حركات ، اذكر بعض أبيات قالها أحد شعراء بغداد وكان فيه شيء من اللعثمة يكاد يكون معها أخرساً ؛ كما أتذكر أن له ديوان شعر يسمى « الطراز الأنفس في شعر الأخرس » . هذا الشاعر رتبت له الحكومة العثمانية مرتبا فيه كفاف من عوز ، فأشار عليه بعض أصدقائه أن يشغل فراغ وقته في الانتساب لبعض الطرق الصوفية ، ففعل ، ولما لم يعجبه الحال انقطع عنها ونظم قصيدة ينكر فيها على أفعالهم ، علق في ذاكرتي منها هذان البيتان :

ومنها

ألا بلغ جنـــاب الشيـــخ عني غـداة يهز رأسـه ويدبـر دبـرا
أقـــال الله صـفق لـي وغنـي وقل هجراً وسمي الهجر ذكراً
ولـــو أن السيـــادة بـــاخضـــرار لكان السلق أشرف منك قدرا

فان العادة في العراق ، أو من كان علويا ، أو شيخا لطريقة ، إعتمَّ بعمامة خضراء يتميز بها . زرت بغداد على عهد الانتداب الانجليزي على العراق ، ودفعني الفضول وحب الاستطلاع ، إلى زيارة الكاظمية من ضواحي بغداد . فرأيت العجب العجاب من زوار العتبات المقدسة كما ينعتها الشيعة ، رأيتهم بمجرد وصولهم إلى عتبة باب الضريح خروا عليها سجداً ، ولاتسأل بعد ذلك عما يصنعونه عند قربهم من التابوت ، من الطواف به ، وتقبيله وغير ذلك مما تأباه العقيدة الاسلامية .

ثم في يوم آخر عرجت في بغداد على ضريح السيد « عبد القادر الجيلاني » لأرى ما يفعله أهل السنة هناك ، فإن لمقامه شأنا عندهم ،خصوصا عند مسلمي

الهند والصومال ، فما أن وصلت إلى باب الضريح ، حتى بادرني أحد السدنة ، وكان في زي العلماء ، وجـرني من يدي إلى الضريح ،وأخذ يقرأ الفاتحة تلقينا لي ، ثم أردف ذلك بـدعاء ، كله دعاء للشيخ ، وتوسل به ، وأنا صامت لا أنبس ببنت شفة ، وأخيراً انحنى على الضريح ، ودعبس بيده في أسفله وأخرج قليلا من التراب ، وصره في قطعة خضراء ، من الحرير الملمس ، وناولني إياها بالبركة ، ثم قادني الى حجرة له ، وهناك صنع لي فنجانا من الشاي ، ثم أخرج رسالة صغيرة على أنها سلسلة نسب الشيخ عبد القادر ، وطريقته ، ولما تصفحتها فإذا في طرفها « لا إله إلاّ الله عبد القادر شـي لله » بدلا من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذتني الدهشة ، أن يصل الإسفاف ببعض المسلمين إلى هذا الدرك ، وإذا لم يكن هذا هو الشرك ، فما هو الشرك اذن ؟

وليس هذا البلاء في العراق وحده ، فقد قدر لي أن أقيم بمصر عدة سنوات موظفا بدار البعثات العلمية السعودية، فشهدت من ذلك في ضريح السيدة زينب وسيدنا الحسين ، ما هو أشد وأنكى ، والطامة في ضريح السيد « البدوي » بطنطا ، فقد ذكر لي أن الخديوي عباس حلمي في عصره أجرى إصلاحات في ضريح السيد « احمد البدوي » ومسجده ، ثم عنَّ له في مأتاه من الإسكندرية أن يرى ما تم مما أمر به ، فلما دخل إلى الضريح وجد في داخل التابوت كومة من الأوراق ، ولما سأل عنها ، قيل له إنها أوراق شكاوى تقدم للسيد ، ومطالب يسألونه أن ينجزها لهم ، فأمر بأخراجها ليراها ويطلع على ما فيها ، فماذا وجد ؟ وجد غرائب وشكاوى يطلب فيها مقدمها أن ينتقم له السيد من خصم له ، وان ينزل به انواع البلاوي والمصائب ، وأمور من هذه المضحكات ، ولكنه ضحك كالبكاء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لقد أطلت القول ، فإن الحديث ذو شجون ! ولأبين للقارىء الكريم أن البلاء والمحنة في العقيدة كانت مطبقة على الكثير من بلدان المسلمين .

ولنعد إلى ما كنا بصدده ، قلنا إن الشريف « عون الرفيق » أبقى على قباب

قبور الهواشم ، وقد كان مزار قبر السيدة خديجة رضي الله عنها مفتوحاً دائماً للزيارة ، وكان له سادن مخصوص ، وتزداد العناية بالسرج في ليلة الحادي عشر من كل شهر ، لأنه يصادف ما أدري ؟ أهي ليلة الوفاة ؟ أم ليلة الولادة ؟ وفي ليلة الحادي عشر من الشهر المحقق لديهم مولدها ، أوقاتها تزداد السُرُج ، ويسمونها الليلة الكبيرة ، ويأتي باعة الحلويات التي سبق وصفها ، ويقيمون على حافة الطرق دكاكاً ينصبون عليها حلواهم ، ويأتي ايضا باعة بعض المأكولات الخفيفة ، ويتكاثر الزوار في تلك الليلة ، وتقام ، على ما يوجد من فسحات حول المقابر ، حلقات ما يدعونه بالذكر ، وبعض الدهماء والعوام يأتون بعائلاتهم وأولادهم ، ويبيتون تلك الليلة بين المقابر ، ولا تسأل عما يأتيه هذا الخليط من النساء والأولاد من استهانة بحرمة المقابر ، ووطأها ، والتبول حولها ، فإذا انقضت الليلة عاد كل شيء إلى سابق عهده ، وهذه العادة أبطلها الشريف « الحسين بن علي » فقد منع المبيت ، وباعة الحلوى ، واقتصر الأمر على الزيارة فقط .

ولما استولى جيش الإخوان ، وفي اول دخوله مكة ، هدم القباب وأزال أثرها ، ولما كان كثير من حجاج الأقطار الإسلامية لهم تعلق بمثل هذه الأمور ، رأت الحكومة الحاضرة ، سداً للذريعة ، أن تحجر القسم الذي فيه قبور « الهواشم » وقبر « عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق » ومنعت الدفن فيه ، إلا بإذن .

ومقابر المعلاة مهيأة لذلك ، لأنها شقان ، يفصل بينهما مطلع « ريع الحجون » ، وهي الآن طريق معبد مسلفت ، يصل الطريق بحي العتيبية، وعمل عند مدخله نافورة محاطة ببعض أشجار الزينة ، وفي وسط الميدان أقيم نصب تعلوه ساعة ناطقة بالزمن الغروبي .

ومن التقاليد التي كانت تؤتى ، أن معظم الأهلين يلتزمون في أول يوم من محرم ، وهو مبدأ السنة الهجرية الجديدة ، الافطار بالحليب تفاؤلا ببياضه ،

ولتكون سنتهم كالحليب ، مما يتضاعف معه في ذلك اليوم ثمن الحليب الى الضعفين وزيـادة ، ويكون موسماً من مواسم اللبانة . ومنها التشاؤم بيوم آخر أربعاء في شهر صفر ، ويزعم العامة أنه اليوم الذي ينفخ فيه في الصور ، فتراهم في أمسيته يخرجون إلى ما حول مكة من بساتين ، يعبرون عن هذا المخرج بأنهم يدوسون الخضرة ، وكثير من الأهالي يلتزم فيه صنع العيش باللحم على الطريقة التي جرى وصفها في فصل الأطعمة ، وهم وإن كانوا يصنعونه في سائر ايام السنة ، إذا اشتهوه ، إلاَّ أنهم في هذا اليوم يصنعه الكثير منهم ، حتى تكتظ الأفران به ، وحتى عرف هذا اليوم « بيوم العيش باللحم » .

هذه الترهات والأوهام أزالها انتشار الوعي والتعليم من جهة ، ومن جهة اخرى الاتجاه الفكري للحكومة الحاضرة المبني على إطراح البدع والخرافات . فذاب ذلك في الأذهان ، ولم يعد بهما اعتناء ، فقد يمر يوم آخر اربعاء في صفر دون أن يشعر أحد بمروره ، ويحل يوم أول محرم ولا يعنى أحد أن يفطر فيه بأي شيء ، اللهم إلاَّ إذا كان لا يزال بعض أفراد يعنى بذلك ، فالله أعلم .

والمكيون يطلقون على شهر محرم « شهر عاشور » من باب إطلاق الجزء على الكل ، فإن « يوم عاشوراء » هو العاشر من شهر محرم ، والكثير منهم يصومه ، والكثير منهم أيضاً يضع طعام العاشورية ، ويتهادون به .

وعلى ذكر المحرم ، فإنه الشهر الذي اعتاد المكيون أن يستأجروا فيه دورهم ، لأنهم يخرجون من أشهر الحج وموسمه بجر الجيـوب ، والعادة ، كما سبق القول ، قبل العهود الأخيرة ، وقبل تفشي العمارات المقسمة إلى شقق ، أن الدار تشغلها عائلة واحدة فقط ، ولم يكن مألوفاً سكن الشقق أو الأدوار ، كما أوضحت ذلك عند ذكر البيوت بمكة ، بل في النادر أن تسكن عائلة في دور من العمارة وطابق كامل .

والعادة أن يدفع المستأجر أجرة مسكنه كاملة من أول العام ، ولما كان ملاك العقار ، بالنسبة للمستأجرين ، قلة ، فكان الأمراء يتدخلون لحماية المستأجر من

عنت الملاك ، فبعد العشرة الأولى من شهر محرم ، يأمر الأمير بالنداء في شوارع البلد ، فقد كان الوسيلة الوحيدة لاشاعة الأوامر ، بما لفظه : « صدر أمر سيدنا ، وسيد الجميع ، أن لا يخرج ساكن من محله وأن الأجرة أجرة العام الماضي » . وهذا إذا كان الموسم عادياً ، أما إذا كان الموسم أو فر كسباً ، قدرت زيادة في الأجرة بحسبها ، وأضيفت في الأمر .

إلا أنه على عهد الشريف « الحسين بن علي » ، رأى أن تشكل هيئة ، سميت هيئة العقار ، تحال إليها شكوى المؤجر أو المستأجر للفصل بينهما بما فيه إنصاف للطرفين ، على أن لا يخرج الساكن من مسكنه إلَّا في حالات لا بد منها ، كأن تكون الدار ليس للمؤجر غيرها ، ويريد سكناها بنفسه ، وأمثال ذلك من مقتضيات مقبولة لإخراجه .

فلما آلت البلدة للحكومة الحاضرة ، جرت على نهج ما سبق لأن الملاك قلة ، وأكثر الدور ليست إلَّا للاستغلال ، وفي الاستجابة لمطامع الملاك إعنات وإضرار بالمستأجرين ، لأن المستأجر يكون قد وطد نفسه ، وبذل من ماله الخاص على تكيف الدار ، وتحسين حجرها ، ووافقها بما يلائم مصلحته ، وعلى كل حال « فالنقلة مثلة » كما يقولون ، تصعب على الكثيرين .

غير أنه في السنوات الأخيرة كثر اللجج بأن هذا الحد مخالف للشرع ، وان المالك حر في ملكه ، يفعل فيه ما يشاء ، فأطلقت حرية التأجير . ومع ذلك فقد حد من بعض الملاك شيء آخر ، وهو ان يشترط إذا أجر المستأجر داره للحجاج ، فيكون للمالك من الأجر كذا في المئة ، وهذا إعنات ، كما سبق القول للمستأجر فانه لا يؤجر داره للحجاج إلا بالتضييق على نفسه واهله ، مدفوعا بما حمله المؤجر من أجر فاحش ، أحمّله ضرورة ولا مخرج له منه إلا بمثل ذلك .

على أن مشكلة أجرة البيت قديمة بمكة ، فقد كنت أحفظ أبياتا لبعض أهل مكة ، ضاعت من ذاكرتي ، يقول فيها :

وبت أسـأل مولاي لي فـرجا   نادى أنا فرج هتلي كـراء البيت

وفـرج هذا : هو اسم لعبد الأشراف ورسولهم في قبض أجور مالهم من دور للاستغلال ويقول في مصرع منها :

« فيا رب خلصني من كرا البيت »

وفي نظري إن الزمن سوف يحل هذه المشكلة لما بدر من اتجاه الاغنياء إلى انشاء عمارات واسعة ، واعتياد الأهلين لسكن الشقق وقبول أجرتها شهريا ، واتجاه بعض الأهلين للاكتفاء الذاتي ببناء مسكن خاص به ، واعتزام الحكومة بمساعدة أرباب الدخل المحدود باقراضه لبناء مسكن خاص به ، وللمكيين مثل يضربونه احياناً في ذلك « بيت قدر المريا ولا كل مئة سنة كرايا » ، والله يحكم بما يشاء ويفعل ما يريد .

ومما اعتادته مكة في أيام موسم الحج ، خصوصا ايام مجيء الحجاج عن طريق البر ، ان يصحب أمير الحـج معه نصبا يسمونه المحمل يزوقونه بأنواع الحلى والألبسة الجذابة المطرزة بخيوط القصب المذهب ، ويكون لمن يتولاه، القيادة للحجاج الذين يصحبونه في الحل والترحال ، فقد كان حجاج العراق يصحبون معهم محملاً ، وكذلك حجاج الشام وحجاج مصر ، وفي بعض السنين يأتي مع حجاج اليمن محمل ، خصوصا بعد أن ضعف كيان الدولة العباسية ، وأخذ ملوك الطوائف يتنافسون ويتبارون في أمثال هذه الترهات .

ففي أوائل القرن السابع الهجري ، صحب معه الركب العراقي ، محملا زينوه بالجواهر والحلى النفيسة ، وكسوه الديباج وغير ذلك من السفه والعبث ، فقد قدر ما كان على المحمل العراقي من الحلي بمبلغ مئتين وخمسين الفاً من الدنانير ، وقد ينقطع ورود بعضها في بعض السنين ، لضعف الجهة التي يأتي منها ، أو اشتغالها بفتن داخلية ، وآخر ما استقر عليه الحال ، مما شهدناه ، مجيء محمل من الشام ومحمل من مصر ، وبعد قيام سكة حديد الحجاز ، كان المحمل الشامي يأتي فيها إلى المدينة ، ومنها على الجمال إلى مكة ، وبناء على

ثقل المحمل ، فقد كان له جمل مخصوص يعنى به على طول السنة .

اما المحمل المصري فقد كان يأتي عن طريق البحر إلى جدة ، ثم على الجمل إلى مكة ، وقبل ذلك ، كان كلا المحملين يأتيان عن طريق البر ، وفي كلا الحالين ، يصحب المحمل أمير مخصوص ، وثلة من الجند للمحافظة عليه ، وقد يرافق المحملين بعض الحجاج ، فإذا قدم المحمل إلى مكة أجرى لكل منهما على انفراد احتفال في الرحبة التي كانت امام « دار باناجة » ، مطلع الطريق الى « القشاشية » ، قبل الهدميات لتوسعة المسجد والشوارع ، ثم يؤخذ المحمل ، ويوضع في داخل المسجد ، وتنزع عنه كسوته المطرزة بالقصب ، ويكسى كسوة بسيطة ، وقد كان يوضع كلاهما على جانب باب المسجد المعروف بباب النبي ، ويوضع عنده حرس من بعض الجنود الذين صحبوه ، ويعسكر بقية الجنود وأمير المحمل المصري في مخيم ينصبونه في « جرول » في الأرض التي أقيم عليها مستشفى الولادة . وفي ظل جدار بستان الشريف عون الذي كان قائما هناك ، وإتخذ مكانه الآن (حلقة) مزاد لبيع ما يجلب من خضر وفواكه ، بدلا عن مكانها السابق « بالخريق » ، فقد زحف عليها العمران . وأما من يصحب المحمل الشامي ، فيقيمون مخيمهم في حي الشهداء المعروف الآن « بالزاهر » ، وإذا حل الطلوع إلى عرفات يوم الترويه ، ألبس المحمل كسوته الرسمية ، وحمل على حمله ، ورافقه أمير المحمل والجند إلى أن يصلوا به عرفة ، ثم حين النفرة ، ينفرون به مع الحجيج إلى مزدلفة ، ومنها الى منى ، وفي ليلة الثالث من عيد النحر ، يقيم كل لمحمله مهرجاناً بإطلاق الصواريخ والألعاب النارية ، ويتلقى أميره الزيارات والتهنئة ، وتصدح الموسيقى المصحوبة معه ، ويقول عنها المكيون « مزيكة » .

وفي يوم الثالث من عيد النحر يتعجلون النزول إلى مكة ، ويرجعون المحمل إلى مقره بالمسجد ، وفي اليوم الذي يتقرر فيه السفر والعودة ، يقيمون حفلا في رحبة بيت « باناجة » ، السابق وصفها ، بعد ان يكونوا قد ألبسوا

المحمل كسوته الرسمية الأنيقة الوصف ، ويضعونه على جمله ، ويكون والي مكــة حاضراً الحفل ، فيدور بالمحمل وهو على جمله بضعة دورات « بالرحبة » ، بما يشبه الطواف ، فإذا انتهى من ذلك قبَّل الوالي طرف المقود ، وسلَّمه لأمير الحج ، فيقوده إلى معسكره خارج مكة ، ويقيمون هناك يوماً او يومين أو أكثر ، حسب الظروف ، ثم يرحلون به . ويصحب معه المحمل المصري عادة كسوة الكعبة ، وفي يوم مخصوص قبل أيام الحج تسلم تسليماً رسمياً إلى آل الشيبي ، سدنة البيت .

وللمرحوم إبراهيم رفعت باشا ، أمير المحمل المصري ، لعدة سنوات ، مؤلف في جزئين مطبوع طبعاً انيقاً على ورق مصقول ، ومزين بكثير من الرسوم ، فيه تفصيل وافٍ عن حركة المحمل من مخرجه من مصر ، إلى عودته إليها ، وقد ضمنه بيانات وتاريخاً مختصراً لمكة والمدينة بالمشاهدة وبالنقل عن الغير وسماه « مرآة الحرمين » .

وقد انقطع ورود المحمل الشامي في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وانقطع ورود المحمل المصري منذ عام **١٣٤٥** هـ . وقبل ذلك ، في عام **١٣٤٢** هـ ، في آخر عهد الملك الشريف «الحسين بن علي » . قدمت الباخرة التي تحمل المحمل ومعها ملحقاته ، وكان فيها لأول مرة بعثة طبية للعناية بصحة الحجاج المصريين ، ولما لم يكن من العادة أن ترافق المحمل بعثة طبية ، ولم يستأذن من الملك حسين مسبقاً في خصوصها ، منع نزولها إلى جدة ، وأصرت الحكومة المصرية على إنزالها ، وأمرت الباخرة بالعودة بما عليها إلى مصر .

ولما زالت حكومة الشريف الحسين ، وفي عام **١٣٤٥** هـ ، في أول العهد السعودي قدم المحمل المصري ، وفي أثناء صعوده إلى عرفات ، وعلى مقربة من مقر جلالة الملك « بمنى » حصلت مشادة بين هيئة المحمل وبين بعض الحجاج من الأخوان كان من نتائجها أن أطلق بعض الجنود المصريين المرافقين للمحمل الرصاص ، وكادت تكون فتنة عمياء ، لولا تصدي جلالة الملك

المرحوم عبد العزيز بذاته ، وعصم الله الحجاج مما كان قد يلحقهم من هذا الحادث لو استمر واستشرى ، ومن بعدها ، وإلى الآن ، لم يعد يأتي المحمل ، وأراح الله المسلمين من بدعته ،فقد كان بعض الجهلة من الحجاج يتمسحون به اثناء ايداعه المسجد ، إلتماساً للبركة ، فإن الطبع العامي نزاع للمحسوسات ، مأخوذ بالبهرج .

وكان من ثمار هذا الحادث ان انشأت الحكومة بمكة مصنعا لعمل كسوة الكعبة على نفقتها ،بأحسن مما كان يردمن مصر،وتقوم به الحكومة المصرية من غلال أوقاف السلاطين المسلمين لهذه الغاية ، وسيأتي بيان مفصل عن ذلك .

ومن العادات والتقاليد التي كانت « تسر النظر وتشرح الخاطر » على حد تعبير المكيين ، ما كان في ليالي رمضان بالمسجد الحرام ، من جماعات لصلاة التراويح ، فإنهم أغلمة وصبيان لم يبلغ بعضهم الحلم ، فقد كان الكثير من الأهلين يحرص على أن يكون ابنه من حفاظ القرآن ، وكان لتشجيع الصبية ، إذا أتم الواحد منهم قرآة جزء عم ، صنع له حفل شائق ، وزخرف اللوح الذي تعلم عليه القراءة ، فقد كان تعليمها في ألواح من الخشب المخصص ، يطلى بالمدر ، ليكون أبيض اللون، ويمكن محو ما يكتب عليه ، وكتب فيه آخر سورة أتقن قراءتها ، وجمل بأجمل لباس ، وأخذ اللوح على رأسه مغطى بقطعة من القماش الحرير المقصب ، واجتمع أولاد كتابه مجملين بالألبسة الفاخرة ، وطافوا الشوارع ، منشدين بالأهازيج والأدعية ، إلى ان ينتهوا إلى بيت الغلام المختص به ، فتقسم عليهم أقراص حلوى « البوتاسا » ويسمون ذلك « إصرافه » .

أما إذا اتم قراءة كامل المصحف ، فيكون الاحتفال اوسع وأبهج ، ويسمونه (إقلابه) . وقد يصنع والده في ذلك اليوم طعاما لأولاد كتّابه .

ومن يكون منهم قد حفظ القرآن غيباً ومُجَوَّداً، قام والده في ليالي رمضان بتهيئة مصلى له في أحد حصوات المسجد أو أروقته ، فرشه بالسجاد ، ويجعل عن يمينه وعن شماله فوانيس مخصوصة مضاءة بالشموع ، فتجد المسجد يشع

بالأنوار في كل حصوة أو زاوية ، ويضج بأصوات الأغلمة بالقراءة مجودة مرتلة ، ويستمر ذلك إلى ليلة السابع والعشرين من الشهر ، ويكون الغلام قد أتم بصلاة التراويح ، تلاوة كامل المصحف ، فيقام حفل تزداد فيه السرج ، وتوزع الحلوى على من شارك في الصلاة ، ويسمون تلك الليلة « ليلة الختم » . إنها حفلات كانت في غاية البهاء والرونق .

وفي أول عهد الحكومة الحاضرة ، منع ذلك ، لأن فيه ضوضاء في المسجد ، وأصبحت صلاة التراويح يقوم بها إمام الصلاة المفروضة في جماعة واحدة ، غير أنه في العهود الأخيرة سمح لمن يريد إقامة جماعة خاصة للتراويح ان يفعل ذلك ، ولكن بعد ان ينتهي إمام المسجد من صلاته .

ومع الأسف ، فقد ضعف اهتمام الأهلين بتحفيظ أبنائهم القرآن ، خصوصا بعد نشوء المدارس ، واختفاء الكتاتيب ، فقد كان تعليم الأطفال فيها ، حتى الإملاء ، محوره القرآن . أما في المدارس فان حفظه مخصص له حصة واحدة أو حصتين في الاسبوع ، تزحمها حصص في دروس أخرى في مختلف العلوم . وقد فطن لذلك ولهذا النقص جماعة من أولي الغيرة والحمية ، فكوّنوا « جماعة تحفيظ القرآن » ، كما أحست المعارف بذلك ، فخصصت مدارس لتحفيظ القرآن . وسيأتي في فصول قادمة بيان فيه بعض التفصيل عن هذا الموضوع .

ومن العادات التي لم يعد لها المظهر السابق ، والتقليد المرعي ، صلاة عيد الفطر بالمسجد الحرام . فإن الخطيب الذي لحقته النوبة ، وكان عليه أداء صلاة العيد ، وخطبته ، ليستعد في بيته بالشرابات والمرطبات لتلقي زملائه من الخطباء والأئمة ، فقد كان عددهم كبيراً ، فمن بعد صلاة الفجر مباشرة ، يكون شيخ الخطباء قد تهيأ ، ولفيف منهم ، للحضور إلى بيت من عليه النوبة ، ومعهم شيخ المؤذنين ، فإذا تكامل جمعهم سقوا الشربات ، وإذا أشرقت الشمس خرجوا ومعهم الخطيب بزيه الرسمي : العمامة المدرجة ، والجبة الفرجية واسعة

الأكمام ، فإذا وصلوا المسجد انضم اليه بعض خدمه وقسم من الأغوات ، ونصبت رايتان على جانبي المنبر . أما الأهالي فإن كل أسرة تتجمع في بيت أكبرها سناً ، أو عميدها ، بعد ان يكون افرادها قد تجمل كل منهم بالملابس الجديدة الأنيقة ، فاذا حان وقت صلاة العيد ، خرجت الأسرة بكاملها صفوفا خلف بعضهم البعض ، ويكون بعض الخدم قد سبقها إلى المسجد وفرش لها السجاد اللازم ، وساروا وهم جاهزون بالتكبير والحمد ، فترى حواري مكة كلها تضج بذلك ، وبأصوات المكبرين ، فإذا انتهت الصلاة عادوا إلى بيت كبيرهم ، ويكون قد هيأ لهم مأدبة إفطار حوَت من صنوف الأطعمة شتى الألوان والأنواع ، فإذا قضوا طعامهم تفرق كل منهم إلى حيث أراد .

وكانت أيام عيد الفطر أربعة أيام ، لكل أربعة محلات يوم ، يستعد أهلها لتلقي التهنئة من أهل الحارات الأخرى .

فأول يوم لمزاورة الأهل والأقارب ، والسلام على الأمير ، وزيارة سكان الدور اللازقة بالمسجد ؛ وأهل مكة يطلقون عليها المدارس .

وثاني يوم لزيارة أهل محلة « جياد » و« القشاشية » و« سوق الليل » و« القرارة » .

وثالث يوم لزيارة « الشامية » و« النقا » و«السليمانية» و« شعب عامر » .

ورابع يوم لزيارة « الشبيكة » و« جرول » و« المعابدة » وما اليهم فانهم في أطراف البلدة .

وكانت في أيام تقام ألعاب « المدارية » التي سبق ذكرها في فصل سابق ، وفي اليوم الرابع يتنافس الصبية في استئجار الحمر للمسابقة عليها، ويسمون ذلك (دفن العيد) .

وقد زال كثير من هذه العادات ، وأصبح التهنئة بالعيد تعتمد على تبادل البطاقات ، وسبحان مغيّر الأحوال .

ومما يعتاده المكيون ، بل الكثير منهم ، السمر في ليالي رمضان ومزاورة

بعضهم البعض ، على أن أيام رمضان ولياليه كلها بهجة وتواصل وتراحم ، فهم في هذا الشهر يكثرون من الصدقات ، كما يكثرون في مآدب الافطار من أنواع الطعام ، مما جعل شهر رمضان ليس شهر صوم ، بل موسماً لأنواع الأطعمة والمشهيات ، مما لا يتفق وحكمة الصوم وشرعيته ؛ والله الهادي لسواء السبيل .

ومما يحمد من المكيين توقيت إخراج زكاة أموالهم في شهر رمضان خصوصا في أواخره ، للتوسعة على الفقراء في عيده .

وكان من عادة المكيين (الشعبنة) ، ومعناه : أنه في الأيام الأخيرة من شهر شعبان يكثرون من (القيلات) ، فتجد كل جماعة تألف بعضها يشتركون في إقامة مادب ، إما خارج البلدة وفي ضواحيها ، أو في بيت أحدهم ويطلقون على الجماعة « البشكة » ، يصنعون ما يطيب لهم من انواع الأطعمة الجيدة الدسمة ، ويقضون نهارهم وليلهم في السمر ، والألعاب التي تعتادها البشكة ، كالورق وما شاكل ، أو الطرب بالآلات ، أو لمجرد الاجتماع والمحادثة والمباسطة والممازحة بما يثير البهجة والضحك وتناسي متاعب الحياة .

ومما كان متعارفاً ولم يعد يسمع له صوت « المسحراتي » في ليالي رمضان ، في وقت السحر ، قبل وقت السحور ، المتفق عليه ، فقد كان لكل محلة « مسحراتي » مخصوص ، يحمل في يده طبلة «نقرزان» ؛ يضرب عليها بعصا صغيرة ، وبعد أغانٍ تتعلق بالصوم وشهر رمضان ، يرفع صوته قائلاً : « أبرك الليالي والأيام عليك سيدي فلان » ؛ وبعدد أسماء سائر أفراد العائلة من الذكور ، وقد يسهر بعض الأغلمة ليله ليسمع ذكر اسمه من « المسحراتي » .

كما أن مؤذنو المسجد ينشدون في وقت السحر ، أو الثلث الأخير من الليل ، في ليالي رمضان ، أناشيد دينية ، يسمونها (التذكير) ، ويتلوها (الترحيم) ، وهو أن يجأر المؤذن بقوله : « يا أرحم الراحمين ارحمنا » عدة مرات ، ثم يتلو ذلك آذان الصبح ، وقد أبطلت هذه العادة .

ومما كانت تعتاده مكة على عهد الحكم العثماني ، أن جماعة من إخواننا

السوريين ، في أثناء أيام الحج ، تجلب معها الكثير مما تنتجه سوريا من أقمشة ، وثمار جافة ، وغير ذلك ، فلم يكن ما يجلب عليه أي رسوم أو ضرائب ، فالبلاد كلها تحت حكم العثمانيين ، وكانوا يقيمون بما يجلبونه من الثمار الجافة ، والجبن ، والزيتون ، والحبال ، والخيام ، وغير ذلك ، كالمخبوزات الجافة ، وأهل مكة يسمونها (بقصمات) ، سوقاً بالخيام في حارة الغزة ، فإذا انتهت أيام الحج ، انضم من أتى بالمنسوجات الى التجار من إخواننا الشوام المقيمين بمكة ، وأنشاؤا سوقاً موقتة تمتد من طرف سوق سويقة ، أي مما كان يسمى « برحة بانـاجة » متصاعدين إلى محلة الشامية . وإلى « برحة بيت نائب الحرم » . تدوم هذه السوق بضعة عشر يوماً ، يعرضون فيها أنواع الأقمشة والمنسوجات ، وهي السوق الوحيدة التي كان يرتادها نساء الطبقة الفقيرة ، وبعض نساء الطبقة المتوسطة الحال ، على امل أن ما يباع بها يباع بالسعر الرخيص للتصفية .

أما المعتاد ، فإن النساء ، إذا أردن شيئاً من مثل ذلك ، كلفن عميد الأسرة ، أو أحد أفرادها ، أن يأتيهن بنماذج من الأقمشة المطلوب نوعها ، فيخترن منها ما يزين لهن وكان الباعة يعدون لسائر ما لديهم من الأقمشة نماذج تسمى (فواتر) ، ولم تكن تجرؤ أي سيدة ، خصوصا من الطبقة المتوسطة ، أو بيتونات البلد ، كما يقول المكيون ، ان تخرج إلى السوق لشراء ما تريده ، والمماحكة في البيع والشراء ، كما هو حادث من بعضهن الآن ، فقد كنّ يَسْتَعِبْنَ ذلك ، ويستهجنّه من انفسهن وسبحان مغير الأحوال .

قوامُ معيشةِ المكيّين
والحالة الاقتصاديّة بمكّة

نشأت مكة كما قال الله تعالى : « بواد غير ذي زرع » ، وكانت ولا زالت كأي بلد طرقه العمران ، لا تخلو من كثير من الصنائع والحرف التي لا غنى عنها ، مما يرتفق به الناس في حياتهم ومعائشهم ؛ والمكيون من هذه الوجهة ينقسمون إلى خمسة أقسام :

قسم أرباب الحرف والصنائع اليدوية

كالنجارة ، والحدادة ، والسمكرة ، والخياطة ، والحياكة ، وصنع الأحذية ، وما شاكل ذلك . . .

ومن الصناعات التي كانت قائمة بمكة ، صناعة السبح وخرطها وتنسيقها . فقد كان بها ما لا يقل عن عشرين مصنعاً لعمل السبح من مختلف الخامات والأخشاب ، وهي صناعة لموسم الحج ، ليس لها رواج في غيره ، كما هو الحال في الصناعات الأخرى التي تروج على مدار السنة ، ويطلق المكيون على مصنع السبح وغيرها من المصانع كلمة « ورشة » .

وقد كان السبحية يصنعون السبح من مختلف الخامات والأخشاب ، من خشب الصندل ، مجلوبا من الهند ، ومن خشب شجر الحمر ، ومن خشب له رائحة زكية نوعا يسمونه عودة خام ، ومن العود الحقيقي ، ومن كثير من الأخشاب

المحلية ، وحتى من نوى التمر .

وأخص ما يصنعون منه السبح « اليسر » : وهو شجر بحري يغوص على استخراجه جماعة من البدو من قبيلة زبيد من سواحل البحر الأحمر ، يخرجونه ، وبعد تشذيبه وجعله أعواداً وحزماً ، ينزلون به إلى سوق جدة ويبيعونه بالمزاد .

هذه الصناعة اضمحلت أو كادت ، ولم يبق مما يصنع بمكة سوى اليسر ، يصنعها بعض أفراد من بقايا الورش السابقة ، لأن اليسر لا يوجد في الغالب إلا في البحر الأحمر ، وتأتي أعواده طيات فوق بعضها البعض ، أشبه بالبصل ، لا يمكن تحويله إلى حبات سبح إلا بعد معالجته ، ونقعه في الماء زمنا كافيا ، بل وفي أثناء الخرط . ولولا ذلك لما بقي لصناعة السبح أثر بمكة ، فقد أصبحت ، بعد ظهور مادة البلاستيك ، تصنع السبح منها في الخارج ، وتجلب بأرخص الأثمان ، وعلى مختلف الألوان والأشكال ، وما كان يجلب من الخارج من أنواع السبح سوى السبح « الصدف » تصنع في « بيت لحم » « بفلسطين » وسبح من حجر «البنزهر» تصنع في « افغانستان » فله معادن هناك ؛ وسبح تسمى « كوكة » تصنع في استانبول من ثمرة شجر الكوك ، وهي أشبه بثمرة « الدوم » بل أقسى منها ، وسبح من الطين تصنع في « كربلاء » « بالعراق » . ثمر شجر الكوك يجلب إلى استامبول من بعض بلاد أمريكا الجنوبية ،وقد انقطع وروده ولم يعد يصنع شيء منه في استامبول واستعيض عنه بالبلاستك لسهولة خرطه ورخصه .

ولدائن البلاستك دخلت في كثير من المصنوعات ، ففد كان السماكرة بمكة يصنعون كثيراً من المرافق من الصفيح ، ولما نشأ بمكة في العهود الأخيرة مصنع للبلاستك، أخذ يصنع السبح ، ويصنع الأباريق ، والمواعين، وغير ذلك ، علاوة على ما يجلبه التجار من شتى الصنوف من البلاستك من الخارج ، مما ضعفت معه صناعة السمكرة ، فقد خلت الحاجة الى كثير مما كانوا يصنعونه من فوانيس ومسارج وأباريق ومواعين وسموارات وغير ذلك .

ومن الصنائع التي اضمحلت أو كادت . صناعة الفخار ، فلم تعد حاجة

الى شراب الماء والى الأزيار وما شاكل ذلك ، بسبب ما جدَّ من وسائل التبريد ومصانع الثلج ؛ فقد كان لعمل الفخار يصنعة دواليب في أعلى مكة بمحلة « الخرمانية » « بالمعابدة » ؛ وكانت دكاكين باعة الفخار جمهرتها في محلة «سوق الليل » على الشارع العام ، فلم يعد لها أثر هناك ، ولم يعد سوى دولاب أو دولابين رمت به البلدية أو أمانة العاصمة ، كما تسمى ، إلى أقصى البلدة من جهة الرصيفة .

ومن الصنائع التي اضمحلت أو كادت ، صناعة براذع الجمال والحمير ، ولم يعد لها رواج ، وحل بدلها صناع لتجديد فرش السيارات .

ومن الصنائع التي تطورت ، وتبدل فيها بعض أنواع ما كانوا يعملونه ، صناعة التجارة وما يتعلق بها . فمن كان متخصصا في صناعة « الشقادف » وتأجيرها انتهى بانتهاء الحاجة إلى الشقادف ، ومن كان يمتهن نشر الخشاب لم تعد إليه حاجة ، فقد كان في ما سبق يعمل حمالات وينصب عليها اللوح المراد نشره ، ويرقى واحد على اللوح ماسكاً بطرف المنشار ، وآخر على الأرض ، ويبدآن في نشر اللوح ، وقد تمضي ساعات ولا يستطيعان نشر لوح واحد أو تجزئته .

أما اليوم فقد حلت الآلات التي تدار بالكهرباء وتنشر اللوح الخشب وتجزئه في بضع دقائق ، وانعدمت الحاجة إلى الرواشين وزخرفتها ، فلم يعد لمن كان يمارس ذلك منهم لزوم .

وصار عمل النجارة مقصور على الأبواب والطبق ، والشبابيك ، وما اليهما . ودخلت الآلات في كل مرفق ، وقامت مصانع لصنع « الطقوم » الكنب بدلا من الدكاك التي يقول عنها المكيون (كرويتات) .

ومن الصنائع التي ضعف متعاطوها صناعة القطانة ، فقد ندر من يؤثث بيته على الأوضاع القديمة ، وجلبت مراتب للنوم من الخارج جاهزة حشوها غير القطن .

ومن الصنائع التي اضمحلت أو كادت صناعة الأحذية ، فقد طغى عليها ما يجلبه التجار من الخارج ، من أمثال (زنوبة) وما شاكلها ، حتى ما يماثل الأحذية النجدية أخذ يستعمل بدلا من الأحذية البلدي التي كان يعتاد لبسها المكيون ، وهي ذات الأصبع القائم مما يلي الإبهام ، والقنطرة التي تصنع لغطاء مشط القدم مزخرفة بالقصب والحرير ، هذه الأحذية النجدية أخذ اليابان يصنعها ، وصارت تجلب من الخارج بأرخص سعر .

ومن الصنائع التي تطورت صناعة البناء ، وزال بعض ما كان يرافقها ومن لوازمها ، فلم يعد للحجارة مساغ ، ولم يعد (للمنقلين) رواج ، اللهم إلاّ تليس جدار الغرف . وقد زاحمهم في ذلك صنّاع آخرون من مصريين ، وفلسطينيين ، ويمنيين ، « فالطبطاب » الذي كانوا يمارسون عمله في السمار وبيوت الخلاء والأسطحة وأرضية الغرف ، قام بدله (البلاط) ، ونشأت للبلاط مصانع لانتاجه على مختلف الأحجام والألوان والزخارف ، على غرار ما هو معروف في الخارج ، كما اختلفت أوضاع البنائين لتحويل البناء من الحجر إلى الاسمنت والحديد ، وقد كان البناؤ ون على فِرَق ، لكل فرقة اسم ؛ : فرقة العمال ، ثم فرقة الفلاتي ، ثم فرقة المروجين ، ثم فرقة القرارين ، ثم فرقة المعلمين، الذين يقفون على البنية ويرصون الحجارة بإحكام[1] وأصبح البناء بالمسلح والأسمنت لا حاجة معه إلى فلاتي ولا قراري ولا مروج ، بل جدت أوضاع أخرى وصناع آخرون .

ومن الصنائع التي كانت تتبع البناء بالحجر ، صناعة الحجارين ، الذين يضربون الألغام في الجبال ويفتتون الصخور إلى قطع ، وصناعة حرق النورة

(١) العامل هو الذي يحمل مواد البناء من أحجار ومواعين الطين الممزوج ، بالنورة ، والفلاتي : هو الذي يخلط الطين بالنورة وقد يكون له عمل آخر ،والقراري :هو الذي يهيىء الحجر ويهندمه للمعلم الواقف على البنية لرصه . . وشخص آخر ، يسمى « مروجا » وهو ، في ظني الذي يهيىء الاحجار الصغير والخفيقة التي يسند بها الحجر الكبير أثناء وضعه في البقية .

البلدية واستخراجها من مناجمها « بالنوارية » على مقربة من قبر السيدة « ميمونة » بوادي سرف ، خارج مكة ، في الطريق إلى المدينة وعلى مسافة ستة أميال من « وادي فاطمة » قسم من مر الظهران ، وقد كان للنوارة عدة محارقة في « جرول » و« حارة الباب » ، فلما ازدحمت المحلتان بالسكان والعمران ، دفع بالمحارق إلى « الرصيفة » مع دواليب الفخار ومحارقه ، على أن الاستهلاك للنورة البلدية قلّ عما سبق ، فقد زاحمها الأسمنت مصنوعاً بمصنع جدة ، ومجلوباً من الخارج .

ومن الصنائع التي ضعف رواجها ، والتي تتبع البناء ، صناعة الآجر ، وأهل مكة يقولون (آجور) ، وقد كانت له محارق ومعامل في آخر محلة « المسفلة » عند « مشرعة دبل أمير ياخور » التي تتسرب منها المياه أثناء السيول والأمطار وبعض مجاري البيوت القائمة على مجراه ، وكان بجوارها بستان ينسب لآل كوشك ، وأظنه باقياً إلى اليوم . هذه المحارق دفع بها إلى جهات أخرى لامتداد العمران ، وزوحمت صناعته بـ (البلوكات) والطوب المصنوع من الأسمنت ، والبطحاء ، وقد نشأ مصنع لصنع الأجر الابيض والأحمر والمفرغ العازل للحرارة ، في الطريق ما بين جدة ومكة وعلى مقربة من « بحرة » .

ومما كان يرافق البنائين تجار ، مهمته تهيئة قطع من الخشب ، وغالباً ما تكون من خشب العرعر ، بل لازماً أن تكون منه ، لأنه خشب قوي متين ، لا يتطرق إليه السوس ، ويسمونها « تكاليل » ، كما يشاهد ذلك في البيوت القديمة الباقية إلى الآن ، وفائدتها أنه إذا حصل خراب في القسم الواطىء عنها ، دعمت لتحمل ما فوقها ، وأزيل الخراب من تحتها ، ويسمون الخراب « بعجة ».

ومن الصنائع التي اختلفت فيها الأوضاع ، وقل صنع بعض ما كانت تصنعه ، صناعة الحدادة . فقد كان الحدادون يصنعون الكواشين للطبخ، والمجارف ، وبعض آلات الزراعة اليدوية ، وأمثال ذلك مما كان للمجتمع حاجة إليه ، وكانت الآنة الحديد بالأكيار ومنافخ الجلد اليدوية ، فاصبح بالوسائل

الحديثة المجلوبة من أوربا ، والكهرباء وانحصر العمل في الأبواب الحديدية ، وصناعة الدبزانات « السياج » للدرج ، والشبابيك ، وما إلى ذلك مما يطول ذكره وبيانه .

كما توجد عدة صنائع أخرى مما يحتاجه كل مجتمع عمراني ، كالصباغة ، وصناعة الذهب والفضة ، هذه الحرفة لا زالت على عهدها ، وتحسنت مصنوعاتها ، ولقح صناعها بصناع من الخارج للاستيطان ، من الهند وماليزيا .

ومن الصنائع التي لا زالت قائمة ، وإن اقتصر العمل فيها على أنواع لا تزال رائجة كالثياب مثلا ، صناعة الخياطة ، وقد كان من الخياطين من له شهرة بإتقان خياطة الجبب ، جمع جبة ، والشابات ، والمياتين ،جمع (ميتان) ، والصديرات ، انقرضوا كما انقرض استعمال هذه الملبوسات ، وقد كان إلى أواسط القرن الرابع عشر وأوائله تحلى الصديري والمياتين بأنواع القياطين المصنوعة من الحرير ، حول الجيوب وعلى طول الصدر المفتوح ، وكان لهذا العمل صناع مخصوصون ، زالوا كما زال استعمال الصدرية ، وقد حل محلها المحلى بالخرج ، تفصيل مبسط لا حاجة معه إلى التحلية ، وأبدل الميتان (بالأكوات) الجاكيتات ، كما قل استعمال كليهما كما المعت بذلك كله في فصل الملابس ، وكان لباعة الصديري وعمل تحليته خان مخصوص يعرف بخان الصداري . في طرف المسعى مما يلي المروة ، ينفذ إلى شارع المدعى ، ذهب هو الآخر في التوسعة كما ذهب استعمال الصداري .

ومن الحرف التي قل صانعوها لانصراف المكيين عن لبسها ، وإستبدالهم لها بالشطافة تأسياً بالعنصر الحاكم ، والناس على دين ملوكها ، كما يقولون ، صناعة العمامة الألفي التي سبق الإلمام بها والقول عنها في فصل الملابس ، والذي استبقى بعض صناعها وكانوا ، ولا يزالون ، من مهاجري إقليم البنغال في الهند ، فالحجاج من أهالي افريقيا ، من تمام الحج في عادتهم ، أن يصحب الحاج معه الجبة والعمامة المكية ، وكذلك بعض الاندونيسيين والماليزيين

يتجمل بها عند حلوله بلده ، أو يهديها لعزيز عليه ، فلا زال لمن يحج منهم للآن اعتناء وحرص أن يتزي بالزي المكي ، كما أن بعض أعيان اليمنيين، المشايخ منهم لا يزالون يستعملونها ، والله أعلم بماذا ينتهي الحال في شأنها ، وسبحان مقلب الأحوال .

ومن المهن الملحقة بالحرف ، الجماعات المتخصصة في ممارسة بيع المأكولات والأطعمة ، وما يتعلق بهم ، كالجزارة ، والخضرية ، والفرانة ، والفكهاينة ، وباعة الحبوب ، والسمانة ؛ فان لكل جماعة من هؤلاء رئيسا معينا من طرف الإمارة ، ويطلقون عليه شيخ : فللفرانة شيخ ، وللجزارة شيخ ، وهكذا . . . أما أرباب المطاعم والشوائين ، ويقول عنهم المكيون بالصيغة التركية « الكبابجية » و« الحلوانية » وكل ما يوقد في عمله نار ، فانهم يتبعون شيخ الطهاة الطباخين ، في اصطلاح المكيين. وقد يطنز عليه بعضهم فيقول « شيخ أهل النار » .

كما ان لسقاة الماء وإيصاله إلى البيوت شيخ ، بل لكل موردة ماء قيم ، فقد تتعدد الموارد في الحارة الواحدة ، فيختار رؤ ساء الموارد شيخا عليهم يلجاؤ ون إليه في الخلافات المهمة ، ولهم أعراف وقوانين يسيرون عليها . ومن طريف ما يصادفه المار ، أحياناً ، في مروره على بعض الموارد ، جلسة من جلسات المحاكمة ويسمونها « بداية » ، فإذا تعدى سقاء على زميله قال عبارة تقليدية بينهم : « أول تاني طريقة شويه تبقى عندك » ، ثم يعرض شكواه على رئيس الموردة ، فيبادر هذا بربط الدلو الذي يستخرجون به الماء من الصهريج ، إعلانا بتوقف السقي والعمل ، ثم يجتمع السقاة حلقة ، ثم يبدي المتظلم شكواه ، ويدافع المعتدي عن نفسه ، وبعد سماع اقوال كل منهما ، يتداول المجتمعون الرأي ، وبحسب الأكثرية يتقرر الجزاء ، وغالبا ما يكون بالضرب على الإلية عدداً مقرراً ، فتفرش فروة من الجلد مما يستعملونه لحماية الظهر والثوب من البلل أثناء حمل القربة في وسط الحلقة ، وينبطح المعتدي عليها ، إذا أذعن لما تقرر عليه ،

ويسمون وسط الحلقة « الرقعة » ، ويقوم النقيب بتنفيذ الضرب ، فيضع يده اليسرى تحت إبطه الأيمن الماسك به العصا ، ويبدأ في الضرب لتكون الضربات خفيفة لا مبرحة ، وغالبا لا تتعدى العشر ضربات ، فإذا انتهوا عادوا للسقي . أما اذا تمرد ، فيمنع المتعدي من السقي وترفع القضية إلى الشيخ الأعلى ، ويظل ممنوعاً من السقي إلى ان ينتهي الموضوع ، ويتقرر في شأنه ما يتقرر .

وبهذه المناسبة فقد كان والدي ، رحمه الله ، شيخا للسبحية ، وكان في ورشته ، او بيتنا على الأصح (فلكه) على غرار ما يتخذه فقهاء الكتاتيب (أيام زمان) ، لتأديب الأطفال إذا أساوا التصرف ، ويعرفها الكثيرون ممن انتظم في أحد الكتاتيب ، إلا أن « الفلكة » المحكى عنها أغلظ ، وحبلها أخشن ، فهو من الحبال المرس التي تشد بها الشقادف على الجمال عادة ، فإذا تعدى صانع على آخر نظر في شكواه ، وأوقع على المعتدي العقاب بوضع قدميه في « الفلكة » وضربه عليها العدد الذي يكون قد تقرر .

وهكذا إذا وصلت إليه شكوى من ورش أخرى من ورش السبحية للآخرين ، وكان له نقيب ، أي مساعد ، يتولى هذه العملية . هذا إذا كان الشجار وقع بين العمال والصناع ، أما إذا وقع خلاف أو تعد بين المعلمين ، أي اصحاب الورش ، فإذا بُلِّغ بالشكوى ، جمع نفراً منهم ، وانعقد مجلس المحاكمة ممن حضر ، فاذا تقرر الخطأ على أحد المتخاصمين فرض عليه أن يولم وليمة ترضية لخصمه المعتدي عليه ، يحضرها جماعة من السبحية ويسمون ذلك « يوم سلطاني » .

واذا كان الموضوع لا يقتضي هذا التكليف ، يكتفي من المعتدي باعترافه بالخطأ ، وإذعانه للجزاء ، ويقبل أثناء ذلك رأس المعتدى عليه ، ويتجنب أسباب الشكوى .

ومن المهن المعروفة ولها شيخ مهنة « الصيرفة » أو « الصيارفة » فإن توارد مختلف العملات وتنوعها مع الحجاج اقتضى وجود هذه المهنة ، والطائفة

لممارسة ابدال العمل الأجنبية بالعملة المحلية او بتجزئتها ، وقد زوحم الصيارفة بما قام من بنوك ومصارف كبيرة ، وقيام مؤسسة النقد ببعض ما كانوا يقومون به ، ولهذه المهنة شيخ

ولكن المشيخة لسائر الحرف والمهن لم تعد لها المكانة والحرمة السابقتين ، والتصرف لاختلاف الأمور اختلافا جذرياً كما يقولون .

وبناسبة مشيخة أرباب الحرف فان إسناد المشيخة كان يقع من أمير مكة ، فإذا أسند الأمير المشيخة إلى شخص ما ، خرج من دار الأمارة ، ويكون معه لفيف من أرباب المهنة وأخصائه ، قد أعدوا لذلك ، ويكون الشيخ مجملا باللباس الذي يعتاده ، ويخرجون به جميعا ، مارين بالشوارع العامّة ، وكلما مضت برهة صاح من التف حوله قائلين : « دايماً يحي دايماً » ثم يكون أخصاؤه وأصدقاؤه قد أعدوا من الجبب والأحاريم والمشالح فيلقونها عليه ، أثناء السير ، فلا يصل إلى بيته الا وهو محمل مثقل بمختلف الأنواع والألوان من الملابس ، بعضها تكون هبة ، وبعضها تكون للمجاملة ، يستردها ملقيها . اما الآن فان عملية انتخاب رئيس الطائفة يقع بموافقة أمانة العاصمة « البلدية » ثم في أغلب الظن يعرض الموضوع على إمارة مكة مؤيداً منها ، وتكون الموافقة . ولم اعد أشهد ما شرحته من الطواف في الشوارع .

وكان الفرانة على ثلاثة أنواع أو فئات : فئة متخصصة في عمل الكعك والشابورة والشريك وما أشبه ، ذلك وفئة متخصصة في خبز وصنع ما تتجهز به الأسواق ، وفئة ثالثة متخصصة في خبز عيش البيوت . فقد كان جمهرة الأهالي يهيئون خبزهم في البيت ، ويرسلونه إلى الفرن لخبزه ، لأنهم كانوا يستنكفون خبز السوق ، كما سبق القول في فصل الطعام ، وكانت هذه الفئة لا تصنع خبزاً للبيع ، لكن بعضهم قد يضطر لذلك ، ولان يصنع خبزاً يعرضه في مساء اليوم ، فقد كان من المتعارف ان يقبل مقابل خَبْزه لأقراص العيش قطعة من العجين يسمونها : « جُعْلَة » فهو لذلك يضطر أن يصنع مما تجمع لديه من الجعل خبزاً يبيعه

في المساء ، على أنه في الأغلب يكون خبزه لما يقوم إليه من أقراص مقابل مبلغ من المال ، اما ان يدفع له سنويا ، أو شهريا ، بحسب كثرة ما تخبزه العائلة أو قلته .

وممن يلتحقون بالفرانة جماعة من أهالي تركستان ، فان بعضا منهم ، عندما تكاثر وجودهم بمكة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، أخذ يصنع خبزاً يسمونه « التميس » وهو خبز فطير ، يخبز في تنور لا في فرن ، فبعد تهيئة العجين يقرص ، ثم يقرص القرص بآلة مخصوصة ليكون أشبه بالمخرق ، ثم يلصقونه في جدار التنور إلى ان ينضج ، فيخرج ويكون زبائنه حاضرين ، يتلقونه ، فقد أولع به الكثير من الناس والأهالي ، خصوصا في وجبة الأفطار ، ولا زال ذلك رائجاً وقائما حتى الآن ، إلّا أنه شارك التركستانيين في عمله بعض أهل البلاد ، والكثير من اليمانيين الذين تدفقوا على البلاد في العهود الأخيرة ، وقد تطورت صناعة الفرانة بالآلات الحديثة ، والمعاجن الكهربائية ، وغير ذلك كما سبق القول ، وبطل ، أو كاد ، عمل الخبز في البيوت ، وعزز ذلك قلة الحصول على الخدم لمعاونة ربة البيت في شؤونه ، وبذلك انعدمت الفئة الثالثة من الفرانة .

وأخذت الأفران الحديثة تشارك في كل أعمال المخبوزات ، فاخذت تصنع الخبز الذي تمون به السوق ، وتصنع الكعك ، والشريك ، والشابورة ، وكثيراً من أنواع المخبوزات من غير ذلك ، مما لم يكن لمكة به عهد ، إلى أواسط القرن الرابع عشر .

ومن الصنائع التي تتصل بالفرانة والخبز صناعة الطحن ، طحن الحبوب ، فقد كان بمكة عدة طواحين بالحيوانات ، يشارك هذه الطواحين بعض أفراد من « قبائل السراة» ، فقد كان جمهرة منهم خصوصا ، إذ صادف حصول موسم الحج في الشتاء ، ان يقدموا إليها للتكسب والعمل بعائلاتهم ، ويسكنون دهاليز البيوت الصالحة لذلك ، ويجلبون معهم رحاهم ، وتقوم النساء بطحن ما يقدم لهن من حبوب . وهذه الطواحين ، منذ أواخر العقد

الثالث من القرن ، أخذت تتضائل ، فقد نشط بعض طالبي الكسب في جلب بعض آلات طحن ميكانيكية ، عوكسوا في بادىء الامر من المرحوم الشريف حسين بن علي زمن إمارته كما سأذكر ذلك مفصلا في أثناء الحديث عن ايام حكمه ، لكن أخيراً تغلب الوقت والظروف وأمكن وجود عدد منها ، فزاحمت الطواحين التي تدار بالحيوانات حتى اضمحلت ، وانقطع ورود أهل « السراة » بعوائلهم، ولم تعد توجد مطاحن يدوية .

وكانت الحبوب المتداول استعمالها من المكيين أربعة اصناف : الحنطة السندية ، وهذه أرغب أصناف الحنطة ، والحنطة المصرية ، ثم الحنطة العراقية ، ويقولون (حنطة بصراوي) لأن طريق جلبها من ثغر البصرة ، وفي هذه يكثر حب الشعير ، والرغبة فيها قليلة ، والحنطة الهميس ، وهذه من انتاج جبال « السراة » و « الطائف » والقرى التي حولها ، لكنها قليلة الوجود والاستعمال ، ويفضل في عجينة « المعصوب » .

ومن العقد الرابع انقطع أو قل ورود الحنطة المصرية ، لأن الاحتلال الانكليزي للقطر شجع زراعة القطن لتموين مصانع « مانشستر » و « لانكشير » وصارت مصر هي نفسها تستورد ما تحتاجه من حبوب ، لأن الذي يزرع بها لا يكفيها ، فضلا عن ان تصدره ؛ ورغم أن الدقيق أخذ يتوارد بكثرة ، فان بعض الأهالي كانوا لا يميلون لاستعماله ، ويشيعون عنه انه مغشوش ، ومشوب بحبوب أخرى ، وهذا ما استبقى بعض الطواحين زمنا . غير انه في الأزمنة الأخيرة زال هذا الوهم ، وكان الدقيق أغلب ما يجلب من الهند ، أما اليوم فأصبح يجلب من استراليا وأميركا ، وكذلك الحنطة كثير المجلوب منها من استراليا ، وانعدمت الطواحين بالحيوان وغيرها ، وقد يكون بقي بعض مطاحن ميكانيكة ، كما سبق القول ، لطحن بعض ما يحتاج للطحن .

والمكيون يخصصون كلمة حب على الحنطة فقط ، فإذا قال أحدهم : اشتريت اليوم كيس حب ، لا يفهم سامعه إلا أنه اشترى كيس حنطة ، مع أن

الأرز حب ، والشعير حب ، والدخن حب ، والأذرة[١] حب ، كما انهم يعبرون عن كيس الدقيق (فتيلة) ، فيقول : اليوم اشتريت فتيلة دقيق ، ولا يقول كيساً .

ومن المهن التي اضمحلت أو كادت ، صناعة اللبانة بتربية الأبقار ، فلم يبق منهم سوى بضع نفر لا يتجاوز عددهم أصابع اليد،وسببه ما انهال على البلاد من أنواع الألبان المجففة ، والسائلة المحفوظة في العلب ، من أوربا : كهولندة وإسكندنافية وغيرها من البلدان التي تتوفر فيها الألبان ، وساعد على قلة من يربي الأبقار ويبيع ألبانها ، طازجة كسابق العهد ، دخول الشك في نفس المستهلك بأنه حليب مجفف محلول ، لأن التفرقة صعبة على كل أحد ، والوصول إلى الألبان المجففة ميسر في كل دكان بقالة ، وسعر الطازج المجلوب محليا غال بسبب ارتفاع أثمان ما تمون به الأبقار من أغذية والرخيص ابن حلال كما يقولون .

وكان كثير من المكيين ، ولا يزال بعضهم ، يربون الأغنام في بيوتهم ، وأحسن نوع يرغبون في تربيته : الأغنام المصرية .

ومن المهن التي قل متعاطوها مهنة السمانة[١] . فقد كان السمن الطبيعي كثير الورود بمكة ، وهو نوعان : نوع يقولون عنه « سمن بقري » أي مستخرج من لبن البقر ، ومورده من القسم الجنوبي لمكة ، من « الليث » وما صاقبها مصعداً إلى « السراة » ، ونوع يقولون عنه « سمن غنمي » أي مستخرج من ألبان الأغنام ، ومورده الجهات الشرقية ، من مواشي القبائل الضاربة هناك على حدود نجد ، وكانت تشاهد عند ورودهم بها . قربـه فاتحة صفين ، عن يمين الصاعد من المسعى إلى سوق المعلاة في أواسط شارع المدعى ، لأن جمهرة

---

(١) الاذرة : الذرة .

(١) السمانة : صناعة السمن .

الوزانة بميزان القباني ، وهي موازين معروفة ، مقرهم هناك ، غير انه في الثلاثينات ، للخلاف الذي وقع بين الشريف الحسين بن علي أمير مكة إذ ذاك ، وآل سعود ، على تبعية بعض قبائل عتيبة وغيرهم ، أخذ ورود السمن الشرقي يتضاءل ، واخيراً لم يعد يرد ، وكثر توارد « السمن البحري » من الصومال والسودان ، وهذه الجهات ، وقد كان يتخصص في بيع السمن بضعة أشخاص في السوق الصغير ، وفي شارع المسعى ، في حِلَل من النحاس على « بنيكة » ، فهذه حلة البقري ، وهذه حلة الغنمي ، وهذه حلة البحري ، والسمن المجلوب من الخارج يأتي في صفائح من التنك ولم يعد يرى أمثال هؤلاء الباعة .

ومما زاد الطين بلة حصول قحط في الجزيرة وجفاف هلك معه كثير من المواشي والحيوان ، ثم اخيراً انهال على البلاد السمن الصناعي المركب من الشحوم والزيوت ، ولا يفرق الكثير من الناس بينه وبين الطبيعي في اللون ، وليس له رائحة وطعم خاص ، وبسبب ما ذكرت من قلة توارد السمن الشرقي ، والجفاف الذي حصل ، راج السمن الصناعي ، وأصبح أربعة أخماس المطبوخات به ، وكثرت الدعاية له وأنه خفيف على المعدة ، خفيف على الجيب ، فقد ارتفعت قيمة السمن الطبيعي ارتفاعاً فاحشاً بالنسبة له .

ومن المهن التي لا زالت على حالها صناعة « الجزارة » ، فهي وإن اختلف بعض مذبوحاتها ، فلا زالت هي هي . كانت اللحوم التي يعتادها المكيون لحوم الضأن ، وكان المفضل عندهم الضأن الذي يرعى في الحرار ، ويليه ما يرد من نجد ، ولما قل ورود الحريات ، والنجديات ، بسبب ما ذكرته سابقاً من جفاف وقحط لعدة سنوات، دعت الضرورة لاستيراد الخرفان من

---

٢ ـ البنيكة : حمالة أسطوانية من الجريد بضع عليها البائع المتجول دواراً من الخشب عليه معروضاته ، وتكون من الجريد ليخف حملها وقد كان لصناعتها رواج فانهم يصنعون ايضا اقفاص من الجريد ومتائر للشبابيك والطين من الجريد ، وهي التي يسمها المكيون كباريت وقد انعدموا هذه الأيام .

الصومال والسودان ، واصبح أكثر المذبوح منها ، وهذا لا يعني أن الجزَّارة لا يذبحون سوى الضأن ، بل مما يذبح بمكة : الماعز والبقر والجمال ، ولكن المكيين لا يميلون إلى أكلها ، بل يشترونها ويأكلها الحديثو العهد بالمجاورة بمكة من الجاليات الإسلامية ، سائر أجناسها ، والبادية القريبة قراهم من مكة أو من ينزل منهم بأطرافها للتكسب والعمل سيما في أشهر الحج .

وقد كان الدجاج قليل الوجود بمكة ، فهو إما مما يربيه أهل الوديان القريبة أو المحلات التي بطرق البلدة ، او من يتسير له ان يربيه في بيته ، بحيث لو أردت شراء خمسين دجاجة دفعة واحدة تعسر ، وكان الحصول عليها بشيء من البحث والتعب ، إلا زمن الحج ، فان كثيراً من المتسببين في بيعه يجلبونه من الجهة الجنوبية لمكة ، « كالليث » و« القنفذة » . وقد يهلك بعضه أثناء الطريق لان نقله يكون على الجمال ، ومع ذلك فلا يذكر بالنسبة لليوم . فقد انشئت للدجاج مزارع ومرابي على الطرق الحديثة ، وجلب من اوروبا حياً ومذبوحاً لتيسر وسائل نقله السريع ، وحفظه في الثلاجات الكبيرة التي اعدت لذلك . ونشأت له شوايات على الطريقة الحديثة ، وأكثر ما تشاهد عند أرباب المطاعم ، لو أردت شراء ألف دجاجة لحصلت عليها دون صعوبة أو عناء .

ومن المهن التي لا زالت على حالها مهنة « الخضرية » « والفكهانية » ، بل زادت أنواع الفواكه والخضر بما لم تكن تعرفه مكة بهذه الكثرة فيما سبق من السنين ، فلم تكن تعرف مكة من الخضر والفواكه الا ما يزرع في الوديان القريبة منها ، أو ما يجلب اليها من « الطائف » . فالخضر لم تزد أصنافها عما كان معروفا اللّهم إلاّ الخرشوف ، ووارده قليل ، بل ونادر ، لعدم تحمله وعدم إقبال الأهالي على تعاطيه ، مع انه من أغنى الخضر الثمرية بالحديد .

فالخضار المتداولة قديماً وحديثا هي : البامية ، والملوخية ، والفاصولية ، والكوسة ، والدباء بسائر انواعها ، والسلك « السلق » ، واللفت ، والاسبانخ : وأهل مكة يقولون عنها « زبانخ » . والبذنجان الأسود والأبيض ،

والقوطة ، ويسمها المكيون « بذنجان أحمر » والكرنب ، والرجلة ، « البقلة الحمقاء » والبطاطا وأهل مكة يقولون « بطاطس » ، وهي من الدرنات المجلوبة والمزروعة في بعض الأودية ، والجزر الأصفر ، والأسود ، ويقول عنه المكيون « جزر تمري » ونوع من الدرنيات يزرع في الأودية القريبة من مكة بكثرة ويسميه المكيون : « جزر يماني » ، ويقول عنه المصريون « بطاطا حلوة » ، وهو يؤكل مطبوخا باللحم ، وسلقا ، فإن فيه بعض الحلاوة ومشويا أحيانا . ومما يعرف بمكة أيضا ويؤكل مشويا الأذرة النيلية ويسمونها بمكة « ذرة حبشي » .

ومن الحبوب حب الفاصولية ، واللوبيا ، مزروعة بالوديان ومجلوبة من الخارج ، وحب الفول مجلوبا من مصر والسودان ، ومن المزروعات المتداولة : الفجل ، والكراث ، ووجد مؤخرا الفجل الأحمر المدور مجلوبا ثم زرع ، والجرجير ، للإقبال على تعاطيهما ، ومن الخضر التي توجد وقليل وجودها البراصة ، ويسمها المصريون « كرات ابو شوشة » ، كما تواجد القرنبيط .

ومما يتواجد بأسواق مكة من الفواكه ، ولم يكن يعرف المكيون منها إلاَّ ما تنتجه بساتين الطائف وما حول مكة من أودية ومزارع ، فيردها من الطائف ؛ العنب ، والرمان ، والخوخ ، والسفرجل ، والمشمش ، والبرشومي «التين الشوكي » ، أو « الصبار » ، والبرقوق ، ويقول عنه المكيون « بخارة » والتفاح الصغير الحجم المعروف بالسكري ، وكذلك نوع اخر كبير الحجم لكنه حامض . ومن الوديان القريبة من مكة : الموز ، والليمون الحلو ، والبنزهير الحامض ، والرطب ، والبطيخ الأخضر ، ويقول عنه المكيون «حبحب» ، والبطيخ الأصفر ، ويقولون عنه « الخربز » وكان أجوده بطيخ أخضر يعرف « باليافاوي » وكلا النوعين يزرعان على المطر في الغالب في الخبوت ، ولم يكن يعرف من البطيخ الاصفر إلا نوع منه يسميه المكيون « الضميري » .

غير أن الفواكه التي ترد من الطائف كانت قليلة الكمية ، وكان أجود ما يرد

منها : العنب ، والرمان . أما اليوم ، وبعد أن تعبدت الطرق ، واتحدت المملكة ، وزال ما كان من العوائق ، بل واتصل تعبيد الطرق الى الاقاليم المجاورة ، ونشأت في جدة المخازن المثلجة « ثلاجات » أخذت أسواق مكة تعج بأنواع الفواكه ، ونكادنشرق بها من الكثرة ، مجلوبة من الشام ، والاردن ، ولبنان ، ومصر ، وأريرتيا ، والصومال ، حتى أصبح البرتقال ، والموز ، والتفاح ، يكاد لا ينقطع وجودها من الاسواق ، وأفاض الله على البلد من النعم الشيء الكثير ، حتى البطيخ الاخضر والاصفر بأنواعه صار يجلب إليها من « القصيم » « ونجد » . وكل جهة يجود فيها ، قربت أو بعدت ، وتكاثر وجود البطيخ الأخضر المعروف في مصر « بالشلين » ورخصت أسعاره .

ولا يفوتني أن أذكر ان مما يزرع في « جبال السراة » : « الحجاز » : اللوز ، ويجلب منها إلى مكة ويعرف « بالبجلى » كما يجلب من « السراة » : الزبيب ، علاوة على ما يجلب منها من الخارج الآن .

ومن المهن التي كان لها رواج اكثر في زمن الحج ، مهنة « العطرجية » على حد تعبير المكيين ، فإنهم فئة مستقلة لبيع العطور والاطياب على أنواعها ، كعطر الورد ، والعود ، والياسمين ، وأنواع اخرى ، وخشب العود . فإن لهذه العطور رواجاً زمن الحج على الحجاج ، ولهذه الفئة شيخ مخصوص .

ومن المهن مهنة بيع المجوهرات والاحجار الكريمة : كالماس ، والزبرجد ، والياقوت ، واللؤلؤ ، وما شابه ذلك ، ولهم شيخ . وكان بضعة نفر يتخصصون في بيع اللبان اللامي ، والشحري ، والمساويك من عود الأراك ، والحناء مطحونة ، وجوزة الطيب ، ونوع من « الحب هان » كبير الحجم يرغبه الاتراك ، والليف مجدولا حبائل ، فإن ذلك كله مما يروج بيعه زمن الحج . وكان باعة هذه الاصناف يخالطونه في دكاكينهم «بسويقة» باعة الأحاريم والسبح وغيرهم ، أما اليوم وقد هدمت « سويقة » فقد تفرقوا الى جهات أخرى بل لم أشهد احداً يجمع هذه الاصناف .

ومن السلع التي توجد بمكة ، وخاصة بالحجاج ، ويشتري منها بعض الأهالي ما يروق لهم منها ، (الكولندي) وهي أوان تصنع من خليط من المعادن ، وتزخرف بالحفر ، وأحياناً يُلون المحفور مصبغا وهي من مصنوعات « مراد أباد » في « الهند » . تصنع منها صوان ، وفناجين قهوة ، ومشارب ، وطيس ، وبراريد ، وزهريات ، وأنواع اخرى كان الاتراك والمغاربة يرغبون في شرائها .

وقد كان جماعة من المكيين متخصصين في بيع الحبوب ، وكان مقرهم في « المدعى » في مكان سمي « المحناطة » لا يبيع أحدهم سوى : الحنطة ، والشعير ، ولذرة ، والارز بانواعه ، ولهم شيخ ايضا .

ومن المهن مهنة بيع العقاقير الطبية النباتية ، والبهارات . وللقائمين بها شيخ كبقية المهن ؛ وكان جمهرتهم ، وما زال بعضهم ، في قسم من شارع « المدعي » ، وكانت لقسم منهم أيضا دكاكين بمحلة « الشامية » على مقربة من رحبة « قاعة الشفا » ، وقد زالت الرحبة ، وزالت معها الدكاكين التي كانوا يشغلونها ، وتفرقوا إلى جهات متعددة ، وكان معظم من يمتهن ذلك « بقاعة الشفا » من الجالية الهندية . وأهل مكة يطلقون على باعة هذه العقاقير « العطارين » أما باعة العطر فيقولون عنهم بالصيغة التركية « العطرجية » واحدها عطرجي .

ومن المهن التي يتعاطاها المكيون مهنة بيع الكتب ، ويقولون عنهم « الكتبية » ، وقد كان مقرهم ما بين « باب السلام » الموالي للمسجد ،والباب الموالي لشارع « المسعى » . فقد كانت بينها ردهة مستطيلة واسعة تقوم على حفافيها بعض الدور والدكاكين التي يشغلها الكتبة ، زالت الرحبة في توسعة المسجد وتعديل المسعى بين الصفا والمروة ، فتفرق الكتبية في نواحٍ متعددة متباعدة ، وقد كان المكان الذي يشغلونه أليق مكان لهذه المهنة ، ولم يكن يشاركهم فيها سوى بضعة أفراد من باعة الكحل وما شابه بقدر ضئيل . وقد

قيل : إنهم سيتركون لهم عدداً من الدكاكين التي أنشئت بجوار المسجد ، مما يلي باب « الزيارة » والجهة الشامية ، وكان ذلك سيكون جميلاً وأليق مكان لمهنة بيع الكتب .

كما ان جمهرة الحلاقين ، كانوا يشغلون دكاكين على مقربة من « المروة » وللحلاقين شيخ أيضا ، وقد أزيلت الدور والدكاكين التي كانت هناك ، فقد كان وجودهم هناك يسهل على الحاج عملية فك الأحرام ، فلعلهم يُعطَوْن قسماً من الدكاكين المنوه عنها .

قسم التجار والباعة بالمفرق

أما وقد انتهينا من ذكر أرباب الصنائع والمهن والعروض الاخرى ، مما للناس إليه حاجة وله رواج في زمن موسم الحج ، على من يفد من الحجاج ، فلنذكر قسم التجار والباعة بالمفرق .

أما التجار ، فقد كانوا ، ولا يزالون ، فئة متخصصة في جلب المأكولات كالارز ، والحنطة ، والكشري ، وما شابه . وقد يخلطون معه من غير ذلك كالسمن ، والسكر ، والشاي وما شاكل .

وقسم متخصص في جلب البياض البفتة ، والدوت ، والاصواف ، وغيرها من الأقمشة التي لها رواج . وكان قسم من السوريين متخصصاً في نوع الأحاريم ، وهي ما كان يعتمّ به الأهالي في الأوقات العادية بدلا من العمامة الالفي ، وكان لهذه الاحاريم رواج في موسم الحج ، فكثير من الحجاج على مختلف اجناسهم يعتاد شراءها من مكة يصحبها الى بلده هدية أو لباساً له ، لأنه لباس مكة .

اما فئة التجار المتخصصة في بيع الارزاق ، فإن جمهرتهم يعتبرون وكلاء لتجار جدة ، إلا النادر منهم ، فقد يكون له اتصال لجلب مبيعاته رأساً من الهند ، لأن مرتكز التجارة كان ، ولا يزال ، مركز ثقله مدينة جدة لاسباب غير

خافية ، فهي الثغر الذي ترسو به البواخر بما تجلبه ، وكان الوعي الاقتصادي خامداً لدى المكيين ، والإدراك في هذا السبيل ضعيف لديهم ، ويكاد لا يوجد فيهم من يجيد اللغة الاجنبية إجادة كافية للعمل والاتصال بالعالم الخارجي ، كما هو حاصل اليوم بعد انتشار التعليم وارتقاء الوعي التجاري .

على أن البلاد جميعها ، قبل الحرب العالمية الاولى ، كان جل اعتمادها على ما يجلب إليها من الهند ، حتى بعض المنتجات العربية من الاقمشة وغيرها تجلب بواسطة تجار الهند ، ولما كانت مكة بل والبلاد العربية جميعها مرتبطة بالحكومة العثمانية ، فغير قليل من الحاجيات كان يجلب من البلاد المجاورة : كالشام ، والعراق ، ومصر ، وداخل الجزيرة ، وكانت بعض المصنوعات الاوربية تجلب عن طريق استانبول العاصمة ، وكان ما يصل منها معفياً من الرسوم باعتباره تجارة داخلية ، أو يكون قد ترسم هناك ، وكان نفر من الاتراك متخصصين في تجارة الاصواف كالأنقوري وغيره .

وكان يوجد القليل من بيوت السمسرة للتجارة الاوربية ، مثل بيت « جلاثل هنكي » فإنه كان يتوسط لبعض التجار في جلب بعض المصنوعات ، بل كان يقوم بعملية البنوك إذ لم تكن توجد بجدة مصارف وبنوك كما هو الآن .

بيان عن الجاليات المشاركة في الحالة الاقتصادية بمكة

كان لبعض الهنود بيوت تجارية بجدة ، ولها فروع بمكة ، وكانوا متخصصين فيما يجلب من الهند خاصة . في الأغذية والبهارات وبعض الاقمشة وغير ذلك من العروض .

كما كان نفر من الشوام متخصصين في جلب الاحاريم المطرزة التي يعتاد المكيون الاعتمام بها ، وبعض الاقمشة من منسوجات بلادهم ، وبعض مصنوعاتها من العروض الاخرى ، وبعض المكسرات : كاللوز ، والفستق ، والبندق ، والجوز ، والخروب ، وبعض الفواكه الجافة ، غير أن المتخصصين في الأحاريم هم الكثرة ، وقد يأتي بعض من يقدم للحج منهم بالكثير من ذلك لبيعة أيام الحج فقط .

وكان ، ولا يزال ، هؤلاء التجار ، الذين جرى البيان عنهم ، هم الذين يمونون الباعة بالقطاعي من أرباب الدكاكين ، ومن كان منهم على وفر اشترى ما يرغب فيه بالنقد ، ومن كان على غير ذلك ، أعطى نسبته على أن يقوم بدفع ثمنه من ناتج مبيعاته في كل أسبوع .

وقد كانت الجالية الحضرمية ، أو معظمها ، متخصصة في بيع السكر ، والشاهي ، وإذا كان الواحد منهم في طرف البلدة ، جمع مع السكر ،

والشاي ، وما إليه من دخان وغيره ، شيئاً من الحبوب كالارز ، والعدس ، والأذرة ، والسمن ، كما كان الكثيرون منهم يمارس عمل الفول المدمس وبيعه صباحاً ، على أن ذلك ليس معناه انه لا يوجد منهم من يمارس البيع والشراء في أصناف اخرى ، بل يوجد منه من يمارس بيع الاقمشة ، والأحاريم ، والعطارة ، ولكن الجمهرة كما ذكرت ، وهي جالية نشيطة في العمل ، بل أنشط الجاليات ، ويمتد نشاطها إلى كل مرفق ، ومنهم من يقدم لطلب العلم بالمسجد الحرام ، وقد برز نفر منهم في هذا المجال ، وتولى احدهم منصب مشيخة العلماء في وقت ما ، وقد كنت اشهد حلقات بعض نفر منهم للتدريس بالمسجد في مختلف العلوم الدينية ، وكان لهم ، ولا يزال رباط « بجياد » يسكنه الفقراء من طلبة العلم منهم ، وهي الجالية الوحيدة التي كان امراء مكة ينصبون شيخاً لهم ، نظراً لاعتبارات متعددة ، وكانت مشيخة السادة الحسينيين بمكة تكاد تكون وقفا عليهم ، على أن المشيخة لم يعد لها الشأن الذي كان لها في العهود السابقة .

وقد كان لبضعة نفر منهم معاصر لعصر السمسم واستخراج زيته على الطريقة البدائية ، يتولى العصر عليها الجمال فإن المعاصر مألوفة في بلادهم . وهم يستعملون زيت السمسم بكثرة ، وعلى كل فقد كان لهم مشاركة في كل أسباب البيع والشراء والمهن والكثير منهم لم تكن هجرتهم إلى مكة بصفة دائمة بل يأتي للاقامة مدة تطول أو تقصر للتكسب والعيش فإذا جمع من حصيلة عمله ما رأى فيه الكفاية عاد إلى بلده ليشتري ملكا أو نخلاً . . وكثيراً ما يصحب القادم معه أولاداً صغاراً له أو لذويه ومعارفه ، يؤجرهم للعمل أما في دكان أو بيت بحسب لياقة الولد ، والمكيون يفضلون استئجار الحضرمي للعمل عن غيره من بقية من يقدم لهذا الغرض لما فيه من أمانة ونشاط وطواعية وغير ذلك ، ومن تطول مدة خدمته منهم ويكون وكيله قد جمع له مبلغا ويكون قد تفهم من طريقة البيع والشراء فيما كان يعمل فيه أجيراً افتتح له دكانا خاصاً به في نفس العمل ، وعبر مرور الزمن يتأصل في البلد ويتوسع في الاتجار . وقد أصبح لهم في الآونة الاخيرة مكان

ملحوظ في التجارة،وتمكنوا في الامساك بزمام كثير من العروض التجارية، وأصبح بعضهم ذا تجارة واسعة يملك الآلاف والملايين ، وتجنسوا بالجنسية السعودية وأصبح من يقطن مكة مكـيّاً ، ومن جد وجد ومن سار على الدرب وصل . وقد قل في هذه الآونة تواردهم ولم يعد يأتي منهم صبيان للخدمة والعمل الا النادر .

ويلي الجالية الحضرمية في الجاليات المتخصصة : الجالية« التركستانية الغربية » . وأهل مكة يسمونهم كما سبق القول « البخارية » فجمهرتهم كان متخصصا في بيع أدوات الخياطة من إبر ومقصات ويضاف اليها السكاكين والمقالم والازارير وما شاكل ذلك بمختلف الأنواع . وأهل مكة يسمون الممتهن لهذه الاشياء «خردجي » وبعضهم يمتهن مهناً أخرى كصنع الحقائب والأحذية « الكنادر » ، وكما كان خبز « التميس » خاصاً بهم فقد كان منهم من يمتهن عمله ، وكان بعض أفراد منهم يمتهن سن الساكاكين والمقصات بآلة بدائية يحملها على ظهره ويدور بها الحواري ، ولم أعد أرى أحداً منهم هذه الأيام . وهم أهل جد ونشاط فيما يمارسونه من عمل صناعياً كان أو تجارياً ، وبين أفرادهم ترابط وتآزر كما هو بين الحضرميين ، وقد برز منهم التجار والأثرياء ، وتجنس الكثير منهم بالجنسية السعودية ، وانتظم أولادهم فيما يشاؤ ون من مدارس كامثالهم من الجاليات . فنشأ منهم الاطباء والصيادلة والمهندسون ، فقد ابتعث بعضهم إلى الخارج لتلقي التعليم العالي كما أوجدوا بمكة بعض الصنائع التي لم تكن تعرف فيما سبق ولكل مجتهد نصيب .

هذه الجالية ، قدم من قدم منهم للاقامة والهجرة الدائمة ، وسببه أنه في القرن الثالث عشر الهجري ، وأوائل القرن الرابع عشر ، بلغت الغارة من الفرنجة على العالم الاسلامي ذروتها ، وتعرض قياصرة الروس وملوكهم للامارات القائـمة في تركستان ، فضموا بعضها إلى أملاكهم ، وبسطوا حمايتهم على البعض الآخر ، فهاجر منها الكثير فراراً بدينهم ، ومكة مئذر المسلمين وملجؤ هم ، وقد كان في العهد العثماني يقدم من يقدم للحج ، فإذا أراد الإقامة

كان له ذلك دون شرط أو قيد . وفي العهود الاخيرة أي الخمسينات أو الستينات أو ما قبلهما أغار الروس البلاشقة على تركستان الشرقية المتاخمة للصين ففر كثير من أهلها إلى الهند وغيرها وكان نصيب مكة منهم غير قليل .

ولم تر الحكومة الحاضرة بداً من بقائهم أسوة ببعض أهالي أقاليم أخرى ، وأخذت هذه الجماعات المهاجرة من سائر أقاليم المسلمين تكيف نفسها بالمحيط الذي حلت فيه ، وأخذ أولادهم يندمجون في البيئة المكية وشاركوا في كثير من المهن ، وجد بعضهم فنال ثمار جده ، فوجد منهم الأطباء والتجار وضارعوا جالية تركستان الغربية التي سبقتهم في الهجرة .

ومن الجاليات التي تركزت في مكة بعض قبائل « الهوسا » و« الفلاّتة » و«البرنو»وغيرهم من أهالي افريقيا الغربية والوسطى والشرقية وكلهم في عرف المكيين « تكارنة » . وصار منهم الفعلة والحمالون ، ومارس بعضهم المهن الأخرى وتخصصوا في سكن أطراف البلدة خصوصا محلة « الطندباوي » و « الهنداوية »و طرف من « المسفلة » . وكان منهم علماء في الفقه المالكي بدرس بعضهم في المسجد الحرام ، ومن تأصل منهم ومضى عليه جيل أو جيلان أصبحوا مكيين في اللهجة والتقاليد مع فارق لا بد منه ولا ينم عنهم سوى اسوداد البشرة . ولما انتشرت المدارس ونهلوا من معينها صار منهم أساتذة ومدرسون وشاركوا في كثير من العلوم والفنون والوظائف الحكومية ، بل أن بعضهم وصل إلى التعليم العالي وشغلوا مناصب لها قيمتها وخطرها في محيط المعارف والعلوم ، والفضل لله يهبه من يشاء من عباده .

وفي العهود الاخيرة انهال على البلاد عدد جم من«اليمانيين»صغاراً وكباراً ، وقد عاملتهم الحكومة الحاضرة بمعاملة ممتازة ، وأباحت لهم الاقامة ، وكان نصيب مكة منهم غير قليل ، وقد بدر منهم من الجلد والصبر على المشاق والذكاء وسرعة الفهم الشيء العجيب ، فانهم لم يتركوا مهنة أو صنعة إلا ومارسوها واتقنها بعضهم وبرز فيها ، وسد صغارهم ما وجد من فراغ بسبب قلة ورود الحضارم الصبيان الصغار .

وما دمنا في ذكر الجاليات التي شاركت في عمران واقتصاديات مكة ، فلنتم البحث عن بعض الجاليات التي لها طابع بارز والتي وان لم تزاحم في ميدان البيع والشراء والاتجار إلا على نطاق ضيق ، لكن الذين ترسبوا منهم ودمجتهم مكة في سكانها وذويها بحكم الاقامة الطويلة ، زاحموا الأهلين ، وبالأصح الذين سبقوهم في الاقامة وأصبحوا أولي عراقة ، من هؤلاء ، الجاليات المهاجرة من « اندونوسيا » و « ماليسيا » و « سيام » وتلك النواحي ؛ والمكيون يطلقون على جمعهم كلمة « الجاوا » أو « الجاويين » ولا يفرقون بين جنسياتهم ، بل كلهم جاوا .

هؤلاء كان تدفقهم حديثا بالنسبة لغيرهم ، وأخال أن تواردهم بكثرة لم يبدأ قبل العشرينات أو الثلاثينات من هذا القرن ، ولم تكن هجرتهم بقصد التوطن كغيرهم من بعض الجاليات التي سبق ذكرها ، بل لطلب العلم والتزود من علوم الشريعة والعودة بعد ذلك إلى بلادهم . على أن ذلك لا يعني أن اسراً من هذه الاقاليم لم يسبق لها الهجرة ، بل إن عدة عائلات منها توطنت من زمن غير قصير ، ونشأ منهم علماء تخصصوا في تدريس من يقدم من جماعتهم في مختلف العلوم الدينية وما يتعلق بها .

ولم يكن من يقدم منهم في أوائل القرن للحج بالكثرة التي وصلت اليها في أواسط القرن وأواخره ، فقد كان القادم منهم للحج يتدرج في الكثرة ، ففي أوائل هذا القرن كان من يقدم منهم للحج لا يتجاوز البضعة آلاف ، وكان أكثر عدد وصل منهم في عام ١٣٣٢ هـ . خمسة وثلاثون ألفاً . غير أنه في نفس العام ، وفي أوائل شهر رمضان الموافق تموز عام ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى وكان من مقتضياتها أن الدول المستعمرة لاقاليمهم أتت بعد موسم الحج بعدد من البواخر وأعلنت أنها مستعدة لاعادة سائر رعاياها سواء من قدم للحج في ذلك العام أو كان مجيئه قبل ذلك ، وعلى أثر هذا الاعلان نزح الكثير منهم عائدين إلى بلادهم .

على أن بعضهم صمم على البقاء ولم يكن هذا الفريق الذي صمم على البقاء قليلاً ، وعندما انتعشت الحالة بعد انتهاء الحرب كانوا قد تأصلوا ودمغت مكة ابناءهم بكل تقاليدها ، ولما انتشرت المدارس وتيسرت العلوم والمعارف الحديثة، شاركوا فيها فأنت الآن لو زرت أي مكتب أو إدارة من الادارات الحكومية، فلن تعدم منهم الموظفين، ففي الادارة الواحدة الواحد والاثنين والثلاثة ، بل اكثر من ذلك ، ولما تطور التعليم وأخذت الحكومة الحاضرة تبتعث الطلبة الى الخارج للدراسات العليا ، كان من المبتعثين منهم عدد أوفر ، عادوا بعد أن تزودوا بالعلم والمعرفة والخبرة ، وشغلوا مناصب ومهناً لها قيمتها ووزنها في البلد ، ولكل مجتهد نصيب .

ومن أعرق وأقدم الجاليات هجرة إلى مكة الجالية « الهندية » فانه عدا الروابط الدينية ، كان للحجاز روابط تجارية واقتصادية مع الهند وكثير من العائلات المتميزة المشهورة بمكة سواء في المجال التجاري أو العلمي كانوا من الهنود ، وقد عدد الاستاذ أحمد السباعي في كتابه « تأريخ مكة » أسماء كثير من العائلات التي تَمُتُّ الى عنصر هندي ، سواء في المجال التجاري او العلمي ، بل وذكر أسماء بيوت كثيرة من الجاليات الأخرى .
أما المصريون ، بحكم طبيعتهم وشدة التصاقهم بأرضهم فكانت هجرتهم إلى مكة ، بالنسبة لأجناس المسلمين الآخرين ، قليلة . ولم يكثر المقيمون منهم بمكة إلا في عهد محمد علي والي مصر ، حين استيلائه على الحجاز أثناء حربه مع الدولة السعودية ، فقد استوطن منهم عدة عائلات بمكة وصار لهم بها شهرة علمية ، وما يتندر به البعض في ذلك الحين ما يقوله بعضهم بشيء من اللكنة على لسان الهنود« هندي سندي سادات المكة جامصري سوى خربطة » .

ولم تخل مكة أيضاً من مهاجرين من أهل المغرب ، غير أن الكثير منهم كانت هجرته الى المدينة المنورة .

بيان عن مهنة الطوافة والمطوفين وما يتعلق بذلك

أما وقد انتهيت بحسب علمي من الكلام على أرباب المهن اليدوية والتجارة والباعة بالتفرقة فلنتكلم عن القسم الثالث ، وهي مهنة المطوفين ، وفي ظني أن هذه المهنة لم تعرف بمكة إلا فيما بعد القرن الثامن .

فقد كان معظم وفود الحجيج الى ذلك التاريخ بل وما بعده إلى عصر ظهور التجار ، يأتون جماعات ، وعن طريق البر في الأغلب ، فركب العراق وما إليه مثلا ، وكذلك ركب الشام وما إليه ، والركب المصري ، تأتي هذه الركوب مصحوبة بكل لوازم الترحال التي يقتضها السفر في البر ، ولا يلزمهم من يعنى بهم عند وصولهم إلى مكة .

وأخال أن منشأها حصل أول ما حصل أن امير مكة خصص لمن يرد من أعيان الأعاجم وبعض ملوكهم من يعنى بشأنه وإرشاده الى الواجبات الدينية والمناسك من أحد العلماء أو طلبة العلم ، ولا زال الحال يتدرج إلى أن وصل إلى ما وصل إليه في الوقت الحاضر .

وفي ظني ايضاً . وكما يبدو ، ان كثيراً من المطوفين تمت أصولهم الى من يرد إليهم من الحجاج ، فالجاويون مثلا كان معظم مشايخهم قبل التبديلات الاخيرة يرجعون في جنسهم إلى جاوا ، وكذلك البخارية ، وكذلك الاتراك ومن

اليهم ، وكذلك الهنود ، فكأنه كان من يقدم يقصد من يعرفه من أبناء جنسه ثم تطور الحال الى ما تطور اليه بتدخل أمراء مكة في الامر .

ولما كان بحثي منصباً على الواقع من أول القرن الرابع عشر ، كما سبق القول بذلك في غير هذا الصدد ، فسآتي على ما حصل من أوضاع لهذه الفئة من ذلك التاريخ ، على انني سأتكلم أولا على انقسامهم إلى طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : طائفة مختصة بالحجاج القادمين من « اندونوسيا » و«ميليسيا» او « الملايو » و « الفلبين » وما إليهم ، ويطلق على هذه الفئة « مشايخ الجاوا » . لأن الكل في عرف المكية جاوا ، ولهذه الطائفة تقاليد وأعراف ، ويُنصب عليهم من طرف الإمارة ، شيخ يسمى « شيخ مشايخ الجاوا » .

الطائفة الثانية : مطوفو الحجاج القادمين من الهند من سائر أقاليمها ، ولهم شيخ خاص يسمى « رئيس مطوفي الهنود» .

الطائفة الثالثة مطوفو بقية أقاليم المسلمين من غير الجنسين المذكورين ولهم شيخ يطلقون عليه « شيخ المطوفين » .

والشيعة الايرانيون ، وإن كان المتخصص في شؤونهم عدداً مخصوصاً ، إما ممن يعتنق المذهب أو ممن يتظاهر بذلك ، فانهم يتبعون في العرف والقوانين « شيخ المطوفين » المنوه عنه ، والشيعة لا يتصلون الا بهذا النفر ويكاد عددهم لا يتجاوز أصابع اليد .

كان ذلك جاريا إلى ما قبل سنتين أو أكثر ، ثم انفرط عقد هذا الالتزام ، وأصبح كل مطوف يأتيه بالسؤال حجاج من أي أقليم ، وصار مطوفو الترك أو العرب يشاركون في الاتصال ببقية مطوّفي أقاليم المسلمين من جاويين وهنود وغيرهم وبالعكس ، يعني أصبحت المهنة مشتركة بين الطوائف الثلاث .

ولما كان منذ زمن قد حُدِّدَ للمطوف مبلغ من المال مقابل خدماته على كل حاج ، فقد حددت الحكومة في الآونة الأخيرة بعد أن أباحت الخدمة لكل مطوف

فيما يسأل عنه عدد من يباح له التصرف في خدمته ، وتتقاضى عليه رسم الخدمة كاملاً . فإن زاد ما يرد إليه من الحجاج عن العدد المحدد اقتطع من الرسم الخمس ، وأيضاً في نطاق عدد محدد ، فإن زاد فليس له إلاَّ الربع من المقرر وما بقي يؤخذ ويوضع في صندوق مخصص مع الخمس الآنف الذكر ، وبعد انتهاء موسم الحج يوزع ما تجمع على من لم يرد باسمه أحد من الحجاج ، او كما يقال فقراء المطوفين ، على طريقة سنت فيما بينهم ، ووافقت عليها الحكومة .

أما ما كان عليه الحال قبل ذلك فإليك بيانه :

كان الحال أن كل حاج يسأل عن مطوف ، وبذكر اسمه يكون من نصيب ذلك المطوف ، يقوم بخدمته والعناية به في كافة شؤونه إلا إن الأمراء كانوا يخصصون بعض من يلوذ بهم أو يتوسل إليهم بأي سبب من الأسباب في بلد أو بلدان من البلاد الاسلامية ، ويعطونه بذلك مرسوماً يسمونه « تقريراً » فإذا ورد من ذلك البلد أو البلدان حاج يسأل عن بلده أولا فاذا ذكرها ، أعطي للمطوف الذي خصصت البلد له ، وللمطوفين وكلاء في جدة يرأسهم أحدهم ، ويكون معه مندوب من « شيخ المطوفين » يقف الوكلاء عند مخرج الحاج إلى ادارة الجمرك حين نزوله من الباخرة أو الطائرة ، فيتقدم المندوب والرئيس لسؤاله عن بلده ، فإذا سماها ، حتى ولو ذكر اسم مطوف يرغبه ، وكانت من البلدان التي تقرر فيها أحد المطوفين ، لا يلتفت إلى من ذكره من غيره وينادى على وكيل ذلك المطوف المقرر فيتسلمه ويعنى بشأنه .

أما إذا كان الحاج قادماً من بلد لم يقرر أحد الامراء فيه مطوفاً خاصاً يكون عندئذ لمن يذكر اسمه من المطوفين ، فيسلم للوكيل على نحو ما سبق .

وكانت أغلب التقارير في اقليم «الأناضول»وبعض الممالك الاسلامية العثمانية الاخرى وتركستان ومن اليهم ، ولا يخلو أن يكون قد خصص أحد الامراء بعض المطوفين في بلد أو بلدان من غير ما ذكرت ، وقد كانت بلاد « جاوا » على حسب عرف المكيين وهم سكان « اندونوسيا » و « ماليزيا » شائعة

لم يقرر فيها أحد ، وعلى عهد إمارة الشريف « عبد المطلب بن غالب »، وفي آخر إمارة له توسل « شيخ مشايخ الجاوا » آن ذاك ، لدى الامير المشار إليه ، واستحصل على تقارير له ولبعض من يلوذ به من المشايخ . . سبب ذلك ضجة وامتعاضا قام بها بعض الجاويين بإيعاز من بعض المشايخ الذين حرموا من البلدان التي تخصص فيها شيخ المشايخ ومن لف حوله ، بشكوى الى السلطان عبد الحميد رحمه الله ، عن طريق حكوماتهم فانتدب السلطان مندوباً خاصاً للنظر في الامر ، ويقال أنه « جميل باشا » فأبطل ذلك التقسيم . غير ان ذلك لم يدم طويلا ، فقد ولي بعد الشريف عبد المطلب إمارة مكة الشريف عون الرفيق ، فتوسل إليه بعض الحاشية وغيرهم من أرباب المطامع ، فنقض تقارير من سبقه من الأمراء ، وقسم سائر أقاليم المسلمين وجرى تقدير قيم وأثمان لها بحسب وفـرة من يرد منها للحج ، وجعلها بالتقارير والتخصص . وتنافس المطوفون في شراء تقاريره مما أدى الى حرمان الكثير منهم حرمانا أمسوا معه في متربه ، ودخل في المهنة بالشراء من لم يكن من أهلها ، وكثر عددهم ، وظل الحال كذلك إلى أن توفي الشريف عون ، وعقبه في الامارة الشريف علي بن عبد الله باشا ، غير ان إمارته لم تطل ، وجاءت قصيرة ، فقد ولى الامر بالنيابة والاصالة مدة سنتين ونصف فقط، ولا أعلم عما إذا كان غير أو بدل في هذه والشؤون أم لا، وفي أثنائها أعلن الدستور العثماني بثورة من حزب الاتحاد والترقي ، وقامت بمكة تشكيلات من الحزب المذكور في أواسط عام ١٣٢٦ هـ وتراءى لأولي التنفذ منهم ان يبطلوا سائر التقارير ، وأن يكون الحاج حرا في النزول عند المطوف الذي يريده ويرغبه، وحملوا مجلس الادارة التابع للولاية على تعيين اكرامية للمطوف حوالي جنيه عثماني ، ما عدا حجاج الصعيد وفلسطين والعراق والاكراد ومن شابههم في ضعف الحال فانهم جعلوا إكرامية المطوف ثلث جنيه فقط .

مع أنه قبل ذلك لم يكن للمطوف على الحاج شيء معين ، بل كان المتبع لدى المطوفين أنه عند وصول الحجاج إلى مكة يصنع لهم المطوف ضيافة ، وبعد تناول ما كان هيـأ لهم من طعام ، يكون أحدهم إما (معاودي) أي سبق له

الحج ، او ذا مكانة بينهم ، فيفرد منديلا ويدعوا الجماعة إلى اعطاء المطوف اكراميته ، كل بما تجود به نفسه ، وحسب إمكانيته فيعطي أحدهم العشرة أو الخمسة أو الواحد أو أقل من ذلك ، أو لا يعطي شيئاً بالمرة .

على أن حل التقارير الذي قامت به الولاية لم يدم طويلاً ، فقد عينت الحكومة العثمانية الشريف عبد الإله شقيق الشريف عون ، أميراً لمكة . ولكنه قبل أن يغادر اسطنبول توفاه الله ، فعينت الحكومة بدله الشريف حسين بن علي ، ابن أخيه ، ووصل إلى مكة في أواسط شهر ذي القعدة ١٣٢٦ هـ نفس العام الذي جرى فيه حل التقارير . فرفعت إليه القضية ، وكان رحمه الله حصيفاً في تصرفه مع المطوفين والهيئة التركية المتنفذة آنذاك ، وتقرر الغاء ما أحدثه الشريف عون من تقارير ، وإبطال مفعولها . أما التقارير التي سبقت عهد الشريف عون فيجري العمل بمقتضاها ، وبذلك رضي الجميع ، ودام الحال على ما ذكر وعلى ما تواطأ عليه فرق المطوفين الثلاث ، من تقاليد وسوابق أحكام يتخذونها قدوة ودستوراً فيما يعترضهم وينشأ بينهم من مشاكل ومنازعات ، ومن جملتها أن المهنة تنحصر في أبناء الطائفة يتوارثها الخلف عن السلف ، يشذ عنها أنه إذا خدم شخص لدى واحد منهم مدة خمسة عشر عاماً ، على ما اتذكر الآن ، شريطة ان الخدمة جميعها عند مطوف واحد ، وطابت نفس ذلك المطوف ان يتخرج خادمه مطوفاً مستقلاً ، فإنهم يرتضون ذلك ، ويجتمع زمرة منهم لدى شيخ الطائفة ، ويوافقون على منحه المهنة ، ويرفعون الأمر الى الامير لتأييده وصدور الموافقة عليه .

على أن امراء مكة يخالفون ذلك ويمنحون من يتوسل إليهم ، ولو لم يكن من أبناء الطائفة أو له سابق خدمة فيها ، حق الاندماج في المطوفين حتى صار ذلك مألوفاً وعد من جملة التقاليد ، ولهم في ذلك قولة مألوفة هي : « الأمر فوق القانون » لأن أمراء مكة كان منوطاً بهم من السلاطين صيانة الحجاج وأمنهم وتسهيل سبل الراحة والأطمئنان لهم ، وكانوا ينصون على ذلك في مراسيم توليتهم الامارة « الفرمانات » . فكانوا إذا عينوا مطوفاً . لما لهم من حق ذلك ، يكون الطالب للمهنة إما أن يقدم بين يدي نجواه مبلغاً من المال مرضياً أو يقدر عليه ،

سواء كان المنح بحسب القانون أو بمجرد المنحة والعطاء ، وكان الأمير يختص به لذاته .

ولما حلت الحكومة الحاضرة ، وابقت ما كان على ما كان عينت على من يدخل في زمرة المطوفين ، ببعض الطرق القانونية أو بغيرها ، مبلغا يعطى لخزينة الدولة إما فوراً أو تقسيطاً أو يجمع بينهما ، ولا يختص الامير أو غيره كسابق العهد .

وبناء على التقاليد المرعية من السابق ، صار لكل من يتولى مكة الحق بأن يمنح من شاءِ صناعة الطواف ، وبذلك دخل جملة نفر في مهنة الطواف ممن لم يكن لهم علاقة بها ، ولا يمتون لصناعة الطواف بأي سبب ، ومارسوها واندمجوا في أهلها بل وصل أحدهم بأن يكون رئيسا للطائفة . دام ذلك جاريا الى ما قبل بضع سنوات ، فألغت الحكومة كامل التقارير بالمرة وأشاعت الخدمة بين الجميع كما سبق القول .

إلا أنه نشأ من هذا الاطلاق وحل التقارير مشاكل أخرى ، فقد أخذ المطوفون يتنافسون فيما بينهم ، وتسلط سماسرة من نفس الحجاج يشاركون المطوف فيما تخصص له من مصلحة ، وسبب ذلك الاتكال على السمسار في العناية بمن يأتي بهم من الحجاج .

والخلاصة أنه لا زال يطوف على هذه المهنة طائف الارجاف ، ولا يزال الشد والجذب مستمراً . والله وحده العليم بما ينتهي اليه امرهم .

وفي نظري أن هذه المهنة واجبة البقاء ، خصوصاً لمسلمي الاقاليم غير العربية ، فإن المطوف من ألزم اللوازم لهم لجهلهم اللغة ، بل والجميع من عرب وعجم في حاجة لمن يرشدهم في حلّهم وترحالهم ، وتهيئة وسائل الراحة لهم ، وإرشادهم إلى أداء المناسك على وجهها الصحيح ، لإنه من المؤسف أن جمهرة من يأتي منهم للحج يجهل الكثير من ذلك ، وكما يقولون « الغريب اعمى ولو كان

بصيراً». وإنني اعرف أن الكثير من المطوفين المخلصين لعملهم وأداء الواجب، ينالهم من العناء والنصب ما لا يقدر بثمن ، ولا يقوم به اجر لا سيما وأن جميع المسؤولية عن الحاج في حركاته وسكناته من يوم وصوله الى يوم سفره منصبة على المطوف .

والحقيقة والواقع أن الحكومة الحاضرة والأهالي يبذلون كل ما في وسعهم ويتجندون جميعا في زمن الحج لتيسير سبل راحة الحجاج وتسهيل أداء مهمتهم .

اما الحج المثالي ، الذي تتوخى الحكومة وتحرص على تحقيقه وما يتطلع إليه المتنورون من المسلمين ، لا يكون إلا إذا ارتفع الوعي بين المسلمين وانتشرت الثقافة الدينية في أقاليمهم وأمصارهم وما دام أن معظم من يقدم للحج من اهل القرى والدساكر ، الذين يعيشون في قراهم وبلادهم عيشة غير مستوفاة فسوف لا يكون الحال إلا كما هو كائن إلى أن يقضي الله بارتفاع شأن المسلمين ، وانتشار الحضارة الاسلامية بينهم انتشارا عاما ، ولا يظن القارىء الكريم أنني مطوف أو أمت إلى صناعة الطواف بصلة .

بيان عن الزمازمة سقاة ماء زمزم

ومن الفئات الملحقة بالمطوفين، وهي الفئة الرابعة ، فئة الزمازمة . فإنهم طائفة مستقلة لهم شيخ ينصب من قبل أمير مكة ، ووظيفتهم سقي الحاج في المسجد من زمزم ، وإيصاله إلى بيوت بعضهم ممن يرغب ذلك ، وقد يوقف بعض الحجاج سجاجيد للصلاة يتولى فرشها في أوقات الصلوات الخمس ، يحفظها لديه ، وقد يختار بعض الحجاج إجراء سبيل في المسجد من ماء زمزم ، فيتولى سقاؤه تهيئة ذلك ، ومواعين الزمزم من الفخار تسمى : « دوارق » واحدها « دورق » ، وهي قديمة الشكل ، فإنها تكون على شكل مخروطي لتثبت على المرافع التي تصنع خصيصاً لها ، وقد كانت تملأ حصاوى المسجد ، ولكن لم أعد الحظ كثرتها السابقة في هذه الأيام ، واظن ذلك إفساحا للمصلين بناءاً على تكاثر الحجيج .

وقد وصفها ابن بطوطة في رحلته ، وقبله ابن جبير ، ولهذه الطائفة كما قلت رئيس ولهم أنظمة وأعراف ، إلاّ أن للمطوف توجيه من يقوم بخدمة حجاجه إلى السقاء الذي يختاره له من نفس الطائفة ، وقد لا يخلو أن تكون لدى بعضهم تقارير من أمراء مكة في جنس من أجناس الحجاج ، وإذ ذاك لا يكون للمطوف تدخل معه ، ومما كان يتعاطاه السقاة ، أن بعض الحجاج يرغب في شراء مقدار من « البفت » لاتخاذه كَفَناً له عند موته يقوم الزمزمي بتسقيته له من ماء زمزم ، وبنشره في حصوات المسجد أوقات الظهير وتجفيفه ، فتراها وقد أصبحت كأنها مغسلة وقد أبطل ذلك .

بيان عن وسائل تنقلات الحجاج وما كان متبعاً فيها وما آلت اليه الآن في عهد السيارات

أما وقد انتهينا من ذكر المطوفين وما يتعلق بهم ، فلنذكر ما كان يتبع مع الحجاج في وسائل تنقلاتهم وأجورها مما لم أذكره من وسائل النقل والتنقل عند المكيين فيما سبق .

كان المتعهد ينقل الحجاج إلى المدينة المنورة ومن جدة وإليها هيئة تسمى هيئة المخرجين المتعهدين ، ولهم شيخ ينصبه الأمير وتتبعهم جماعة يسمونهم المقومين . والتقويم معناه تقدير حمولة الجمل من عفش الحجاج وركوبهم ، وأغلب الفئتين من رجال قبائل « حرب » ممن تحضر وسكن مكة أو أحد أطرافها ، وكان في كل عام من مبدأ موسم الحج تقدر أجرة الجمل : إن كان لحمل «الشقدف» لنفرين فله أجر مخصوص، وإن كان عصما يحمل عفشا أي مرافق الحاج وما يصحبه معه من أمتعة فله أجر مخصوص، وإن كان العصم مركوبا بنفر أو نفرين دون شقدف فله أجر مخصوص .يقدر الأمير هذه الأجور عند مجيء الحاج أو رجوعه إليها أو عند زيارته للمدينة أو طلوعه لعرفات، كل بحسبه ويشتمل التقدير على أجرة الجمل ، والمخصص للمخرج والمقوم مقابل عملهما وخدماتهما . غير أن الأمراء كانوا في تقدير الأجور « يضمرون حسوا في ارتغاء » ، فيقدرون الأجرة ومن ضمنها مبلغ يختص به الأمير باسم « كوشان » قد يبلغ ثلث المقدر ، خصوصا في عهد الشريف عون وما بعده ؛ مما جرأ قبائل البدو التي تسكن الطرق للتعرض للقوافل خصوصا بين مكة والمدينة ، فكل قبيلة في حدودها توقف القافلة ولا تجعلها تمر دون تقاضي إتاوة على كل جمل وكان ذلك مما يسبب متاعب

ومخاطر ، يقع هذا رغم أن الإمارة كانت تأخذ عند سفر القوافل رهائن من أقرباء الجمالة بواسطة المخرج والمقوم ، ورغم ذلك فكثيراً ما تتعرض القوافل للأذى والعبث في أثناء الطريق ، وقد بلغ ذلك القمة في أواخر عهد الشريف الحسين بن علي ، فإن قافلة الحجاج الجاوين اضطروا للرجوع من « رابغ » وسببه إفحاش الشريف في مخصص الكوشان ، لأن الانكليز قطعوا عنه المعونة المالية التي كانوا يقدمونها له أثناء الحرب العالمية الأولى ، مما سنأتي على بعض التفصيل والبيان عنه عند الكلام على أيام حكمه في الفصول القادمة .

ومن طريف ما سمعته أن فيصل الأحمدي « شيخ قبيلة الأحامدة » . عندما تعرض لاحدى قوافل الحجاج في طريقهم لزيارة المدينة كان يقول لمن يفاوضه في شأن الأتاوة التي يطلبها : « هُوُ في دِيرَتِه سِتْجلال وَحِنًّا في دِيرَتِنَا سِتِجْلال » يعني بـ « هو » الشريف الحسين ؛ ومعنى قولته « ان الشريف الحسين مستقل في بلده ونحن في بلدنا مستقلون» فمن الحق أنتقاضى مثل ما يتقاضى من إتاوة وكوشان .

كانت الحكومة العثمانية قد جعلت عوائد شهرية وسنوية للقاطنين على طول الطريق وفي عهد استقلال الشريف الحسين قام بما كانت تجريه الحكومة العثمانية ، ولكن في أخريات سنين حكمه ، وبعد أن قطعت عنه الحكومة البريطانية المساعدة المالية التي كانت تقدمها له ، كما سبق القول ، أخذ يتأخر في صرفها ، ويماطل وكلائهم ، مما أدى إلى رجوع بعض القوافل دون الوصول الى المدينة المنورة ، ولما حلت الحكومة الحاضرة مكان حكـومة الحسين ظل تقاضي الكوشان على ما هو عليه ، فقد جابه الحكومة من مصروفات والتزامات للعناية بشؤ ون الحج والحجاج ما لا تعرفه أيام اقتصار حكمها على نجد ، وكانت الموارد الأخرى عاجزة عن القيام بما يلزم ذلك من مصاريف وتشكيلات إدارية ، وقد كان المرحوم جلالة الملك عبد العزيز دائم التأفف من فرض هذه الضريبة ، فكثيراً ما كان يصرح متمنياً لو أن الموارد الأخرى تقوم بالعبء ، فيلغي الكوشان ، لأنه حتى لما حدثت السيارات كانت الحكومة مضطرة إلى فرض الكوشان على

كل حاج ، بل حتى أهالي مكة كان يُتقاضى منهم الكوشان حين زيارتهم المدينة في السيارات ، غير ان الله حقق أمنية جلالته ، وقبل وفاته ببضع سنوات . أفاء الله من الموارد ما أغنى عن الكوشان وعن أي ضريبة أخرى تؤخذ على الحجاج ، فقد تفجرت آبار البترول في الظهران ، أو تدفق « الذهب الأسود » كما يسمونه .

وأغنى الله عن بقرات زيد

وجاء الله بالـلبن الحليب

وألغى جلالته الكوشان ، وصار الحاج لا يدفع إلّا ما هو ملزم به من أجور تنقلات وخدمات عامة وما أشبه ذلك وهو المتبع الآن .

على أن تقاضي الرسوم على الحجاج يرجع عهده إلى العصر الثاني من اعصور الخلافة العباسية ، فإنه من أوائل القرن الثالث الهجري اهتزت سطوة الخلافة ، وبدأ كثير من الأقاليم والولايات يدّعي الاستقلال في الادارة العامة عن مركز الخلافة ببغداد ، وفي أواسط القرن الرابع كانت مكة متأثرة بالنفوذ الأخشيدي وحكومته بمصر ، فلما تمكنت حكومة العبيديين من القضاء على حكومة الاخشيديين بمصر والاستيلاء عليها ، انتهز أحد الأشراف الحسنيين بمكة فرصة ذلك وأعلن استقلاله بشؤون مكة وما إليها ، استقلالا تاماً ، ولم تكن موارد مكة تكفي لما يستلزمه الاستقلال والدفاع عنها، ففرض على من يقدم للحج من الآفاق الاسلامية ضريبة . ومن لم يؤدها يمنع من دخول مكة ، ولا يمكن من أداء الفريضة . على أنه في بعض الأحيان يقوم بعض الأمراء من أولي الاريحية بإلغاء هذه المكوس كما حصل على عهد الأمير « فليته بن القاسم » فإنه بعد ان تولى الأمارة بعد أبيه ، ألغى المكوس وسار في الناس سيرة حسنة ، وكما حصل على عهد الأمير « مكثر بن عيسى » فقد حج في إحدى سني إمارته الشيخ « علوان الأسدي الحلبي » وكان ذلك في عهد « صلاح الدين الأيوبي » ، فلما وصل إلى جدة طولب بالرسم المقرر ، فامتنع وكاد يرجع ، فتدارك الأمير الأمر وأمر بعدم مطالبته نظراً لما للشيخ من مكانة . ولما وصل الشيخ إلى مكة واجتمع بالأمير اعتذر إليه الأمير بأن قلة موارد البلاد وشدة الحاجة هي التي أوجبت فرض هذه

الرسوم . فخابر الشيخ السلطان صلاح الدين في ذلك فاستعد صلاح الدين أن يقدم لمكة في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمح من حاصلات مصر ، مقابل إلغاء الأمير الرسوم التي يتقاضاها . ولما انتهى عهد صلاح الدين : « عادت حليمة لعادتها القديمة » كما يقول المكيون في مثل ذلك ، وعاد تقاضي الرسوم على الحجاج إلى أن ضعف نفوذ الأمراء في أواخر القرن الثالث عشر ، وأصبح الأمير موظفا من موظفي الحكومة العثمانية ، له راتب شهري يتقاضاه من خزينة الدولة ، فجنح من يتولى الأمارة منهم عن أخذها علنا ، وصاروا يتقاضونها تحت ستار أجور التنقلات إلى أن ألغاها جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله في آخر سني حياته كما سبق القول .

على أن المشير عثمان نوري باشا ، أثناء ولايته في أوائل هذا القرن ، بناء على ما أحدثه من انشآءات ومبان حكومية لم تكن موجودة، وتعويضا للخزينة عما صرفه وأنفقه في ذلك ، فرض على كل جمل يسافر الى المدينة ريالا مجيدياً ، أي خمس ليرات عثمانية ذهبية ، وعلى كل جمل يسافر من جدة الى مكة ربع ريال مجيدي ، وأطلق على هذا الرسم كلمة (كوشان) ، وكان يُقطع بها إيصال من الخزينة ، وسأعرض للموضوع مرة أخرى عند ذكر ولايته ، وإمارة الشريف عون الرفيق في فصل : الحكومة والحكام .

هذا الذي كان يفعله الأمراء سبب تفاقم اضطراب الأمن في السبل ، خصوصا بين مكة والمدينة ، ومن قبائل « حرب » القاطنين على طول الطريق بالذات ، كما سبق القول .

على أن اختلال الأمن في الطريق بين مكة والمدينة قديم العهد، ففي أوائل القرن الثالث . أغار « بنو سُليم » على بعض مدن الحجاز ، وأخذوا يقطعون السبل والطريق ، والحكومة العباسية ، وإن استطاعت تأديبهم وردعهم ، غير أنه لم يستقم بعدها أمان خصوصا وقد أخذت الخلافة العباسية تهتز ، وتأخذها الفتن في كثير من الأقاليم ، وبعد أن استقل الحجاز بالامارة ، أو حصل له شبه

استقلال ، كانت تحصل في فترات طمأنينة وأمان بحسب قوة الأمير الشخصية وكفاءته واهتمامه . أما حينما استولت الحكومة السعودية على البلاد ، فقد عم الأمان سائر طرق المملكة دون كبير عناء ، بل بالرهبة والخوف والرعب . فقد كان ذكر « الاخوان المتـديّنـة » وإقدامهم في القتال يرعد مفاصل البدو وغيرهم . ففي فجر استيلائهم تمرد بعض قبائل « حرب » فبعثت الحكومة عليهم شرذمة من الأخوان ، ضربت القبيلة ضربة لم تقم بعدها لسائر قبائل حرب قائمة .

ومن الطريف أن البدو على طريق المدينة صاروا يتهيبون القرب من معسكر قوافل الحجاج ، بعد ان كان الحجاج يهابونهم ، فإذا نزلت القافلة على منهل للاستراحة أثناء النهار . وإذا ما أراد أحدهم بيع بعض سلعه ، كالحطب والماء وما أشبه ، لا يجروء على القرب من منزل القافلة ، بل ينادي على سلعته من بعيد ، وإذا رغب أحد الحجاج في شراء شيء دعاه إليه دون التقرب من المنزل ، خشية أن يضيع على أحد الحجاج شيء من متاعه فيتهم به ، لأن الحكومة ضمنت كل قبيلة حدودها فان فقد بعض الحجاج شيئاً كلفت القبيلة بإحضاره أو ضمان ثمنه .

على أن اضطراب حبل الأمن ، وعدم الاستقرار ، لم يكن مقصوراً على الطرق وحدها ، بل أن مكة كان ينالها من ذلك الكثير في كثير من الأحيان ، بسبب ما يقع بين الشرفاء من تنافس على الأمارة والتقاتل عليها ، أو بين أمير من أمراء قوافل الحجاج وأمير مكة ، او بين أمير الركب العراقي ، وبين امير الركب المصري ، وقد يصادف ذلك أيام موسم الحج ، بل وأيام الحج ، وكثيراً ما يكون ذلك ، فيقع من أنصار الفئتين المتقاتلين من النهب والسلب للأهلين والحجاج على السواء ، وقد يقع من جهلة بعض أمراء الحج ، وسقاتهم من انتهاك لحرمة المسجد الحرام ، واقتحامه بجنودهم ، ودوابهم للاحتماء ، بل والقتال فيه ، يقع من ذلك ما تسود منه الصحائف .

يعلم هذا من يقرأ التواريخ المفصلة التي أرخت لمكة في العصور السابقة ، خصوصا عندما انفرط عقد الخلافة العباسية ، ونشأ بين ملوك الطوائف

وسلاطينهم من تنافس على كسب التسلط والتنفذ على الحرمين الشريفين ، ومما زاد الطين بلة ما دهم البلاد الاسلامية من الغزو الصليبي ، خصوصا في سوريا وما ضالعها ، واستيلائهم على بيت المقدس وغيرها سنيناً طويلة ، وما ضالعه من غزو التتار لبغداد وقضائهم على الخلافة العباسية قضاء تاماً ، حتى صار من يقدم على الحج في تلك السنين يودعه أهله وداع المشكوك في رجوعه إليهم سالما . ومن طريف ما اتفق « لجمال الدين بن مطروح » أحد كتاب الدواوين في العهد الأيوبي يهجو أهل مكة :

لا تنكرنَّ لأهل مكة قسوة | والبيت فيهم والحطيم وزمزم
آذوا رسول الله وهو نبيهم | حتى حمته أهل يثرب منهم
رأف الإلّه على الذي يأتيهم | سلبا ، فلا يأتيهم إلاّ مُحرِمُ

والخلاصة أن مكة ، وقلب الجزيرة العربية « المملكة العربية السعودية » شهدت من الأمان والاستقرار ما فقدته منذ قرون عديدة ، ولم يسبق له مثيل فيها ، اللهم إلاّ إذا كان في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، والله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، له الأمر من قبل ومن بعد .

لقد شط بي القلم عما أنا بسبيله من ذكر قوام معيشة المكيين ونشاطهم وأحوالهم الاقتصادية ، فالحديث شجون كما يقال ، ولنعد إلى ما نحن في ذكره .

كل هذا الذي ذكرته من الحرف والمهن وأسباب التجارة ، قوامه والعامود الفقري له « موسم الحج » على أن اسباب التكسب زمن الموسم ليست مقصورة على المكيين وحدهم ، بل يشاركهم في ذلك بعض سكان المدن الأخرى والقريبة من مكة ، فهذا يحترف سقي الماء ، وذلك يأخذ من السلع الخفيفة ما يحمله في يده او على دوار على رأسه ، ويدور به في الأسواق عارضا لها على الحجاج ، او واصفاً ما لديه من سلع فوق لوحة خشبية على حوافي الطرق ، وحتى الحجاج أنفسهم خصوصا « الاندنوسيين و الملاويين» والايرانيين » و« الهنود » وغيرهم يجلبون معهم الكثير من منتوجات بلادهم ومصنوعاتها ، ويتبادلون بها مع

غيرهم ، ببيعها وشراء ما يروق لهم مما تعرضه الاسواق ، وما اكثر ما تعرضه ، ففي موسم الحج يتوفر بمكة من أنواع السلع والامتعة والمصنوعات والمأكولات والمشروبات ما لا يتوفر مثله في كثير من حواضر العالم ومدنه ، من المصوغات والحلي إلى لعب الأطفال .

والخلاصة ان موسم الحج بمكة عظيم فريد في نوعه ، فإن صلح وكان القادمون الى أداء الفريضة وافري العدد ، انتعش المكيون ومن شاركهم ، واستقامت أحوالهم ورغد عيشهم والعكس بالعكس ، وقد كان موسم الحج يبدأ عادة من شهر رجب، ويستمر إلى ما بعد شهر محرم، غير انه في السنين الأخيرة صار يتأخر إلى شهر شوال والقعدة بسبب ما طرأ من سرعة المواصلات مما جعل الحجاج يتأخرون في المجيء .

وأهل مكة يسمون ما عدا اشهر الحج « أشهر البصارة » يعنون بذلك فتور حركة البيع والشراء وجمودها إلّا فيما بينهم .

علماً أنه عندما استقل الشريف الحسين بن علي بالبلاد ، أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م جد على مكة وجه آخر لأسباب العيش ، وهو التكسب بالتوظّف في الادارات الحكومية والمكاتب ، فقد كان الواقع في عهد الخكومة العثمانية وثنائية الحكم ان الوالي التركي ويتبعه من الادارات والمؤسسات الحكومية مجلس التمييز والخزينة ، أي الادارة المالية ، وإدارة للشرطة ويقال لها (الجاندرمة) (فرنسية متتركة) ، والفرقة العسكرية الحامية ، والبرق والبريد ويطلقون على مقره (بوسة خانة) ، ويتبع الولايةإدارة (المكتوبجي) ، وهؤلاء كلهم من الجالية التركية ، اللهم إلّا بضعة نفر ممن يحسن التركية قراءة وكتابة ومما هو ملحق بالإدارة التركية مديرية الحرم الشريف، وقاضي المحكمة الشرعية ، فإن الحكومة العثمانية في العهود الأخيرة الزمت تعيينه من غير المكيين ، وتبديله في كل سنة او سنتين ، لا أذكر الآن ، وكان يتبعه ترجمان يحسن العربية وإلا فإن بعضهم ممن يحسنها .

وكان منوط بالقاضي تسجيل المخاصمات والدعاوى والحكم فيها وتسجيل الاقرارات من : مبايعات ووكالات ووصايات وغيرها ، ومعه كتاب ضبط باللغة العربية ، وبها تصدر سائر الصكوك . ومما هو ملحق بالقاضي موظف يسمى « مأمور بيت المال » ، ووظيفته الاستيلاء على تركة من لم يكن له وارث ، أو إلى أن يثبت له وارث ، وتجهيز من ليس له أقارب يقومون بتجهيزه عند موته ، وأمثال ذلك .

أما « حرم شريف مديري » على حد التعبيرات التركية ، والذي جرى التنويه عنه ، فيتبعه موظفو المسجد الحرام من : كتابين وفراشين وسراجين وأئمة وخطباء ومؤذنين ، وكان لكل منهم شيخ ، كما كان يوجد موظف يطلق عليه نائب الحرم ، وأظنه يكون نائبا عن الامير للاشراف على شؤون المسجد ، وكان لكل من هذه الجماعات مرتبات من الخزينة يتقاضونها عن طريق مدير الحرم ، تكاد تكون لقلتها رمزية ، ما عدا المخصص لسدنة البيت من « آل الشيبي » المعروفين قديما بالحجبة ، ولمفاتي المذاهب الأربعة . فان أمر تعينهم ، وإن يكن من طريق الأمير ، إلاّ انه لهم مرتبات لا بأس بها تصرف من خزينة الدولة .

لهذا لم يكن ، لما عدا من ذكرت ، نصيب يذكر في وظائف الادارة التركية .

اما تشكيلات الامارة ، فقد كانت من الضآلة والبساطة بمكان ، فديوان الأمير لم يكن يحوي سوى كاتبين أو ثلاثة ، أحدهم تركي يحسن العربية ، أو عربي يحسن التركية للمكاتبات مع الولاية ، او دار السلطنة مباشرة . والآخر عربي ، لما يتعلق بشؤون البلد ، وما للأمارة من التصرف مباشرة فيها . وللأمير نائب عنه يسمى « القائمقام » ، مقره دهليز قصر الامارة في أصل الوضع للنظر في شكاوى البادية وما يتعلق بها . إلاَّ أن المكيين كانوا يتقززون من مراجعة الوالي التركي في أي شأن من شؤونهم ، ويلجأون في شكاواهم للأمير او للقائمقام لما

كانوا يجدونه من تفاهم وارتياح ، لسرعة البت في قضاياهم ، لأنهم لو راجعوا الولاية أو إدارة « الجندرمة » الشرطة ، كلفوا بكتابة « عرض حال » بالتركي ، وذلك مما يعسر بل يتعذر على جمهرة الناس، وأما مراجعة الأمير او القائمقام فليس إلّا المشافهة ، أو كتابة معروض بالعربي ؛ وبمجرد تقديم الشكوى ، يصدر الأمير الأمر إلى القائمقام ، وإذا كانت الشكوى قدمت رأساً إلى القائمقام ، كلف أحد «جلاوزته » ويسمونهم « البوارديه » بجلب الخصم ، وفي الحال تحصل المرافعة ويتقرر الحكم وينتهي الأمر فيما بين الخصمين . هذه السرعة وهذه البساطة جعلت الأهلين لا يولون وجههم إلا للامارة والاتصال بها في سائر شؤونهم ، وما يتعرضون له مما جعل الوالي التركي رمزاً لاعمل له .

نشوء الموظفين من الوطنيين المكيين

لما استقل الشريف الحسين بن علي أخذ يشكل ادارات استلزمها وضعه الجديد ، فأنشأ دائرة للشرطة ، ووزارة : للخارجية والداخلية والمالية ، وقاضي للقضاة ، وعين في كل وزارة وكيلاً ، وشكل مجلساً دعي بمجلس الوكلاء أسند رئاسته لقاضي القضاة علاوة على عمله ، كما أنشأ مديرية للمعارف وغير ذلك مما يقتضيه الوضع وتخصص لكل موظف مرتب مقابل عمله . فقد تشكل لكل وزارة او إدارة مكتب يحوي عدداً من الموظفين ، إلاّ أن هذه التشكيلات كانت على نطاق ضيق محدود بالنسبة للوضع في عهد الحكومة الحاضرة .

فإنه لما حلت الحكومة الحاضرة السعودية ، واستتب لها الأمر في الحجاز ، سارت في التشكيلات على غرار ما شكله الشريف الحسين ، ولا زالت التشكيلات في تطور واتساع خصوصا بعد إعلان توحيد المملكة ودمج ما وصل إليه سلطانها ، فقد حصلت انطلاقة وتوسع اقتضاه التطور الذي حصل ، وتكاثر معه عدد الموظفين . وأخال ان من شارك في التوظف من المكيين لا يقل عن خمسة عشر الف موظف ، إن لم يزد عن ذلك ، ولما تطورت موارد الزيت ، أصبح ما يتقاضونه من مرتبات له وزنه وأثره في إنعاش الحركة الاقتصادية مما خفف جمودها في « اشهر البصارة » أي في غير موسم الحج ، وإن كان لا يزال الفرق واضحا ، والله ذو فضل على الناس .

على أن هذا العدد الذي ذكرت من الموظفين ، ليس كله ممن يعمل بمكة ، بل بعد أن توحدت المملكة باسم « المملكة العربية السعودية » انتشر كل رعايها في سائر أقاليم المملكة ، وأصبح أهل المنطقة الشرقية يعملون في المنطقة الغربية ، وأهل المنطقة الغربية يعملون في المنطقة الشرقية ، وأهل الشمال يعملون في الجنوب ، واهل الجنوب يعملون في الشمال وتجلت الوحدة في قلب الجزيرة بأجلى معانيها ، وأصبح ما اشترط في بيعة جلالة الملك عبد العزيز ، رحمه الله ، ملكا على الحجاز غير ذي موضوع . وصارت المملكة كتلة واحدة والحمد لله على نعمائه .

ما وفق الله اليه خلفاء المسلمين وسلاطينهم وأمراءهم وأولي الشراء فيهم للعناية بالحرمين وأهلهما ومن يحج اليهما او يجاور بهما لطلب العلم او التعبد

ويحسن بنا ان نذكر قبل ذلك ما للدين الاسلامي من مزايا وفضائل وحث على التعاطف والبر وما حصل من ذلك من عميق الأثر في نفوس معتنقيه ،وما وصل إليه شعورهم ورقة إحساسهم في هذا السبيل .

وحسبي أن انقل ما ذكره وقاله المرحوم « الأمير شكيب ارسلان » في صدد رده على المسيو « برته موري » اثناء تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامي ، قال المسيو « برته موري » في أحد كتبه : « ان المبشرين المسيحيين يتفوقون على الدعاة المسلمين بما يؤسسونه في ميدان تبشيرهم من مؤسسات خيرية وصحية وثقافية وصناعية وغير ذلك » .

فقال الامير ، رحمه الله ، مذكراً بما كان يقيمه المسلمون وحكوماتهم قبل أن يصيبهم ما لحقهم من الانحطاط والتدهور :

نحن لا ننكر ما قاله المسيو « برته موري » من أنه لا وجه للمقارنة بين مؤسسات الاسلام والنصرانية في افريقيا وغيرها من جهة الانفاق والتفنن وتنوع العلوم والصناعات ، واشتراك النساء مع الرجال في هذه المشروعات الخيرية ، وما تأتي به هذه الراهبات من الخوارق في خدمة الانسانية كلا ، والله لا ننكر ذلك ، « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » .

ولكن مما لا ينكر أيضاً أن انحطاط المؤسسات الخيرية الاسلامية ، إنما وقع بانحطاط القوة السياسية الاسلامية في الاعصر الأخيرة ، أما قبل ذلك فلم تكن مدينة تذكر في الأسلام إلَّا وفيها: البيمارستانات « المستشفيات » ودور المجاذيم ، والمجاذيب وملاجىء الزمنى، وملاجىء العميان وكل هذه المؤسسات كانت لها أوقاف دارة ومنابع رزق ينفق منها عليها من سعة ، لا بل الذي خطر ببال المسلمين من جهة إسداء الخير وإماطة الأذى وتخفيف آلام البشر قد يصل من التناهي إلى درجات لم تبلغها أوربا في عصر مدنيتها هذه . ودل على أن في الاسلام من رقة الشعور ودقة اللحظ ، وتوقع النادر من النوازل ما ليس في غيره ، وإليك المقال :

« كانت في دمشق الشام ، عدا دور المجانين والمجاذيب والمجاذيم ، أوقاف على الحيوانات ويقال أن مرجة دمشق التي هي اليوم متنزه أهل الحاضرة ، كانت وقفاً على الخيل التي نصبت من الجهاد ، وأسنَّت يطوَّل لها فيها دون غيرها ، وسمعت رواية من أفواه بعض الأدباء ، لم أجد عليها نصاً ولكنها قريبة من التصديق ، وهي أنهم وجدوا في الوثائق المتروكة عن المستشفى النوري الشهير ، وظيفة من جملة وظائف المعالجة ، لم تخطر على بال الأوروبيين ، مع تناهيهم في الترف والعناية الصحية ، ان يجعلوها وظيفة ، إلا أن يرتبوا لها جعلا معلوماً ، وهي : تكليف اثنين بأن يقفا بمسمع من المريض وبدون أن يلحظ أن ذلك جاء منهما عمداً ، يسأل أحدهما الآخر عن حقيقة علة ذلك المريض ، فيجاوبه رفيقه بأنه لا يوجد في علته ما يشغل البال ، وأن الطبيب رتب له كذا وكذا من الدواء ،ولا نظن أنه يحتاج إلى أكثر من كذا من الوقت حتى ينفعه ؛ وغير ذلك من الحديث الذي إذا تهامس به اثنان على مسمع من العليل تقبّل الحال ، وظنه صحيحا ، وزاد في نشاطه ، ونهض من قوته المعنوية ما يفعل أنجع الأدوية ، ولا سيما عند ذوي الأمزجة العصبية ، فهذه نكتة لم ينتبه لها الاوروبيون إلى أن يدخلوها في جملة وظائف المستشفيات إلى هذه الساعة ، مع أنها في منتهى درجات الرقة والفائدة .

ومن أرق وألطف ما وجد في الاسلام من هذا المعنى ، « وقف الزبادى » الذي كان في دمشق ، وقد حدث عنه ابن بطوطة ، وهو مكان توجد فيه صحاف من الخزف الصيني الجليل القدر ، وقفها أصحابها لأجل إذا كان غلام كسر آنية لسيده ، وتعرض بذلك لغضبه ، يذهب إلى هذا المكان ويضع الإناء المكسور ويأتي بإناء صحيح بدلا عنه ، فهل لحظ أرباب المبرات من الفرنج معروفا بلغ هذا المبلغ من الكياسية ولطف الشعور ؟

ووجد في الشام وقف لتزويج البنات الفقيرات ، أما أوقاف البيمارستانات فهذه لا تحصى ، وفي مكة المكرمة وقف مخصص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكة المكرمة[1] ووقف لإعارة الحلي والزينة للعروس في الأعراس والأفراح بحيث أن عامة الفقراء ، لا بل الطبقة المتوسطة يرتفقون بهذا المعهد الخيري ، فيستعيرون منه ما يلزمهم من الحلي لأجل التزين في الحفلات ويعيدونه إلى مكانه ، فيتيسر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلة لائقة ، ولعروسه أن تتحلى بحلية رائعة مما يجبر خاطرها ، وكذلك يستغني الفقير المتوسط الثروة عن أن يشتري ما لا طاقة له به .

ثم أخذ رحمه الله يسرد ما في سائر الممالك الاسلامية والأقاليم من أمثال هذه المبرات والمؤسسات الخيرية ، مما لم يفطن لأكثره العالم الأوروبي ، لازالة علل الانسان ، بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من الغاية القصوى في العمران ، والدرجة العليا في الاحتياط ، وربما كان كثير من هذه الأوقاف والملاجىء قد انحط أو درس واستأثر نظاره بريعه لسوء الحظ ، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون هذه المؤسسات الجليلة وهذه الخواطر الخيرية النبيلة الرقيقة قد وجدت في الاسلام أيام عزه ولا زال قسم كبير منه موجوداً . هذا ما رأيت نقله مما ذكره الأمير شكيب .

---

(١) صوابه لمنع استقرارها في المشعرين « الصفا » و « المروة » فقد كان المسعى قبل التوسعة السعودية للمسجد مختلطا بالسوق ، لا كما هو اليوم مستقلا عن السوق ، وقد كان بعض السوقة يتندر عليه ويسميه شيخ الكلاب ، وقد زال كل ذلك وزالت موجباته .

أما بالنسبة لمكة ، فيقول « تقي الدين الفاسي » في تاريخه العقد الثميـن في الجزء الأول من الطبعة التي قام بها « الشيخ محمد سرور الصبان » في الصفحة ١٢٣ بعد أن عدد الكثير من الأسبلة والأربطة والعيون والمدارس : «بمكة أوقاف كثيرة على جهات من البر غالبها لا يعرف الآن لتوالي الأيدي عليها » .

فهل لقائل يقول إن الحكومات الاسلامية لم تعن بمكة والمكيين ، بل اقتصرت عنايتهم على ما جعل أهلها عبارة عن مجموعة من الكسالى ، لا هم لهم إلّا التطويف وتلقي الصدقات . كما جاء ذلك في تاريخ مكة للمواطن الأستاذ السيد « احمد السباعي » ؟؟

ولم لا يكون المسلمون على ما ذكره «الامير شكيب»، رحمه الله ، من حب الخير ، ورقة الشعور ، والحرص على فعله ، وقرآنهم الذي يدينون له ويتعبدون بتلاوته ليل نهار يحض على الخير ، والتراحم ، ومواساة بعضهم البعض ، في كثير من آياته ؟ بل أن ركنا من أركان الاسلام الخمس التي لا يتم إسلام المرء إلا بها خصص لهذه الغاية : غاية البر بالفقراء وما يخفف عنهم وطأة الفقر وألآمه ؟؟

غير أنه مع الأسف ، كما يقول الفاسي « كثير من الأوقاف لا تعرف الآن » !!

ويقول « الأمير شكيب أرسلان» في كتابه « الارتسامات اللطاف»تحت عنوان : (اعتداء الحكومات الغربية على أوقاف الحرمين الشريفين) ، وساق بياناً مسهباً يرجع إليه من شاء التوسع .

وأظهر ما في الذاكرة ما صنعه « محمد علي باشا » والي مصر بعد استقلاله بشؤونها من ضم سائر الأوقاف إلى أملاك الدولة الأميرية ، ومن جملتها أوقاف الحرمين ، بعد أن كانت لها إدارة مستقلة وكلف الخزينة بالقيام ببعض ما كان يرسل إليها لئلا تحصل ضجة . كما ذكر الأمير شكيب عنوانا في « الارتسامات اللطاف » « طمس الدول المستعمرة لأوقاف المسلمين » .

وأذكر أنه كانت في الجزائر أوقاف عدة على الحرمين الشريفين تولتها فرنسا بعد احتلالها للجزائر ، وشكلت لها دائرة فيها من الموظفين أضعاف أضعاف ما يلزم ليلتهموا معظم الواردات ، وكل ما تمخض عنه عملهم أنهم ، بعد ثورة الشريف الحسين ، اشتروا من مال الأوقاف داراً بمكة جعلوها نزلا لمن يبعثون به من أتباعهم أثناء موسم الحج للأقامة به .

إن أول من دعـي إلى البر والـرعاية لجيران بيت الله الحـرام النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه بعد فتح مكة ولّى عليها عتاب بن أسيد وقال له : « أتدري على من ولّيتك يا عتاب ؟ ولّيتك على جيران بيته ، فاستوص بهم خيراً » .

ومنذ ذلك التاريخ ، وخلفاء المسلمين وسلاطينهم وامراؤ هم وأولو الثراء منهم يعنون بمكة ومن يجاورها للعبادة أو طلب العلم أو قصد أداء الفريضة ، كل بحسب زمانه وعصره ، غير أن ذلك لم يرق لصاحب « تاريخ مكة » السيد « أحمد السباعي » فاخذ ينعي عليهم عندكل مناسبة أو ذكر لبر أو إحسان يسدونه لفقراء مكة ، ومن يجاور بها من المسلمين للعبادة أو طلب العلم ، ويعده خيانة ، على حد زعمه ، جعلت المكيين قوماً عجزة ، لا همَّ لهم سوى استجداء الحجاج وتلقي صدقات أولي البر من السلاطين والخلفاء ، والدعاء لهم بالنصر والتأييد ، وتطويف الحجاج لهذه الغاية ـ غاية الاستجداء وتلقي الصدقات ـ وفي هذا القول تجن وافتئات على المحسنين ، وعلى أهل مكة مطوفين وغيرهم ، بما لا يتفق والواقع والحقيقة ، فصناعة الطواف عند ما نشأت في القرون الوسطى الهجرية ، بل أدنى من ذلك ، لم يكن يمارسها سوى طلبة العلم وأولي الدراية بمناسك الحج واحكامه .

وقد سمعت قولا ، إن لم أجده فيما وصل إلى يدي من كتاب ، وهو أن أحد المنتسبين بتطويف الحجاج ، شهد حاجاً يعتزم ذلك ، فتعرض له وعرض عليه أن يطوف به حول الكعبة ، فقال له : « لا حاجة لي إليك فإنني أعرف ما أقول وما أفعل » ثم أخذ الحاج يلفظ بنية الصلاة ركعتين تحية للمسجد ، فاعترضه وقال

له : « يا حاج ما مذهبك » ؟ فأجابه : مالكي ، فقال : ألم تقرأ ما قاله ابن عرفة في كتابه الفلاني إن تحية كل مسجد ركعتان إلاّ المسجد الحرام فتحيته الطواف اولاً ؟ فأجابه :«إنني أنا ابن عرفة ، وقد درست الفقه عشرين سنة ، ولكن غاب عن ذهني ذلك الآن ، فتفضل وطوفني كما تريد » . فإن صحت هذه الرواية ودلت على شيء فإنما تدل على تفشي الفهم والدراية بين المكيين لما يجب على الحـاج أن يفعله دراية وافية في ذلك العهد .

وطرفة أخرى تؤيد ما ذكرت ، وان العلم بأحكام المناسك كانت متفشية بين المكيين حكاها صاحب كتاب« وفيات الأعيان»[1] في ترجمة «عطاء بن رباح » .

حلاق مكي يعلم ابا حنيفة بعض آداب المناسك :

حكى وكيع : قال : قال : أبو حنيفة النعمان بن ثابت . أخطأت في صحة ابواب من المناسك لمكة علمنيها حجام ، وذلك أني أردت أن أحلق رأسي فقال لي : أأعرابي أنت ؟ فقلت : نعم . وكنت قلت له : بكم تحلق رأسي ؟ فقال : النسك لا يشارط فيه إجلس فجلست متحرفا عن القبلة فأومأ إليَّ باستقبال القبلة ، وأردت أن أحلق رأسي من الجانب الأيسر فقال : أدر شقك الأيمن من رأسك . فأدرته وجعل يحلق رأسي وأنا ساكت ، فقال لي : كَبِّر . فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب ، فقال : أين تريد ؟ فقلت : رحلي ، فقال : صل ركعتين ثم امض . فقلت : ما ينبغي أن يكون هذا من مثل هذا الحجام إلاّ ومعه علم . فقلت : من أين لك ما أمرتني به ؟ فقال : رأيت عطاء بن أبي رباح يفعل هذا .

على أن المكيين لم يكونوا يعنون بسوى ذلك من الارشاد والتوجيه ، لأن الحجاج كان أغلبهم يجيئون عن طريق البـر بمراكبهم ، ووسـائل حلهم وترحالهم ، ثم تدرجت الأحوال وأصبح المطوف يعني بشؤون الحاج ، عندما أخذت الكثرة منهم يأتون عن طريق البحر والبواخر ، وبذلك أمسوا في حاجة إلى

---

(١) صاحب كتاب « وفيات الاعيان » هو ابن خلكان .

من يعاونهم على تهيئة ما يحتاجون إليه ، ولم يكثر المطوفون وتصبح الطوافة مهنة إلاّ منذ عهود قريبة ، على أننا لو نسبناهم ، في أي دور من الأدوار ، منذ نشوئهم إلى الآن ، لما بلغوا الواحد في المئة من أهل مكة ،وما يتقاضاه المطوف ليس إلا أجر لما يقوم به من خدمات ، وذلك توفيق من الله أن يسر فئة من المكيين يخدمون وفود دينية ويقومون بتأمين ما يحتاجون إليه في حلهم وترحالهم وتيسير ذلك عليهم .

فالزراية بهذه المهنة لم تصادف إنصافاً والمؤلف ممن مارس الطواف ، وهو بلا شك من أعرف الناس بما يعانيه المطوفون في خدمة الحاج .

وللأمير شكيب أرسلان مقال ضاف عن المطوفين والمزورين منه بعض ما جاء فيه مما يقتضيه السياق ، ومن اراد الأطلاع عليه كاملا فليراجع كتابه «الارتسامات اللطاف في خطى الحاج إلى أشرف مطاف » . قال رحمه الله : « المطوف يكاد يكون كالجمل لا يستطاع الحج بدونه » .

« يأتي المطوف الى السفينة بمجرد ان تلقى أنجرها[1] في بحر جدة فيأخذ حاجه بيده ، ويضع حوائجه في الزورق ، ويأتي به إلى الميناء ، ويخرجه إلى البر ويخلص له معاملة تذاكر المرور ، ومعاملة المكس ، وليستا بالشيء الهين نظراً للازدحام ، ولما يجب على ادارة التذاكر وادارة الجمرك من التدقيق . ثم إذا أراد الحاج أن يستريح في جدة بيّته المطوف بها ، وأركبه ثاني يوم جملا في شقدف وسار به وبغيره . . » إلى أن قال : « وبمجرد وصول الحاج إلى البلد الحرام يأخذ بيده إلى الحرم فيطوف به سبعا حول البيت العتيق ، ثم يسعى به سعياً بين الصفا والمروة ، ويهرول به بين العلمين الأخضرين وفاقاً للسنة ، ويعلمه جميع أصول الحج ، ويلقنه جميع الكلمات والألفاظ التي ينبغي أن تقال في ذلك المطاف الكريم ، ويتلوا أمامه الأدعية التي يبتهل بها عند مقام إبراهيم ، وبين زمزم والحطيم » .

---

(١) انجر السفينة : مرساتها .

فات الأمير رحمه الله أن يذكر أن المطوف في يوم مقدم الحاج بمكة ، يهيء له ذلك اليوم الطعام والشراب ، والمأوى الذي يستقر به إلى أن يجد له المسكن الذي يروقه .

وقال رحمه الله : « والمطوف هو الذي يكفل جميع حاج الحاج وأغراضه منذ يطأ رصيف جدة إلى أن يطأ سلم الباخرة قافلا إلى بلاده » .

إلى أن قال : « وإذا سأل الحاج عن أي شيء من الفلك إلى الذرة فلا بد أن يجيبه المطوف عليه ، وإذا احتاج إلى شيء من الجمل إلى البرغوث فلا بد أن يأتيه به .

إلى أن قال : « ولو سمى المطوف « كافلاً » للحاج لما كان في هذه التسمية أدنى مبالغة » .

ومع هذه الكفالة الشاملة الكاملة التي فيها من الركض والعناء وتعب الفكر والمسؤولية ما فيها ، يكون آخر الأمر جميع النحلان جنيها واحداً عن كل رقبة . هذا هو النحلان المقرر ، فمن طابت نفسه بأن يزيد فذلك عائد إلى سماحة الحاج نفسه ، إلى أن قال : « إن الحاج الذي يجشم المطوف جميع تكاليفه ويرد أن يتخذ منه : دليلاً وحارساً ومحامياً ومغنياً وطبيباً وصيدلياً وممرضاً ودلالاً وغير ذلك ، في وقت واحد يكون ظالماً إذا استنكر أن ينقد المطوف آخر الأمر جنيها واحداً ، ولا شك ولا شبهة أن من الحجاج من يؤدي بدلاً من الجنيه الواحد الجنيهات الكثيرة ، والمسلمون يغلب عليهم الخير . »

سبق أن ذكرت في بيان سابق أن ما كان يتقاضاه المطوف عن الحجاج قبل ان يحدد من طرف الحكومة لم يكن مقدراً ، بل كل يعطي على حسب سعة حاله ، بل ومنهم من لا يعطي شيئاً .

إلى أن قال رحمه الله : لا ينكر أيضاً أن كثيراً من الحجاج قد يتعذر عليه دفع الجنيه الواحد أو لا يبقى في يده شيء عند أوبته إلَّا ما يكفيه لأجل الوصول إلى

وطنه أو تعجز « بودجته » الضئيلة من أصلها ، فتجد المطوف قد حرم من حاج كهذا نتيجة تعبه ، ورضي بنصف جنيه بدلا من جنيه ، وقد يضطر المطوف إلى أن لا يأخذ من حاجه شيئاً ، وقد وقع لمطوفين أن ادوا إلى حجـاج معدمين من صلب مالهم ، وكثير من أهل مكة من يضطرون إلى سد عوز بعض الحجاج »، ثم ذكر رحمه الله كلاماً كثيراً فيما يتعلق بالمطوفين والمزورين حتى من الوجهة اللغوية » .

ولا بد من التنويه هنا أن الأمور تغيرت عن عهده ، فقد مضى على مؤلفه أربعون سنة ، ومن جراء ما وصف من حال بعض الحجاج ، وما تتورط الحكومة بسببه معهم ، وتضطر أحياناً لاستئجار باخرة لبعضهم لتعود به لبلاده، أن الزمت سفراءها أن لا يأذنوا لأي حاج بالسفر إلى الحجاز إلاَّ بعد أن يبرز لها تذكرة سفره وعودته لبلده ، وتحويلا بما يجب عليه من حقوق يؤديها في حجه : كأجرة السيارة ، فقد دالت دولة الجمال ، وما يلزم أداؤه للمطوف ، وما يلزمه من مصروف للخدمات العامة : كأجر حمل عفشه من « الرصيف» إلى مدينة الحجاج بجدة ، فقد أنشأت الحكومة بنايتين كبيرتين ، إحداهما للحجاج القادمين بحراً ، والأخرى على مقربة من المطار مزودة بالماء والكهرباء وغير ذلك من المرافق للقادمين بطريق الجو ، ورغم ذلك ، فلا زال الكثير مما يلاقيه المطوف وتلاقيه الهيئات المختصة بخدمات الحاج من عناء حاصلاً ، فإنه كثيراً من الحكومات ، بسبب ما نشأ من ضيق ، وما عم من نظام العملة الصعبة القابلة للتحويل ، لا يستطيع كثير من الحجاج أن يصحب معه ما يكفيه لما تتوق إليه نفسه ، من شراء ما يشاهده في أسواق مكة ، مما قد لا يجده بعضهم في بلاده ، فيضطر المطوف أن يقرضه ، ثم يتقاضى منه ما أقرضـه عند سنوح الفرصة ، وما أعزها في الظروف الحاضرة ، لأن أنظمة النقد التي سنتها أغلب الحكومات قاسية ، ولقد ذكرت بطريق الاجمال شيئاً عن حال المطوفين في فصل سابق .

وقد جاء في حاشية ما كتبه « الأمير شكيب » كلمة أظن أنها من قلم المرحوم السيد « رشيد رضا » أرى أن أنقلها هنا وهي : « حيا الله الأمير وجزاه خيراً بما

انفرد به من بيان حال المطوفين وجليل خدمتهم للحجاج وقلة ما يأخذونه من الأجر على هذه الخدمات ، واستغرابه ذم بعض الناس لهم ونبزهم بالطمع، ومن بيان حال أهل الحرمين عامة في معايشتهم ، وقد ذكر الفقهاء أن من آداب الحاج وعلامة قبول حجه أن لا يعد ما أنفقه بالحجاز مغرماً ، كما وصف الله المنافقين ، وأن لا يتبجح به ، وأن لا يؤذي جيران الله ورسوله بقول ولا فعـل » . إلى آخر ما قال .

لقد طال بنا القول في صددالمطوفين ، ولنعد الآن لنذكر ما وفّق الله اليه المسلمين وملوكهم وأولي الثراء، منهم من بناء المدارس والمساكن لطلبة العلم والمجاورين بمكة ، بل ولمن يفد من ممالكهم ليسكنوها زمن أدائهم للفريضة مجانا .

ولو أردنا استيعاب ذلك كله لطال بنا القول ، ولكن سأذكر بعض ما شهدته قائما من دور شيدت لطلبة العلم،ونزلا للحجاج والوافدين والمجاورين وغير ذلك ، من أعمال البر والرعاية ، وأني لأعتقد جازما أن جميع ما كان ملتفاً حول المسجد من مبان ودور كانت ، كلها أو جلها ، من الأوقاف التي خصصت للعناية بالعلم وطلبته ، وما كان منشأ إطلاق المكيين عليها كلمة مدارس إلاّ بهذا السبب ، ولكن لكثرة الفتن ، وما حاق بالمسلمين من كوارث في معظم أقطارهم ، أضاع الكثير مما كان موقوفا ومخصصا ريعه للإنفاق عليها وتحقيق الغاية التي أنشئت لأجلها ، كما أبان الأمير شكيب أرسلان عن ذلك فيما سبق ونقلناه عنه ، فاستولى على المدارس من كان يسكنها أو أحفادهم من طلبة العلم ، واستولى على بعضها أولو النفوذ والحكم أو أصبحت تستعمل لغير ما بنيت له .

ولكثرة تلك الموقوفات سواء بمكة أو بغيرها من الأقاليم الأسلامية الأخرى ، وضياع معالم بعضها ، وضياع صكوك شروط واقفيها ، نشأ ما دعي بالوقف السلطاني ، مما اضطر معه علماء الفتوى إلى وضع نظام خاص للتصرف

فيها ، لا هو بالمشروع في الملك ، ولا هو بالمشروع فيما يثبت لأجله ، فجعلوا التملك فقط للانتفاع بها ، كما جعلوا للمستولي عليها حق بيع انتفاعه باسم إفراغ على الغير ، مع استبقاء صفة الوقف على رقبة العين ، وفرضوا أجوراً رمزية سموها حكراً مقابل الأرض ، وخالفوا حق الأرث فيها فجعلوا نصيب الأنثى مثل نصيب الذكر ، ولم يجعلوا للزوجة نصيباً ، وجعلوا للأخ من الأم نصيباً مع الأخوة الأشقاء ، وغير ذلك مما لم أقف عليه من أحكام ، فأصبح لا هو بالوقف ولا بالملك أي « كالنعامة لا طير ولا جمل » . ولما بدأ مشروع توسعة المسجد الحرام في العهد السعودي الزاهر ، رأى العلماء إبطال هذه الأحكام ، وأجروا الإرث فيه مجرى الملك كما قيل لي .

ولنبدأ بذكر ما كان قائما مما أنشىء للدراسة ولطلبة العلم ، وإن كان قد زالت عنه تلك الصفة ، وأصبح بعضه ملكا للأفراد ، وبعضه يسكنه من لم ينطبق عليه شرط الواقف الأساسي .

فمدرسة « قايتباي » وهي أكبر ما أنشىء للدراسة بجوار المسجد ، أنشأها أحد سلاطين المماليك المدعو « محمد قايتباي المحمودي » في القرن التاسع ، وكانت هذه البناية تشغل حيزاً يبدأ مما كان يعرف قبل التوسعة «بباب السلام الصغير » الى الباب المسمى « بباب النبي » من أبواب المسجد الحرام ، وكان مما يلي المسجد منها ويسمى بالمدارس نحو ست مدارس ، وكان مما يلي المسعى نحو ستة دور مخصصة لسكن الطلبة ، وكان للمدرسين والطلبة جرايات ونفقات من أوقاف أقامها السلطان المشار اليه بمصر ، ذكرها « الاسحاقي » في تاريخه ، وذكر أنها خصصت لطلبة العلم من الشوافع والأحناف .

هذا المبنى استولى عليه « الشريف غالب » أمير مكة الاسبق ، وقد كان لبقاً في طريقة استيلائه عليه ، فقد توسل أولاً إلى من كان يسكنه من أحفاد طلبة العلم السابقين ، وصار يشتري منهم حق الانتفاع بطريق الإفراغ المتعارف في الاوقاف السلطانية ، إلى ان تمّ له استخلاصه جميعه ممن كان يسكنه ولم يعد له

منازع فيه فأنهى إلى السلطان « مصطفى العثماني » في عهده أن يوجد بجوار المسجد الحرام دار خربة من بقايا أوقاف الحكومات البائدة يخشى من بقائها خربة الضرر على المسجد وطلب إقطاعه إياها وتمليكها له ، وبعد إجراءات اقتضاها مثل هذا الطلب ، صدر « فرمان »سلطاني مرسوم بإقطاعه الدار المذكورة وتمليكه لها ، فضمها إلى أملاكه ، ثم هو بدوره جعلها وقفا خاصا لذريته من بعده ، ودامت كذلك إلى أن حصلت التوسعة للمسجد الحرام ، فعوض ذريته عنها ، ودخل بعضها في المسجد وبعضها في المسعى ، وإن لم تخني الذاكرة فإنني أذكر أنني لما كنت مفتشاً عاماً بمديرية الاوقاف اطلعت على صك قديم فيه تفصيلات عن المخصصات للمدرسين وللطلبة من أرزاق عينية ونقدية .

وقد كان فيما بين باب « الزيارة »وباب « دريبة » بيمارستان ، « مستشفى » أنشأه أحد خواص الخليفة المستنصر العباسي ، فلما سقطت الدولة العباسية ، وانقطع ما كان يرد لإقامة المستشفى فيما أسس له ، فان سقوط الدولة العباسية على أيدي التتار ، رغم ما كانت عليه من ضعف أحدث في العالم الاسلامي وقتئذ خراباً أضر بالمسلمين ضرراً بالغاً ، فخرب المستشفى وأصبح أنقاضاً فلما آلت البلاد إلى الحكومة العثمانية ، وبعد عدة سنوات ، وتولى السلطة السلطان « سليمان القانوني »ابن السلطان « سليم » المعروف بياوز سليم ، وهو الذي استولى على مصر وتبعها الحجاز ، فإنه أول من حكم من العثمانيين مكة وفي حدود عام ٩٧٣ ، امر السلطان المشار إليه ببناء اربع مدارس يدرس فيها الفقه على المذاهب الاربعة فبنيت في مكان المستشفى بعد أن ضم اليه منازل من أوقاف بعض سلاطين المماليك الجراكسة ، كانت بجواره ، ودارا لامير مكة وقتئذ تبرع بها للمشروع ، كما بني خلف المدارس مساكن للطلبة عرفت مؤخراً برباط السليمانية ، وخصص للمدرسين والطلبة نفقة شهرية ويومية ، وأوقف لذلك بعض أوقاف الشام والانضول ومصر تجبى من دخولها وغلالها النفقة المذكورة ، وكان للمدارس والمساكن مدخل من باب الدريبة ، ومدخل خاص من شارع على المسجد عرف « بباب السليمانية » نسبة لمدارس السلطان سليمان المنوه عنه .

وقد ظلت المدارس المذكورة تقوم بواجباتها إلى نهاية القرن الحادي عشر الهجري ، وممن تولى التدريس فيها في العقد الرابع من القرن المذكور في المدرسة المخصصة لفقهاء الحنفية الشيخ « عبد الرحمن المرشدي » ، ولاّه التدريس فيها أمير مكة الشريف « ادريس » كما ولي المشار اليه ، قبل ذلك ، التدريس في مدرسة محمد باشا التي كانت في أول المدخل إلى باب « الزيادة » من جهة « سويقة » وسيأتي الكلام عليها فيما بعد ، فانها من المدارس التي ظلت قائمة إلى عهد مشروع توسعة المسجد الحرام ، وكانت تعرف بـ « رباط محمد باشا » .

كان عهد السلطان سليمان القانوني عهد السلطنة العثمانية الذهبي ، فقد انتشرت فتوحاته في أوروبا انتشاراً أفزع الأوروبيين ، ثم بتوالي السنين أخذت الدولة في التقهقهر ، وأخذ رؤساء الجنود الانكشارية يجرؤون على مقام السلطنة الى حد قتل بعضهم ، ومن جراء ذلك وهن نفوذهم وأخذ نظار الموقوفات يتطاولون على ما تحت أيديهم من أوقاف ، وبتوالي المحن ، انقطع ما كانت تقوم عليه المدارس من غلال ، فتعطلت الدراسة فيها ، وصار أمراء الحج يسكنونها عند مجيئهم أثناء موسم الحج ، وظلت كذلك إلى زمن استيلاء « محمد علي » والي مصر على مكة فاستولى على إحدى المدارس ، التي تلي « باب الدريبة » أحمد باشا الذي عينه محافظا لمكة ،وجعلها سكناً خاصاً له ، كما استولى في النهاية على البيت الذي بنى مقراً للحكومة ، وعرف فيما بعد بـ « بيت باناجة » أمام ميدان الصفا ، فقد آل التصرف فيه وفي المدرسة « لآل باناجة » من تجار جدة ، وهم بدورهم باعوا المدرسة على شخص يمني ولذلك قصة يطول شرحها وأما المدرسة الثانية التي تليها ، فقد دهم المسجد الحرام سيل عـرم وكانت المحفوظات من المصاحف وغيرها من كتب العلم في قبة وسط المسجد على مقربة من بئر زمزم أدى إلى تلف الكثير منها ، فأمر السلطان « عبد المجيد » ، (لأن ذلك كان في عهده) ، بأن تنقل المحفوظات إلى المدرسة المشار إليها وزاد فـي كمية الكتب وظلت كذلك داراً للكتب « كتب خانة » إلى أن زالت في

توسعة المسجد الحرام .

وأما الاثنتان الأخريان اللتان تليا باب الزيادة فقد جعلت إحداهما مسكنا للقاضي الذي تبعثه السلطنة كل سنة ، والثانية مقراً لسماع الخصومات والدعاوى . وفي العهد السعودي ظل مقر المحكمة على ما هو عليه ، أما التي كانت مسكنا للقاضي فقد جعلت مقراً لرئاسة القضاة وتميز الاحكام ، وأما المساكن التي خلفها ولها مدخل من « باب الدريبة » ومدخل من « باب السليمانية » فقد ظلت على حالها يسكنها بعض طلبة العلم في المسجد من المجاورين وغيرهم ، وجميع ذلك قد زال في التوسعة ولم يعد له أثر .

ومن المدارس المهمة التي ظلت قائمة إلى عهد التوسعة « مدرسة محمد باشا » أو « رباط محمد باشا » كما ألمعت عن ذلك في صفحة سابقة .

كانت المدرسة في مدخل « باب الزيارة » مما يلي سويقة ، بنى المشار اليه المدرسة مستوفية بكل حاجات الطلبة والمدرسين ، فقد كان بها مطبخ واسع ، وبئر لسقي الماء منه ، ورحى لطحن الحب ، وحجرة واسعة لالقاء الدروس بها ، وعدة حجر لسكن الطلبة ، كما بنى بجوارها وعلى التصاق بها مساكن للنساء يسكنها منهن من لا عائل لها ولا مسعف . هذه المساكن استولى عليها بطريق إفراغ المنفعة وصارت تنتقل ملكيتها من شخص لآخر ، ولم تعد لما بنيت له منذ زمن غير قصير . وكان الطابق الارضي من المدرسة معمولاً على شكل غرف يسكنها فقراء الحجاج زمن موسم الحج ، وهي الأخرى استولى عليها بطريق الإفراغ للمنفعة ، واستعملت دكاكين للبيع والشراء ، وانتقلت ملكيتها من شخص لآخر إلى زمن التوسعة ، فزال الجميع وكأنه لم يكن .

وعند مدخل باب« العتيق » وباب « الباسطية » وفيما بينهما أنشأ « الزمامي » أحد المماليك ، مدرسة عرفت مؤخراً « برباط الزمامية » ، هذه المدرسة ليست كسابقتها في الضخامة والكبر بل الذي فضل منها بضع غرف كان يسكنها الطلاب ، وغرفتان كبيرتان للتدريس ، وكان لها باب شارع على المسجد

استولى على جانب من سطحه وسطح بعض الغرف أحد الاهلين وبنى عليه مسكنا خاصا له ، بتنفيذ أحد خزناوية الشريف عـون الرفيق ، هذا في العهد القريب ولا أشك أن قبل ذلك اغتصب جانب منها ولظهر ذلك من شكل الابنية التي تقرب من المدخل ، وحتى غرفتي التدريس وغرف السكن دخلت في الفراغ السلطاني ، ويتداول ملكيتها والانتفاع بها عدة اشخاص ، وكـانت تؤجر على بعض الـزمازمـة ، ولـم تعد لما أنشئت له ، وقد زال كل ذلك وهدم في توسعة المسجدولم يعد له أثر .

وإذا انتقلنا إلى ما بين «باب ابراهيم » وباب العمرة وجدنا المدرسة الداودية « نسبة إلى منشئها داوود . ومن المؤسف أنه كان على باب مقر الطلبة في الشارع على السوق الصغير حجر على الباب مكتوب فيه اسم منشىء المدرسة ، وتاريخ إنشائها ومن قام بالعمل عليها ، ولكن اثناء الهدم لتوسعة المسجد لم يعن أحد بالمحافظة عليه ، ولـم يعلق بذاكرتي شيء مما كان مكتوباً فيه ، فالعهد بمشاهدته بعيد عن عزمي على ما أكتب الآن .

هذه المدرسة كانت مساكن الطلبة فيها من طابقين ، في كل طابق حجر تدور على ردهة مكشوفة ، وفي الردهة صنابير أو « بزابيز » كما كانت تسمى قديماً أو « بزابيز » كما يقول عنها المكيون الآن ، وبيوت للخلاء ، ومما يلي المسجد بناية لازقة بمقر الطلبة تحتوي على ايوان كبير شارع على المسجد بشبابيك وطبق وباب على المسجد ينزل اليه بعدة درجات هذه البناية آلت إلى ملكية الشريف « عبد الله باشا » من محمد بن عـون أثناء إمارته ، وصارت في حوزته بطريق الإفراغ المتعارف في الأوقاف السلطانية . ولما صارت في حوزته رغب في ايجاد منفذ لها إلى السوق عن طريق خاص ، فانتزع حجرتين مما يلي اليمين من الطابق الارضي وجعلها طريقا ينفذ على « حوش المراغنة » بالشارع على مدخل « باب العمرة » وعوض الطلبة ببناء حجرتين في السطح في البناية الخاصة بسكناهم ، وظلت بناية الطلبة إلى عهد توسعة المسجد يسكنها بعض

المجاورين بمكة لطلب العلم في المسجد الحرام من مختلف الاجناس يتيسر سكناهم فيها بترخيص من مديرية الاوقاف على أن بعض احفاد طلبة العلم من المكيين كانوا يتوارثون الانتفاع بها .

اما الايوان والطابقان اللذان يليهما وما بينهما من ردهة ، وهي على ما أظن كانت مخصصة لسكن المدرسين او القيم على المدرسة ، والايوان لاجتماع الطلبة فيه لتلقي الدروس ، فقد استولى عليها بطريق الافراغ وآلت كما سبق القول إلى الامير « عبد الله باشا » ، وباعها ورثته على الشيخ « عبد الله بن حسن » رئيس القضاة الاسبق ، ثم باعها ورثته على الوجيه الشيخ « عبد الله ابراهيم ميرة » أحد أعيان تجار مكة ، ومنه دخلت في توسعة المسجد بعد أن عوضته الحكومة عنها بعوض مالي حسب المتبع في ذلك ، وقد زال الجميع كما زال أمثاله مما كان محيطاً بالمسجد .

هذه المدارس التي أتيت على ذكرها هي التي كانت قائمة الى حين التوسعة للمسجد ، كما سبق القول ، وقد ذكر الفاسي في كتابه المسمى « بالعقد الثمين » أسماء إحدى عشر مدرسة ذكرها كما يأتي :

« ١ ـ مدرسة الملك الأفضل العباس بن المجاهد صاحب اليمن بالجانب الشرقي من المسجد اوقفت سنة ٧٧٠ هـ .

٢ ـ مدرسة بدار العجلة القديمة على يسار الداخل الى المسجد عملها الامير أرغون النابت الناصري للخليفة قبل سنة ٧٢٠ هـ أو بعدها بقليل .

٣ ـ مدرسة الامير « الزنجيلي » نائب « عدن » على باب العمرة للحنفية وقفها٥٧٩ هـ وتعرف اليوم بدار السلسلة .

٤ ـ مدرسة الملك المنصور « عمر بن علي بن رسول » صاحب اليمن ، أوقفها على الفقهاء الشافعية وبها درس حديث ، أظن أنه من عمل ولده المظفر ، وتاريخ عمارتها ٦٤١ هـ .

٥ ـ مدرسة « طاب الزمان » الحبشية عتيقة المستضيء العباسي على

عشرة من فقهاء الشافعية وتاريخ وقفها سنة ٥٨٠ هـ في شعبان ، وهي من دار زبيده .

٦ ـ مدرسة الملك المنصور « غياث الدين بن المظفر أعظم شاه » صاحب« بنجالة» من بلاد «الهند» على فقهاء المذاهب الأربعة،كان ابتداء عمارتها في رمضان سنة ٨١٣ هـ وفرغ منها في عام ٨١٤ وفي المحرم من هذه السنة دَرَّستُ بها للمالكية (يعني نفسه) ولها وقف بالركـاني أصيلتان وأربع اوجاب ماء .

٧ ـ مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام على فقهاء الشافعية وتاريخ وقفها ذو القعدة سنة ٧٣٩ هـ .

٨ ـ مدرسة « ابي علي بن أبي ذكرى » وهو الموضع المعروف « بأبي طاهر العمري المؤذن » . تعرف بالمدرسة المجاهدية وتاريخ وقفها ٦٣٥ هـ .

٩ ـ مدرسة الارسوقي العفيف « عبد الله بن محمد » بقرب باب العمرة ، ولعلها أوقفت في تاريخ وقف رباطه الآتي ذكره في قسم الاربطة انه انشىء سنة ٥٩١ هـ .

١٠ ـ مدرسة « ابن الحداد المهدوي » على المالكية بقرب الشبيكة وتعرف بمدرسة الادارسة وتاريخ وقفها عام ٦٣٨ هـ .

١١ ـ مدرسة « النهاوندني » بقرب الدربية ولها نحو مئتي سنة .

هذا الذي ذكره صاحب العقد الثمين يدل دلالة واضحة ان عناية ملوك المسلمين وأمرائهم وأولى الثراء منهم بالناحية العلمية ونشر الثقافة في مكة لا تقل عن عنايتهم بالجهات الأخرى من برٍّ بالفقراء وطلبة العلم وحجاج بيت الله العظيم .

والعناية بالجهة الثقافية والعلمية سلسلة متصلة الحلقات ، ففي العهد القريب بل في أواخر القرن الثالث عشر الهجري ، هاجر الى مكة ، فار بدينه من

عنت الانكليز وبغيهم ، المرحوم الشيخ « رحمة الله الهندي» مؤلف كتاب «إظهار الحق في الرد على المسيحيين والمبشرين » . وقام بعد ان استقر به المقام بانشاء مدرسة ومسجد ومكتبة وسكن للمنقطعين للدراسة في محلة « حارة الباب » بالخندريسة » ساعده على بناء ما ذكر إحدى فضليات النساء الهنديات فما كان من الشيخ رحمه الله الا ان سمى المدرسة باسمها فقد كانت تدعى « صولت النساء » فدعا المدرسة « بالصولتية » .

واذا حرفنا النظر عن المدرسة «الرشيدية» التي تأسست في عهد عثمان نوري باشا ، على ما أظن في اوائل القرن ، فانها كانت تعلم قواعد اللغة العربية ونحوها بالتركي ، ففي عام ١٣٢٧ هـ أو بعده قدم الشيخ « عبد الكريم الطرابلسي الشامي » ، وأنشأ مدرسة في دار كانت تعرف « بدار العنتيلي » في الطريق ما بين حمام«باب العمرة»و«باب الباسطية» وهي أول مدرسة استعملت إلقاء الدرس على السبورة ، واجلاس الطلبة على مقاعد على الطريقة القائمة الآن ، ولكن المدرسة لم تعمر فقد حج في ذلك العام أو الذي يليه سلطان المغرب المخلوع مولاي « عبد الحفيظ » فاستأثر بالشيخ « عبد الكريم » المشار اليه ، وكان احد علماء المغرب ، وهو الشيخ « شعيب » مهاجراً بمكة من عدة سنوات ، فصحب الاثنين معه عند رجوعه الى المغرب ، وكان قد اشترى كثيرا من الكتب المخطوطة والمطبوعة مما راق له شراؤ ها ، وفي عام ١٣٣٠ على ما أظن أسس المرحوم الشيخ محمد علي زينل مدرسة الفلاح بعد أن كان أسس سابقتها بجدة ، فإنه من أهلها وقد كان لكلا المدرستين أطيب الأثر في تخريج ناشئة متعلمة كانت الدعامة الأولى للدوائر الحكومية عندما مست الحاجة . كما أن سابقتها المدرسة الصولتية انجبت من العلماء والفضلاء من عينوا قضاة في المحاكم سواء في العهد الهاشمي او في العهد السعودي . وفيما سردته الدليل الواضح على ما أقول وعلى ان عناية المسلمين لم تقتصر على ميراث وصدقات نقدية فقط .

ولقد سرد صاحب « العقد الثمين » انه كان على عهده بمكة نحو خمسين

رباطاً كلها مخصصة لسكن طلبة العلم بالمسجد الحرام ، ولسكن الأرامل والضعفاء من الرجال والنساء والمنقطعين للعبادة . ولم تنقطع هذه المبرة بل ظل العمل فيها مستمراً ، وقد شارك فيه الكثير من المكيين والحجازيين وسلاطين بعض اقاليم المسلمين وحكامهم ، فإنني أعرف « لسلاطين بخارى » وبعض أمرائها عدة دور موقوفة ليسكنها حجاج تلك الجهات عند قدومهم لاداء فريضة الحج ، وكذلك « لنواب » حيدر أباد » عدة دور لهذه الغاية ، ولبعض أمراء الهند الآخرين مثل ذلك ، وللمكيين والحجازيين عدة أربطة موقوفة لغاية نبيلة : مثل رباط آل باناجة « ورباط الشحومي » للنساء الارامل ، واعرف رباطين كانا بالشامية لآل سلطان ، احدها للفقراء من الرجال والآخر للنساء . ورباطان في « حارة الباب » للشريف « جنيدة » . هذا في العهد القريب ، اما في العهد الابعد فقد سبق ما ذكره العلامة الفاسي في العقد الثمين وحكيناه عنه .

ثم لو أن ما حكم به صاحب تاريخ مكة على عموم المكيين بأنهم قوم عجزة متواكلون لا هم لهم إلا الاستجداء وتلقي صدقات السلاطين ومبراتهم ، له وجه ، لما قام في مكة ما شرحته من المهن والصنائع والمتاجر ووسائل التكسب والعيش بعرق الجبين .

إن المنح والمبرات النقدية والعينية لم يكن ينالها من سكان مكة سوى الفقراء وطلبة العلم من المكيين والمجاورين المنقطعين للدراسة والتفقه في الدين ، وسوى أرباب الوظائف الدينية كالمؤذنين والخطباء والمدرسين وخدمة المسجد والمشاعر الدينية ، فإن الكثير منهم كان يقوم بذلك احتساباً ، خصوصاً المدرسون من العلماء ، ومن له مرتب من خدمة المسجد يكاد يكون رمزياً لضآلته ، فهو لا يسمن ولا يغني من جوع .

ولا أذهب بعيداً في التدليل على ذلك ، بل أسوق ما ذكره مؤلف « تأريخ مكة » نفسه عندما نقل خبر تخصيص جراية القمح ، وهو أضخم منحة كانت مستمرة سنوياً ، قام بها سلاطين « آل عثمان » ، يقول المؤلف :

« نحن لا نشك أن سعة الرزق كان من أهم مصادرها جراية القمح التي عين إرسالها « السلطان سليم » في مبالغ عظيمة وافرة توزع كمخصصات سنوية على سكان الحرمين ، فقد وصلت الى مكة في عهده ، ولأول مرة في تاريخ الجرايا ، سبعة آلاف أردب أرسلت للمدينة منها ألفان ، ووزعت خمسة آلاف في مكة وقد دعا أمير المحمل الرومي مصلح الدين الى اجتماع حضره قاضي مكة « صلاح الدين بن ظهيره » وقضاة المذاهب الثلاثة بمكة ، ونائب جدة وبعض الاعيان ، وقرأ عليهم المرسوم السلطاني الخاص بتوزيع هذه الغلال ، واستشارتهم في كيفية ذلك ، فذكر له ، أنه لا بد من عرض ذلك على شريف مكة « بركات » وأخذ رأيه ، فكتب بذلك إلى « بركات » امير مكة فجاءه الجواب بتفويض المجلس فيما يراه ، فاجتمع المجلس واتفق اعضاؤه على التوزيع بموجب قيود تدرج فيها اسماء البيوت في كل محلة وعدد ما في البيوت من رجال ونساء وأطفال وخدم ، وان يستثنى من ذلك التجار والسويقة والعسكر وقد بلغ تعداد السكان ، عدا من ذكر ، اثنا عشر ألف نسمة ، وقد خص كل فرد أربع كيلات ، فتسلموا حصصهم في ذلك مضافا إليه دينار ذهب » .

ومعنى هذا القول أن الجراية وزعت على طلبة العلم ، وخدم المشاعر ، وأرباب الوظائف الدينية من أئمة وخطباء ومؤذنين ومدرسين وطلبة ومن يماثلهم من الفقراء والمعوزين ، فإستثناء السوقة معناه استثناء أرباب التكسب لمعاشهم بأيديهم وممتهني البيع والشراء من أرباب السوق والتجار ، فلم يفضل بعد من ذكر سوى من ذكرنا ممن لا وجه لهم لكسب ، والمنقطعين لطلب العلم وتدريسه والقيام بالوظائف الدينية والانقطاع لها . فهل في بر هؤلاء ومعاونتهم في أمور معاشهم ما يعاب وينتقد ؟

أما ما قاله بعد ذلك « وقد تزايد هذا القمح حتى صار معاش أهل مكة منه » .

إن زيادة قمح الجراية لم تتجاوز لأهل مكة اثني عشر ألف اردب ،

وللمدينة ثمانية آلاف توزع مرة في كل سنة .فالقول بأنه صار، بعد تزايده معاش أهل مكة منه ، كلام له خبيء ، أترك الحكم فيه للقارىء الكريم .

ولقد فات حضرة المؤلف أن الفقر لازم من لوازم أي تجمع بشري لا يخلو منه أي مجتمع مهما علا ، فهذه أمريكا على ما بلغته من ثراء ورقي صناعي في وقتنا الحاضر لم يخل مجتمعها من فقراء يستحقون العون والرعاية (١).

بل إن الحكومة السعودية الحاضرة ، مع ما بلغ إليه المجتمع السعودي من رخاء ويسر في عهدها ، رأت بلطف إحساسها ورقة مشاعرها ، كما هو حال المسلمين في كل العصور ، الحاجة والضرورة لمعاونة من قعد به الفقر والعجز ، على الاقل ، بما يكون له به سداد من عوز ، فأنشأت مصلحة الضمان الاجتماعي ، من عملها ووظيفتها البحث عن المحتاجين والمعوزين وترتيب ما يقوم بأودهم . فهل كان ذلك منها مدعاة للتواكل والكسل أم حسنة تذكر لها وتشكر عليها ؟.

وإذا محاسني اللائي أدل بها
كانت عيوبي ، فقل لي كيف أعتذر؟

ولتأكيد عذري في الاطالة في هذا الموضوع ، أنقل للقارىء ما يقوله المؤلف عند ذكر كل مبرة حكاها أو نقل خبرها . قال ، عفا الله عنه ، في الصفحة ٤١/ج ١ من كتابه ، للطبعة الثانية :

« وظل الحجاز بلداً لا يعنى به إلاَّ كرباط أو تكية يمنحه الخلفاء والملوك صدقاتهم ولا يهيئون أهله لغيرتطويف الحجاج وان يدعوا لأصحاب السلطان بطول البقاء » .

---

(١) أنقل هنا بالمعنى ما نشرته بعض الإذاعات ، بأن عصابة خطفت ابنة أحد أثرياء أمريكا ، وهو ملك الصحافة ، على ما يقال ، لإرغامه على أن يمد بالعون فقراء ولاية كلفورنيا فمدها بمليونين من الدولارات لشراء أغذية وأقوات لهم وقالت العصابة إن هذا لا يكفي وطلبت أن يمدها بأربعة ملايين أخرى أو يفتكون بابنته ، فحيا الله تعاليم الأسلام وما ينعم به المسلمون في ظلاله الوارفة لما سنه « في أموال الأغنياء من حق معلوم للسائل والمحروم » أوجب بينهم التعاطف دونما حاجة إلى عنف أو قسوة أو خطف .

وقال في صفحة ١٠/ج ١

«وقد ساعد الامويون على هذا التوجيه بما يسره لهم من الأسباب ، حتى خلف الخلف الذي ورث العيش من جوانبه السهلة ، وألف الأعطيات والصدقات ، إلى أن قال : ليعيشوا مشغولين بهذه المنح ، لاهين عن جد الحياة ، لا هم لهم إلا أن يأكلوا ويطربوا أو يزهدوا فيدعوا لخليفة المسلمين بالنصر » .

وقال في صفحة ١٥٩/ج:١ :

«نسيت مكة كبلد له حقوق على الدولة التي تحكم ، وله حظه من رقي ، كغيره من الامصار ، وله قيمته ككائن حي بين معاصريه من الشعوب ، نسي كل هذا واعتبر الاهلون فيها مجموعة منقطعة لكنس المسجد وتنظيفه[1] والقيام على خدمته وخدمة وفوده في شكل لا يختلف كثيراً عن خدام الاضرحة وفقراء القبور الذين ينقطعون لأعمالهم مقابل ما يستحقونه من أموال أسيادهم من أغنياء الارض » .

وقال في صفحة ٦٣/ج ٢ :

« في أواخر عهد الشريف عبد الكريم ، وردت مكة صدقة لفقراء الحرمين « من الهند » قدرها خمسة لكوك[1] ، وقد وزعت بينهم ، فنال مكة من ذلك خير كثير ، ولا أدري لِمَ لَمْ يفكر أغنياء الهند يومها في إنفاق مثل هذا المبلغ الضخم في إنشاء مشروع زراعي أو صناعي يعود على أهل البلاد بخير دائم ، كما يفعل

---

(١) ان كنس المسجد وتنظيفه شرف لا ضعة فيه ، وقد عهد الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فقال تعالى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » وقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن أسود ، رجلا أو امرأة ، كان يقيم المسجد ، أي يكنسه فمات ولم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم بموته ، فذكره ذات يوم فقال : « ما فعل ذلك الإنسان » ؟ قالوا : مات يا رسول الله قال أفلا أذنتموني ؟ فقالوا له إنه كان كذا وكذا قصته قال فحقروا شأنه ، قال : فدلوني على قبره فأتى قبره فصلى عليه : « لشرف ما كان به من عمل » .

(٢) اللّك : مئة ألف روبيّة هندية باللغة الأوردية .

اليوم أغنياء أمريكا في تبرعاتهم ليهود فلسطين » .

وقال في صفحة ٢/١٩٦ ، بعد أن ذكر استقرار الاضطرابات في مكة بسبب حد العثمانيين من سلطة الأمير ، ووفرة المواصلات السريعة ، وتدفق الحجاج الخ :

«اثر هذا في ثروة البلاد الاقتصادية فنعم المكيون بهناءة العيش وعادوا إلى الاسراف في نعيمهم الى الشأن الذي كان عليه الأمر في عهد الامويين ، فبنوا للنزهة في ضواحي مكة من عدة جهات أكثرها في « وادي فخ » عند « مرقد الشهداء » وكانوا يخترعون المناسبات والاعياد ليخرجوا بمواكبهم الى «الجعرانه» او « وادي ميمونة » أو « وادي فاطمة » أو « وادي الشهداء » في زينة بادية وأنواع من الاطعمة الشهية ويقيمون حفلاتهم المؤنسة ، يطربهم المغنون وأصحاب الوتر والمنشدون، ولم يكن للنساء مجال واسع في هذا الإيناس لأن روح البادية التي كانت تسود الناحية النسوية في عهد الامويين كانت قد خبت فيما قبل ذلك من عصور ، فلم يحل هذا العهد حتى كانت فكرة الحجاب قد ساقته الى المخالي والخدور ، واشترك كثير من طلبة العلم وأساتذتهم من العلماء في لوثة هذا الترف الخ » . .

عد الاخ المواطن مشاركة طلبة العلم وأساتذتهم للأهلين في الخروج الى النزهة والمتنزهات لوثة ، مع يقينه بأن خروج طلبة العلم كان نزيها كما صرح بذلك متناسياً ما جاء مرفوعاً ، هو قول علي رضي الله عنه : « روحوا عن هذه القلوب في الفينة بعد الفينة ، فإن القلوب اذا صدأت عميت » .

وعلى حد قوله فهيئات التعليم في سائر أنحاء الدنيا ، لما جعلت في كل سنة عطلة مدرسية لا تقل عن ثلاثة شهور يستجم فيها الطلاب والاساتذة ويريحون أعصابهم من إرهاق الدروس كان ذلك منها لوثة .

هذا ما جاء في كتاب « تأريخ مكة » عن المحسنين والمكيين على السواء وإني ، مرة ثانية ، أترك الحكم على أقواله إلى القراء الكرام .

اللهجة المكيّة العاميّة

لهجة المكيين وما تعودوه من تراكيب في بعضها انحراف عن اللغة الفصيحة والتراكيب السليمة ، ومع ضياع بعض الحروف أو استبدالها في لهجتهم بحروف أخرى ، فإنني أرى أن اللهجة المكية أقرب إلى الفصحى من لهجات أمثالهم من الشعوب العربية الأخرى ، اللهم إلاَّ لهجات سكان « جبال الحجاز » ، فإنهم أعذب لفظا ؛ وأصح نطقا ، وإن كانوا لا يعرفون الأعراب وأحكام أواخر الكلم ، ولا يتقيدون بها ، فالأحرف الضائعة في اللهجة المكية : « القاف » و« الذال » و «الثاء» و« الضاد » أحيانا ،وكذلك « الظاء » ؛« فالقاف » يلفظونها كافاً فارسية ، أي بَيْنَ بَيْن . فيقولون : « گلت له » بدلا من « قلت له » ، ويقولون «ظبط» بدلا من « ضبط » ، ويقولون « لماضه » بدلا من « لماظه » ، و« خبيس » بدلا من « خبيث » ، و« عتمان » بدلا من « عثمان » و« داك » بدلا من « ذاك » . وفي الأيام الأخيرة أسمع في لهجتهم ما لم أسمعه وأعرفه فيما سبق ، فصاروا يقولون : « گلتلو » بدلا من « قلت له » ، و« جِيَتلُّوا » و« رُحْتَلوّا » بدلا من « جئت له » و« رحت له » ، وأخال أنها سرت إليهم من اللهجة السورية .

ويقولون « بُراد » بمعنى « بَرْد » و« بزورة» بدلا من « أطفال » . و« إيش » بمعنى « ماذا » أو « أي شيء » ويقولون « شوية شوية » بمعنى « قليلاً قليلاً » أو « مهلاً مهلاً » ، ويقولون « بشويش بشويش » أي « برفق وتؤدة » ، و« إزهم عليه » بمعنى « ناد عليه » ويقولون « بس » بمعنى « يكفي » ، واحياناً بمعنى

« فقط » ، ويقولون «ستي» بدلا من « سيِّدتي » و« سيدي » بدلا « سَيِّدي » . وفي ذاكرتي أبيات « للبهاء زهير » ، وهو من مواليد « ينبع »[1] سكن « مصر » وأصبح من شعرائها ، يعلل فيها قولة ستي ، وهي :

«بروحي من أسميها بستي فتنظرني النحات بعين مقت »
«يرون بأني قد قلت لحناً وكيف وأنني لزهير وقتي »
« ولكن غادة ملكت جهاتي فلا عجب إذا ما قلت ستي »

ومن التراكيب المنحرفة قولهم « خُشّ جُوَّه شبوف » بمعنى « ادخل داخل وانظر » . ويقولن « دُوبُو كان هنا » بمعنى « الآن كان هُنا » ، ويقولون « يا دُوْب يكفي » بمعنى « على قدر الكفاية » ، «كَذَّاب » بدلاً من « كذاب » ويقولون : « باين في وجهك » ، بمعنى « ظاهر في وجهك » . فإنهم يستعملون كلمة باين بمعنى ظاهر . ويقولون « گوام گوام » بمعنى « سريعاً سريعاً » او « گوام » و« كوامن » بمعنى « سريعاً » . ويقولون « جواز » بدلا من «زواج» أو« عرس » . وتقول المرأة « جوزي » بدلا من « زوجي » ويقولون « جِفِصْ » بمعنى « متعجرف ويقولون « من فين جي » بمعنى « من أين آت » ، و« فين رايح » بمعنى « أين ذاهب » .

ومما دخل على المكيين وغيرهم ممن دان للعثمانين صيغة النسبة « فكهوجي » بدلا من « مقهوي » و« ساعتجي » بدلا من « ساعاتي » و« جزمجي » بدلا من « حذّاء » ويستعملون أحياناً كلمة « فالصو » بمعنى « مغشوش غير اصيل » وهي كما أعلم كلمة طليانية لاتينية .

ويقولون « فِي » بمعنى « موجود » جوابا لمن يسْأل « فين فلان » بمعنى أين فلان ويقولون«زي هادا» بمعنى « مثل هذا » ويقولون « نَدَرْ » بمعنى « خرج » وفي النفي « مُوفِي » ، ويقولون « اخَصُرُو » بمعنى « لا تسمع له »ويقولون « جلوزها » أو « زلوجها » بمعنى «تغاضي» و« تسامح » و«لا تتعصب » ،ويقولون

---

(١) بهاء الدين زهير من مواليد نخلة بالقرب من مكة ، انظر ديوانه .

« مِينْ » بمعنى « مَنْ » ويقولون « دَشّرُه » بمعنى « اتركه » ويقولون « روح » بمعنى « إذهب » ويقولون « جبْت الحاجة » بمعنى « أجئت بالمطلوب » ، ويقـولـون « مـريت » بـدلا من « مـررت » ويقـولـون « سِيْبـه » بـدلا من « اتركه » . ويقولون « اشاور عقلي » بمعنى « أُفكر » ويقولون « فَكِّره » بمعنى « ذَكِّره » ، ويقولون « أبُويَ » بدلاً من « أبي » ، ويقولون « طَفْران » بدلا من « معدم » أو كما يقول الحريري « خاوي الوفاض بادي الانفاض » .

ويقولون « طفشان » أو « زهقان » بمعنى « ضجر متضايق » ، ويقولون « باظت الشغلة » بمعنى « فسدت » ، « وولد بايظ » بمعنى « فاسد » مع أن كلمة « باظ » في اللغة العربية بمعنى « سمن بعد هزال» . ويقولون « زَلْ » بمعنى «مَرْ » كما يقولون « زلّيت عليك في الدكان ما لگيتك » أي«ما لقيتك»مع البون الشاسع بين معناها لغة وما يستعمله فيها المكيون ، ويقولون « لماضه » بمعنى « تبجح » .

ويقولون عن « الأعسر » « أشطف » ويقولون « فقع » بمعنى « هرب » أو « تسلل»، ويقولون « نص » بدلا من « نصف » ويقولون « خرمان » بمعنى « شديد الشوق الى الشيء » ، وكثيراً ما يستعمل عن الشاي والقهوة والدخان ، ويقولون « وصلة » بمعنى « قطعة » .

ومما عيب على المكيين قولهم لمن يقدم عليهم بعد غيبة « أوحشتنا » . وكنت أحفظ في ذلك بيتاً من الشعر ، هو :

« ما فيهُمو عيب سوى قولهم للقادم أوحشتنا » .

ولكن عثرت مؤخراً في « خلاصة الأثر » في « أعيان القرن الحادي عشر للهجرة على بيتين « للبدر الدماميني » وكان قد جاور بمكة ردحاً من الزمن ، بعث بها للشيخ « عبد القادر الطبري » ، أحد أعلام مكة وعلمائها حينئذ ، يقول فيها :

يـا أهـل مـكـة لا زلـتـم أنـسـالـنـا : إنـي لـم أنـسـكـم
مـا فيكم عيب سـوى قـولكـم عـنـد اللقـا أوحـشنا أنسـكـم

فاجابه الشيخ « عبد القادر » بقوله :

ما عيبنا هذا ولكنه من سوء فهم جاء من حدسكم
لم نعن بالايحاش عند اللقا بل ما مضى فابكوا على نفسكم

واردفه ابنه « زين العابدين » بأبيات هي :

يا مظهر العيب على قولنا عند اللقا أوحشنا أنسكم
ما قصدنا ما قد جنحتم له من خطأٍ جاء من فهمكم
فقولنا المذكور جاء على حذف مضاف غاب عن حدسكم
والقصد فقد الانس فيما مضى لا ضده الواقع في ذهنكم
فالأنس لم يوحش بل ضده هو الذي يوحش من مثلكم
وبعد ان بان لكم فاجزموا بنسبة العيب إلى نفسكم

ويقولون « وحَدة مَرّة » بمعنى « مرة واحدة » وأحياناً بدلا من « احدى المرات » كأن يقول قائلهم « وحدة مرة صادفت حاجة حلوة في طريقي » .

ويقولون «فربعة وكركبة » لصوت أجرام صلبة تصدم في بعضها ، ويقولون « بگبگة » أي « بقبقة » لمن يتفخم في كلامه على سبيل الاستهزاء ويعبرون عن الاستهزاء « بالتريگة » و« الأيوزة » . وسأسرد بعض ما يتداوله المكيون من كلمات بصيغة المصدر ، وأفسر موضع استعمالهم لها بقدر المستطاع ، وهي :

الدردشة : كثرة الكلام بدون ربط ، وقد يعنون بها احياناً مطلق المحادثة المتنوعة .

المرمصة : ثوب ممر مص أي قطعة قماش تكون على غير وضعها الطبيعي الذي يجب أن تكون عليه .

الحرمصة : عدم الاستقرار النفسي أو القلق ، وعدم البقاء على وتيرة واحدة في الجلوس ، كان يقال إشبك متحرمص؟ و« إشبك » معناها « أي شيء بك» .

المرمشة : نهش ما على العظام من بقايا اللحم ، كان يقال مرمش هذه العظمة .

الزبلجة : التوقح في الكلام .

والسلقحة : هي الترزل ، كأن يغشى شخص معارفه واصدقاءه أوقات الانتفاع بما لديهم من مطعم أو مشرب أثناء تجمعهم وقيلاتهم ، ومثلها « السلتحة » .

الدهمسة : هي الإهانة بالضرب أو الطرح أرضاً ، كأن يقول شخص لآخر أثناء شجارهما « آجي أدهسك » ، ومثلها « الدهملة » .

الدنيكة : وهي التقتير وإعطاء الشيء قليلاً قليلاً .

الصروعة : عدم التمساك في الحركة كأنه المصروع ، أما « الصرعة » فيعنون بها أحياناً النهم في الطعام .

العكننة : هي إثارة شخص لآخر بما يسيئه كقولهم : « خللني أعكن عليه» .

العصعصة : هي عدم الاستجابة والتمرد ، وتستعمل فيما لم ينضج من اللحم ، فيقولون « عصعص اللحم » .

الطرطعة : كالفرقعة وتستعمل احيانا في القول عن بعضهم « إنه طرطوعي » يعني كلامه كالطرطعة .

المرمرة : المطاولة في الاستجابة كأن يعد شخص آخر ، ثم يطاوله في التنفيذ .

القرقشة : وهو صوت قضم الخبز الجاف « كالشابورة » او الخبز المقمر .

الطرطرة : هي موالاة وضع الأشياء على بعضها البعض والتعالي بها مأخوذة : من « الطرطور » .

القليطة : ومثلها « الجليطة » شدة التحفظ من الشخص في كلامه ولباسه وحركاته وما أشبه فيقال فلان مقليط أو مجليط .

الغترة : التأنق في الملبس والحركة في الكلام . (هكذا في الأصل) .

القرطعة : صوت القبلة .

الفرفشة : حالة إظهار الفرح والابتهاج .

الدروخة : عدم تماسك المرء في مشيه وحركته ، وقد تستعمل معنويا كأن يتجادل اثنان فيقال لأحدهم « دَروخك » .

القشقلة : الاستخفاف .

الزركته : التظليل في المبايعات .

الهنجمة : تكبير الواقع والتهويل فيه .

الدعبسة : التعمق في البحث عن الشيء في جراب أو كيس وما أشبه .

الفرنكة : بعثرة الأشياء وتفرق الجماعة .

الدردبة : الدحرجة .

الحنشصة : التصنع في الحركة والكلام وما أشبه .

النقنقة : إعطاء الشيء جزءاً جزءا أو ادمان الملامة والتصنع في الأكل بطرف الأصابع وأخذه قليلاً قليلا .

الدربكة : الجلبة والضجيج .

الشبكنة : عدم الرجولة والميوعة ، مأخوذة من كلمة « شبكون » التركية .

اللغوصة : نقل الكلام بين اثنين مما يسوء ، ومثلها « السبسنة » .

البربرة : الغمغمة في الكلام بعدم الرضا .

البرطعة : أخت العنفصة : وهـي حركة الرَّمح من الحمير ، وقد يوصف بها من الناس من يشبه ذلك في حركته .

الهيلمة : التهويل في الواقع .

القرمطة : قرض الشيء ، ومثلها « القرقشة » .

الدندشة : تزيين الشيء وتزويقه .

الدرمقة : « تسكن والاَّ أكوم أدرمقك » : يعني أطرحك أرضاً .

الشوشرة : إيجاد الضوضاء والجلبة في الكلام ، والتشويش .

المبالطة : اللجج والمغالطة بغير حق ولا منطق ، ويقال « فلان يبلط » : يعني مكابر .

البنجخة : الاسراف والتظاهر بالكرم واليسر وسعة العيش .

الدردحة : اللباقة . و« فلان مدردح » : أي يحسن المدخل والمخرج .

الزبلحة : التطاول والتّبجّح في الكلام .

الغندرة : التأنق في الحركة ، وهي « مصرية » .

الصهينة : التغافل المقصود .
المرقعة : المياعة والتكسر في المشي والحركـة ، وتقال في الاستهجـان والتأنيب ، وهي بمعنى « الرقاعة » .
التريكة : بمعنى الاستهزاء والسخرية !
الجعجعة : كثرة الكلام .
الدغدغة : لمس مواضع حساسة .
الجرجرة : شد الشخص من أحد أطرافه ، أو سحب أي شيء آخر .
الدهملة : معناها اذا قلت لشخص « أدهملك » : أي « أجعلك في حالة مزرية » ،«وفلان مدهمل » أي « مزدرى محتقر » .
الدحلسة : التلطف لنيل المطلوب ، او الملق .

بعض الأمثال التي تدور على ألسنة المكيين

١ ـ صاد عصفورين بحجر : يضرب مثلا لمن أدرك غايتين في مسعى واحد .
٢ ـ ضربني وبكى وسبقني واشتكى : يضرب مثلا لمن يتظلم وهو الظالم .
٣ ـ ياموت احمر يا دهب احمر : يضرب مثلا في الحض على المجازفة .
٤ ـ بعدما اكل واَفّكَى قال رائحة مستكى : يضرب مثلا لمن يستحوذ على الشيء ثم يظهر عدم الاهتمام .
٥ ـ من أخذ ورد لا يرُد : يضرب مثلا في الحض على الوفاء بالدين وحسن الأداء .
٦ ـ ورّي المجنون قرصه يعقل : يضرب مثلا في الحض على المصارحة والصدق .
٧ ـ لا تورِّي البديوي بابك ، يا عذابك : هو كقولهم « لا تعطي العبد الكراع فيطمع في الذراع » .
٨ ـ لا تگول برّ ، حتى توكيّ : يضرب مثلا في الحد من حسن الظن ، والأمل ، والحيطة فيهما .
٩ ـ رجع يد ورى ، ويد گدّام : كقولهم « رجع بخفى حنين » : أي خائبا .
١٠ ـ رميه بلا رامي : يضرب مثلا لمن أصاب الغاية دون ان يقصدها ، بل جاءت عفواً .
١١ ـ من دّور على شيء التقاه : يُضرب مثلاً في الحض على الدأب في البحث والعمل .

١٢ ـ عيّن الحطب قبل ما خطب : يضرب مثلا لمن يستعجل الحصول على الأشياء التافهة قبل الأساسية .

١٣ ـ يخطف الكبيسة من رأس القدر : يضرب مثلا لمن يتعجل فهم ما يقال له ، دون فهمه لحقيقة المقول .

١٤ ـ مزين بسّط بأقرع استفتح : يضرب مثلا لمن خاب في مسعاه .

١٥ ـ الحر من غمزة والحمار من رفزة : هو كقولهم :

« العبد تقرعه العصا والحر تكفيه الاشارة »

١٦ ـ گدرو ما ينعار وبيته ما ينزار : يضرب مثلا على شدة بخل الرجل .

١٧ ـ عنزة ولو طارت : يضرب مثلا للرجل المكابر في غير الحقيقة .

١٨ ـ العنز لا تعلّم أمها الرضاعة : يضرب مثلا لمن يتعالم على من هو أعلم منه وأدرى .



١٩ ـ لقمة من الطيب ولا عشرة من اللاش : يضرب مثلا في الحض على انتقاء الأجود واختيار الأحسن .

٢٠ ـ صام وفطر على بصلة : يضرب مثلا لمن خاب فيما أمل بعد جهد في المسعى لم ينل منه سوى التافه .

٢١ ـ جلد مو جلدك جرّه على الشوك : يضرب مثلا لمن لا يبالي بضرر غيره عند حاجته .

٢٢ ـ من حط يدهُ في جيب الناس حط الناس يدهم في جيبه : هو كقولهم : « كما تدين تدان » .

٢٣ ـ الجنازة حارّة والميت كلب : يضرب مثلا لمن يقدر من لا يستحق التقدير ، ويعني بمن لا يستحق العناية .

٢٤ ـ ياكل ما يشبع ، ترسله ما يرجع/ تنهره ما يسمع : يضرب مثلا لمن يكون في غاية الغباء والبلادة .

٢٥ ـ خير الأمور الوسط : يضرب مثلا في الحض على عدم التطرف .

٢٦ ـ العروسة للعريس والجرّي للمتاعيس : يضرب مثلا لمن ينهمك في عمل

غيره دون ان تكون له فائدة فيه .

٢٧ ـ يقطع الخل على الخردل على بياع الزيت : يقال من سامع للوم بعض أفراد الجماعة مع انهم في نظره متساويين .

٢٨ ـ من دّور على الشيء التقاه ومن تركه عاش بلاه : يضرب مثلا في الحض على إدمان السعي وعدم اليأس .

٢٩ ـ من عاش مدبّر عاش مستور : بمعنى « ما عال من اقتصد » يضرب مثلا في الحد من الانفاق وعدم الاسراف .

٣٠ ـ ما جاء من اللص خلص : يضرب مثلا لعدم ترك القليل طمعاً في الكثير والاكتفاء بما تيسر .

٣١ ـ من أذى لا يتوحش : هو كقولهم « كما تدين تدان » .

٣٢ ـ ضربوا الأعور على عينه قال هي خسرانة خسرانة : هو كقول المتنبي :

« وكنت اذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال »

٣٣ ـ ديب بلع منجل عند . . . تسمع عواه : هذا مثل يضرب لمن يقوم على عمل غير مبال بما يعود عليه من ضرر .

٣٤ ـ نقطّنا بسكاتك : كلمة تقال لمن لا يحسن أن يضع الكلام في موضعه .

٣٥ ـ گابلني ولا تاكلني ، لاقيني ولا تغديني : بمعنى بشاشة وجه المرء خير من القِرى .

٣٦ ـ الرطل عيار الزبديه : بمعنى « وافق شن طبقه » .

٣٧ ـ عوم وأحرص على ثيابك : يعني : كن في كل أعمالك على حذر .

٣٨ ـ تمسكن إلى ان تمكن : خادع باللين والملق إلى ان نال غرضه .

٣٩ ـ الركوب على الخنفس ولا المشي على الديباج : كقولهم : « من قال لك ان المشي خير من الركوب فلا تصدقه » .

٤٠ ـ مشي يوم ولا طلوع كوم : وهو مثل مصري مقتبس لأن المكيين يقولون عن الطرق المتصاعدة « دحادير » مفردها دحديرة .

٤١ ـ بردان طاح على سردان : بمعنى استعان بمن لا يستطيع نفعه ، بل هو أعجز منه .

٤٢ ـ اذا كان المتكلم مجنون يكون المستمع عاقل : بمعنى لا يصدق الانسان كلّ ما يقال بل يحكم عقله .

٤٣ ـ دگ هنا برتج هنا : هو بمعنى :« إياك أعني فاسمعي يا جارة » .

٤٤ ـ سكتنا له دخل بحماره وزاد حاله : هو بمعنى : لا يعطي العبد الكراع فيطمع في الذراع .

٤٥ ـ ياللي تزكي حالك يبكي : يضرب مثلا لمن يتظاهر بما لا طاقة له عليه .

٤٦ ـ لسانك حصانك إن صنته صانك : يضرب مثلا للكف عن الثرثرة وفضول الكلام .

٤٧ ـ من غربل الناس نخلوه : ظاهر المعنى .

٤٨ ـ رجعت حليمة لعادتها القديمة : « وعاد الكتان كما كان » . ظاهر المعنى .

٤٩ ـ إقطع يد الكلب ودليها واللي فيه خصلة ما يخليها : معناه : « الطبع يغلب التطبع » .

٥٠ ـ جبتك يا عبد المعين تعين ، لقيتك يا عبد المعين تنعان : معناه اعتمد على غير معتمد .

٥١ ـ علمناهم الشحاتة سبقونا على البيبان : ظاهر المعنى .

٥٢ ـ صفق صفق ما جمّع حتى وفق : معناه « إن الطيور على أشباهها تقع » .

٥٣ ـ فين يروح بياع التوت مع الرتوت : أين يذهب الضعيف مع الأقوياء .

٥٤ ـ اذا كان حبيبك عسل لا تلحسه كله : ظاهر المعنى ، أي تجافا عن أهل المروءات .

٥٥ ـ لا ينطح ولا يقول إمباع : بمعنى : لا يحسن قولا ولا عملا .

٥٦ ـ الحسو مشّى وأبات مْنهنّ : يضرب مثلا للحض على القناعة .

٥٧ ـ اللي اوله شرط آخره سلامة : يضرب مثلا للتحفظ والحذر ، ومثله « إربط جرحك على الصحيح لا يدمي ولا يقيح » .

٥٨ ـ مد رجلك على قدر فراشك : هو كما قيل :

ومن طبعي السمـاحـة غيـر اني على قـدر اللحـاف أمـد رجلي

٥٩ ـ اسم بلا جسم : هو بمعنى « سماعك بالمعيدي خير من أن تراه » .

٦٠ ـ السلف تلف : هو بمعنى « خير لا تسوي شر ما يجيك » او « إتق شر من أحسنت اليه » .

٦١ ـ خليك مع الكداب إلى عند الباب : معناه كن مع وعدك إلى آخر الشوط .

٦٢ ـ الديك الفصيح من البيضة يصيح : معناه النجابة تظهر على المرء من طفولته .

٦٣ ـ الجواب يقرأ من عنوانه : معناه : ظاهر المرء يدل على باطنه .

٦٤ ـ الصديق وقت الضيق : ظاهر المعنى .

٦٥ ـ أول شدُّه عوجه : يضرب مثلا في الاعتذار عن عدم احسان المرء عمله مبتدءاً .

٦٦ ـ أيش تسوي المقيّنة في الوجه الغلس : معناه « لا يصلح العطار ما أفسد الدهر » .

٦٧ ـ المنحوس منحوس ولو علقوا في حلقه فانوس : معناه لا ينفع مع سوء الحظ أي مسعى .

٦٨ ـ البيض الفاسد يدحرج على بعضه : معناه « شبيه الشيء منجذب إليه » .

٦٩ ـ اعور وبيتنقور معناه : متلبس بالمعايب ويعيب الناس .

٧٠ ـ النار تعقب رماد : يضرب مثلا عن الشخص لا يشبه اباه في افعاله .

٧١ ـ العود من أول طلعته : يضرب مثلا للاستقامة من مبدأ الحياة .

٧٢ ـ استنى يا كديش حتي يجيك الحشيش : يضرب مثلا لمن يؤمل في غير مأمل .

٧٣ ـ الود يقرِّب البعيد : معناه « احسن إلى الناس تستعبد قلوبهموا »[1] . .

٧٤ ـ اطعِم الفم تخجل العين : معناه ظاهر .

---

(١) وتمام البيت : « وطالما استعبد الاحسان إنساناً » .

٧٥ ـ الي ما هو على البال حاله صعب : يضرب مثاله في عتاب الصديق على تقصيره أو انقطاعه .

٧٦ ـ اللي تحبه تبلعه الزلط والي تكره يفقد له على الغلط : هو كقول الشاعر :

وعين الرضا عن كـل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

٧٧ ـ الباب الذي يجيك منه الريح سده واستريح : معناه أحزم أمرك ولا تترك فيه فجوات .

٧٨ ـ الرفيق قبل الطريق : معناه ظاهر .

٧٩ ـ إبعد عن الشر وغنّيلوا : معناه تباعد الشبه .

٨٠ ـ اليد قصيرة والعين بصيرة : يضرب مثلا عن العجز عن المعاونة .

٨١ ـ أنضف من الصيني بعد الغسل : يضرب مثلا عن حالة الأفلاس .

٨٢ ـ إمسكلي إقطع لك : يضرب مثلا عن التعادل في الأمور .

٨٣ ـ اللي عنده مخ يجخ : معناه المقتدر يفعل .

٨٤ ـ الجمل ما يشوف سنامه : يضرب مثلا عن الشخص يعيب الناس بما فيه .

٨٥ ـ الدجاجة غسلت رجليها ونسيت ما كان عليها : يضرب مثلاة للشخص الذي يتناسى ماضيه .

٨٦ ـ أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة : ظاهر المعنى .

٨٧ ـ اللي يبغي الدّح لا يكوَل أحّ : معناه : ومن يطلب الحسناء لا يغله المهر » .

٨٨ ـ العريان في القافلة أمين : معناه « المفلس في أمان الله » أي لا يخشى أن يُسرق .

٨٩ ـ المخوزق بيسب السلطان : معناه « انا الغريق فما خوفي من البلل »

٩٠ ـ اللي ما يرضى بالحمى يرضى بالنفاضة : من لم يصبر على القليل من الأذى وقع في الكثير منه .

٩١ ـ اللي بيته من گزاز لا يرمي الناس بالحجارة : ظاهر المعنى « المعيب لا يعيب » .

٩٢ - ما يجي الغنج إلّا عند الحمير العرج : يضرب مثلا عمن يتزيا بغير ما هو أهله .

٩٣ - بيت عالي وسقف مخروق : معناه « مظهر يخالف المخبر » .

٩٤ - بيض اليوم ولا دجاج بكره : معناه « عصفور في اليد ولا عشرة في الشجرة » .

٩٥ - بعد ما شاب ودوه الكتاب : معناه عمل الشيء بعد فوات الأوان .

٩٦ - بيضة ما تلاطم حجر : معناه لا يستطيع الضعيف مناجزة القوى .

٩٧ - بعد الكبرة جبة حمرة : معناه « ابرد من بخ ، شيخ يتعالى ، وصبي يتمشيخ » .

٩٨ - جحا اولى بلحم ثوره : معناه صاحب الشيء أولى به .

٩٩ - تي تي زي ما رحتي زي ما جيتي : معناه الخيبة في مسعاه

١٠٠ - حبيبك اللي تحبه ولو كان دب : بمعنى «عين الرضا عن كل عيب كليلة» .

١٠١ - إذا كان خصمك القاضي فمن تقاضي : يشبه معنى « ميل القاضي خير من ألف شاهد » .

١٠٢ - من أول عازته كسروا عصاته : معناه خاب من اول الأمر .

١٠٣ - اللي انكتب على الجبين لازم تشوفوا العين :معناه« إن المقدر كائن لا ينمحي » .

١٠٤ - الدعاوى زناوي : معناه إن الخصومة تولد الخصومة .

١٠٥ - الحكم فرحة ولو على فرخة : ظاهر المعنى .

١٠٦ - بعد العيد ما ينفتل كعك : يضرب مثلا لمن يطلب الشيء في غير أوانه .

١٠٧ - يسكر من زبيبة : يضرب مثلا لمن يغضب بسرعة .

١٠٨ - بين حانا ومانا ضاعت لحان : ظاهر المعنى

١٠٩ - لا تقرصيني يا نحلة ولا أبغا لك عسل : معناه : لا أريد خيرك بل اكتفي شرك .

١١٠ ـ يا مربي اولاد الناس يا داق الماء في المهراس: معناه « لا تصنع معروفك عند من يضيعه » .

١١١ ـ لساني لاعدمته كيفما اشتهيت درته : يضرب مثلا لمن يحور الكلام كما يريد .

١١٢ ـ لساني مبلول واعرف كيف اكول : يضرب مثلا لمن يحسن الرد وإقامة الحجة .

١١٣ ـ واحد شايل ذقنه والثاني تعبان منها : يضرب مثلا عن من يتدخل فيما لا يعنيه ولا ضرر منه عليه .

١١٤ ـ لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب : يضرب مثلا عن الذي لا يروق له شيء في عينه .

١١٥ ـ الدخان القريب يعمي : معناه : « وظلم ذي القربى اشد مرارة »[١] .

١١٦ ـ الملك في داره ولا يستغنى عن جارو : معناه لا بد للناس من الناس او كما قال المعري :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

١١٧ ـ يركبك من لا يجاذبك : معناه يدفعك على عمل ما دون ان يساعدك فيه .

١١٨ ـ غلبتك كالو عرفتك : معناه انكشف لي زيفك .

١١٩ ـ أكبر منك يوم أعرف منك سنة[٢] : المعنى ظاهر ويضرب مثلا في احترام رأي الشيوخ .

١٢٠ ـ شرّفني كالوا حتى يموت إلاّ يعرفني : معناه « من عرفك صغيراً لا يوقرك كبيراً » .

١٢١ ـ دفعتني قلّو نفعتي : معناه رب ضارة نافعة .

---

(١) البيت لطرفة بن العبد ، وتمامه : على النفس من وقع الحسام المهند » .

(٢) تكرر المثل ٨٦ .

خلال المكيين وسجاياهم

في المكيين حمية وغيرة على النساء ، وإن كانت الأوضاع السابقة قد خفت عن ذي قبل ، بسبب كثرة من خالطهم من المهاجرين من الشعوب الأسلامية الأخرى من جهة ، ومن جهة ثانية ما احتك به بعضهم ممن يرتاد الممالك المجاورة التي منيت باحتلال الفرنجة لها واقتباسهم لتقاليدهم وعاداتهم وحياتهم ، وخصوصا الجيل الجديد ، فقد حصلت بعد الحرب العالمية الثانية ويسر المواصلات انطلاقة لكثير من الأهلين في ارتياد الممالك المجاورة عن ذي قبل

فقد كان المكيون لا يسمحون لنسائهم بالخروج إلى الأسواق لممارسة شراء ما يحتجنه ، بل السيدة نفسها ، تأنف من ذلك وتعده عيباً ، فإذا رغبت أي شيء من الأقمشة أو الملابس ، ذكرت ذلك لأحد محارمها ليأتي لها بنماذج عرفت بالفواتير ، فيعرضها على السيدة فتختار منها ما تريده وتعين له المقدارفيحضره لها ، وهكذا في سائر الأشياء ، ولم تكن السيدة تسمع ارتفاع صوتها خارج الدار ، وإذا جاء أحد يسأل عن رب البيت ولم يكن موجوداً ، ولا أحد من الصبيان صفقت له المرأة بكفيها فيفهم السائل أن لا أحد من الرجال في البيت ـ

ولم يكونوا يستأجرون للخدمة في البيوت إلاَّ من كان دون البلوغ ، إذا كان ذكراً ، ومتى شارف الخادم البلوغ أو أدركه بادر رب البيت بإخراجه اتباعاً للحكم الشرعي . وتأسياً في ذلك بقول ابوالعلاء المعري :

اذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد

فـان خـالفتني وعصـيت أمـري فـأنت وإن رزقت حجي ، بليـد
ألَا إن الـنـسـاء حبال غـيٍّ بهن يضيَّـع الـشـرف التـليـد .

وبهذه المناسبة فإن مما يحمد من المكيين أنهم لا يطلقون على من يستأجرونه للخدمة كلمة « خادم » بل يقولون : « صبي » ، والصبي صفة عامة حتى للولد .

وقد كانوا قبل التطور الأخير في شكل البناء يسدلون على جميع نوافذ البيت ستائر من الجريد ، تسمى « كباريت » .

ومن التقاليد التي كانت مرعية أن الرجل إذا صادف في أحد الأزقة امرأة ، أشاح بوجهه عنها وأعطاها ظهره إلى أن تمر بعيداً عنه مع أنها ملفلفة مع الملاءة لا يبدو منها حتى ظفرها . ولهم ميل إلى لبس الأبيض من الثياب بل هو الشائع .

ومن خلالهم التجمل والمجاملة والإسراف فيما يقيمونه من ولائم ومآدب ، فالواحد منهم إذا دعا عشرين مثلا صنع طعاماً يكفي الأربعين وهكذا .

ومن خلالهم رعاية الجار والمبادرة إلى معاونته فيما يطرأ له ، وبذل المستطاع من أجل ذلك .

ومن عاداتهم التجمل في أثاثات البيوت ومفروشاتها ومرافقها ، وإعارتها لمن تلزمه من المعارف والأصدقاء والجيران .

وفيهم ميل الى التطيب بعطر الورد والعود والتبخر به، وبغير ذلك من الأطياب التي عرفت حديثا ، وفي بعضهم ، بل أكثرهم ، الحدب على النساء ورعايتهن ، والعطف على أولادهم والشغف بهم .

ومن خلالهم أن الأخ الأصغر عند ذكره لأخيه الأكبر لا يلفظ اسمه مجرداً ، بل مسبوقا بكلمة « سيدي» وكذلك البنت إذا خاطبت أختها الكبرى قالت «إسْتِيتيّ» كناية عن « سيدتي » ، ويعبرون عن الجد أحياناً بكلمة « سيدي »

وعن الجدة بكلمة « ستي » .

وكان من آدابهم في المخاطبة أنهم يكنون عن الحذاء « بحاشا المقام » فإذا سأل أحدهم الآخر عما يحمله في يده وكان حذاءً أو نعلًا يقول له : حشا المقام .

وقد جرت بين الشيخ « سعيد القشيري » من علماء مكة في القرن الحادي عشر ، وبين الشيخ « تاج الدين المالكي » مداعبة شعرية ، وقد كان أوصاه على شراء حذاء له ، وهو بالطائف ، فابطأ في إرساله ، فكتب أبياتاً جاء فيها :

كل وقت لم أنس ذكرك فيه — فاحفظن للمحب منك الزماما
واذكرن حاجة المحب وان — ادكاري لها فحاشا المقاما

فراجعه الشيخ تاج الدين بقوله :

وصلت رقعة الحميم ولكن — أقتضى النظم أن أقول الحماما

ومنها . . .

أذكرتني فماذكرت غير ناس — لا تخلني أنساك (حاشا المقاما)

إلى أن يقول :

كل أبياتها قصور ولكن — كان بيت القصيد منها الختاما

ولا أخلي بعض المكيين من حدة في المزاج ومن سرعة الانفعال والغضب .

ولما كان الرائد لا يكذب أهله فان في بعض الدهماء والسوقة من يقذف من فمه ببعض كلمات وألفاظ قد يستوجب بعضها التعزير، وعسى بما تم من انتشار التعليم والتهذيب في سائر الطبقات أن يزول ذلك منهم .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها — كفى المرء نبلا أن تعد معائبه

والله هو الهادي لأقوم سبيل .

الحالة الصّحيّة بمكّة ووسائل التطبيب فيها
كيف كانت وما آلت إليه

كانت مكة في أوائل القرن محرومة من كثير من العناية الصحية ، ولم يكن التداوي يعرف بين الأهلين إلاّ بالطريقة القديمة والعقاقير النباتية البسيطة ، وكان أفراد من أهل الهند يمارسون بمكة هذه الصناعة ، وأحدهم ويدعى ، « ملا أمان » ، خلف بنتاً ورثت عنه صناعة الـطب بالعقاقير النباتية وبعض التراكيب منها ، مثل المعاجين والحبوب ، وتسمى « جميلة بنت ملا أمان » ؛ وقد عاشت إلى عهد الشريف « الحسين » وكأني أنظر إليها مبرقة راكبة على حمار فاره ، واللجام في يدها . والخادم بجانبها راجلاً يحمل حقيبة الأدوية ، وصارت أخيراً تستعمل السماعة التي ظهرت حديثاً وتخلط في علاجها بعض العقاقير التي عرفت حديثاً . وكانت موفقة مع من تعالجهم ، وكسبت سمعة ورواجاً في مهنتها ، وهي تعد بذلك أول طبيبة عرفتها مكة في عصورها المتأخرة .

وقد كان نفر من البدو يعالجون الكسور بالتجبير ، ويعالجون بعض الأمراض بالكي ، وبعضهم يعالج الماء الأبيض بعملية جراحية بسيطة .

وكان بمكة مستشفى واحد أظن أنه تأسس قديما على نفقة إحدى كريمات السلاطين العثمانيين ، وكان يديره طبيب واحد ، وصيدلي واحد ، ومعاون لتضميد بعض الجراحات الخفيفة ، ويعرف ، « بالقبان » ، ويشتمل بجواره على مطعم للفقراء يعرفه المكيون « بتكية السيدة فاطمة » ، لأنه كان في ظهر بيت

« السيدة خديجة » ومدخله مما يلي شارع « المدعي » ،وكذلك المستشفى ، وكان يشتمل أيضاً على مسجد صغير يقال إنه موضع دار « أبي صخر بن حرب » ، وكانت العناية في المستشفى غير وافية . وفي ولاية السيد « عثمان نوري باشا » في أوائل القرن ، كان من جملة ما أسسه « بجياد » دائرة للصحة مكونة من : طبيب وصيدلي ومضمد للجراح ، لهذا كان كثيراً ما يقع وباء الكوليرا ويموت من جرائه خلق من الحجيج والأهالي ، فلم تكن وسائل الاحتياطات والوقاية معروفة حينئذ .

وأشد وباء حصل بمكة في هذا القرن كان في عام ١٣١٠ هـ ومات منه خلق كثير يعدون بالآلاف، وأهل مكة يعبرون عن الكوليرا « بالشوطة » ، مما أضطر معه الألوف من الحجاج أن ينقطعوا عن اتمام المناسك ويغادروا « منى » في أول أيام النحر ، ومن جراء ذلك جلبت الحكومة العثمانية آلة لتبخير الملابس نصبتها في جوار « بستان العواجي » على يمين الصاعد الى « منى » بعد أن يمر « بريع الحجون » . وهو اجراء غير عملي ، فقد كان المهيمنون على المبخرة يوقفون قوافل الجمال وينزلون عفش الحجاج ليبخروه مما تسبب معه عطل ومشقة أدت إلى أن يثور البدو والجمَّالة ، ويقومون عليها بالهدم والتكسير ، وقد ظلت المبخرة شهدتها قطعاً من الحديد ملقاة في المكان الذي كانت مركية فيه .وفي عام ١٣١٩ هـ حصل أيضاً وباء ماحق ، وظل الحال على ذلك السوء ، إلاَّ من عناية طفيفة من إدارة الصحة التي أسسها عثمان نوري باشا » .

وفي عام ١٣٣٠ هـ . على أثر حرب البلقان جلبت الحكومة عدداً من الأطباء للعناية بشؤون الحج ، ولم يكن لذلك كبير أثر وإنما توسعت إدارة الصحة ، ونصبت في المكان الكائن خلفها « صوالين » من الخشب غير القابل للاحتراق ليكون مقراً للمرضى الذين يعالجون داخليا .

وكان يوجد بمكة أربع صيدليات نشأت على التوالي . فأول صيدلية كانت « بالمروة » أسسها المرحوم ابراهيم حسنين ، ثم تلاه شخص تركي يدعى

« عدنان » أسس صيدلية في وسط شارع « المسعى » ، وتلا ذلك صيدلية أسسها « رمضان افندي » وهو رجل من مجاوري الهنود ، تعلم الصيدلـة في « استانبول » ثم عمل بمكة صيدليا في المستشفى العسكري الذي أقامته الحكومة العثمانية في قلعة جبل الهندي « قعيقعان » وهي من بنايات الشريف غالب » ، استولت عليها الحكومة من عهد « محمد علي » ، وقد أسس هذه الصيدلية بعد إحالته إلى التقاعد . ثم قام نفر من الاتراك المقيمين بمكة وأسسوا صيدلية بقاعة الشفا سمّيت « حجاز أجزخانة سي » .

فلما ثار الشريف الحسين عام ١٣٣٤ هـ على الأتراك ، كان في دائرة الصحة طبيب أولي يدعى « نديم صلاح » من أهالي « نابلس » ، أسند إليه الشريف رئاسة دائرة الصحة ، لأنه كان على صلة به في عهد الأتراك ، وبعد استقرار الأمر استقدم أربعة نفر من الأطباء الشوام . وكان من مهمة مدير الصحة تحديد استقرار عدد الحجاج في الغرف التي يسكنوها بحيث لا يزيد العدد الذي يقرره لكل حجرة ، وإلاّ عوقب المطوف .

وفي موسم حج عام ١٣٤١ هـ أرفقت الحكومة المصرية مع المحمل هيئة طبية للعناية بالحجاج المصريين ، على أن تستقر بصفة دائمة في الثكنة المصرية التي أنشأها « محمد علي باشا » في عهد استيلائه على مكة ، ولما لم يسبق أن استؤذن جلالة الملك « الشريف الحسين » في أمرها أبى أن يسمح لها بالنزول إلى جدة ، وعنّدت الحكومة المصرية والملك فؤاد فامر بإرجاع الباخرة بما عليها من محمل ومن كسوة الكعبة وصدقة الجراية حسب المعتاد سنوياً .

أما الحكومة الحاضرة فقد أخذت تعتني بالأمور الصحية ، تدريجياً ، عناية فائقة . فتوسع مستشفى « جياد » عما كان عليه وأنشأت مستشفى آخر « بالزاهر » ، وبنت مستشفى ثالثاً أكبر من الجميع في الطريق الصاعد إلى « منى » كما انشأ أحد المواطنين مستشفى خاصا بحي « المعابدة » ثم نقله بتوسع إلى حي « العزيزية » المعروف سابقا بحوض البقر ، وكذلك أنشأ أحد أطباء النساء من

المواطنين مستشفى للولادة بحي « النزهة » في الطريق بين مكة و « جدة » مما يلي مكة ، وبنى أحد الأثرياء المواطنين مستشفى في « جرول » بالمكان الذي كانت تعسكر فيه جنود المحمل المصري ، وسلمه للحكومة ، فجعلته مستشفى للولادة . كما أباحت لكل حكومة أن ترسل لحجاجها بعثة طبية بعضها يقيم أيام الحج فقط ، وبعضها يستمر في مقره الذي هيء له ، وأصبحت مكة تعج بالاطباء من المواطنين الذين تخرجوا من البعثات التي تبعثها الحكومة إلى الخارج ، ومن بعض الشعوب الاسلامية التي تتعاقد معهم الحكومة عند الحاجة فما تمر في شارع أو زقاق ، إلّا وترى فيه لوحة باسم طبيب وعيادته الخاصة.وانتشرت مخازن الأدوية وبعض الصيدليات في سائر أنحاء البلدة ، هذا عدا الوحدات الصحية للطلبة والطالبات ، وعدا المستشفيات في « منى » و « عرفة » للعناية بالحجاج أثناء مقامهم بهما .

والخلاصة أن العناية بالأمور الصحية زادت في مكة بما لا يقل عن ٣٠٠٪ بل وأكثر .

الحكومة والحكّام في مكّة

كان أمراء مكة ، إلى العهد الذي دهم فيه البلاد « محمد علي » حاكم مصر في أوائل القرن الثالث عشر ، عندما فوضت إليه الحكومة العثمانية تعقب الحركة السعودية واسترداد الحرمين منهم ، شبه مستقلين ، وعندما استقرت جيوش « محمد علي » في البلاد قبض على « الشريف غالب » رغم ممالأته له ، لأن السعوديين كانوا أقروه على إمارة مكة .

قبض على « الشريف غالب » ونصب من طرفه أميراً من«آل زيد» أبناء عم « الشريف غالب » ؛ وأقام قائد جيشه محافظاً لمكة ، ومن ذلك التاريخ أصبح الحكم فيها ثنائياً ، بين الأمير والمحافظ ، وهذا وضع لا شك ينشأ معه تصادم بينهما ، حتى أنه لما آلت الأمارة إلى الشريف«محمد بن عبد المعين بن عون » وهو أول أمير من « الأشراف العبادلة » أبناء عم ذوي زيد ، حصل بينه وبين المحافظ أحمد باشا خلاف اضطر معه الشريف « محمد بن عون » إلى السفر إلى القاهرة لعرض الخلاف على « محمد علي » وظلت مكة بلا أمير ردحاً من الزمن .

ولما استردت الحكومة العثمانية الحجاز من « محمد علي » سارت على هذه الوتيرة ، واشركت مع الأمير والياً من طرفها ، جعلت مقره مكة ، واستمر ذلك إلى أن ثار « الشريف الحسين بن علي » في عام ١٣٣٤ هـ ، واستقل بأمر الحجاز ، كما سيأتي بعض التفصيل عن ذلك عند الكلام على إمارته .

رغم ذلك ، ورغم أن الأمير أصبح موظفاً من موظفي الدولة يتقاضى مرتبا شهريا ، فقد احتفظت الأمارة ببعض المظاهر والعنعنات ، فقد كان لقصر الأمارة فرقة موسيقية يقول عنها المكيون « النوبة » تتألف من طبل كبير واثنين من النقرزانات » ، وعازف على الناي ، وأظن أن معهم عازفاً على القربة ، تعزف كل يوم بعد العصر في الردهة التي أمام باب القصر وقد يستعيرها بعض الأعيان في حفلات أعراسهم ، ويكون ذلك مدار افتخار لأهل العرس .

واذا خرج الأمير لصلاة الجمعة أو في الاستقبالات الرسمية ، كاستقبال المحامل أو غيرها ، يخرج ممتطياً فرسا وأمامه عن اليمين وعن الشمال عدة أفراس سروجها مرخنة ومطرزة بأسلاك الذهب والفضة ، أو بالكواكب من الفضة المطلية بالذهب ، ليس عليها راكب ، بل مقود الفرس ، في يد خادم مخصص ويسمونها « جنايب » ، وبجوار الأمير شخص على فرس يحمل مظلة مطرزة بأسلاك الفضة المموهة بالذهب ، وقد دام ذلك إلى عهد « الشريف الحسين » . ورغم أنه حين استقل شكل فرقة موسيقية وعلى الشكل المعروف تواكب الجند ، فلا زالت النوبة في كل عصر تصدح في المكان المشار إليه . وأظـن أن هذه الأوضاع منحدرة من عهد حكومة المماليك بمصـر وتـقليـداً مـن أمراء مكة ، وهي التي تسمى في عهد المماليك « بالطبل خانه » .

ومما يرتاح اليه أمراء مكة مخاطبتهم « بسيدنا » . فكان مما يحرر إليهم من معروضات من أفراد الرعايا في العهد العثماني يتوج بالعبارة التالية : « دولتو سيادتلو سيدنا وسيد الجميع » .

ومما يدل على تعلق الأشراف بكلمة « سيدنا » وارتياحهم للمخاطبة بها أن الأمير « عبد الله بن الحسين » حين أمر على « شرق الأردن » كان يدعى بسيدنا ، و لا زال أهل عمّان يعبرون عن الملك « حسين بن طلال » « بسيدنا » إلى اليوم .

وفي أواخر القرن الثالث عشر ، عندما ولي السلطنة السلطان « عبد الحميد

خان» وبعد مقتل الشريف «الحسين بن محمد بن عون» بجدة، عند دخوله لدار الوجيه الشيخ «عمر نصيف»، جد العلامة الفاضل الشيخ «محمد حسين نصيف»، رحمه الله، بيد رجل قيل إنه أفغاني، وقيل إنه داغستاني، أسند السلطان إمارة مكة للشريف «عبد المطلب بن غالب» «من آل زيد». إلا أن إمارته لم تطل، فقد كان طاعناً في السن، واستحوذ عليه بعض أحفاده وأتباعه بما ساءت به الأحوال وكثرت الشكايات من تصرفاته، وكانت الولاية على مكة قد أسندت الى المشير «السيد عثمان نوري»[1] فاستحصل على أمر من السلطان بتنحية الشريف عبد المطلب عن الإمارة، وفعلا تمّ له ذلك. وقبض على الشريف المشار إليه، وكان إذ ذاك بوادي المثناة بالطائف، ثم جعل حبسه بيته الذي في «المعابدة» والمعروف بالبياضية، وظل كذلك إلى أن توفاه الله.

هذا الوالي كان من أنبل الولاة الذين عرفتهم مكة وأحزمهم، ومن محبي الاصلاح، فقد ولي مكة وكان حال الحكومة العثمانية فيها كعابر سبيل. فمقر الحكومة دار بالأجرة، ومقر الحامية من الجند الدار الكبيرة التي كانت «بجياد»، والمشهورة «بخرابة جياد» من مخلفات الشريف «غالب»، وبالأجرة أيضاً. وليس في البلاد مرفق من المرافق العامة، فأنشأ داراً للحكومة اشتهرت «بالحميدية» لأنها أنشئت في أول عهد السلطان «عبد الحميد» وأنشأ ثكنة للجند بمحلة «جياد» هي الآن مقر مالية مكة، وأنشأ مطبعة خلف دار الحكومة تصدر منها «سلنامة» في كل سنة بالتركي، كان يتولى ترتيبها والتحرير فيها مكتب تحرير الولاية كما يطبع فيها ما تنشره الولاية من بيانات وأوامر مما يعود

---

(١) يقول الشيخ «عبد الواسع اليماني» في كتابه «تاريخ اليمن» أن المشير عثمان باشا كان عادلا صالحا متواضعا، وكان يسمى بالفقيه، ثم قال أيضاً بعد ذلك متواضعا متزهداً يكلم الصغير والكبير والضعيف، كثير الصدقات وقد يتصرف بكل معاشه «مرتبه» وأجمع الناس أنه لم يأت وال إلى اليمن مثله وكان يطلع من «بير القرن» إلى دار الحكومة ماشياً، ونادراً ما يركب بغلة، وأن الخيرات والبركات كثرت في عهده، وأنه قطع دابر الرشاوي وكف المأمورين عن الظلم والتعدي، ولذلك قدمت فيه شكاوى ممن كان يعتاد الرشوة والظلم أدت إلى فصله وإرساله إلى مكة (ص ١٢٦ و ١٢٧ طبع المكتبة السلفية بالقاهرة)

انما المرء حديث بعده فكن حديثا حسناً لمن وعى

للولاية والوالي ، ولا يخلو أنها كانت تطبع لبعض علماء مكة بعض مؤلفاتهم ، وأعرف أن بها مطبعة حجرية . عرفت في العهود الأخيرة أن الكاتب لما يطبع فيها على الحجر كالمرحوم الشيخ « سليمان غزاوي » ، وأقام بجوار المطبعة ، وعلى بعد أمتار منها دائرة للصحة وبنى في ردهة « باب الوداع » مبنى للبريد والتلغراف على أنقاض دار وهبها له الشريف « الحسين بن علي » فقد كان على صلة وثيقة به كما سبق التنويه عن ذلك في غير هذا المكان .

إمارة الشريف عون الرفيق

ولما فصل الشريف « عبد المطلب » عن الامارة ، أسندت الحكومة العثمانية الامارة الى الشريف « عون الرفيق بـن محمد بن عون » وقد كان إذ ذاك في «اسطنبول» ووصل مكة في أواخر سنة ١٢٩٩ هـ . ولم يدرك يوم الوقوف «بعرفة» فجرى الاحتفاء به«بمنى» في ايام التشريق،وكان في أول أيامه على وضع عادي كأمثاله من الامـراء ، إلا انه ما عتم أن وقع الخلاف بينـه وبين الـوالي « عثمـان نـوري » ، لأن الوالي المشـار اليه ، كـان كمـا سبق القول ، حازماً قوي الشكيمة ، وقد تمكن من استمالة جماعة من أعيان البلاد وعلمائها منهم الشريف « حسين بن علي » الأنف الذكر ، وقد كان على صلة عميقة معه منشؤها تصدى الوالي لعزل الشريف « عبد المطلب » فقد كان الشريف « حسين » وعمه الشريف « عبد الإله » ممن آزر الوالي في ذلك ، لما بين العائلتين من المنافسة والتطلع إلى إمارة مكة ، وقد ظلت الامارة في آل عون إلى أن ثار الشريف « الحسين بن علي » كما هو معروف .

اشتد الخلاف بين الوالي « عثمان نوري » وبين الشريف « عون » ، مما اضطر معه الشريف « عون » أن يترك مكة ويسافر الى « المدينة المنورة » مع بعض حاشيته ، باسم الزيارة ، ومن هناك أخذ يكتب إلى مقام السلطنة بالطعن في

الوالي ، وينسب إليه أنه يكره الأشراف وأنه أحال أحد مقابر المسلمين الى منتزه له ، وذلك غير صحيح ، فإن الارض التي أقام عليها المنتزه ، وجعل سقياه من فائض «عين زبيدة» كانت فضاءاً ولم يختصه لنفسه، بل جعله منتزها عاما لسائر الناس وإن كان يخرج إليه أحياناً في بعض الأيام ، كأي فرد عادي ، فقد كان الوالي المشار إليه في غاية التواضع والاستقامة .

ظل الشريف « عون » في المدينة ، يفتل الذروة والقارب لدى السلطان « عبد الحميد » إلى أن استجيب له بفصل الوالي عن مكة . عاون الشريف في ذلك السيد « أبو الهوى الصيادي الرفاعي » ، فقد كان ممن يعتقد السلطان في صلاحه ، كما آزر في ذلك السيد « أحمد اسعد المدني » وكلاهما من المقربين لدى السلطان .

وانتهت علاقة السيد « أحمد أسعد » بأن زوج الشريف « عون » ولده الوحيد من بنت السيد « أحمد أسعد » المشار اليه ، وكان ولداً ضعيف الإدراك والعقل ، سكن بعد موت والده مصر وولد له من بنت السيد « أحمد » أربعة أولاد ذكور عهدي بهم يسكنون مصر ، ولأحدهم ، وأظنه توفي ، بنتاً هي الاميرة « دينا » التي تزوجها الملك الشريف «الحسين بن طلال » ملك « شرق الاردن » الحالي ، ثم انفصلت عنه ولا زالت بمصر أستاذة في كلية الآداب بالقاهرة ، فهي من خريجيها .

رجع الشريف « عون » الى مكة ، بعد أن تحصل على أمر فصل الوالي ، متنمراً، تمتلىء نفسه غيظاً على الوالي ومن شايعه من أهالي مكة والاشراف، وكان أول عمل بدأه أن كلف أعوانه بأن يترقبوا اليوم الذي يسافر فيه الوالي « عثمان نوري » مبارحاً مكة ، فيبدأون في هدم سور البستان الآنف الذكر وقطع أشجاره ليشهد الوالي ذلك وهو خارج إمعانا في أغاظته ، لأن من الأسباب التي أدت الى المشاحنة بينه وبين الوالي رغبة الشريف « عون » في التدخل في شؤون الهيئة التي أسسها الوالي للعناية بمصالح «عين زبيدة» وتعميرها كلما جد لازم . فقد

تجمعت لدى الهيئة أموال وفيرة مما أغضب جماعة « وحدانه الميمني » وقد سبق التنويه عنهم في فصل الماء . فقطعوا ما كانوا بدأوا به بعد تغيير مجاري العين من إنشاء خزانات بمكة وتوسعة ما كان موجوداً منها ورجعوا الى « الهند » .

ولم يكف الشريف « عون » أن أمر بهدم البستان وتقطيع أشجاره بل دفعه الحقد والغيظ أن أمـر النوّارة أن يأتوا بالنورة ويطفؤ ها في أرض البستان لتتلف ولا تعود تصلح للزرع ، كما أخبرني بذلك من عاصر الحادث ، ثم بدأ في تتبع من كان يشايع الوالي المشار اليه ، فحبس بعضهم وكلف بعضهم بمبارحة البلاد ، وممن كلفهم بالمغادرة الشريف « الحسين بن علي » لصلته الوثيـقة بالـوالي كما سبق القول ، فسافر الى الاستانة وهناك عينته الحكومة عضواً في « مجلس شورى الدولة » وكان عدد من شتتهم نحو أربعة عشر نفراً من وجهاء البلاد وعلمائها ، واتخذ له بطانة من أرازل الناس سُمُّـوا « الخزناوية » فكان فيهم الحّمار والمولى ومن شاكل هذه الطبقة ، وأغدق عليهم من رعايته ما مكنهم من التسلط على الأهالي والإمعان في إهانتهم وتطور بهم الحال إلى أن صاروا يأتون من الأعمال ما يُستحى من ذكره . وأخذوا في التسلط على الناس والتوسل لابتزاز أموالهم بشتى الطرق .

وسبق أن ذكرت ، في فصول سابقة ، ان الشريف « عون » هدم قباب بعض الصحابة والأولياء ، وحظر إلباس الأولاد الحجب والتمائم ، وأن الخزناوية اتخذوا هذا الحظر وسيلة للارتشاء ، واختل الامن في الطرقات خصوصاً في طريق «المدينة وجدة » ، وأخذ البدو والعيار يعترضون الحاج بالنهب والقتل في الطريق الى « عرفة »ومن بين أشجار السلم التي كانت بتكاثر هناك ، بل وحتى في أطراف البلدة عندما تبرز القوافل للسفر ، مما ضج معه العالم الاسلامي بالشكوى الى السلطنة ، وللمرحوم « احمد شوقي » قصيدة يهجو فيها الشريف« عـون » ويندد بأعماله وجوره وبغيه ، وقد ذكرها صاحب « مرآة الحرمين » وأخذ بعض من نالهم الجور ينشؤ ون الكتيبات والمناشير عما لحقهم من الظلم والتعدي نقلها صاحب « مرآة الحرمين » اللواء « ابراهيم رفعت » ، وسجلها في كتابه المذكور

احداها سماها منشؤ وها«ضجيج الكون من فظائع عون»والثانية دعاها منشؤ وها «خبيئة الكون فيما لحق بن مهنا من عون ». وسأذكر لك أيها القارىء الكريم بعضا من أبيات « شوقي » وهي مثبتة في « ديوانه » ، وفي كتاب « مرآة الحرمين » . يقول شوقي مخاطباً السلطان « عبد الحميد » :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم ... واستصرخت ربها في مكة الامم
قد مسّها في حماك الضر فافضى لها ... خليفة الله أنت السيد الحكم
تلك الربوع التي ربع الحجيج بها ... أللشريف عليها أَمْ لك العلم ؟
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا ... إن أنت لم تنتقم فالله منتقم

إلى أن يقول :

يد الشريف على يد الولاة علت ... ونعله دون ركن البيت تستلم
تبدون إن قيس في باب الطفاوية ... مبالغ فيه ، والحجاج متهم

الى ان يقول :

أدِّبْهُ أدب أمير المؤمنين فما ... في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول ، فما ... بين البغاة وبين المصطفى رحم
رب الجزيرة أدركها فقد عبثت ... بها الذئاب وضل الراعي الغنم
إن الذين تولوا أمرها ظلموا ... والظلم تصحبه الاهوال والظُلَمَ
أزرى الشريف ،وأضراب الشريف بها ... وقسّموها كإرث الميت ، واقتسموا

والقصيدة في نحو تسعة وثلاثين بيتاً .

ولقد أمعن الشريف « عون » في اذلال المكيين وامتهانهم بشتى الوسائل ، ومن جملة ما اتخذه في هذا السبيل أن اختص برجل معتوه واصطفاه جليساً له هيأه بأجمل اللباس بعد أن كان يمشي في الاسواق شبه عار ، وبنى له داراً فخمة في القشاشية» ، وخصص له عربة من عرباته يصحبها في ذهابه إليه وإيابه إلى بيته ، وكانت ثلة من « البواردية » يجرون الناس من المارة وأرباب الدكاكين على الوقوف له قياماً للتحية ومن امتنع عن ذلك ضربوه .

وكانت السخرة قائمة فاذا أراد الشريف الطلوع الى الطائف سخروا له الجمال والدواب ، ولم تقتصر السخرة على ذلك بل كثيراً ما يقبض أعوانه من « الخزناوية » وغيرهم على المارة لتشغيلهم في البناء فعلة وعمالاً ، سواء كانوا ممن يليقون لذلك أم لا ، وقد أخبرني بعض صناع والدي في عمل السبح أنه كان عند خروجه للسوق يتحصن بلبس الطربوش على رأسه ليوهم من يصادفه انه من أفراد الجالية التركية .

وكانت تصدر منه بعض أحكام تذكر بما يحكى عن «قرة قوش » من حكايات ؛ فقد كان والدي ، يرحمه الله كما سبق القول ، شيخا لطائفة السبحية ، وكان عمل السبح من صناعته ، وفي أحد الورش او مصانع السبح تشاجر اثنان من الصناع ، وقتل أحدهما الآخر وهرب ، فما كان من الشريف عون إلا ان يأمر بإغلاق جميع ورش السبح ، ويمنع تصنيعها بمكة ، ويصادر جميع الآلات التي يعمل بها ، ويأمر بسجن والدي لانه شيخ السبحية ، ولم يكفه ذلك ، بل أمر ان يوضع زنجير (سلسلة من الحديد) يطوق في رقبته يزيد وزن السلسلة عن قنطار ويوضع قيدان في رجله مما اضطر معهما رحمه الله ان يطلب عبدين كانا لديه ليرافقاه في السجن يحملان عنه السلسلة فقد كانت توضع في زنبيل لطولها وذلك اذا لزمته الحركة والذهاب لقضاء الضرورة وقد ظل على ذلك الحال اياما ثم اضطر ان يرشي احد الخزناوية في فك الطوق عن عنقه بمبلغ مائتي جنيه وبعد ايام رشى ايضا على فك القيدين بمبلغ مائة جنيه ولم يطلق من السجن الا بعد ثلاثة شهور وبعد ان دفع مبلغا لا اتذكره الآن .

وظلت صناعة السبح ممنوعة بمكة الى ان توفي الشريف عون . هذا عدا ما كانت تتعرض بيوت السبحية من تهجم عليها من قبل الخزناوية بدعوى التفتيش عن عمل السبح والتوسل بذلك لابتزاز الاموال منهم وتهديدهم بالسجن إن لم يدفعوا .

ومن طريف ما كان يعاقب به بعض الاعيان إذا غضب عليه ، أن يأمر شيخ

« الجعايدة » يقيده لديه في دفتر الطائفة واعتباره من زمرتهم ، « والجعايدة » فئة تشبه الغجر كانت منازلهم من جهة«دحلة الجن»بجوار المعابدة، يمتهنون صنع زنابيل الخوص ، وبذلك يصبح المغضوب عليه موسوماً بين الناس بانه « جعيدي » : وقبل وفاته ببضع سنوات حل جميع ما لدى المطوفين من تقارير من الأمراء السابقين ، وأعاد تقسيم الممالك الاسلامية التي يرد منها الحجاج ، وقدر لكل بلد أو ناحية ثمناً ، فمن أراد من المطوفين ناحية أو بلداً ، دفع المبلغ الذي فرض ثمنا لها ، وأصبح من يرد من ذلك الاقليم أو البلد أو الناحية ليس له حق الاختيار ، بل يكون مطوفه القائم على شؤونه من اشترى الناحية التي هو منها، كما جرى الالماع بذلك عند الكلام على « فرق المطوفين ومشايخ الجاوى » . وقد انتهز رؤساء المطوفين وحاشية الشريف من الكتاب وغيرهم فرصة هذه العملية ، واختصوا بمبالغ يفرضونها على من يلتزم الشراء ، فأثروا من ذلك ، وبنوا الدور والقصور ، ولا زال ورثتهم يستغلون ما أبقاه الزمن منها .

ومن غرائب الاقدار أنه رغم شيوع البغي والظلم والتعدي على الحجاج ، ونهب البذو لهم في طريق « جدة » « والمدينة » ووضع الإتاوات ، وفقدان العناية الصحية ، وحصول وباء الكوليرا ، « الشوطة » ، رغم ذلك كان الحجاج يتوافدون بكثرة سنة بعد سنة ، ومرت معظم سنين حكم « الشريف عون » سنين وفر في المكاسب والمرابح، بل كان يحج في بعض السنوات بعض النواب « الحكام المسلمين في بعض أقاليم الهند » وكثير من الأعيان ، فكان أهل مكة يُسر من هذه الناحية ، كأن الله ، سبحانه وتعالى ، لم يشأ أن يجمع عليهم : بغي الشريف وظلمه ، وكساد الأحوال .

وذكرني هذا الواقع قولة أعرابي صادفه الخليفة « المنصور العباسي » عندما زار « الشام » وقد كان به طاعون استمر زمنا ، ثم زال في تلك السنة ، قال المنصور للأعرابي : « كيف ترى ان الله أزال عنكم بولاية بني العباس الطاعون؟» فأجابه الأعرابي : « إن الله أرحم من أن يجمع علينا : ولاية بني العباس ، والطاعون » .

هدم الشريف « عون » البستان الذي أنشأه الوالي « عثمان نوري » باسم هيئة « عين زبيدة»، كما سبق القول ، وأنشأ هو بستاناً خاصاً لنفسه على مقربة من البستان الذي هدمه بمحلة « جرول » ، يُسقى بفائض ماء « عين زبيدة » . هذا البستان ظل عامراً مدة حياته فلما توفي أخذ الخراب يتطرق إليه إلى أن اضمحل ولم يعد فيه عود أخضر، ثم زال تماماً ، فقد باعه ورثته على أحد الامراء السعوديين ، ثم آل التصرف فيه إلى أمانة العاصمة « البلدية » فهدمت الأسوار التي عليه ، والبركة الكبيرة التي كانت في وسطه وجعلته مناخاً لبيع ما يرد مكه من الضواحي ، من الخضر والفواكه ، بالمزايدة ، والتي يطلق عليها المكيون « الحلقة » . فقد كانت قبل ذلك في أول « خريق » في الطريق الى « المعابدة » ، وقد سجل صاحب « مرآة الحرمين » بعض ما جرى شرحه ، وصورة فوتغرافية لجانب من البستان . وهو الشلال الذي كان يصب منه فائض عين زبيدة .

وكان المرحوم السلطان عبد الحميد خان قد رغب أن يبني نزلا للحجاج الاتراك، أو كما سميت «مسافر خانة»، وأصدر أمره للولاية بتنفيذ ذلك، وفعلا قامت الولاية ببناء النزل وهي « الثكنة العسكرية» الآن ، الكائنة « بجرول » ، يراها القادم عند انفتاله واتجاهه الى الجنوب في مقدمه من « جدة » . وقد جعل « قشلة » عسكرية من العهد العثماني ، لأنه لما وصف مكانها للسلطان بعد أن تم بناؤها وجدها بعيدة عن المسجد الحرام ، فلم يرق له ذلك ، وأمر الشريف « عون » أن يشتري له بعض الدور في وسط البلدة ، وأن يهدمها ويبني مكانها « المسافر خانة » المطلوبة ، فقام الشريف « عون » بالأمر ، وانتزع كثيراً من دور « محلة القشاشية » بالشراء ، وهدمها ، لكن ذلك جاء متأخراً ، فقد مات الشريف « عون » قبل أن يقوم بالبناء ، وتلاحقت المشاكل والمشاغل على السلطان « عبد الحميد » ، فان الدستور أعلن ، وانتهى اعلانه بخلع السلطان بعد سنتين ونصف من وفاة الشريف « عون » ، وظلت الدور بعد هدمها خرائب ، وكان الشراء لها باسم الشريف « عون » . فلما تولى الشريف « الحسين بن علي » إمارة مكة في نفس العام الذي أعلن فيه الدستور ، وكانت هيئة الدستور بمكة شكلت ادارة باسم

« البلدية » جعلت مقرها مخفر الشرطة الذي أنشأه الوالي « عثمان نوري » بالصفا عرف « بكركون الصفا » ، وكان أول رئيس للبلدية المرحوم الشيخ « عبد القادر الشيبي » كما سبق القول بذلك في فصول سابقة .

وكان سوق الخضار والجزارة في أول شارع « المدعي » مما يلي المسعى ، وكانت تقوم على طرفه ، مما يلي مورد الماء « بازان المسعى » الذي كان هناك ، غرفة خشبية عالية يتخذها المحتسب مقراً له ولأعوانه ، للاشراف على السوق ، ويعرفها المكيون بـ « كشك الحاكم » ، فإنهم كانوا يطلقون على المحتسب كلمة « الحاكم » ، وقد ولي هذه الوظيفة عدة أشخاص أعرف أسماء ثلاثة منهم وهم : المرحوم الشيخ « سليمان شلهوب » والسيد « عبد الواحد فتياني » ، وكان آخر حاكم تولى منصب المحتسب في عهد الشريف « علي باشا » الشيخ « داوود ابو الفرج » .

ولما تأسست البلدية الغي هذا المنصب ، وبالتالي نقل سوق الخضار واللحوم إلى طرف من الخرائب المذكورة ، بنيت فيها صنادق خشبية لهم .

ولما شكل الشريف الحسين بن علي في أول امارته ، هيئة « لعين زبيدة » ، بنى لها مقراً فوق « بازان المسعى » وجعل مدخله من مقر كشك الحاكم » الذي أزيل .

وظلت الخرائب على حالها إلى حلول الحكومة الحاضرة ، فرأت أن بقاء هذه الخرائب في وسط البلدة مما لا يناسب ، فاوعزت الى وكلاء ورثة الشريف « عون » ببنائها فبنوا فيها دكاكين من الحجر ، بعضها على شارع القشاشية ولما أخذت الحكومة في توسيع المسجد زال جانب من تلك الدكاكين مع ما كان بجوارها من دور للآخرين ، أما الباقي منها ، فما زال ورثة الشريف عون يستغلونها إلى الآن .

وكان ممن حج في عهده بعض « نوابات الهند » فأهدى له بعضهم فيلا ظل بمكة بضع سنوات ، وكان له خادم هندي مخصوص ، كان في كل أسبوع مرة أو

مرتين يخرج به إلى « بركة ماجن » أو « ماجد » كما يعرفها المكيون ، في أسفل « محلة المسفلة » ليغسله ، ويجعله يمرح على طرف الماجل الذي كان بجوار البركة الكبيرة ، وكان مقر الفيل في قصر الحكم « بالغزة » ، فاذا خرج به الخادم يمر من « الشارع الاعظم » ، وكان على حافيته بالسوق الصغير دكاكين للخضرية وباعة الخبز ، فكان الفيل اذا حاذاها لف بخرطومه ما يروق له من الخضرة أو أقراص العيش ، ولا يستطيع أصحابها أن يمنعوه ، وكان الخادم يستقل الفيل مع الأولاد اليفع فيركب من أراد منهم ظهره مقابل أجرة من العملة الهندية تساوي ثمن الروبية » يقول عنها المكيون « قطعة هندي » وكان الشريف إذا أراد أن يصيف بالطائف صحبه معه ، قبل سنتين أو أقل من وفاة الشريف تصدى له بعض من لحقه أذاه وضربه برصاصة في إحدى الليالي دون أن يشعر به أحد ، بل وجد الفيل في صبيحة ذلك اليوم مقتولاً ، وأراح الله الناس من عبثه وعيثه .

وليس هو بأول فيل جيء به لمكة في العهد الاسلامي بل ، في زمن أبي سعيد خدابنده التتري قدم أحد أمراء الحج العراقي ومعه فيل ، فتشاءم منه الأهلون وقتلوه وقتلوا معه بعض أعيان الحجاج العراقيين ، كما جاء ذلك في «تاريخ العصامي » (الجزء الرابع صفحة ٢٣٣) وجاء في غيره أن الركب العراقي صحبه معه إلى المدينة ، ولكنه قبل أن يصلها بمسافة مات الفيل في الطريق ، والله أعلم أي الروايتين أصح .

هذا الذي ذكرته نموذجا لما كان عليه الحال بمكة من بغي وظلم ، ورغم ما كان عليه الشريف « عون » من تبذل مع من اصطفاه من « الخزناوية » ، فقد كانت له مجالس سمر لا تخلو من بعض العلماء وأعيان البلاد .

وقد سبق أن ذكرت ما تأثر به من الشيخ أحمد بن عيسى « احد الجالية النجدية » بمكة ، وهدمه لبعض البنايات والقباب التي كانت على بعض قبور الصحابة والأولياء ، وتحذيره إلباس الأولاد الحجب والتمائم من الفضة .

ويبدو ما يتناقله الناس عن تصرفاته أنه كان رجلا مزدوج الشخصية ، ظلت

مكة وظل أهلها يرزحون تحت كابوس حكمه نحو ربع قرن تقريباً ، فقد كانت ولايته عليها في أواخر سنة ١٢٩٩هـ ووافته المنية « بالطائف » في أواسط عام ١٣٢٣ وما أن انتشر خبر وفاته حتى أخذ اهالي مكة يهنىء بعضهم البعض .

وكان الوالي من طرف الحكومة العثمانية المشير « احمد راتب باشا » هذا الوالي طالت مدة ولايته نحو سبع عشرة سنة ، وكان الشريف عون قد استطاع أن يطويه تحت جناحه ، وان يشتري ضميره وسكوته عن كل ما كان يقع في البلاد .

مات الشريف « عون » كما قلنا ، وجريا على السوابق ، كلف الوالي « أحمد راتب باشا » الشريف علي بن عبد الله بن محمد بن عبد المعين بن عون القيام بأعباء الامارة ريثما يرفع الأمر إلى الباب العالي باسطنبول .

إمارة الشريف علي باشا

وكان أول عمل له ان قبض على معظم « الخزناوية» وسجنهم . كما قبض على بعض رؤساء المطوفين وصادر عقارات بعض « الخزناوية » وكلف قائمقامه بسماع شكاوى الأهلين ضد « الخزناوية » وابتز من بعض رؤساء المطوفين مما كسبوه أثناء ولاية عمه الشريف « عون » ، وظل قائما بأعمال الامارة بالوكالة نحو عام ، وعندما جاء التبليغ بتأصيله فيها قام أشياعه ، وعلى حد تعبير المكيين « محاسيبه » بعمل مهرجانات ليلية دامت سبع ليالي ، اتخذ فيها كل أنواع الملاهي والالعاب بما لم يسبق له نظير من قبل .

ظل الشريف أميراً لمكة نحو سنتين ونصف، لم تخل من تسلط على بعض حقوق الاهلين فقد استهدف أن يكون له عقار خاص ، فاستولى على عدة دور « بسويقة » كانت وقفا على بعض الأهلين ، وهدمها ، وأقام بدلها دكاكين ، واستولى على بضعة دور في « القشاشية »كانت في مقابل دار «باناجه»على يمين الصاعد الى « الغزة » وهدمها وبنى محلها خمسة دور ، أو عزل على حد تعبير المكيين على أحدث طراز عرف آنذاك كانت مدرسة الفلاح الى عهد قريب تشغل عزلتين منها كما استولى على مدرسة «بباب القطبي» آلت لعائلة من أسباط العلامة « قطب الدين محمد بن أحمد النهر والي المكي » أحد من أرخ لمكة ، وتعرف هذه العائلة « بيت القافية » ، عوضهم عنها داراً في «الشبيكة» صادرها من أحد

أخوة « على بو المعتوه » الذي اتخذه الشريف « عون » جليساً كما سبق القول بذلك ، هذه الدار لم يمض عليها بضع سنوات حتى تهدمت وأصبحت كومة من الاحجار لانها بنيت بالسخرة ، وسمعت أنه ألزم شيخ مشايخ الجاوي في عهد الشريف « عون » أن يقوم له بالانفاق على الدار الفخمة التي أنشأها في مزارع « بالطائف » ، وهي دار بنيت على الطراز التركي ولا زالت قائمة إلى الآن في وسط مزارع « شبرا » : أما الدكاكين التي كانت « بسويقة » والدوراتي « بالقشاشية » ومدرسة « باب القطبي » فقد زالت في هدمية توسعة المسجد الحرام وما جرّ من شوارع .

وخلاصة القول أنه لو طالت مدة إمارته لاستحوذ على الكثير من عيون دور مكة ، ولكن زمن إمارته جاء قصيراً كما سبق بيانه .

وفي عهده أزيل قفص النساء ، وهو الخشب الشيش الذي كان قائماً في الجهة الشرقية في الحصوة الموالية « لباب علي » الى جهة الباب الذي كان يعرف قديماً « باب الجنائز » ، وذلك في عام ١٣٢٥ هـ ، وقد وَهَمَ صاحب « تأريخ مكة » بأنه أزيل في عام ١٣٠١ هـ فقد كان موجوداً الى عام ١٣٢٥ هـ وقد شهده صاحب « مرآة الحرمين» في سنة ١٣٢٠ هـ وأخذ له صورة فوتغرافية ، وشاهده كثير ممن كان على قيد الحياة في عام ١٣٢٥ ومد في حياته الى الآن .

وفي عهد إمارته صدر أمر السلطان « عبد الحميد » بأن يقوم نفر من علماء مكة بزيارة امام اليمن «يحيى حميد الدين» واسداء النصح له بالكف عن مناوأة الدولة ، فان حروب اليمن كلفت الدولة العثمانية كثيراً من ارواح الجنود ، حتى كان يقول بعض الاتراك : إن أهالي الأنضول سوف يبعثون يوم القيامة من اليمن ، لكثرة من دفن منهم في ترابه .

وقد شهدت تمرد بعض الجنود الاتراك الذين جيء بهم لسوقهم الى اليمن واعتصامهم بالمسجد الحرام ، وقفل بعض أبوابه مما يلي « باب الزيادة » و «باب القطبي » سابقاً ولم يكن إخراجهم منه إلا بعد عناء .

إعلان الدستور
وخلع السلطان عبد الحميد خان

وفي شهر جماد الثاني عام١٣٢٦هـ الموافق شهر تموز(يوليو) ١٩٠٨ م اعلن الدستور في البلاد العثمانية. وكان مبدأ الثورة العسكرية من بلدة سالونيك، وحينما وصل الجيش الثائر الى اسطنبول لم يجد السلطان « عبد الحميد » من سبيل سوى الموافقة على ما يطلبونه ، فأبقوا على السلطان وكان الوالي على الحجاز حينئذ أحمد راتب باشا ، فتلكأ في اعلانه خشية وقوع اضطرابات في البلاد على حد زعمه ، فما كان من رجال الفرقة العسكرية ، وبعض موظفي الحكومة ، إلا أن قاموا بإعلان الدستور ، وقبضوا على الوالي « أحمد راتب » وكان وقتئذ « بجدة » فساقوه مخفوراً الى « قلعة جياد » بمكة وسجنوه بها .

أما أمير مكة الشريف علي باشا ، فقد أعلن الدستور وهو يصيف بالطائف ، فظل معتصماً به الى أن عين الشريف « الحسين بن علي » أميراً ووصل إلى مكة فاتخذ الوسائل لتهريبه الى مصر عن طريق ساحل « الرأس الاسود » على مقربة من « جدة » وقضى حياته « بالقاهرة » إلى أن توفاه الله .

أما « أحمد راتب » فقد طلبت الحكومة سحبه إلى « اسطنبول » وهناك حوكم من جملة من حوكموا من رجال الحكومة السابقة ، وصودر ما كان قد تملكه من عقار ، وعينت الحكومة والياً لمكة بدلا منه « كاظم باشا » كما عينت أميراً

لمكة الشريف « عبد الآلـه بـن محمد بن عون » ، ولكنه كان طاعناً في السن ، وقبل مغادرة الاستانة ببضعة ايام وافته المنية ، ولم تتم له الامارة ، وقد روى لي بعض من عرفت أن الشريف عبد الإله لما أسندت اليه الامارة صار في غاية النشوة والفرح . فقال له بعض خواصه والمقربين منه : « يا شريف ، إنك قد كبرت ، وإنك تعيش في « اسطنبول » عيشة هنيئة رضية ، مشمولا بعطف السلطان ورعايته فمالك وعناء الامارة في هذه الظروف ؟» .

فكان جوابه لهم :

« إن اليوم الذي أقود فيه الحجيج إلى عرفه ، « والنقرزان » يضرب خلفي ، وجماهير الحجاج محدقة بي ، ذلك اليوم ، بل تلك الساعة ، تساوي اسطنبولك هذه بجميع ما فيها » .

في هذه الفترة وقعت بمكة حادثة عرفت بحادثة « القبوري » ، وسببها أن هيئة «الاتحاد والترقي»التي تشكلت بمكة فرعاً لحزب الاتحاد والترقي الذي كونه الثوار في اسطنبول رأت وضع ضريبة على كل ميت يدفن بالمعلا لتعمير المقبرة وتحسينها، وطلبت من رئيس العملة بالمقابر القيام بذلك ، فما كان منه إلا أن خرج من دار الحكومة بالحميدية يصيح : باطل باطل . . .

فتجمع عليه الناس وذكر لهم ما بلغ بما استثارهم ، فتجمعوا وأخذوا يطلقون الرصاص على مقر الجندرمة « بالصفا » ، ولكن تلك الزوبعة لم تدم طويلا سوى بضع ساعات ، قبض فيها على « رئيس القبورية » وعدد من الناس وانتهت بسلام .

غير أن صداها بلغ « الاستانة » مما دفع رجال التنفيذ بها لان يعجلوا بتعيين أمير لمكة ، وكان الشريف « الحسين بن علي » آنذاك « باستانبول »عضواً في مجلس شورى الدولة ، فوقع اختيارهم عليه ، ولما عرضوا الأمر على السلطان « عبد الحميد » لم يوافقهم ، فقد كان على علم بمـا تنطوي عليه نفس « الحسين »

وآماله ومطامعه ، ولكنهم أصروا على توليته فقال لهم :

« انني ابرأ من تبعة كل ما سيعمله هذا الرجل » .

فلم يأبهوا لقوله، وعينوه أميراً لمكة، وقد وهم صاحب «تأريخ مكة» في قوله إن الشريف «الحسين بن علي » قد تعين أميراً على مكة بموافقة السلطان «محمد رشاد خان»، بل تمّ تعيينه على ما ذكرت في عهد ثورة الاتحادين، وقبل خلع السلطان « عبد الحميد » في إبريل سنة ١٩٠٩ م . أما السلطان « محمد رشاد » فانه ولي السلطنة في عام ١٣٢٧ هـ والشريف الحسين تعين أميراً لمكة في آخر عام ١٣٢٦ هـ ووصلها في شهر ذي القعدة سنة ١٣٢٦ ، وباشر قيادة حجيج ذلك العام .

بواعث الإنقلاب وما سبقه من مقدمات

وقبل ان نتكلم على إمارة الشريف« الحسين بن علي » رأيت أن ألمّ ببواعث الانقلاب التركي الذي أدى إلى خلع السلطان المرحوم « عبد الحميد خان » ، فالشيء بالشيء يذكر .

في أواسط وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي بلغت الغارة على العالم الاسلامي من الدول الأوربية ذروتها ، وبلغت الحكومة العثمانية من الضعف ما جعلها هدفا وعرضة للتعدي عليها واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من ممالكها، وكانت الـدول الاوروبية الكبرى قد انقسمت الى معسكرين : هما معسكر يضم النمسا والمانيا وايطاليا ، ومعسكر يضم بريطانيا وروسيا وفرنسا .

ولما كان رأس الحية في العداء للمسلمين هي بريطانيا ، بل هي كالخمر أم الخبائث بالنسبة للمسلمين[1] ، رأى السلطان « عبد الحميد» ان يتجه إلى الجامعة الأسلامية ، ويحقق معنى الخلافة ، وان يجنح إلى معسكر المانيا لعله يجد متنفسا . فأبدى صداقته لأمبراطور المانيا « ويلهلم الثاني » ؛ وكان من

---

(١) أليست هي صاحبة وعد بلفور ؟ أليست هي التي سلّحت اليهود وجرّدت عرب فلسطين من السلاح ، ومكنت اليهود من الهجرة إلى فلسطين ؟ أليست هي التي كذبت على العرب ؟ أليست هي التي قضت على حكومة سراج الدولة في إقليم البنغال ؟ أليست هي التي قضت على امبراطورية المغول الإسلامية في الهند ؟ وغير ذلك من استلاب ممالك المسلمين وسلطانهم ؟

نتائج هذا الجنوح أن أخذت حكومة المانيا في مصانعة الحكومة العثمانية ، وأول ما بدأت به من ذلك من « سكة حديد الشرق » التي بدأت من « المانيا » وانتهت في « حيفا » ، على أن يمد لها إلى « العراق » . فقد بدأ أولو المطامع يشمون رائحة بترول الموصل، وعن طريق هذا الخط ، زار « امبراطور المانيا » « استانبول » ومنها إلى « سوريا » ، ووقف على قبر « صلاح الدين الأيوبي » في « دمشق »وحيَّاه وحيا فيه البطولة والعدل[1] . مما كان له صدى هائل في العالم ، وكان السلطان « عبد الحميد » قد اعتزم ربط البلاد العربية بخط حديدي بدأه من « دمشق » وأوصله الى « المدينة المنورة » ، على أن يمتد هذا الخط إلى « مكة » « فصنعاء » « باليمن » ، واستعان فيه بتبرعات المسلمين وجعله وقفا إسلاميا ، وأخذت دعوته إلى الجامعة الأسلامية تشتد وتقوى ، وكان الأنكليز قد استطاعوا أن يحتلوا أغلب سواحل الجزيرة العربية الشرقية ، مبتدئين « بعدن » ومنتهين « بالكويت » ، كما احتلوا جزيرة « كمران » أمام الساحل اليماني ، وعلى مقربة من سواحل « الحجاز » .

ولما كانت الحكومة العثمانية تتكون من عدة قوميات وعناصر وطوائف دينية ، سعت « انكلترا » بدس الدسائس والفتن من داخل الامبراطورية ، فأهاجت الأرمن ليشغبوا على الحكومة ، ولكن السلطان « عبد الحميد » ، رحمه الله ، استطاع ان يضرب الثوار الأرمن ، وان يخمد فتنتهم بكل شدة .

وقد كان في بلدة « سالونيك » من « جزيرة البلقان » جماعة من اليهود المتمسلمين ، يطلق عليهم الاتراك « الدونمة » ، فقد كانت هذه الفئة تتظاهر بالاسلام ، وبهذه الوسيلة تغلغل نفر منهم في كثير من مرافق الدولة وبعض المراكز الحساسة ، وما زالت الدول الاوروبية ذات المطامع تبذل كل طريقة لاستخدامهم في أغراضها ، فتشكل بطريقة سرية حزب من هذه الشراذم والفئات

---

(١) وفي ذاكرتي بيت من قصيدة للمرحوم أحمد شوقي هو :

« عظيم القوم من حيا العظاما   وكرمهم ولو كانوا عظاما »

وممن اغتر بهم من الترك دعي « حزب تركيا الفتاة » . بزعم تحرير السلطنة من استبداد السلاطين العثمانيين ، واستطاع الحزب استمالة قواد الفرقة العسكرية المرابطة هناك ، فزحف فريق منهم على « استانبول » واحتلها ولم يسع السلطان « عبد الحميد » إلاّ الموافقة والنزول على ما أبدوه من مطالب كما سبق القول .

وبعد بضعة أشهر ثار على أوضاع « حزب تركيا الفتاة » جماعة من أهالي استانبول فيهم كثير من العلماء والقضاة والأعيان باسم « الجماعة المحمدية » ، غير أن فيلقاً قام من « سالونيك » تحت قيادة « محمود شوكت باشا » ، ويقال انه بغدادي الأصل ، وزحف على استانبول وقضى على ثورة الأهالي .

وسعى الحزب بعد ذلك لاستصدار فتوى من شيخ الاسلام وقتئذ بخلع السلطان « عبد الحميد » فإنهم اتهموه بأنه المحرك لهذه الجماعة الثائرة ، وخلعوه ، كما سبق القول ، وذهبوا به إلى « سالونيك » هو وعائلته تحت الحفظ ، وظل سجينا بها إلى ان نشبت الحرب بين الحكومة العثمانية ودول البلقان ، فنقلوه الى استانبول وظل بها إلى ان توفاه الله .

ان عداء أمم الفرنجة وبغضهم للاسلام والمسلمين قديم، ولكن ازدياد الحقد والبغضاء بدأ منذ ان استولى السلطان « محمد الفاتح » على إستانبول ، وقضى على الحكومة البيزنطية بها ، وطرق حفيده أبواب « ڤينا » عاصمة « النمسا » وتسرب الاسلام مع نفوذ السلاطين إلى مقاطعة « الأفلاق » و« البغدان » برومانيا وفشا في شبه جزيرة البلقان .

وقد عدد المرحوم الأمير « شكيب ارسلان » نقلا عن مؤلف لبعض الفرنجة مائة مشروع في القضاء على نفوذ السلطنة العثمانية في أوربا ، ولكنها كانت تفشل ويتحطم بعضها على صخرة مدينة « استانبول » ، ومَنَ مِنْ حكومات الفرنجة تكون من نصيبه، نظراً لموقعها الاستراتيجي المهم، وآخر فصل لمدينة « استانبول » في بقاء الحكومة التركية ، كان بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد احتل « استانبول » ثلاث دول هي « بريطانيا » و« ايطاليا » و« فرنسا » أما « روسيا »

فكانت قد غرقت بالثورة البلشفية ، وكانت كل من الدول الثلاث تطمع في الاستيلاء عليها ، أو الانفراد بالنفوذ على ما تبقى من أثر للسلطة بها ، وكان أول جيش انسحب منها جيش الحكومة الطليانية ، ورغم محاولة الانكليز ، للقضاء على الثورة الكمالية بتشجيعهم حكومة اليونان على احتلال الانضول ، فإن الثوار الاتراك استطاعوا ان يقذفوا بالجيش اليوناني الى البحر ، واضطرت الحكومتان الفرنسية والانكليزية ان توافقا على تحرير « معاهدة سيفر » التي عقدت مع الحكومة العثمانية إلى « معاهدة لوزان » مع الثوار الاتراك وظلت استانبول بيد الاتراك ، واستعادوا « بمعاهدة لوزان » كثيراً مما كان سلب منهم « بمعاهدة سيفر » .

وكان قلق الانكليز شديداً من انتصار الاتراك وطردهم لليونان بعد أن كانت الحكومة التركية على شفا جرف هاو ، ففكرت في استئناف الحرب مرة اخرى ، مما جعل « مصطفى كمال » قائد الحملة التركية يبعث « عصمت إنونو » إلى « لندن » ، فقابل المسؤولين من رجال الحكومة فيها وفي مقدمتهم « اللورد كيرزون » وزير الخارجية ، وقال له كما جاء في « مجلة فلسطين » (التي تصدر في الأردن في العدد ١١٥ من السنة العاشرة لشهر شعبان سنة ١٣٩٠) : « لقد كنا امبراطورية عظيمة فكنتم تحذروننا ، ولكننا اليوم بعدما غرقت دولتنا التركية المحضة ، ولم يعد لنا من الخطر ما تخشونه ، فلماذا لا تتركوننا نعيش مستقلين في أمن وسلام » .

ورأى « مصطفى كمال » الذي كان يشعر بالحرج وخطورة الظرف ، والذي ذاق لذة التربع على كرسي الحكم أن يرضخ للضغط ، وان يتعهد لانكلترا وحلفائها بكل ما يطمئنهم إلى ان استقلال « تركيا » لن يسبب لهم في المستقبل ما يحرج موقفهم ، ويقض مضجعهم في مستعمراتهم ، وعندئذ أملت انكلترا شروطها المعروفة بشروط « كروزن » الاربعة وهي :

١ ـ ان تقطع تركيا صلتها بالإسلام .

٢ ـ ان تلغي الخلافة الإسلامية .

٣ ـ ان تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .

٤ ـ ان تختار تركيا لها دستوراً مدنيا بدلا من الدستور العثماني المستمد من احكام الشريعة الاسلامية(١) .

وقد صادف ما أملاه الانكليز من شروط،هوى في نفس المتسلطين آنذاك ، على الحكم ، لضعف تمسكهم بالدين الإسلامي كما أثبت الواقع بعد ذلك ، مما أجروه تنفيذاً لهذه الشروط ، فإنهم ألغوا الخلافة ، وعزلوا السلطان « عبد المجيد خان »وألغوا استعمال الحروف العربية ، واستعاضوا عنها بالحروف اللاتينية ، ومنعوا الأقامة والآذان في المساجد باللغة العربية ، بل وألغوا تعليم الدين والقرآن في المدارس ، واستمدوا دستورهم من الدستور السويسري المدني ، وغير ذلك مما استلزمته الشروط الانكليزية .

ان عداء الإنكليز للإسلام والمسلمين واضح وضوح الشمس ، وقد سبق « كرزون » فيما أملاه من شروط المستر « غلادستون » رئيس وزراء بريطانيا ،عندما صرح في مجلس العموم البريطاني حين ألقى خطابه عن « المسألة الشرقية » ، فقد قال : « إن المسألة الشرقية لا يمكن حلها ما دام هذا الكتاب موجوداً » . ورفع بيده ذلك الكتاب فإذا هو القرآن الكريم .

ومع ذلك فإنه لا زال في المسلمين من يغتر ويحسن الظن بالانكليزي ، بل وبسائر الحكومات الغربية ، ورحم الله الأسكوبي إذ يقول :

يا آل عثمان فالمغرور من غرا   بأهل أوربة أو عهدهم طرا
أتأمنون لموتورين دينهم   ان لا يروا منكموا فوق الثرى حرا

---

(١) حكى هذا الكلام ، للسيد « أمين الحسيني » مفتي فلسطين السابق ، « موسى كاظم باشا » رئيس الوفد الفلسطيني عام ١٩٢١ ، إلى لندن لمفاوضة الأنكليز في خصوص « وعد بلفور » عن « عصمت باشا إنونو » : « مذكرات السيد أمين الحسيني » .

ومن يطلب الواسع من البيان في هذا الذي ذكرت فليرجع الى كتاب « حاضر العالم الاسلامي » بتعليقات الأمير « شكيب أرسلان » ، والى كتاب « المسألة الشرقية » الذي ألفه المرحوم « مصطفى كامل » الثائر المصري ، والى كتاب « الغارة على العالم الإسلامي » بترجمة السيد « محب الدين الخطيب » و« مساعد الباقي » ، وإلى « تاريخ الحرب العالمية الأولى »فان فيما ذكرت الكثير مما ألمعت إليه .

إمارة الشريف الحسين بن علي

قلنا إن الشريف الحسين بن علي وصل إلى مكة في أواخر ذي القعدة ١٣٢٦هـ ، ومنذ وصوله أخذ يهيء البلاد لما كان يكنه ، فقرب إليه كثيراً من أعيان البلاد ورؤساء القبائل ، وكان يبدي الكثير مما يحبب فيه ، والحق يقال ، فقد كان عفيف الذيل مستقيما عن غيره ممن سبقه في الأمارة .

وكان من أوليات أعماله بمكة أن انشأ على بعض دكاكين له « بالمسعى » داراً جعلها مدرسة ، نقل اليها مبدئيا مدرسة الشيخ « محمد خياط » وسميت « المدرسة الخيرية » وأعاد تشكيل هيئة « عين زبيدة » التي أنشئت في عهد الوالي « عثمان نوري باشا » ، وبنى مقراً لها على مورد الماء «بازان المسعى » ، وأحيا البستان الذي هدمه الشريف « عون » وبنى بطرفه داراً جعلت غلتها لمصالح العين ، كما سبق القول بذلك ، وكلف بضعة نفر من العلماء بتدريس مناسك الحج ، وألزم المطوفين بحضور دروس المناسك ليتفقهوا فيها ، وخصص لكل مدرس مرتباً من جيبه الخاص ، وكثيراً ما كان ينصح الأهالي في مجالسه الخاصة ، وليالي سمره ، وفي أيام الجمع ، عندما كان يذهب أعيان الأهالي للسلام عليه (فقد كان ذلك من التقاليد المرعية من القديم) بأن ينصرفوا إلى ما هو أصلح لهم وأن يعكفوا على ما هو أليق وأصلح من حضور حلقات الدروس بالمسجد الحرام . لأنه قد صاحب إعلان الدستور والشعارات التي كانت تطلق

« حريت عدالت مساوات » كثير من الدعايات التي كانت تبث باسم « جمعية الاتحاد والترقي » ، فقد ألف بعض شباب الأتراك من الموظفين فرعاً لها بمكة ، وكان الداعية النشيط للجمعية شخصا يدعى « عبد الله القاسم » . اما العقل المدبر فشخص يسمى « عبيد الله أفندي » ، كان كما يقال على جانب من الثقافة والمعارف والإلمام بكثير من العلوم . وفي الفترة ما بين إسناد إمارة مكة إلى الشريف « الحسين » ، واعلان الدستور ، كانت الجالية التركية من موظفين وغيرهم في غاية النشوة والابتهاج ، وقد كانت للحكومة مطبعة تصدر سنويا نشرة باسم « سلمنامه حجاز ولايتي » ، فأصدرت معها جريدة أسبوعية باسم « حجاز » ، كان الامر مقصوراً فيما تنشره عن اخبار موظفي الولاية ، وبعض البيانات الرسمية ؛ فلما تأسس فرع الجميعة أخذ بعض افرادها يكتب فيها بعض مقالات عما سوف يجنيه الرعايا في ظل الدستور ، ثم رأى الفرع ايضاً ان ينشىء جريدة خاصة له سميت « شمس الحقيقة » ، أسندت رئاسة تحريرها الى « عبد الله قاسم » الآنف الذكر ، أحد كتاب الولاية ، وكان ما ينشر فيها من غير الأخبار بعض مقالات للدعاية للحزب . إلَّا ان بعضها محرر بكلمات عربية في صيغ تركية ، فلم يكن لكلا الجريدتين أثر يذكر من الوجهة الأدبية والبلاغية .

كما رأت الجمعية إنشاء مدرسة ، فأنشأت مدرسة سمتها « برهان وترقي مدرسة سي » جعلت مقرها مبدئيا في « بيت ابن شحبر » بجوار دار الأشراف « آل منصور » ، في الطريق العام إلى « محلة القشاشية » ، ثم بعد مدة بنوا لها بناية بجوار « بئر بليلة » « بجياد » ، وهي التي أمست في ملك الشيخ « صدقة كعكي » ، جعلها مقراً لإدارة مشروب (الكعكي كولا) القائم بها الآن .

هذا النشاط وهذه الدعاية من الجمعية لفتت نظر بعض متنوري أهل البلاد ، على قلتهم للاهتمام بما يجري من حوادث في العالم ، وكانت تتسرب بعض الجرائد المصرية والبيروتية إلى البلاد، فيعكف عليها بعض الأهالي جماعات في سمرهم ، ولم يكن ذلك مما يروق للأمير الشريف « الحسين » فقد

كان يحرص كل الحرص على ان يبتعد الأهالي عن الاتصال بالهيئة التركية الحاكمة ، وعلى الحد من نفوذ الوالي التركي ، وقصر نفوذه ، وتصرفه في نطاق الموظفين الأتراك ، وما يعود لتشكيلاتهم الخاصة : كالفرقة العسكرية ، والادارة المالية ، وحاصلات الجمارك ، وما إلى ذلك . . .

أما الأهالي وقضاياهم ومنازعاتهم ، والمطوفون ، وسائر الإدارات المتعلقة بشؤون الحجاج ، فلم يدع سبيلا لتدخل هيئة الولاية في شيء منها ، والويل لمن يغلط ويتصل بالإدارة التركية في أي شأن من الشؤون . والأهالي مهيئون لذلك نظراً لأن جمهرتهم لا تعرف التركية ، وقد استغرق فيهم التعلق بالإمارة فهي سريعة البت في قضاياهم ، والتفاهم واسع بين الحاكم والمتحاكم ، كما أشرت إلى ذلك من فصل سابق ، ولهذا فقد كثر تعدد الولاة في مدة إمارته حتى بلغ عددهم ستة ولاة ، آخرهم « غالب باشا » الذي وقعت في عهده ثورة الشريف « الحسين » .

قلنا إن الشريف « الحسين » كان واسع الآمال والأماني منذ مقامه « باستانبول » عضواً في مجلس الشورى ، ولقد تدغدغت عواطفه وشبت آماله لما كان يطمح إليه ، فإن الانكليز ما فتئوا منذ أخذوا يهيجون الأقليات في السلطنة العثمانية ، يدأبون على إثارة عواطف العرب ، وجرهم إلى ما يريدون من خلخلة السلطنة من الداخل ، وإبعاد العرب عن الترك ، وإنزال الشقاق بينهم ، فكثيرا ما كان يلوح ساستهم ومستشرقوهم بحق العرب في الخلافة ، حتى ان المستر « بلنت » المستشرق الانكليزي الذي أقام بمصر في عهد « كرومر » ، وكان الشيخ « محمد عبده » على صلة صداقة به ، أصدر رسالة له في مثل هذه الشؤون صدرها بيت من الشعر جاء فيه :

« لا تقنطوا فالدر ينثر عقده ... ليعود أكمل في النظام وأحسنا »

يلمح بذلك إلى هدم الخلافة العثمانية ، وإنشاء خلافة عربية .

إلا ان مجرى الحوادث كان يحولهم بعض الشيء عما كانوا يتخذونه لفض الخلافة وتفتيتها ، فإنهم على عهد السلطان « عبد الحميد » كانوا يسعون بكل الوسائل في توزيع السلاح ونشره في الجزيرة العربية، وكانت بلدة « مسقط » بؤرة لهذا العمل ، ولكنهم بعد خلع السلطان « عبد الحميد » وإبعاده عن مجرى الحوادث رأوا العكس من ذلك ، ورأوا انه لم يعد من مصلحتهم انتشار السلاح فقد انتعشت آمالهم بأنهم سيستولون على الجزيرة ، ويختصون بها . وفي عام ١٣٢٧هـ . حج الخديوي « عباس حلمي » خديوي مصر ، وقيل يومئذ إن الامير أسرَّ للأمير خبراً هاماً[١] .

وفي عام ١٣٢٩ هـ في شهر تموز الموافق أكتوبر سنة ١٩١١ م اعتدت الحكومة الايطالية على « طرابلس الغرب » ، وأعلنت الحرب على الحكومة العثمانية ، وضربت « جدة » من بوارج كانت لها في البحر الأحمر، فإن لها فيه إقليم« أريتريا » وثغر « مصوع » في ذلك العهد ، وكانت الحكومة قبل ذلك داخلت السيد « محمد الأدريسي » المنشق عن الحكومة بمنطقة « جيزان » و «المخلاف السليماني »، وأمدته بالسلاح ، مما مكنه من محاصرة « أبها » ، وكان المتصرف فيها وقتئذ «سليمان شفيق» باشا فانتهز الشريف « الحسين » هذه الفرصة وعرض خدماته على الحكومة العثمانية وأنه مستعد لأسعاف متصرف « أبها » وإزالة الحصار عنها ، وتجهز بجيش نظامي من الأتراك ، ولفيف من البادية ، وسلك طريق الساحل إلى أن حاذى « ديار بن شهر » ، ومن هناك صعد إلى « السراة » وكان موفقاً في فك الحصار عن « أبها » ، ولما عاد إلى مكة لم يعد من طريق الساحل ، بل عاد من الطريق الشرقي عن طريق « بيشة » و« رنية » و« تربة » ، وقد سجّل المرحوم الشريف« شرف بن عبد المحسن البركاتي » هذه

---

(١) وعلى ذكر عام ١٣٢٧ هـ فإنه في نهاية شهر ذي الحجة ، وبالتحديد في يوم ٢٧ منه ، دهم مكة سيل عظيم أمسى معه المسجد الحرام وكأنه بحيرة من الماء ، فهب الأهلون لنزح الماء منه ، وشاركهم في ذلك ، تشجيعاً لهم ، الشريف « الحسين » بذاته ، وكأني أشهده وهو مشمر عن ذراعيه يجرف من الماء بجردل عند « باب جياد » المواجه « للحميدية » (دار الحكومة التركية) ، ويقذف به إلى الشارع .

الرحلة والمسيرة في كتيّب طبع بمصر لأول مرة ، ثم أعاد طبعه الوجيه الشيخ « محمد نصيف » .

وفي عام ١٣٣٠ هـ ، وبتحريش الأنكليز وبعض دول أوربا ، وقفت الحرب بين الحكومة العثمانية ، ودول البلقان ، وفي أثناء نشوب الحرب صرح وزير خارجية الأنكليز أن خريطة البلقان لا تقبل التغير والتبديل ، فلما خرجت الحكومة العثمانية مهزومة ، صرح هذا الوزير نفسه بأنه لا يمكن أن يحرم المنتصر من ثمرة انتصاره ، وللمرحوم « احمد شوقي » قصيدة يندب فيها ما سقط في يد حكومات البلقان من ولايات كانت بقيت تحت الحكم العثماني ، جاء في أولها :

يــا أخت أنــدلس عليــك ســلام　　　هــوت الخــلافــة فيــك والاســلام

وفي عام ١٣٣٠ هـ كان بعض قبائل « عتيبة » قد تمرد على إمارة مكة ، فتصدى الشريف « الحسين بن علي » المشار إليه لتأديبهم وغزوهم ، واستعان بالحكومة التركية فاعانته ، وقام بالغزو وبالتصادف ان الامير « سعد بن عبد الرحمن » شقيق الأمام « عبد العزيز » أمير الرياض (جلالة ملك المملكة العربية السعودية فيما بعد) ، كان قد خرج للصيد كما سمعت ، وأمعن في ديار « عتيبة » فاستطاع الشريف « الحسين » في هذا الغزو ان يقبض عليه ، ولكن الموضوع تسوى بينه وبين الامام « عبد العزيز » واطلق سراح الأمير « سعد » وتحسنت العلاقات نوعا ما بين الحكومة العثمانية وبين الإمام « عبد العزيز » . بعد ان كانت تعكرت بسبب تعرض بعض قبائل « نجد » لولاية الأحساء ، فيما أظن ، فقد كانت تابعة للحكومة العثمانية .

وفي هذا العام، كما قلنا سابقا ، كانت حرب البلقان وخرجت الحكومة العثمانية منها مهزومة ، فنشط الكثير من الهيئات العربية التي تشكلت للمطالبة بحقوق العرب ، وكانت احدى الهيئات الضالع معها الشريف « الحسين » وجهت أحد الأمراء المصريين ، وكان من أعضاء الجمعية ، الى لندن مفوضا في الاتفاق مع الانكليز باسم العرب على أن الانكليز يقدمون السلاح ، ويتعهد العرب بالانتقاض على الدولة ، ويكونون حلفاء للانكليز في المستقبل .

ولما عرض الأمير المصري ذلك على الانكليز تلكأت وزارة الخارجية البريطانية في قبول الطلب، ولم تكتم السبب، بل صرحت له أن الانكليز تريد هي الإستيلاء على بلاد العرب، فلا يوافق مصلحتها أن تعطي جزيرة العرب سلاحاً.

وفي أوائل الحرب العالمية الأولى التي أعلنت في ٢ رمضان ١٣٣٢ هـ الموافق تموز سنة ١٩١٤ م راجع الشريف «الحسين» الانكليز في موضوع التحالف معهم باسم العرب فلم يستجيبوا لرغبته أملاً في استغنائهم عنه، ولكن لما تمطت عليهم الحرب بصلبها وناءت بكلكلها، ودخلت الحكومة العثمانية الحرب في صف خصومهم شعروا بالاحتياج الى العرب وعادوا إلى قبول مطالب الشريف « الحسين »(*).

فإن الألمان اندفعوا كالسيل الجارف واستطاعوا أن يخرقوا حصون «فردان» بفرنسا في أيام. وان يضربوا بشدة في كل اتجاه.

وفي نوفمبر سنة ١٩١٤ م ذي الحجة سنة ١٣٣٢ هـ يوم الوقوف بعرفات، أعلنت الحكومة العثمانية دخول الحرب في صف الألمان، كما سبق القول، فجدّ الانكليز في مفاوضة الشريف، وضربوا الحصار على مداخل «الحجاز» وتقطعت السبل البحرية إليه ولم يعد إلاّ طريق سكة حديد «المدينة - دمشق» ومضى عام ١٣٣٣ هـ ومكة تعاني شدة من غلاء الأرزاق، فقد قامت الحرب والبلاد تكاد تكون خالية من أي احتياطي فيها.

ولنقف قليلاً لنعود إلى الوراء لذكر بعض أعمال الشريف «الحسين» ومناهضته لكل عمل إصلاحي أو تقدم في البلاد أمام إمارته.

فقد أراد بعض تجار جدة في سنة ١٣٢٩ هـ وهو المرحوم «أحمد باديب» تأسيس شركة لتسيير السيارات بين «جدة» و«مكة»، وفعلاً اتخذ الإجراءات اللازمة لذلك، وأخرج أسهم الشركة لمن يرغب الاشتراك، وجعل السهم بعشرة

(*) في مثل هذا الموضوع تحسن مراجعة تواريخ الثورة العربية الكبرى، فهناك الخبر اليقين.

جنيهات على أن يدفع المساهم النصف مقدماً، وإذا بدأ العمل يدفع النصف الثاني، وفعلاً تقدم للاشتراك عدة أشخاص، وأخذ المذكور في الاتصال ببعض مصانع السيارات، وفي أثناء ذلك فوجىء بشكوى إلى الأخير من أحد المشتركين، وكان اشتراكه بسهم واحد، دفع نصف ثمنه فقط، يقول في الشكوى: «إن أحمد باديب» احتال علينا لأكل أموالنا وما أشبه ذلك من اتهامات أغضبت الرجل، وأخيراً فهم أن الأمير لا يرغب قيام مثل هذه الأشياء في البلد، وأن الرجل الشاكي موعز إليه بالشكوى، فحل الشركة وأرجع ما دفعه المشتركون إليهم، وخرج هو من هذه العملية بخسارة ما تكلفه من التأسيسات الأولية؛ وحجة الشريف الحسين في ذلك أن تسيير السيارات ينقطع به مورد رزق للبادية وأصحاب الجمال.

وليته كان حياً فيشهد أو يسمع، على الأقل أن ٧٠ ٪ من سائقي السيارات هم من قبائل حرب وغيرها من القبائل، «فالحاجة تفتق الحيلة» كما يقولون.

وفي عام ١٣٣٠، جلب بعض السوريين مصنعاً للثلج، والطحين، ونشر الأخشاب؛ فقعد لهم الشريف «الحسين» بالمرصاد وعاكسهم، ولم ييسر لهم أعمالهم إلى أن شبت الحرب، وثار الشريف «الحسين» على الدولة. وفي أوائل أيام الثورة هجم البدو على المصنع وأتلفوا بعض آلاته، ونهبوا البعض؛ وكان أحد الأثرياء المحبين المدعو «جان سيت كندواني» جلب سيارة فسلط الشريف عليه من حرقها له.

وسمعت أن بعض أفراد الجالية الهندية تقدم بطلب الإذن بإنشاء مصنع للقازوزة ونوه ببعض منافعها فشرح له على معروضه [ماء زمزم لما شرب له].

وعلى ذكر القازوزة، فقد فاتني في قسم المشروبات أن أذكر أن مكة عرفت القازوزة (والآيس كريم) من عهد الأتراك. فإن بضعة نفر من الهنود كان يصنع الآيسكريم، والثلج بأبسط طريقة عرفت، ويصنع أيضاً القازوزة، وإنما في نطاق ضيق جداً بقيمة فاحشة بالنسبة لذلك العهد، وليس كاليوم.

قلنا أن الحكومة العثمانية أعلنت الحرب في ذي الحجة ١٣٣٢ هـ، وقد نشطت المخابرات بين «الشريف» وبين بعض الهيئات العربية بالشام من جهة، وبين «الشريف» وبين نائب ملك بريطانيا المقيم بمصر من جهة أخرى وقد انتهت الأولى بأن يفوض الشريف «الحسين» بمفاوضة الإنكليز باسم العرب، وانتهت الثانية مع نائب الملك بثماني رسائل استغرق تداولها نحو سبعة أشهر، حددت فيها المملكة العربية في المستقبل، كما أيدت بريطانيا زعامة الشريف «الحسين» الدينية والسياسية للعرب، عرفت هذه الرسائل «برسائل مكماهون ـ حسين»، وهي رسائل تبين عندما جد الجد وقلب الحلفاء أو الإنكليز والفرنساويون ظهر المجن للعرب، إنها رسائل لم تكن تساوي الحبر الذي كتبت به.

في هذه الأثناء استحكمت المجاعة بمكة وأصبح الكثيرون لا يجدون مايتبلغون به، مما دفع الحكومة العثمانية أن تجلب من سوريا كمية من الحنطة، وأن تخصص مبلغ ستين ألف جنيه عثماني لتوزع على أرباب الأسر فرضاً، كل بحسب حاجته، وتشكلت بذلك هيئة لتقدير حاجة كل أسرة من الحنطة والنقد، ولكن، مع الأسف، تصدى بعض العربان ونهب قسماً من الحنطة أثناء نقلها من ««المدينة» إلى «مكة» وجاء توزيع النقد على قرب وقت اندلاع الثورة، فلم يوزع من المبلغ سوى الثلث تقريباً، ولكن الشريف «الحسين» بعد الثورة وزع قسماً منها على بعض الأهالي.

وفي أثناء ذلك ولما كانت الحكومة العثمانية أعلنت باسم الخليفة السلطان «محمد رشاد» الجهاد العام، ودعت المسلمين للمشاركة في الحرب، أخذت الحمية بعض أهالي محلة «الشامية»، وهو المرحوم «عبد الرحيم رشيدي» فجلب طبلاً كبيراً يقول عنه المكيون (الزير) ووكل به من يضرب عليه تهيجاً للناس، وخصص من يكتب اسم من له رغبة في الإنخراط في سلك المجاهدين، لأن الحكومة كلفت الوالي، وهو يومئذ «وهيب باشا» ان يسافر بمن يتجمع معه من المجاهدين للمرابطة في سيناء على أمل الهجوم على مصر واجتياز قناة السويس.

ولما كان ذلك يناقض المبطون لدى الأمير طلب الشيخ «عبد الرحيم رشيدي» وزجره، مما اضطره أن يتجنب ما بدأه ويلغيه، وسافر «وهيب باشا» بمن معه من الجنود، والقليل القليل ممن دفعته حميته، للجهاد على أن الشريف «الحسين» سيلحق به بتجمع الجهاد تحت إمرة أحد أبنائه ولم يقع بالطبع شيء من ذلك.

وما أن انتهت المخابرات بين الشريف والانكليز حتى بدأ الشريف يتهيأ لإعلان الثورة، فجمع نحو ثمانية وعشرين نفراً من أهالي مكة، ممن تلجلج ألسنتهم بما لا يعنيهم، على زعمه، وحبسهم ، وظلوا في السجن إلى ما بعد الثورة ببضعة شهور.

وفي هذه الأثناء أيضاً اغتيـل في طريق الطائف المدعو «حسن خان» لأنه كان يتعرض لما لا يعنيه، وفي فجر التاسع من شهر شعبان سنة **١٣٣٤** هـ يوم سبت، ومع أول تكبيرة لآذان الفجر، أطلق الشريف «الحسين» من قصره بقصر الحكم« بالغزة »أول رصاصة إيذاناً بالهجوم على المعامل والمؤسسات الحكومية التركية بالبلدة، وسرعان ما استسلمت دار الحكومة [«الحميدية»] ومركز الشرطة (كركون الصفا) لأنه لم يكن بهما إلا بضعة نفر من الشرطة وتلتهما في الاستسلام مدينة «جدة» لأن البوارج الإنكليزية كانت قائمة على مقربة من الساحل، فأخذت تطلق مدافعها على مقر الحامية، وظلت قلعة «أجياد» تقاوم وتطلق من مواقعها على قصر الحكم وعلى بضعة دور في «أجياد»»، اتخذها بعض رجال الثورة لضرب القلعة منها بالرصاص، وقد شبت النار في الدور المذكورة مما أدى إلى تهدمها وخرابها. أما قصر الحكم فلم يصب إلا ركن منه، فحصل لبعض أحجاره تخلخل وقد أخطأت بعض المرميات من القلل، فأصابت ركناً من أركان الكعبة، واحترق جانب من كسوتها مما يلي الركن، وسرعان ما تسارع الناس إلى طفي الحريق دون أن يتعرض لهم رجال المقاومة «بالقلعة» ولكنهم ظلوا يضربون القصر، ولم يرتاح «الشريف» من هذا الضرب، بل ظل ينتقل من مكان إلى مكان،

وبمجرد استسلام حامية «جدة» نزل بعض رجال البواخر الإنكليزية إلى جدة، وأصبح اتصال الإنكليز اتصالاً مباشراً مع رجال الثورة، والشريف؛ وكان بعض البواخر المحملة بالأرزاق مهيأة لإنزال حمولتها، مما انجلت به الضائقة والمجاعة التي سببها حصار الإنكليز للساحل.

ولما كانت حامية القلعة لا زالت مستعصية، وعجز الثوار عن اقتحامها، طلب الشريف من الإنكليز أن يمدّوه ببعض المدافع ومن يحسن الضرب بها، فجلب الإنكليز له بضعةنفرمن الجنود المصريين المعسكرين في «بورت سودان» ومعهم مدفعان صغيران ينصبوهما على جبل «أبي قبيس» وجبل «عمر» في مواجهة القلعة وظل المدفعان يضربا القلعة حتى أحدثا في جدارها ثغرة مما شجع البدو المهاجمين على الزحف على القلعة . ويظهران الذخيرة التي كانت لدى الحامية قد نفذت فإن الزاحفين تمكنوا من الوصول إلى باب القلعة المغلقة ، وشبوا عليه النار ، وتمكن الجريء من الثوار من الدخول من الثغرة التي أحدثها ضرب المدفع بجبل « أبي قبيس » وتبين بعد اقتحامها أن الحامية التي بالقلعة لم يتجاوز عدد أفرادها الإثني عشر نفراً ، مات منهم إثنان أثناء الحصار ، وبدخول جمهرة الثوار إلى القلعة أطلق الرصاص على المدفعي [« الطبجي »] الذي كان يتولى ضرب القصر ، واسمه « كامل » فأردوه قتيلاً ، كما أصيب أحد الجنود برصاصة في بطنه ، وقبضوا على الجميع ونزلوا بهم من القلعة ليوصلوهم إلى قصر الحكم ، فكنت ترى « كامل » ، وهو جثة هامدة ، مجروراً بحبل ربطوه في رجله وعلى حد تعبير العراقيين (سحلوه) ، وقبض كل نفرين من الثوار على نفر من الآخرين يسحبونهم خلف جثة كامل المسحولة ، وكان النفر المجروح منهم قابضاً على مضرب الرصاصة في بطنه والدم يسيل منه دون رحمة أو شفقة . إلى أن وصلوا بالجميع إلى قصر الحكم ، ونزل الشريف « الحسين » من مقره بالقصر إلى سلمه الخارجي متهللاً يشكر الثوار على ما أتوه .

وباستسلام القلعة في يوم الثالث من رمضان، أي بعد أربعة عشر يوماً من

الثورة، واستسلام من في ثكنة جرول من الحامية بعد بضعة أيام من استسلام القلعة، انقطع صوت أزير الرصاص بمكة.

ومنذ أن سلمت حامية «جدة»، كما سبق القول، أخذت الحالة الطبيعية تعود إليها فقد توفرت فيها الأقوات، وخف ما كانت تعانيه من ضيق.

وكانت الفرقة العسكرية والوالي، وهو يومئذٍ «غالب باشا»، يصيفون بالطائف، وكان المتصدي لمحاصرتهم ومحاربتهم الأمير «عبد الله» نجل الشريف «الحسين» الأوسط، أما «المدينة» فقد كان الوالي عليها من طرف الحكومة العثمانية «فخري باشا» وكان المنبري لمحاربته وحصاره الأميران «علي وفيصل» وكانت «المدينة» على اتصال «بالشام» بواسطة الخط الحديدي الحجازي مما مكن الحكومة العثمانية من تعزيز حاميتها، فظلت مستعصية إلى أن وضعت الحرب أوزارها، وأعلنت الهدنة العامة بين الحلفاء والحكومة العثمانية، وسيأتي بعض التفصيل بالنسبة للمدينة وما جرى من حوادث بها.

أما « الطائف » فإنه بعد نحو أربعة أشهر تقريباً، أي في يوم ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ هـ أذعن الوالي التركي ومن معه من الجنود للاستسلام، وسيقوا جميعاً مع من استحوذ عليهم بمكة من الجنود، وبعض العائلات التركية أسرى -وسلموا للإنكليز، وانتقل الأمير «عبد الله» إلى تقرير جبهة «المدينة المنورة».

ولنقف قليلاً لنعود إلى ما جرى بمكة:

بعد أن تم تسليم «جدة» و «الطائف» أخذ الشريف «الحسين» في الظهور بمظهر الدولة، فاتخذ له علماً من أربعة ألوان: الأبيض، ويمثل علم النبوة و «الأخضر» ويمثل علم الأمويين «والأسود» ويمثل علم العباسيين، و «العنابي» ويمثل علم «الشريف أبو نمي » ، لأن أشراف مكة الحسنيين يعتزون به لما له من تأسيسات وقوانين سنها لهم. واللون العنابي يجمع أطراف الألوان الثلاثة المنوه

عنها، وجعل شعار الدولة «مسجد جبل أبي قبيس»، ثم بويع من طرف المكيين ملكاً على البلاد العربية، وسك عملة نحاسية استولى على خاماتها من قدور كبار كانت في المطعم العثماني للفقراء، يعرف «بتكية السيدة فاطمة» بجوار «مستشفى القبان» عند أول شارع «المدعى» الذي عرف حديثاً «بشارع أبو سفيان»، ثم سك عملة ذهبية دعاها الدينار الهاشمي طبع في احدى وجهي الدينار: «الحسين بن علي ملك البلاد العربية» مما جعل بعض أمراء العربية المنطوية تحت نفوذه، أو ذات العلاقة بهم في ذلك الوقت يحتجون على هذا، بل الإنكليز أنفسهم لم يرق لهم ذلك، فاحتجوا عليه وألزموه بإلغاء هذا الإدعاء، مما اضطره أن يبدل ذلك بعبارة «الناهض بالبلاد العربية». وكان ذلك أول صدمة يواجهها من حلفائه الإنكليز، ولكنه لم ييأس.

وسبق أن شكل وزارة كالآتي:

١ ـ نجله الأمير «علي» رئيساً للوكلاء.

٢ ـ نجله الأمير «فيصل» وكيلاً للداخلية.

٣ ـ نجله الأمير «عبد الله» للخارجية.

٤ ـ الشيخ «عبد الله بن عبد الرحمن سراج» نائباً عن رئيس الوكلاء وقاضي القضاة.

٥ ـ الشيخ «أحمد باناجه» وكيلاً للمعارف.

٦ ـ الشيخ «علي مالكي» وكيلاً للمالية.

٧ ـ الشيخ «يوسف قطان» للنافعة.

٨ ـ الشيخ السيد «أمين كتبي» وكيلاً للأوقاف.

وقد كان الإنكليز دفعوا إليه بعدد من رجالات العرب الذين وقعوا في الأسر أو لجأوا، إلى الإنكليز، كان منهم «عزيز على المصري» المشهور، فأسند إليه

رئاسة أركان الحرب ،ولكنه لم يبق طويلاً بل ترك ما أسند إليه ورجع إلى مصر[1]

أما بقية رجالات العرب فلم يبق أكثرهم في البلاد، بل بعضهم التحق بجيش الأمير «فيصل» عندما كلف بالسير بجيشه إلى جهة الشمال، للانضمام إلى جيش الإنكليز تحت قيادة الجنرال «اللنبي».

وكان ممن قدم لمكة المرحوم السيد «محب الدين الخطيب» فأنشأ بها الملك الشريف «الحسين» جريدة القبلة، وكان شعارها الآية الكريمة: ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ وصدر أول عدد منها مشتملاً على قصيدة من إنشاء فؤاد الخطيب بعث بها من «القاهرة» جاء في أولها:

حيِّ الشريف وحي البيت والحرما وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما

وفي آخرها:

من الشام إلى أرض العراق إلى أقصى الجزيرة: سيروا واحملوا العلما[2]

وهي مثبتة في ديوانه يرجع إليها من شاء، وكان أول عدد صدر من القبلة في ١٥ شوال سنة ١٣٣٤ هـ.

ومما صنعه الشريف «الحسين» في أوائل أيام الثورة أن أخرج ثلاثة نفر ممن وجب عليهم قصاص القتل وشنقهم في الفضاء الذي بجوار «مسجد الدندراوي «بالخريق»، وظلوا معلقين بالمشنقة بضعة أيام، إرهاباً لمن تحدثه نفسه بالمخالفة.

---

(١) وهم الزميل صاحب تاريخ مكة. وقال أن الذي استندت اليه رئاسة أركان الحرب الشيخ «عبد العزيز بن علي ريس». والصواب ما ذكرته وقد فطن الزميل المشار اليه فصحح القول في الطباعة الثالثة للكتاب. لأن عبد العزيز بن علي ريس معهود اليه سقاية ماء زمزم وتبليغ المؤذنين بدخول الوقت وهو مواطن معروف.

(٢) ويعجبني من قصيدة الشيخ فؤاد الخطيب بيتان جاءا في الاعتذار وهما:

يا من ألح علينا في ملامته بعض الملام وجرِّبٌ مثلنا الالما

لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها مضنىً، لما ضج بالزعم الذي زعما.

ولما تم الاستيلاء على الطائف ، قبض على المرحوم «حسن موسى»، وكان كاتباً لوقف الشريف «غالب» وساقه بين «مكة» والطائف وأمر بقتله رمياً بالرصاص، بدعوى أنه كان يسعى في إفساد بعض «قبائل ثقيف». فإن الحكومة العثمانية لما انجلى الأمر عينت الشريف «علي حيدر» حفيد الشريف «عبد المطلب بن غالب» أميراً لمكة، ودفعت به إلى المدينة على أمل استمالة بعض قبائل «الحجاز» لمقاومة الشريف «الحسين»، ولكنه لم يستطع أن يصنع شيئاً، ولما وصل المدينة أعاد صدور «جريدة الحجاز» التي كانت تصدر بمكة وإن لم تخني الذاكرة، فإن الذي كان يحررها له يدعى «بدر الدين النعساني» .

وبوصول الشريف « علي حيدر » قام الجيش التركي المعسكر بالمدينة بعمليات زحف كان يصل بها في بعض الاحيان إلى مقربة من « رابغ وينبع » .

ولما أحس الشريف « الحسين » بشدة أول هجوم ، استغاث بالإنكليز ، فامدوه بقوة من المدفعية والدبابات وشرذمة من الجنود المصريين للقيام عليها .

ولما لم يَرَ « فخري باشا » فائدة ، أو نتائج حاسمة ، اتخذ إجراءات أخرى ، وهي تحصين المدينة وما حولها ، وترحيل السكان منها ، وإخراجهم ، وقد رحل معظمهم الى « الشام » و« الاناضول » ، وبعضهم تمكن من الوصول إلى مكة ، وسحبت الحكومة الشريف « علي حيدر » إلى « الشام » أيضاً ، وقد قال لي بعض من بقي بالمدينة انه لم يبق بها من اهلها موجوداً عندما وقعت الهدنة العامة ، وأمر فخري باشا بالتسليم ، سوى سبعمائة وخمسة وثلاثين نفراً ، وقد كانوا يقاربون المئة ألف .

بهذا التخفيف وإخلاء المدينة من السكان استطاع « فخري » ان يصمد إلى أن وضعت الحرب أوزارها ، رغم تمكن جيش الأمير « فيصل » المتجه الى الشمال من تخريب خط سكة الحديد وقطع صلة المدينة بالشام ، فإن الحكومة الإنكليزية لما شعرت بضعف استيلاء جيش « الشريف » على المدينة بعثت بالكولونيل « لورنس » ، وهو الذي عرف بعد ذلك « بملك العرب غير المتوج » ،

وكان من أظهر أعماله تخريب سكة الحديد تخريبا مدمراً ، ويقال إنه كان « عميلا للصهيونية » ، لتترك المدينة محاصرة بجيش الاميرين« علي وعبد الله » وقيام الأمير « فيصل » بما معه من جيوش يصحبه بعض رجالات العرب ، ممن ذكرنا سابقا ، ومستشارهم الكلونيل « لورنس » بالزحف إلى الشمال صوب « فلسطين » و« سوريا » لمؤازرة جيش « اللنبي » الزاحف من مصر عن طريق « سيناء » .

ونعود إلى ما أخذ يؤسسه الشريف « الحسين » بمكة من إدارات ومصالح حكومية بالتدريج .

فقد أنشأ إدارة للشرطة ، ومحكمة للقضايا المستعجلة ، علاوة على المحكمة الشرعية الموجودة من السابق ، ومجلساً للشيوخ ، وهيئة بإدارة قاضي القضاة لتمييز الأحكام الصادرة من المحكمة الشرعية ، وإدارة للبرق والبريد في مقرها السابق ، مع طبع طوابع بريد باسم الحكومة الهاشمية ، ووسع دائرة البلدية وجعل لها أربعة فروع لكل ثلاثة محال فرع ، وجمع « الريالات المجيدي » وطبعها باسم « الريال الهاشمي » .

ولما ترك « عزيز علي المصري » ما أسند اليه من رئاسة أركان الحرب ، جاء له الانكليز« بمحمود القيسوني »ا لمصري ، فتولى رئاسة أركان الحرب ، وأنشأ مدرسة حربية لتعليم نفر من أبناء البلاد الفنون العسكرية ، وجعل مقرها « ثكنة جياد » والتي هي اليوم مقر لمديرية مالية مكة .

وأنشأ ثلاث مدارس علاوة على المدرسة الخيرية التي أنشأها في إبان إمارته قبل الثورة أو النهضة ، كما يقولون ؛ إحداها في مكان المدرسة الرشدية التركية في « سوق المعلاة » ، والثانية في « حارة الباب » في دار لآل الفتيانه » ، والثالثة في « جبل الهندي » في القلعة التي بناها الشريف « غالب » وصادرها محمد علي باشا أثناء حروبه مع آل سعود الأول ، وظلت مصادرة حتى في العهد العثماني ، وكان العثمانيون يستعملونها مستشفى عسكرياً للجنود ، نظراً لموقعها الصحي المرتفع ، وسماها : « المدرسة الراقية » .

وكان أحد التجار الأتراك ، ويدعى « أحمد فهمي »مختصا ، بالاشتراك مع المرحوم « احمد إسلام » جد « آل إسلام » ، بتجارة السكر المصري الأقماع ، ويقول له المكيون « سكر روص ابو لمعتين »وكانا محتكرين له ، وكسبا منه مكاسب كبيرة وافرة ، وكان الملك « الحسين » أثناء الحرب سلط على « أحمد فهمي » من يحرق له داره التي يسكنها « بمحلة الفلق » ، ولكن من عهد إليه بذلك من أولاد الحارة لم يوفق[1]، وذنبه أنه في أثناء الحرب كان يمد الخزينة التركية بمالية من أمواله على أن يتقاضاها في « استانبول » ، وتمكن المذكور بعد الحادث من الهرب إلى « المدينة » ومنها إلى « تركيا » ، فلما قامت الثورة نهب داره ودكانه بجميع ما فيهما ، وكانت للمذكور دار أخرى بجوار بستان « عين زبيدة » « بجرول » ، اشتراها من احد الكتاب في عهد الشريف « عون » ويدعى « محمد افندي داغستاني » ،ورفع فوقها طبقة ،صادر الملك « الحسين » هذه الدار أيضا بمناسبة لصوقها ببستان عين زبيدة ، وأنشأ بها مدرسة سماها « المدرسة الزراعية » وكان الطلبة الذين انتظموا فيها يقومون بتجاربهم في البستان المذكور ، ولما لم يفلح المشروع ألغيت المدرسة ووهبت الدار للشريف « شاكر بن زيد بن فواز » ، أمير الطائف الاسبق .

وفي العهد السعودي جاء ورثة « أحمد فهمي » من استانبول ، وأثبتوا أحقيتهم لها ، وباعوها على أحد تجار مكة المدعو « احمد بوقرى » وهو بالتالي باعها على الشيخ « عبد الله السليمان »وزير المالية الاسبق ، وكانت النواة للدار الكبيرة التي عرفت باسمه في « محلة جرول » .

وكان المسجد يضاء على العهد العثماني بقناديل الزيت والشموع ، وكانت توضع على باب الكعبة ثلاث شمعدانات من المعدن الابيض ، وعلى حائط « الحجر » عدة شمعدانات من النحاس الأصفر ، وكذلك بعض المقامات . أما حول المطاف فكان يضاء كعموم المسجد بقناديل الزيت .

---

(١) قد تكون هذه من إشارات المغرضين .

وفي عام ١٣٣٥ هـ اي بعد الثورة بعام تقريبا ، أبدل الملك « الحسين » الشمعدانات التي على الحجر باللمبات الكوس ، ويقول عنها المكيـون « الأتاريك » ، وزاد في أربعة جهات من المطاف بضع مصابيح منها لزيادة الإضاءة ، وبعد أزيد من سنة جلب مكنة لتوليد الكهرباء ، وخصصها لإضاءة المطاف وتوسع في إضاءة المسجد « بالأتاريك » ثم بعد سنة اخرى جلب مكنة اكبر إضافة الى الأولى وتوسع في إضاءة المسجد بالكهرباء مع بقاء الاستعانة « بالأتاريك » .

وكانت الحكومة العثمانية قد شرعت عام ١٣٣٤ هـ في إجراء إصلاحات في المسجد الحرام ، للخراب الذي أحدثه سيل عام ١٣٢٧ هـ . والذي عرف « بسيل الخديوي » ، كما سبق القول ، عن ذلك ، ولكن الشريف « الحسين » في اثناء العام ثار وأعلن استقلاله بالبلاد ، فتوقف العمل ، وبعد سنتين أو ثلاث من الثورة أمر الشريف بإكمال الاصلاحات التي بدأها العثمانيون .

ومن مآثره عمل مظلة للمسعى بدأها من « المروة » إلى « بيت باناجه » في « الرحبة » التي يتقاطع معها « المسعى » وشارع « القشاشية » .

ومن الواقع الذي صادفه فيه التوفيق انه لما وقع الخلاف بينه وبين المصريين في موسم عام ١٣٤١ هـ بسبب منعه نزول البعثة الطبية التي صحبت المحمل والكسوة وغير ذلك ، من العوائد ، وأمرت الحكومة المصرية بإرجاع الباخرة بما عليها ، تذكر الشريف الكسوة التي كانت عملتها الحكومة العثمانية في استانبول في عام ١٣٣٣ هـ ظناً منها أن الانكليز ، بسبب دخول الحكومة في صف الألمان ، وضدهم في الحرب العالمية الاولى ، وبسط الانكليز الحماية على مصر ، انهم سوف يمنعون إرسال الكسوة ، ولكن الحكومة الانكليزية لم تغفل بل أرسلت الكسوة كالمعتاد ، تذكر « الحسين » ذلك ومن فوره كلف أمير المدينة بإرسالها الى « رابغ » على وجه السرعة ، لأنها كانت محفوظة هناك ، ومن « رابغ » حملتها إحدى بواخره المسماة « رشدي » ، ووصلت « جدة » . وما أن حل وقت الباس الكعبة كسوتها إلاّ والكسوة بمكة ، فألبست الكعبة بها في الوقت

المعتاد ، مما سبب دهشة في الأوساط المصرية لعدم علمهم بالواقع ، وكانت الكسوة في غاية البهاء والجمال[1] .

واحتياطا منه ، توسل إلى عمل كسوة من القبلان ،عملت في ثغر « البصرة »« بالعراق » ، سيأتي القول عنها ، وعما تم فيها ، في فصول لاحقة .

ومن مآثره : تخفيض « عقبة الحجون » وتوطئتها . فقد استعان بالحجَّارة الوطنيين الذين يستخرجون أحجار البناء من جبال مكة في تكسير صخورها ، واستعان بأهل الحارات ممن يصلح منهم لهذا العمل في التريح ونقل الأحجار كما سخر بعض المساجين للعمل في ذلك .

تركنا المدينة محاصرة من قَبْل من قِبلَ جيشي الأميرين « الشريف علي والشريف عبد الله » ابني « الشريف الملك الحسين » . وفي أوائل عام ١٣٣٧ هـ أعلنت الهدنة ، وبمقتضاها ألزمت الحكومة العثمانية بالتخلي عن بلاد العرب كافة . فتسلم الأميران ما كان للجيش التركي من عتاد وسلاح وذخائر «بالمدينة» ، وفي أثناء الثورة ومحاصرة المدينة كان من جملة قواد الجيش الذين مع الأمير « عبد الله » الشريف « خالد بن لؤي العبدلي » أمير « منطقة الخرمة » ، وكانت الدعوة الدينية الإصلاحية الحديثة التي قامت في نجد ، إحياءً لما سلف من الدعوة الاصلاحية التي ظهرت فيه في القرن الثاني عشر الهجري ، قد انتشرت في قبائل تلك الجهة ، وكثر «المتديّنة» وهي الصفة التي كانت تطلق على من اعتنق التعاليم المشار اليها ، ومما زادت معه الأمور سوءاً بالنسبة لشرفاء مكة ونفوذهم ، التحاق الأمير « خالد » « بالسعوديين » وقطع ما كان يصل الى الحجاز من تلك الجهات من زكوات وميرة ، فرأى الملك « الحسين » ان يؤدب المتمردين ، فقد توفرت لديه أدوات القتال مما ورثه من الجيش التركي بالمدينة ،

---

(١) للمرحوم الشيخ « حسين باسلامه » كتابان : احدها في « تاريخ الكعبة » والثاني في « تاريخ المسجد الحرام » وهما وافيان ، يرجع اليهما من شاء .

فكلف ابنه الأمير « عبد الله » أن يتوجه بما تجمع من سلاح وجنود من فلول الجيش التركي وعدد من القبائل صوب « الخرمة » للضرب على « يد الشريف خالد بن لؤي » وقطع دابر ما أوجده عليهم من إفساد .

سار الأمير عبد الله بمن ذكرنا وقدر جيشه هذا على ما أتذكر بحوالي عشرة آلاف ، ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة فيه ، ولما وصل إلى مقربة من « تربه » أشار عليه بعض من كان معه أن يعرج عليها أولا ، وبعد قتال طفيف لم يتجاوز بضع ساعات ، استولى على « تربه » ، وما كاد يستقر بجيشه على مقربة منها حتى دهم في إحدى الليالي من بعض العشائر الضاربة حولها وشراذم من النجديين كانت أتت لاستطلاع جند هذه الحملة التي سيرها الأشراف .

كان الأمير « عبد الله » عظيم الاغترار بجيشه ومعداته الحربية ، وكان المنزل الذي نزله على مقربة من « تربة » لم يكن منزل الفطن الحذر ، ولم يتخذ من الحيطة ما كان يجب عليه اتخاذه ، مما عُد عليه ضعفاً في القيادة ، وكانت ليلة الهجوم مظلمة حالكة ، فلم يشعر المعسكر إلّا بالرصاص ينطلق من وسطه وعلى مقربة من مجثم الامير ، فلحق الجيش من الذعر والهلع ما جعله يضرب بعضه البعض ، وأخذت المدافع والرشاشات تحصد ما أمامهما بلا رشد ولا تمييز ، وفر الأمير وبعض من كان معه من رؤ ساء الجند متجهين إلى « الطائف » ، ولم تشرق شمس اليوم التالي للهجوم حتى لم يبق من ذلك الجيش العرمرم سوى جثث القتلى وأسلابهم .

قد تركنا الأمير « فيصلاً » يتجه بجيشه ومن معه من رجالات العرب صوب الشمال ، وقد تمكن من احتلال « العقبة » ، ومن هناك أخذ يواكب جيش الجنرال « اللنبي » : هذا إلى « فلسطين » و« فيصل » إلى « حوران » و« دمشق » . وبوصوله إلى « دمشق » كان خبر « معاهدة سايكس - بيكو » قد شاع ؛ فإنه لما نجحت الثورة الروسية سارع الثوار وأشهروا ما كان بين الفرنسيين والانكليز ، وبين حكومة القياصرة الروس من معاهدات سرية ، منها معاهدة سايكس - بيكو .

وفي نفس الوقت أو قبله ، صدر « وعد بلفور » بإيجاد وطن قومي لليهود في « فلسطين » ، مما زاد الطين بلة بالنسبة للعرب .

ولمجابهة الاحداث بامر واقع أعلن الأمير « فيصل بن الحسين » استقلال « سوريا » بحكومة ملكية دستورية ، ونودي بالأمير « فيصل » ملكا على « سوريا » ولكن « بريطانيا » و « فرنسا » لم تعترفا بهذا القرار ، والإعلان ، بل بادرتا بالمشاورة بينهما وتجديد « معاهدة سايكس ـ بيكو » وتحويرها إلى ما اقتضاه خروج « روسيا » من الصف ، وعينت فرنسا « الجنرال غورو » قائداً لجيش احتلالها « لسوريا » و « لبنان » وأنزل العلم العربي الذي كان قد رفعه « شكري القوتلي » أحد زعماء الثورة العربية باسم قيام السيادة العربي في « بيروت » ، وأرسل « الجنرال غورو » إنذاراً إلى « الملك فيصل » بالتخلي عما تقرر ، وزحف بجيشه إلى « دمشق » وبارحها « فيصل » وجرت معركة طفيفة بين بعض رجال الثورة والجيش الفرنسي الزاحف في قرية « ميسلون »ـ كما هو مدون تفصيل هذه الحوادث في « تاريخ الثورة العربية الكبرى » الذي ألفه الاستاذ « أمين السعيد » ، يرجع اليه من شاء زيادة في البيان ـ.

لم يكن « الملك الحسين » يملك إزاء هذه الحوادث التي بادرته سوى مقالات يحبّرها في « صحيفة القبلة » يحتج فيها مرة ، ويهدد فيها مرة أخرى ، ويتملق الدولة الحليفة إنكلترا في بعض مقالاته . فإن الانكليز لما نال « فيصل » ما ناله نصحته بالحكومة الفرنسية مباشرة علّه يجد عندها ما يخفف ألم الخيبة غير أن ذلك لم يرق لجلالته ، فكتب مرة مقالاً في « صحيفة القبلة » جاء فيه ما معناه : « إن أي خير او عون يأتي عن غير طريق الحليفة بريطانيا العظمى نأباه ولا نقبله » .

وما دمنا بصدد الكلام عن الأميرين« فيصل وعبد الله » فلنتذكر ما انتهى إليه بهما المطاف ، فالشيء بالشيء يذكر .

لما احتل الإنكليز « العراق » لاقوا من أهله عنتاً ، واشرأب لتَسنّم رئاسة

الدولة فيه الكثير من رجالاته ، فرأى الانكليز أن يأتوا « بفيصل » وينصبوه ملكا يكون عوناً له ، وتمّ ذلك ونصب الأمير ملكا على العراق غير أن حل المشكلة على هذا الوجه فتق مشكلاً آخر .

فقد كان المضمر في أحشاء الاماني والآمال في فجر الثورة ان يكون الأمير « عبد الله » ملكا « للعراق » ، أو هكذا كان الانكليز يلوحون له ، فلما نصبوا فيصلاً غضب ، غير أن الانكليز اهتدوا إلى أن ينصبوا الامير « عبد الله » أميراً على « شرق نهر الاردن » ، فقد كان والده « الملك الحسين » دفع به إلى بلدة « معان » أميراً عليها . عندما حصل على « فيصل » ما حصل من الفرنساويين ليكون على مقربة من حدود « سوريا » يرقب ما يجري فيها من حوادث ، وبذلك يكونون قد صادوا عصفورين بحجر واحد ، خففوا من حنق الأمير وأقاموه درعا واقيا لما كان ينوون اتخاذه في فلسطين من إجراءات قد تغضب العرب ، فقد شاع ما تعهد به بلفور من إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، أقاموه اميراً في شرق الاردن يكبح جماح البدو الضاربين حول فلسطين فيما لو هيجوا .

تنازل الامير عبد الله عن طموحه في عرش العراق ، ورضي بما قسم الله له ، وأن يكون أميراً لشرق الاردن ، وفي ذاكرتي بيت أظنه للشيخ فؤاد الخطيب من قصيدة :

تنازل عن عرش العـراق تكرمـاً وأعجب من عرش العراق تنازله

ظل الحسين بمكة من جراء هذه الحوادث يحبّر المقال تلو المقال ، وينعى على الحلفاء غدرهم وخيانتهم وعدم وفائهم بالعهود .

ولما كفّ الانكليز عن التعرض للحجاز بعد واقعة « تربة »، اتجه الاخوان « جيش ابن سعـود » إلى شمال الجـزيـرة لتسـويـة مـا بينـه وبين « ابن رشيد » ، وكان « آل الرشيد » قد اختلفوا فيما بينهم ، مما مكن « آل سعود » من القضاء عليهم والاستيلاء على « حائل » . وقبل ذلك كان « آل سعود » قد استولوا على « عسير » واحتلوا « أبها » ، ولكن العسيريين ؛ انتفصوا عليهم ، فلما انتهى

السعوديون من تصفية ما بينهم وبين « آل الرشيد » أعادوا الكرة على « عسير » واستولوا عليها للمرة الثانية فالتجأ « آل عايض » إلى « الملك الحسين » فامدهم ببعض الجنود وجماعة من البدو الموالين له وذهبت الحملة ومعها الأمير « حسن ابن محمد بن عايض » وابن عمه « عبد الرحمن » وظلوا يناوشون الأمير « عبد العزيز بن ابراهيم » أمير « أبها » في ذلك الوقت ولكن اعمالهم لم تأت بطائل ، ورجعت الحملة بدون جدوى ، ورأى « الحسن » ان يستسلم « لآل سعود » ، وبذلك أصبح الحجاز و« الملك الحسين » محاطا بنفوذ آل سعود جنوباً وشمالاً وشرقاً .

وقد حاول الانكليز ايجاد تسوية سلمية بين « الملك الحسين » وولديه « عبد الله » و « فيصل » و« بين السعوديين »،« لأن « السعوديين » أصبحوا ، بالتوسع الجديد ، يماسّون حدود « العراق » وحدود « شرق الاردن » .

ورغم ما بذل من مساع وما حصل من اجتماعات لم تثمر بأي نتيجة ايجابية لتمسك كل من الاطراف بمطالبه ، وظل « الملك الحسين » لا حيلة له الا الاحتجاج وتحبير المقالات في صحيفة القبلة .

ومما زاد في مأساة « الملك الحسين » وسبب له الارتباك ان الانكليز ، بعد أن أعلنت الهدنة في الحرب العالمية الأولى ، قطعوا عنه المعونة المالية التي كانوا يمدونه بها أثناء الحرب ، مما جعله يتخبط في تصرفاته ، فزاد الضريبة على وسائل تنقلات الحجاج بين « المدينة » و« مكة » ، وطالت يده الى وضع إتاوات على التجار وصنفهم إلى ثلاثة أصناف : صنف ألزم الواحد منهم بدفع مبلغ خمس مائة الى ثلاثمائة جنيه ، وصنف بدفع مئتي جنيه وصنف يدفع مئة وخمسين إلى مئة ، ومن امتنع سُجن وأهين بمختلف الأهانات والتعذيب .

ولم يكف الانكليز ان قطعوا المعونة ، بل فرضوا على كل ما يصدر إلى « الحجاز » من « الهند » من ارزاق وبضائع ضريبة عرفت « بالتندر » فأي تاجر يريد ان يصدر من الهند إلى الحجاز شيئاً لا يمكنه ذلك إلاَّ برخصة من حكومة

الهند ، وضريبة تجري فيها المزايدة بين التجار المصدرين ، مما جعل قيمة الأرزاق تتصاعد بمكة لثلاثة اضعاف ما كانت عليه أثناء الحرب ، وظلت الحالة قائمة على ذلك إلى ان امتص الانكليز من البلاد جميع ما كانوا صرفوه عليها أثناء الحرب وقيل يومئذ إنها لم تتجاوز العشرة ملايين من الجنيهات .

في أثناء هذه الاحداث كان الثوار الاتراك زمرة « مصطفى كمال » قد تمكنوا من طرد « اليونان » الذين احتلوا بلادهم بمعاونة الانكليز ، كما ألمعت عن ذلك في غير هذا المكان ، وكان السلطان « وحيد الدين » لا زال يقيم في « استانبول » وشعر بسوء نية الثوار نحوه ، فغادر « استانبول » ، ولما علم « الملك الحسين » بذلك أبرق إليه يدعوه ، فاجاب الدعوة وقدم إلى مكة بنفر من حاشيته ، وبذل له « الملك الحسين » من الرعاية والاحترام والتقدير الشيء الكثير .

ولما كان مناخ مكة حاراً لا يلائم صحته ، اختار له « الملك الحسين » الإقامة « بالطائف » . وفعلا اقام به أياما اصابه في أثنائها مرض في أسنانه ، فلم يجد في « الطائف » طبيباً للاسنان يعالجه ، هكذا قيل يومئذ ، مما دعاه ان يبارح الحجاز الى أوربا مرة ثانية ، وكان « الكماليون » قد نصبوا بعده السلطان « عبد المجيد » ولكنهم بعد بضعة أشهر ألغوا الخلافة والسلطنة بالمرة ، وطردوا جميع « آل عثمان » من « تركيا » وسبحان مغير الأحوال . .

هذه الاحداث التي سردتها وقعت في غضون المدة بين عام ١٣٣٧ هـ الى عام ١٣٤٢ هـ ، وفي أثنائها ازداد نفوذ « الشريف الحسين » وَهَناً ، وتضاءلت هيبته ، فإن عربان قبائل حرب اخذوا يقطعون السبل على زوار « المدينة » ففي موسم عام ١٣٤١ هـ عادت قافلة زوار الحجاج الجاوين من « رابغ » بدون ان يتمكنوا من الزيارة ، بل بعض القوافل أرغمتها البادية ان تعود وهي على بعد ليلة من المدينة .

وفي اوائل عام ١٣٤٢ هـ عنَّ « للملك الحسين » أن يرمي بآخر سهم في كنانته ، توهم فيه النفع ، وذلك بأن ينصب نفسه خليفة للمسلمين بدلا من الخليفة

العثماني الذي طرده « الكماليون » ، فسافر الى عمان ، مقر ابنه « الامير عبد الله ، وهناك نودي به خليفة للمسلمين وبايعه من بايعه . وبعد غياب نحو اربعين يوما عاد الى مكة يحمل لقب « ملك الحجاز وأمير المؤمنين » واخذت مبايعته بالخلافة من الشعوب الإسلامية تنشر في صحيفة القبلة .

كثر الضجيج من « الملك الحسين » بعد توليه الخلافة وكثرت مقالات الاحتجاج وطلب الوفاء بالعهود والوعود ، وخشي الإنكليز من كثرة اللجج أن يسبب ذلك لهم مشاكل في مستعمراتهم وكان « الحسين » قد منع الحج على أهل نجد ، ثم بواسطة الانكليز أباحه لهم ولكنهم ، لما توسعوا وأحاطوا به من الشمال والجنوب والشرق بإزالة إمارة آل عايض في الجنوب ، وآل الرشيد في الشمال ، عاد فمنع الحج عنهم وأدرك « السعوديون » ما وصلت إليه الحالة بينه وبين الأنكليز فصاروا ، بواسطة القبائل الضاربة حول الحجاز ، والتابعة لأمراء « تربة » و « الخرمة » يناوشون مخافره على الحدود الشرقية وهو يستصرخ الانكليز ، ولا من سميع ولا مجيب .

وكان موسم الحج عام ١٣٤٢ هـ . موسماً خصباً توارد فيه كثير من الحجاج خصوصا حجاج أندونيسيا « الجاوا » فقد بلغ الوارد منهم عدداً لم يبلغه أي موسم من قبل ، بسبب انقطاعهم عن المجيء سني الحرب ، وكان فصل الصيف ملاحماً لنهاية الموسم ، فهرع الكثير من المكيين إلى « الطائف » لقضاء فصل الصيف ، وفي أوائل شهر صفر ١٣٤٣ هـ كانت طلائع « المتدينة » من « عربان عتيبة » و « أهل الخرمة » و « تربة » قد تمكنوا من الاستيلاء على مخافر « الملك » التي أقامها في الجبهة الشرقية ، واستولوا على مخفري « الاخيضر » و « كلاخ » ، وهما مخفران على مقربة من « الطائف » ، وكانت سمعة « المتدينة » ورهبة فتكاتهم قد أخافت القبائل الضاربة حول « الطائف » ، وكانت الأفواه لا زالت تستجر مرارة « واقعة تربة » قبل خمس سنوات ، ولم يكن « بالطائف » سوى خمسمائة جندي نظامي ، ليس لديه من المعدات ووسائل القتال الحديثة ما يطمأن اليه ، مما دعى القائد « صبري باشا » رئيس أركان حرب الجيش

الهاشمي أن يكتب لمكة بالواقع .

وكان الأمير « علي » نجل الملك « الحسين » الأكبر قد اشترك في المدينة المنورة في موسم حج العام المنصرم ، ولا زال بمكة مع من كان معه من الجنود النظامين ، وبعض المعدات الحربية ،فكلفه والده بالسفر بمن معه إلى « الطائف » لتعزيز حاميتها ، فسافر متجها إلى الطائف ، ولكنه لما وصل « وادي محرم » عسكر به وذهب ببعض خواصه إلى الطائف لسبر الحالة .

كان وصول « الأمير علي » إلى الطائف يوم ٥ صفر على ما أذكر ، وما أن أحس برصاص طلائع الجيش المهاجم من الأخوان «المتديّنة » يصل إلى الطائف من ناحيته الشرقية حتى قرر مع رئيس اركان الجيش ، الانسحاب . على أن يعسكروا جميعهم في « قرية الهدى » ، وفعلا بدأ الجيش النظامي في الانسحاب ، وفي يوم ٦ صفر لحق بالمنسحبين أمير الطائف « شرف بن راجح » ومعه أهله وحاشيته ، ومعه الأمير « عبد الله بن محمد » ابن عم « الملك الحسين » ، وزوج كريمته ، ووكيل وزارة الداخلية ، فقد كان يصيف بأهله في الطائف . ترك الطائف ومن فيه من الأهلين لما قُدِّرَ لهم ،ولم يسع من بقي فيه إلاّ فتح أبوابه ، فقد كان « الطائف » مسوراً وقتئذ ، فدخلته الطلائع المهاجمة وكان من أثر ذلك « واقعة الطائف » المشهورة ، ولسان حال الطلائع يقول :

وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتموا　　وما هو عنها بالكلام المرجّم

وقد سمعت أن الإمام « عبد العزيز » رحمه الله ، عندما سمع بالحادث غضب جداً وكان يكرر الحديث المشهور : « اللهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد . »وبعد يومين وصل أمير الجيش المهاجم الشريف « خالد بن لؤي » أمير « الخرمة » وسلطان بن بجاد شيخ « قبائل عتبة » ، فأمرا بالكف عن القتل ، واخذا يجمعان الأهالي في قصر مزارع شبرا بأولادهم ونسائهم وكان فيهم عدد غير قليل من أهالي مكة المصيفين بالطائف . وظلوا محتجزين به عدة أيام ، كانوا يقدمون لهم في كل بضعة أيام أكياساً من الدقيق يتعيشون بها في أثناء ذلك ،

وبوشاية من بعض القرى القريبة من الطائف ممن التحق بالجيش المهاجم ، أخذ رؤساء الجند يضيقون على بعض من أبلغوا عنه أنه من الأغنياء علهم يهتدون إلى ما قد يكونون خبأوه من أموال ، ثم بعدما انتهوا من ذلك أطلقوا سبيل الجميع ، كل إلى حيث يريد ، فأخذت الأسر المكية تنزل إلى مكة مشاة بنسائها وأولادها في حالة محزنة ؛ سبب لهم هذا الواقع منعهم من مغادرة الطائف وفرار الحامية وأولياء الأمور .

وما أن وصلت طلائعهم إلى مكة حتى بلغ الهلع والخوف في نفوس أهلها مبلغه ، فأخذوا يرحلون إلى « جدة » ، وشاركهم في ذلك الكثير ممن ذاق ويل حادثة « الطائف » ، كل بقدر ما استطاع حمله . أما « الشريف علي » ومن معه من الجنود المعسكرين في « الهدى » فإن « الإخوان » ما أن علموا بمقره حتى بعثوا إليه بمفرزة من المقاتلة ،لتناوشه الحرب ،وقد كانت سجالاً بينهم بضعة أيام ، ولكن في النهاية علم أن بعض القبائل من « ثقيف » وطويرق و « بني سفيان » قد انضمت إلى الجيش المهاجم وأذعنت له بالطاعة ، فخشي الأمير من حصول حركة التفاف عليه ، فقرر الانسحاب والتقهقر إلى « عرفة » ، وعسكر بها .

تقهقر الأمير « علي » الى « عرفة » كشف الواقع على حقيقته ، ودل على هبوط معنوية من معه من الجنود ، ووهنهم ، فقام بضعة نفر من خواص « الملك الحسين » وطلبوا منه أن يلجأ إلى الانكليز للتوسط بينه وبين « ابن سعود » كما سبق مثل ذلك بعد موقعة « تربة » « فعرفة » على مقربة من مكة ، لا يتجاوز بعدها عنها العشرين ميلاً إلا بقليل ، ولكن « الشريف الحسين » أبى عليهم ذلك ، لتيقنه أن الانكليز قد أداروا له ظهرهم ، وصمموا على عدم التدخل . وأخيرا تقرر أن ينسحبوا إلى جدة فإنها مسوّرة والدفاع عنها أمكن ، وطريق البحر إليها مفتوح . فبدأوا بإرسال العوائل والحرم ، ثم تلاه انسحاب الجيش بمعداته ، وظل « الحسين » وحده بمكة ليس معه إلاَّ رئيس ديوانه وبعض الحاشية ، وباجتماع من نزح من مكة من الأعيان وبعض من كانت الحكومة مشكلة منهم بأعيان « أهالي

جدة » قرروا أن يعملوا شيئاً يستطيعون أن يجدوا به مخرجا لحقن الدماء وايقاف القتال ، فقرروا طلب تنازل « الشريف الحسين » وتخليه عن الملك وتولّي « الأمير علي » ابنه خلفا له . وكان « الأمير علي » لا يزال بمكة بجوار والده ، فاستدعوه وبلغوه ما تقرر ، فأبى عليهم توليه ، وأن يبلغ وال.ه بذلك ، فقاموا هم بتبليغ « الحسين » ما قرروه ، وأرسلوا له قرارهم في برقية رفعوها إليه بمكة جاء فيها .

إن الأمة قررت تنازلكم عن الملك وتولية ابنكم « الأمير علي » خلفاً لكم ملكا على الحجاز فقط ، مقيداً بدستور تضعه الأمة ، وأن يكون في البلاد مجلسان : مجلس نيابي وطني لادارة شؤ ون البلاد . ومجلس شورى ، يتكون من مندوبين من سائر البلاد الاسلامية ، مهمته المساعدة والارشاد لما فيه صلاح البلاد ، واستقامة الحكم فيها .

وافق « الحسين » على تنازله ، ولكن ، لم يوافق على تولية ابنه « علي » وان يختاروا غيره من الأشراف ، فأجتمعت الهيئة مرة ثانية ، واستطاعوا أن يقنعوا « الأمير علي » ما دام والده قد وافق على التنازل ، فأجابهم إلى ما طلبوه ، وجرت المبايعة على ما تقرر بأن يكون ملكا على الحجاز فقط ، وغيره مما سبق ذكره ، وأبرقوا إلى الحسين بذلك ، وطلبوا منه مغادرة البلاد إلى حيث شاء .

أجابهم بالموافقة ، ولكنه احتفظ بحق الاعتراض على أن يكون « الأمير علي » ملكاً على الحجاز فقط ، نظر اً للاتفاقية التي تمت بينه وبين الانكليز على زعمه أنه ملك للبلاد العربية المصرح بحدودها في الاتفاقية ، ويعترض أيضا على أن تكون الحكومة دستورية ، فإن ذلك نبذ للكتاب والسنّة ، ومخالفة للشريعة ومبادىء الثورة التي قام بها على الأتراك .

قبل أن تبدأ الهيئة مبايعة « الملك علي » أطلقت على نفسها اسم « الحزب الوطني » وسنّت له المبادىء التالية :

١ ـ السعي بكل الوسائل لحفظ البلاد من الكارثة التي حلت بها .

٢ ـ السعي لجعل حكومة البلاد دستورية ، إسلامية سالمة من شوائب الدسائس والنفوذ الأجنبي .

٣ ـ النزول على ما يرتئيه العالم الاسلامي لمصلحة البلاد والعباد ، وكيفية إدارة البلاد .

بايع الحزب « الأمير علي » ملكاً كما سبق القول ، وتنفيذاً لمبادىء الحزب ، نشر بياناً للعالم الاسلامي ، وأرسل لبعض الهيئات البارزة فيه ، ولبعض ملوكه برقيات استنجاد وطلبا للتدخل لإيقاف القتال ، وبالجملة بعثوا برسالة لابن سعود يخبرونـه بالواقع ويطلبون توقفه عن القتال ، والنزول على إرادة العالم الاسلامي ، فأبطأ عليهم الجواب ، فأبرقوا له برقية ، تعزيزاً للرسالة ، فأجابهم برقياً أن الرسالة لم تصله ، وأنه : « لا يمكن نشر روح السلام في الجزيرة ما دام « الحسين » وأولاده حكاماً « للحجاز » . أما إذا خرج « الحسين » وأولاده فلكم الأمان » . وإنه كتب لرؤساء جيشه بذلك .

بعد أن بايع الحزب الأمير علياً ملكا على الحجاز طلع إلى مكة للاجتماع بوالده « الحسين » واخباره بما تم ، وأنه أرسل يبلغ السلطان « ابن سعود » ما وقع ، ويطلب منه وقف القتال والدخول في مفاوضة لتسوية المشاكل .

وعلى أثر ذلك ، وبعد ثلاثة أيام من وصول الملك علي إلى مكة ، غادرها « الشريف الحسين » إلى جدة وظل بها نحو أربعة أيام ، ثم سافر على إحدى بواخره التي كان قد اشتراها في عهده الأخير إلى العقبة ، بصحبة عائلته وبعض خواصه وخدمه .

ظل الأمير « علي » بمكة ولكن الحالة كانت تزداد سوءاً ، فقد تكاثرت الأشاعات بأن الجيش السعودي المهاجم في طريقه إلى مكة عن طريق السيل « درب اليمانية » ، وكان « الأشراف الحرث » بعض سكان « وادي المضيق » قد انضموا إلى جيش الإخوان ، وعلى حد تعبير ذلك الوقت « دَيَّنوا » ، وكانت القوة التي استبقيت في جوار« الشريف علي » قوة ضئيلة لا تكفي لتأديب

« الأشراف الحرث » لو قصد تأديبهم لأنهم « دينوا » فأمر الملك « علي » « اللواء » « علي صبري » وكيل الحربية بالمغادرة الى « جدة » للأشراف على الحالة ، وفور وصول اللواء اجتمع برجال الحزب ، وكان من رأيهم الجلاء عن مكة لئلا يسفك دم في منطقة الحرم ، فوافقهم على ذلك وأبلغ القرار إلى « الملك علي » فاستجاب لهم وغادر مكة الى جدة في يوم ١٧ ربيع الأول عام ١٣٤٣ هـ ؛ وما أن علم جيش الأخوان وعلى رأسهم الشريف « خالد بن لؤي » بخلو مكة حتى زحفوا عليها ، ووصلوها ، وعسكروا « بالأبطح » ، وكانت أرتال من الجيش تطرق « المسجد الحرام » للطواف حول الكعبة ، بنادقهم على أكتافهم وكان كثير من أهالي مكة ممن دفعه الفضول يلتفون حول المطاف يشاهدون « الأخوان » في طوافهم دون أن يعترضهم احد .

وفي أثناء خلو مكة ورحيل « الملك علي » ، عنها علم من كان في « الحبس العام » وفي « حبس القبو » أيضاً وهو حبس خصصه « الشريف الحسين » لمن يشتد عليه غضبه ، علموا بالواقع فخرجوا منه . وأعرف ممن كان في حبس القبو المرحوم الشيخ « ابو بكر خوقير[1] » والمرحوم « طاهر طرابزنلي» فقد ظلا في « حبس القبو » منذ عام ١٣٣٨ هـ أي نحو خمس سنوات ، كما خرج

---

(١) ترجم للشيخ أبو بكرخوقير المرحوم عمر عبد الجبار في كتابه سير وتراجم لبعض علماء مكة في القرن الرابع عشر ، ولكنه خفى عليه بعض حاله وسبب حبسه في ولاية الشريف الحسين في بدء امارته منصب الأفتاء للمذهب الحنبلي ولكنه فصله بعد ايام بوشاية بعض معاصريه واتهامه عند الشريف الحسين بأنه سلفي العقيدة اي وهابي وقد كان للمذكور ولدان احدهما يسمى عبد القادر والثاني حسن عبد القادر توسل للسفر الى الاستانة ودخل الكلية الحربية وتخرج منها ضابطا وفي اثناء الحرب العالمية الأولى اشترك في حملة القتال ودفع في الأسر فاطلقه الانكليز مع من اطلقوا من الأسرى العرب فجاء الى مكة وظل مع والده وحاول أن ينظم في سلك الجندية الذي انشأه الشريف الحسين بعد الثورة فلم يتيسر له ذلك ولما كان لوالده اصدقاء في نجد فقد كان يمتهن بيع الكتب ومتخصص في كتب العقيدة والسلف والمذهب الحنبلي فكر الوالد أن يسافر إلى نجد ويلتحق بالامام عبد العزيز لعله يجد عنده ما يعيش به وفي اثناء طريقه إلى نجد قبض عليه وجيء به للشريف الحسين فعذب وحبس واخذ الشيخ ابو بكر وحبس ومات عبد القادر من اثر التعذيب في الحبس اما ولده الثاني حسن فقد أصيب بالسل ومات وابوه لا يزال محبوسا فرحم الله الجميع .

جميع من كان في الحبس العادي وأصبحت مكة خلواً من أي سلطة وكان « الأمير خالد بن لؤي » قد صحب معه « الشريف حمزة الفعر » من أشراف « وادي ليه » « بالطائف » فكلفه ، بأن يطوف بالبلدة مناديا بالأمان ، وأن البلاد بلاد الله وبلاد ابن سعود . ولنترك مكة الآن وقد احتلها الأخوان ، ونرى ماذا جرى « لجدة » وماذا يجري فيها .

كان الامام « عبد العزيز » يرحمه الله قد أذاع بيانا مكتوبا باسم اهالي « جدة » وأهالي « مكة » أوضح فيه أعمال « الحسين » . ومنعه النجديين من أداء فريضة الحج ، وعجزه عن تأمين البلاد ، والضرب على أيدي قطاع الطرق مما أضر بحجاج بيت الله الحرام وغير ذلك مع ما « لمكة » من الحرمة حتى في زمن الجاهلية ، مما دعا الجاهليين أن يتعاقدوا ويتعاهدوا على عدم اقرار الظلم بمكة .

إن الفضول تعاقدوا وتعاهدوا أن لا يقر ببطن مكة ظالم .

وذكر لهم نواياه الطيبة وأنه لا يكون في الحرمين الشريفين إلاَّ ما يقره المسلمون بالشورى بينهم ، فانتهز « الحزب الوطني » هذه الفرصة وهذا الخطاب واتصل بالشريف « خالد بن لؤي » يطلب منه الكف عن القتال إلى أن تحضر أعضاء الوفود الذين طلبوا حضورهم من سائر أقطار المسلمين ، وما يقررونه ينزل الطرفان على قبوله ، فأجابهم « خالد » بما معناه :

إن بيت الله جاء به عنوة للمسلمين ، وان من يتعلق « بالحسين » واولاده ليس له عنده الا القتال ، وإن للأمر راعيا هو « الامام عبد العزيز » .

ومع هذا الجواب الشديد القاطع أصر الحزب على مفاوضة « خالد » وأرسل له وفداً من أربعة نفر من أعضاء الحزب عله يجد مخرجاً وفعلا يصل الوفد إلى مكة ، وفي أثناء ذلك كان « الشريف الحسين » ، بعد وصوله الى العقبة كما سبق القول ، اتفق مع بعض الجنود من المرتزقة المتطوعين للقتال ، وتعاقد معهم

على السفر إلى « جدة » لتشكيل قوة للدفاع ، وقد وصلت أول دفعة منهم مع بعض الآلات الحديثة ، وعلى رأسهم قائد يسمى « تحسين الفقير » مما شد في عزيمة « الملك علي » وأنعش آماله في الدفاع والقتال ، وكان الحزب قد راجع « الملك عليا » ليكف عن القتال وينتظر ما يقرره مندوبو العالم الاسلامي إذا وصلوا ، ولكن « الملك عليا » رفض ذلك ، وأجابهم بأنها بلاد آبائه وأجداده ولا بد من القتال دونها ، مما أربك الحزب ، واضطره لأن يلحق الوفد الذي أرسله إلى مكة للمفاوضة في إيقاف القتال ، ويكلفه بالرجوع ، وأخبره بما اعتزم عليه « الملك علي » من القتال ويطلب منه سرعة العودة ، وما أن عاد الوفد حتى أعلن « الملك علي » عن شكه في نوايا بعض أعضائه وحبسهم ، مما اضطر الحزب أن يعلن فضه وحل نفسه ، وإلغاء وجوده كحزب .

وفي أثناء ذلك ، كما سبق القول ، وصل عدد آخر من المقاتلة ومقدار من المعدات مما يبعث به « الشريف الحسين » من العقبة ، وكان « الملك علي » قد اطلع على جواب « الأمير خالد » ومكاتبات الحزب له فكتب اليه رسالة بما معناه : أنه اطلع على كتابه إلى عموم أهالي « جدة » وما فيه من التهديد . ـ وقال له : إن هؤلاء الذين كتبت لهم محكومون بحكام ورؤساء ، وليس في استطاعتهم تنفيذ ما يطلب منهم وإنه إن كان مفوضاً من السلطان « عبد العزيز » فليرسل مندوبين من طرفه للمفاوضة ، إلى آخر ما جاء من مثل هذه الأقوال ، كما أبرق إلى السلطان عبد العزيز بن سعود يستحثه على الإجابة لسابق ما كتبه له ، ويؤكد أنه مستعد للمفاوضة لما فيه صلاح البلاد والمسلمين وتسوية ما سبب الخلاف ، وأدى إلى ما أدى إليه وإلاَّ فإن البلاد قد استكملت وسائلها الدفاعية ، وبإمكانها استرجاع كل ما أضاعته ، . . . وكلاماً هذا معناه .

فأجابه « السلطان عبد العزيز » على ذلك أنه لا يريد إلاَّ تحرير البلاد للمسلمين ، وللعالم الأسلامي ، ليقول كلمته الأخيرة في أمره ومستقبله ، ثم كتب « السلطان » رسالة لأهالي « جدة » يقول فيها : إن أغلب العالم الاسلامي قد أبدى رغبته وعدم رضاه أن يحكم الحجاز بواسطة « الحسين » وأولاده ، وأن

عليهم أن يهاجروا إلى مكة أو يسعوا في إخراج « الملك علي » من بينهم وهم بعد ذلك في أمان الله ورسوله ، وما أشبه ذلك من تعهدات . وإلاَّ فإنّ التبعة تكون على المتسبب ، وإنه معذور أمام العالم الاسلامي .

لنترك « الملك علياً » في « جدة » يكمل استعداده لتحصين البلدة ، وتنظيم ما وصل اليه من قوى عسكرية ولنعد إلى مكة ؟

قلنا إن « الأخوان» احتلوا مكة ، وقد كان أول عمل لهم أن صادروا قصر الحكم « بالغزة » ؛ وبيت « الشريف الحسين » الخاص ومنازل بعض أبناء عمه الأخصاء ، وبيت قاضي القضاة ، ومخزناً بسويقة كان « لأحمد فهمي »صادره « الشريف الحسين » وأنشأ فيه مخزنا لبيع الأرزاق باسم الشركة الوطنية . كان يديرها المرحوم الشيخ « عبد الوهاب قزاز » ثم شرعوا في هدم القباب التي كانت على قبور الهواشم ، « بمقبرة المعلا » ، ونادوا بتحريم شرب الدخان ومعاقبة كل من يتعاطاه بالضرب ، ومنع كل ما يرونه بدعة تنافي الدين .

كان مقر الجيش ، « بالعدل » ، بأعلى مكة ، ولكن الأمير خالداً ومعه القاضي « عبد الرحمن بن داود » وأظنه قاضيه في « الخرمة » ، وبعض رؤساء الجيش ينزلون كل يوم للاقامة بقصر الحكم « بالغزة » لمباشرة ما عساه أن يحدث من قضايا وأمور ، وللاشراف على ما أقامه المختصون من رجال الجيش من مزاد تحت قصر الحكم لبيع كل ما وجدوه في القصر من أثاث ورياش وغيره مما كان موجوداً به ، ولم يكن الطريق بين « جدة » و « مكة » مسدوداً ، فكان بعض من يعن له أن يتسرب من « جدة » إلى « مكة » يتسرب ، ومن يعن له أن يتسرب من « مكة » إلى « جدة » يتسرب ، وكانت أسعار الحاجيات خصوص الأقوات ، مرتفعة ،والبلدة مهمومة وأهلها في وجوم لا يدرون ماذا تنتهي إليه الحالة ،وكثيراً ما كانت تقع مشادة بين الجنود البدو وبين بعض الأهالي ، فإن « الأخ » ما يكاد يلمح في يد أحد الأهلين سيجارة أو يلمح ضوءها من بعيد ، إلاَّ يركبه عفريت ، ويدخل في مشاكسة قد تؤدي إلى ملاكمة وضرب ، وصوت الجندي البدوي هو الأعلى فالبندقية على كتفه .

ظل الحال على ذلك عدة أيام ثم بعث الإمام « السلطان عبد العزيز » قبل مقدمه ببضعة أيام نفراً ممن التف حوله من الأجانب على أنهم أخبر بسياسة الحضر منهم « حافظ وهبة » ومنهم « الدكتور عبد الله الدملوجي »، الأول مصري والثاني عراقي ، ومنهم المرحوم « عبد الله السليمان » من متحضرة « نجد » ، ومن خدم الامام وخواصه وغاب عن الذاكرة غيرهم ، فلا أذكر أسماءهم الآن ، وعاونهم فيما جاؤا لأجله بعض من يقيم بمكة من التجار النجديين . وبعد أيام من وصول من ذكرت ، وفي ٧ محرم عام ١٣٤٣ هـ قدم « الامام بن سعود » ومن معه من جيوش إلى مكة وبعد أداء مناسك العمرة عسكروا جميعاً « بالعدل » بأعالي مكة ، وهرع إليه من كان موجوداً من الأعيان المكيين للسلام عليه .

وما أن استقر به المقام حتى أصدر منشوراً جاء فيه : أن أكبر همه هو تطهير البلاد المقدسة من أعداء أنفسهم الذين انتقدهم العالم الأسلامي لما اقترفوه من آثام ، وبعد هذا سيكون الأمر في البلاد المقدسة شورى بين المسلمين ، وأنه قد أبرق لكافة المسلمين أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي ، وسوف لا يكون مصدر الأحكام إلاّ كتاب الله وسنة رسوله ، وأن كل من كان من العلماء والموظفين أو غيرهم له مرتب معين فهو له على ما كان عليه ، ان لم نزده فلا ننقصه شيئاً ، وأن لا كبير عنده إلاّ صاحب الحق ، وأن من التزم حدود الله فهو آمن على نفسه وماله ، وغير ذلك مما اقتضاه الظرف الحاضر ، وقد كان في معيته ، « يوسف ياسين » فتأسست به جريدة « ام القرى » وكان شعارها الآية الكريمة : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » .

في هذه الأثناء قدم أمير « رابغ » « اسماعيل بن مبيريك » وقدم الطاعة ، وأصبح لمكة ثغر على البحر قد يغني عن « جدة » كما أن سرية قد ذهبت جنوبا فاحتلت « الليث » و « القنفدة » وبهذا أصبحت مكة غير محجوزة عن الخارج ، وأخذ المغامرون يجلبون على المراكب الشراعية الأرزاق والأقوات عن طريقهما فانخفضت أسعار ما كان قد ارتفع منها ، وبعث الإمام بجيش لحصار « المدينة »

و « ينبع »واتخذت الترتيبات لتهيئة ما وجد من عتاد حربي يسوقونه لحصار « جدة » من البر .

ونترك مكة على ما ذكرنا ونعود إلى جدة لنرى ما جد فيها .

قلنا إن « الحسين » بحلوله العقبة أخذ يبعث بمن يتفق معهم من المرتزقة إلى « جدة » وأن الملك « علياً » أخذ في أسباب وسائل الدفاع عن « جدة » ومناجزة النجديين ، ولما كان الحزب الوطني المنحل قد استصرخ الهيئات الاسلامية للتوسط ، وعلى أثر ذلك تجمع في « جدة » بضعة أشخاص ممن اندفعوا للوساطة منهم السيد « طالب النقيب » «وأمين الريحاني»و«المستر فلبي» بصفتهم الشخصية ، وكانت « جمعية الخلافة » التي تمثلها « شوكت علي » أبرقت تطلب عقد مؤتمر إسلامي وتصدى ملك مصر «فؤاد الأول» للوساطة وبعث بمندوبه « الشيخ مصطفى المراغي » ، غير أن هذه الوساطات كلها لم تثمر ، فقد أصر « الامام عبد العزيز » على تخلي «الحسين» وأولاده عن حكم الحجاز ، ثم يترك الأمر بعد ذلك للعالم الأسلامي يقرر له شكل الحكومة التي يرتئيها .

زحف الإمام عبد العزيز بما أعده من عتاد حربي، وبما معه من جيوش «الأخوان» وعسكر في «الرغامة» وأخذ يناوش «جدة» دون أن يجد في الهجوم عليها، وكانت تقع بين الجانبين وقائع ومهاجمات على غير طائل، ولما قرب وقت موسم الحج أعلن «الإمام عبد العزيز بن سعود» أن السبيل للحج متيسر وأن مكة مفتوحة عن طريق« رابغ » و «الليث»، وتقدم عن طريق « رابغ » بعض الحجاج الهنود وأدّوا حجهم بكل طمأنينة وراحة .

كان «الإمام»، على قرب أيام الحج، ترك المعسكر في «الرغامة» بعد أن رتب ما يلزم لحماية الطريق، وشارك في موسم الحج، فأراد «الملك علي» ومن «بجدة» انتهاز هذه الفرصة، فأرسلوا طائرة حلقت على أجواء مكة وألقت بمناشير تهيج الأهالي على الانتفاض والثورة ، وقصد الحق، على مكة ومن بقي من

الجيش النجدي لحماية الطريق، فلم يتيسر له ذلك، ولم يفلح في شيء، وخرجت جريدة «أم القرى» على أثر إلقاء المنشورات بمقال بإمضاء «يوسف ياسين» عنوانه: («الله أكبر روس وألمان فوق سطح الكعبة؟»)

وفي حج هذا العام حسن الصدفة، التي وقعت «للشريف الحسين» حين خلافه مع المصريين سنة ١٣٤١ هـ. في كسوة الكعبة وإرجاعهم لها إلى مصر كما سبق القول، وقعت للإمام عبد العزيز، فقد وجد الأخوان عند مصادرتهم «لقصر الحسين» الكسوة «القيلان» التي سبق القول عنها، فأنزلوها المزاد بصفتها كسباً من كسب الجيش، فاشتراها أحد التجار النجديين وهو « الشيخ عبدالله الجفالي » فلما بدت الحاجة في نهاية موسم عام ١٣٤٣ إلى كسوة الكعبة ولم تكن الحكومة المصرية قد أرسلت الكسوة المعتادة بسبب الحصار الواقع على «جدة» أخبر الجفالي «الامام عبد العزيز» بالواقع (هكذا سمعت) فأخذها وكسيت الكعبة بها، وركب الطراز القديم (الحزام) عليها في ذلك العام.

انقضى موسم الحج بسلام وعاد «الإمام عبد العزيز» إلى المعسكر «بالرغامة»، وكانت إقامة «الحسين» بالعقبة «وإرساله العتاد والمتطوعة مما يؤدي إلى طول أيام الحرب والقتال، وسمعت أن الإمام أخطر الإنكليز بأن بقاء «الحسين» في العقبة قد يضطره إلى مهاجمتها لكف معاونة «الحسين» لمن «بجدة»، مما أوقع الإنكليز في حرج، سيما وأن العقبة حجازية، لأن الحكومة العثمانية عندما احتل الإنكليز «مصر» في عهد الثورة على «الخديوي توفيق» ونظراً لموقع« العقبة »المهم فصلتها عن الإدارة المصرية وألحقتها « بالحجاز »غير أن الإنكليز في «الحرب العالمية الأولى» احتلوها وحاولوا ضمها لإمارة شرق الأردن» فلم يوافق «الملك الحسين» على ذلك، فلما احتج «ابن مسعود» على بقائه فيها ومده حكومة ابنه «علي» منها بالعتاد وغيره، تفتق ذهن الإنكليز بأن يوعزوا للأمير « عبدالله » أن يطلبها من أخيه « الملك علي » وان يهديها له هي وبلدة « معان » ، وكان الملك علي في وضع لا يستطيع معه أن يقول لا ، فأصدر مرسوماً بما طلبه الإنكليز وأهداها «للأمير عبدالله » وبالتالي كلفوه أن يسعى في

زحزحة والده عنها ، فحضر إليه بنفسه في « العقبة » ولا زال يعالجه على مبارحتها إلى أن رضي بالإنتقال منها ، فاختار له الإنكليز « جزيرة قبرص » ، ورحل على متن باخرة إنكليزية حربية ، وسمعت انه كان إذا خرج إلى صالة الباخرة يردد هذا البيت :

مشينـاهـا خـطاً كتبت علينـا ومن كتبت عليه خطا مشاهـا

وظل «بقبرص» إلى أن مرض مرضاً ثقيلاً ، فنقله على أثره ابنه «عبد الله» إلى «عمان» فوافته منيته بها، ونقل جثمانه إلى حرم «بيت المقدس»، ودفن في أحد الغرف المحدقة بصحن الجامع، وقبره هناك معروف، ومكتوب على شباك الغرفة «هذا قبر المرحوم أمير المؤمنين الملك الحسين بن علي»، هكذا أذكر فقد بعد العهد على زيارتي للقدس وانطبق عليه رديف البيت الذي كان يردده على سطح الباخرة وهو:

ومـن كـانـت مـنيـتـه بـأرض فليس يمـوت في أرض سـواهـا

بزحزحة «الملك الحسين» عن «العقبة»، ضعفت معنويات «الملك علي»، سيما وأن حامية «المدينة المنورة» لم يعد لها احتمال على المصابرة وتحمل الحصار، وأبرقت لـه أنها إذا لم تسعف فستضطر إلى التسليم، وفعلاً سلمت في ١٩ جمادى سنة ١٣٤٤ هـ مما زاد وقّت في عضد «الملك علي» خصوصاً والحالة المالية لحكومته كانت سيئة، مما جعلها تتأخر في صرف مرتبات الجند المتطوعة عدة أشهر، فلم يسع «الملك علياً» إلاّ التخلص مما هو فيه، فاتصل بالمعتمد البريطاني «بجدة»، على ما سمعت، وطلب منه التوسط بينه وبيـن الإمام عبد العزيز لوضع حد للحصار والحرب. وقد قام المعتمد البريطاني، طبعاً بعد مشاورة حكومته، بنقل رغبة «الملك علي» إلى «الإمام عبد العزيز بن سعود» في مقره «بالرغامة»، وبعد مداولات ومفاوضات جرى الإتفاق على الشروط الآتية:

١ ـ بالنظر لتنازل الملك علي ومبارحته الحجاز وتسليم بلدة جدة يضمن السلطان عبد العزيز لكل الموظفين المدنيين والحربيين والأشراف وأهالي

جدة عموماً والعرب والسكان والقبائل وعائلاتهم سلامتهم الشخصية وسلامة أموالهم.

٢ - يتعهد «الملك علي» أن يسلم في الحال جميع أسرى الحرب الموجودين «بجدة».

٣ - يتعهد «السلطان عبد العزيز» أن يمنح العفو العام لكل من المذكورين أعلاه في المادة الأولى.

٤ - يجب على الضباط والعساكر أن يسلموا في الحال إلى «السلطان عبد العزيز» جميع ما بيدهم من بنادق، ورشاشات، ومدافع، وطيارات، وخلافه، وجميع المعدات الحربية.

٥ - يتعهد «الملك علي» وجميع الضباط والعساكر أن لا يخربوا أو يتصرفوا في أي شيء من الأسلحة والمعدات الحربية جميعها.

٦ - يتعهد « السلطان عبد العزيز » أن يرحل كافة الضباط والعساكر الذين يرغبون في العودة إلى أوطانهم ويتعهد بإعطائهم المصاريف اللازمة لسفرهم .

٧ - يتعهد «السلطان عبد العزيز» أن يوزع بنسبة معتدلة على كافة الضباط والعساكر الموجودين «بجدة» خمسة آلاف جنيه.

٨ - يتعهد «السلطان عبد العزيز» أن يبقي جميع موظفي الحكومة الملكيين في مراكزهم من الذين يجد فيهم الكفاءة في تأدية واجباتهم بأمان.

٩ - يتعهد «السلطان عبد العزيز» بأن يسمح «للملك علي» أن يأخذ معه الأمتعة الشخصية التي في حوزته بما في ذلك« أتوموبيله ،وسجاجيده، وخيوله».

١٠ - يتعهد «السلطان عبد العزيز» أن يمنح «عائلة الحسين» جميع ممتلكاتهم الشخصية في الحجاز بشرط أن تكون هذه الممتلكات فعلاً من الممتلكات الخاصة، ولا تشتمل على الأملاك الثابتة المحولة من الأوقاف بمعرفة «الحسين» إلى شخصه، ولا على المباني التي كان «الحسين» قد بناها في أثناء ملكه لما كان على الحجاز.

١١ ـ يتعهد «الملك علي» بأن يبرح الحجاز قبل يوم الثلاثاء المقبل مساء ٦جمادى ١٣٤٤ هـ.

١٢ ـ جميع البواخر التي في ملك «الحجاز» وهي الطويل و «رشدي» و«الرقمتين» و «رضوى» تكون ملكاً «للسلطان عبد العزيز»، ولكن السلطان يصرح أنه إن لزم الأمر للباخرة «الرقمتين» أن تستعمل لنقل الأمتعة الشخصية «للملك علي» المتنازل ثم ترجع.

١٣ ـ يتعهد «الملك علي» ورجال حكومته وسكان «جدة» أن لا يخربوا أو يتصرفوا في أي شيء. من أملاك الحكومة مثل اللنشات، والسنابيك وخلافه.

١٤ ـ يتعهد «السلطان عبد العزيز» أن يمنح جميع السكان والضباط والعساكر الموجودين في« ينبع »، جميع الحقوق والإمتيازات المذكورة بعاليه، إلا فيما يختص بتوزيع النقود.

١٥ ـ يتعهد «السلطان عبد العزيز» أن يمنح للأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه أيضاً ضمن العفو العام وهم:

١ ـ عبد الوهاب
٢ ـ محمد
٣ ـ بكري

} أبناء يحيى قزاز، وعبد الحي عايد قزاز

وأحمد وصالح ابنا عبد الرحمن قزاز، واسماعيل بن يحي قزاز والشيخ محمد علي صالح بتاوي، وأخوانه، وعبد الرحمن بناوي وأبناؤه، وأبناء عمه حسن وزيني بناوي، وأبناء محمد نور، والشيخ يوسف خشيرم، والشيخ عباس ابن الشيخ يوسف خشيرم، والشيخ ياسين بسيوني، والسيد أحمد السقاف، وعوائل وأموال جميع المذكورين آنفاً.

١٦ ـ إذا خالف «الملك علي» أو رجاله في حال من الأحوال، أو قصر في تنفيذ أي مادة من المواد المذكورة بعاليه فإن السلطان عبد العزيز لا يعتبر نفسه مسؤولاً عن تأدية ما عليه من هذه الإتفاقية.

وفي ضحى يوم الخميس غرة جمادي الثانية سنة ١٣٤٤ هـ وقع «السلطان عبد العزيز» الاتفاقية وفي مساء اليوم نفسه وقعها «الملك علي» وفي يوم الأحد رابع جمادى الثانية ، بارح « الملك علي » « جدة » على ظهر باخرة بريطانية متوجهاً إلى البصرة ليكون في كنف أخيه فيصل ملك العراق:

«كأن لم يكن بين الحجون الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر »

وفي يوم ٧ منه قدم إلى جدة «السلطان عبد العزيزبن سعود » بعد أن تقدم موكبه أخوه «الأمير عبد الله بن عبد الرحمن بن سعود »، وقد كانت إقامته بجدة في دار الوجيه العلامة المرحوم «الشيخ محمد بن حسين نصيف». وبعد أن أقام بجدة مدة غادرها إلى مكة، وكان الكثير من أعيان المكيين الذين نزحوا إلى جدة عادوا منها، وفكر أولو النظر منهم في ماذا سيكون مصيرهم ومصير البلاد لو تركت إلى أهواء من يحضر من العالم الإسلامي، من أفراد رشحوا أنفسهم من شعوب مستعمرة أو من أفراد رشحتهم حكومات ترزح تحت احتلال وانتداب حكومات مسيحية، لا تضمر خيراً للإسلام والمسلمين، فأجمعوا أمرهم وعقدوا العزم على أن يختاروا ما هو الأصلح لهم ولبلادهم قبل أن يجابهوا بما لا تحمد عقباه، وتقدموا «للسلطان عبد العزيز» بما أجمعوا عليه وشرحوه له فاستصوب رأيهم وما أبدوه له من مطلب، وسرعان ما تصدى أربعة نفر من أعيان البلاد وهم على ما أذكر المرحوم السيد «صالح شطا» والمرحوم السيد «حسين» نائب الحرم والمرحوم الشيخ «عبد القادر الشيبي» سادن بيت الله الحرام «والشريف حسين عدنان» من أشراف «آل غالب»، وقد يكون معهم ممن لا أذكرهم الآن، وعرضوا على السلطان ما أجمعوا عليه وطلبوا منه أن يتكرم فيقبل منهم مبايعته ملكاً على الحجاز بالشروط الآتية:

١ ـ أن يكون الحكم على ما في كتاب الله وسنة رسوله، على ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، والسلف الصالح والأئمة الأربعة رحمهم الله.

٢ ـ أن يكون «الحجاز» للحجازيين وأن أهله هم الذين يقومون بإدارة شؤونه.
٣ ـ أن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز.
٤ ـ أن يكون الحجاز كله تحت رعاية الله ثم حماية «السلطان عبد العزيز بن سعود» وتدبيره.

فقبل ذلك منهم وعلى أثره أعلن السلطان البيان التالي:

أما بعد فقد بلغ القاصي والداني ما كان من أمر الحسين وأمرنا، وأنه اضطررنا لامتشاق الحسام دفاعاً عن أرواحنا وأوطاننا ودفاعاً عن حرمات الله ومحارمه، ولقد بذلت النفس والنفيس في سبيل هذه البلاد المقدسة إلى أن يسر الله الكريم بفضله فتحها، واستتباب الأمن فيها، ولقد كانت عزيمتي منذ باشرت العمل في هذه الديار أن أنزل على حكم العالم الإسلامي وأهل الحجاز ركن منه في مستقبل هذه الديار المقدسة» ولقد أذعت دعوة للمسلمين عامة، غير مرة، أدعوهم لعقد مؤتمر إسلامي يقرر في مصير الحجاز ما يرى فيه المصلحة؛ ثم عززت ذلك بدعوة عامة وخاصة، فأرسلت كتاباً للحكومات والشعوب الإسلامية في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٣٤٤ هـ، وقد نشر ذلك الكتاب في سائر صحف العالم، ومضى عليه ما يزيد على الشهرين لم أتلق على دعوتي جواباً من أحد ما عدا «جمعية الخلافة» في «الهند» بارك الله فيها، عملت وتعمل كل ما في وسعها لراحة الحجاز وهنائه، ولما انتهى الأمر في الحجاز إلى هذه النتيجة التي يحمد الله عليها، جاءني أهله جماعات ووحدانا يطلبون مني أن أمنحهم حريتهم التي وعدتهم بها، في تقرير مصيرهم، فلم يسعني أمام طلباتهم المتكررة إلا أن أمنحهم هذه الحرية ليقرروا في شأن بلادهم ما يشتهون بعد ما ظهر من العالم الإسلامي هذا الصد والاعراض عن مثل هذه القضية الهامة.

وفي يوم ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ أعلنت البيعة عامة، وأصبح الإمام عبد العزيز ملك «الحجاز» وسلطان «نجد» وملحقاتها، وعلى أثر ذلك أبلغ معتمدي الدول الأجنبية البيان التالي:

«بفضل الله ونعمته ، لقد أجمع أهل الحجاز وبايعونا بالملك على الحجاز على كتاب الله وسنة رسوله والخلفاء الراشدين من بعده، وتأسيس حكم شورى، وقد استعنا الله وتوكلنا عليه وقبلنا هذه البيعة مستمدين التوفيق والمعونة من الله تعالى، وقد أصبح لقبنا: [ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها]، وسنقوم بتوطيد الأمن والراحة، ونـوفر الرخاء، وسنعمل كل ما من شأنه أن يحقق رغائب العالم الإسلامي ويقر عينهم في إدارة هذه البلاد المقدسة، نسأله تعالى أن يعيننا على حمل أعباء هذا الأمر والله ولي التوفيق».

وبذلك انتهى حكم الأشراف «أبناء الشريف» قتادة من «الحجاز» بعد أن مضى عليه نحو سبعمائة وخمسين سنة، ودخلت مكة ودخل الحجاز بل وقلب الجزيرة العربية في عهد جديد.

وضعت الحرب أوزارها، وبويع عظمة السلطان من الحجازيين بالملك على الحجاز. كما سبق القول، ولما كان الوضع في الحجاز يختلف عما عليه الحال في نجد، أخذ «جلالة الملك عبد العزيز» يسن الأنظمة والتشريعات مستعيناً ببعض المكيين، لأنه كما قيل، أهل مكة أخبر بشعابها. وأول مجلس أسس دعي بـ «المجلس الأهلي» أسندت رئاسته على ما أذكر إلى المرحوم «الشيخ عبد القادر شيبي»، وسنت بواسطته كثير من الأنظمة للقضاء وغيره مما استدعته الحالة واستدعاه وضع مكة بالأخص، وأخذت الطمأنينة والاستقرار يشملان البلد، فأعيد تشكيل البلدية برئاسة المرحوم «الشيخ أحمد سبحى»، ودعيت «أمانة العاصمة» ولا زال هذا الاسم عليها إلى اليوم، كما أعيد تشكيل مديرية للمعارف، ومديرية للأوقاف، ومديرية للشرطة وامتدت شؤون كافة المطوفين ومشايخ الجاوا إلى المرحوم «عبد الرحمن بشناق» ثم بعد ذلك أعيدت تفرقتها وجعل لكل طائفة شيخ ورئيس: فلمشايخ الجاوا «الشيخ حامد عبد المنان» ولرئاسة الهنود «الشيخ عبد الرحمن مظهر» ولبقية المطوفين المرحوم «السيد عبد الله أحمد الزواوي» على ما أذكر، وتطور «المجلس الأهلي» ودعى: «بمجلس الشورى» ولا زال هذا المجلس قائماً إلى اليوم. وأقام «جلالة الملك»

سموِّ الأمير فيصل نجله الأوسط نائباً عنه في الحجاز، وربطت به كل ما تم من التشكيلات آنفة الذكر.

ولما كان الأمان والطمأنينة هي البسط التي يزهو عليها العمران وتزدهر الحياة الاقتصادية ، وشهد الأخوان ورؤساؤهم من المخترعات الحديثة: كالسيارات، والتلفونات السلكية واللاسلكية، والكهرباء. وغير ذلك من وسائل العمران التي لم تكن معروفة في نجد، أخذ رؤساء «الأخوان» المتدينة ينقمون على «جلالة الملك» والحكومة لاستعمال هذه الأشياء، لأنها كانت في نظرهم من أنواع السحر، مما أقلق «جلالة الملك» وجعله يدعو جماعة من العلماء والرؤساء، من الحواضر والبوادي ، مما قدر عدد الجميع ثمانمائة نفر ولم يحضره من رؤساء من أثاروا هذه الفتنة سوى ولد الدويش « عبد العزيز » وافتتح المؤتمر وخطب فيه « جلالة الملك » ارتجالاً خطبة ضافية ، جاء فيها قوله وما معناه : « إنني لم أجمعكم خوفاً أو رهباً ، فإن اعتمادي على الله وليس لي مساعد غيره ، وذلك للنظر في أمر شخص : أريد منكم أن تنظروا أولاً فيمن يتولى منكم غيري ، وهؤلاء أفراد الأسرة أمامكم ، فاختاروا واحداً منهم تتفقون عليه ؛ وغير ذلك من أقوال مما يقتضيه المقام » .

فارتفع صوت الجميع : لا نريد بك بديلاً، ولكن «الملك» استمر في خطابه، واصفاً ما حصل به الأرجاف عن استعمال المخترعات الحديثة، وغير ذلك، فنهض أحد الحضور وقال إننا لا نعرف ما ينتقد إلاَّ «الأتبال» يريد الأسلاك البرقية واللاسلكي، فإنه سحر ولا يخفي حكم السحر والسحرة في الإسلام، والثاني هذه القصور : ويعني بها المخافر التي بنتها حكومة « العراق » على حدودها ، وهذا ضرر على أرواحنا وأوطاننا . فأجابه « عبد العزيز » ليقل العلماء رأي الإسلام في « الأتبال » فأفتى العلماء بأنهم لم يجدوا في القران أو السنة أو قول أحد العلماء ، ولا في أخبار العارفين أنها سحر ، ولا يوجد دليل على تحريم « الأتبال »، ومن يقول بالتحريم يفتري على الله الكذب ، ونبرأ إلى الله منه .

وأجاب «عبد العزيز» «المخافرة»، ان القوم يدعون أنكم الذين بدأتوهم بالعدوان، ثم غزوات «الدويش» التي تبعثها عليه في حين أني أنا «عبد العزيز»، ما قمت بذلك ولا أمرت به ». فتصايح الأخوان: «نبرأ إلى الله من «الدويش» وإنا على استعداد لمهاجمته ومجازاته». وجدد العلماء البيعة في مؤتمر الجمعية هذا على السمع والطاعة ومحاربة الفئة الباغية، أما القائمون بالحركة فتجاهلوا كل ما جاء في المؤتمر وأذاعوا في مقرهم وهجرهم أنهم هم القائمون بأمر الدين وإقامة الشريعة التي يهدمها «عبد العزيز» وأن «عبد العزيز» طالب مُلك ومُوال للكفار، وشريك لهم في جميع الأعمال. وترك «سلطان بن بجاد» قريته«الغطغط » لقربها من الرياض، ولحق «بالدويش» فأمست «الأرطاوية» مأوى «لعتيبة ومطير» معاً.

وكان أشد ما يخشاه «جلالة الملك» المرحوم أن يفلت العصاة أو زعماؤهم ويلجئوا إلى أحد البلدان المجاورة: «كالكويت» و«العراق» و«شرق الأردن»، فطالب الملك الإنكليز بالتعهد بتسليم من يلجأ إليهم من العصاة أو المجرمين، وطردهم إلى «نجد» وكان الإنكليز لأمر ما يماطلون في إعطاء هذا التعهد، وأخيراً تسلم جلالته التعهد المطلوب.

وفي أثناء جريان المفاوضات مع الإنكليز جاءت الأخبار أن «سلطان بن بجاد» تعرض لجماعة من «أهل القصيم» وأخذ يعربد في أطراف «نجد والقصيم»، فانتهز «جلالة الملك» هذه الفرصة وفي شهر شوال نشبت «معركة السبلة » المشهورة، وانتهت بانهزام العصاة وفوز جلالة الملك، ثم حصل بعد ذلك عفو منه عن رؤسائهم، ولكنهم عادوا فنكسوا، ثم انتهى موضوعهم بعد انتفاضات متعددة، أن تمكن من القبض على «سلطان من بجاد» وسجنه واضطر «فيصل الدويش» إلى أن يلجأ إلى «الكويت» وبحسب الإتفاقية والتعهد السابق ذكرهما مع الإنكليز سُلِّم « الدويش » إلى «جلالة الملك» فأودعه السجن. ولقد كان اهتمام جلالة الملك بهذا الحادث عظيماً فأخذ لـه الاحتياط من سائر الجهات، ويقال ان هذه الفتنة كلفت الدولة مبلغ خمسة وأربعين ألف جنيه،

ذهبا، ولم يكن البترول قد فاض، مما اضطرت الخزينة معه أن تتوقف عن صرف مرتبات الموظفين بضعة أشهر. ومن يرغب في تفصيل هذه الحوادث زيادة عما ذكرت فليرجع إلى كتاب «شبه الجزيرة العربية» في عهد الملك عبد العزيز لخير الدين الزركلي.

بانتهاء هذه الفتن بدأ الاستقرار وبدأت الطمأنينة تنتشران في سائر أجزاء المملكة، وقد سمعت أن «جلالة الملك» قال عند ذلك [اليوم سنحيا حياة جديدة. أو كلاماً هذا معناه.]

وما كادت تنقضي وتمضي بضع سنوات حتى ثار في الجهة الشمالية «حامد ابن سليمان بن رفادة» ويقال له (الأعور) وكان رئيساً لقبيلة بني «شعيب»، على الحكومة السعودية فوجهت إليه قوة ألجأته للفرار إلى «مصر» وذلك سنة ١٣٤٧ هـ الموافق سنة ١٩٢٨ م، وأخذ من «مصر» يتردد على «عمان» فاستثير للقيام بحركة عصيانية في شمال الحجاز وأعين بمال وسلاح من «عمان» وبمساعي من بقي متمرداً على الطاعة «لابن سعود» من الحجازيين في إطار حزب يسمى «حزب الأحرار الحجازيين»، وتمكن «بن رفادة» في سنة ١٣٥١ هـ من اجتياز الحدود «المصرية» إلى الحدود السعودية، وهولت الدعايات في زحفه مع أن من كان يصحبه من المقاتلة لم يكن يتجاوز الأربعمائة نفر، واهتمت الحكومة الإنكليزية بالأمر، فأذاعت من «عمَّان» كما أذاعت حكومة عمَّان نفسها إنذاراً لمن يحاول أن يتجاوز الحدود بسلاح أو تموين للثوار.

وفي ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٥١ هـ الموافق سنة ١٩٣٢ م نشبت معركة على مقربة من «ضبا» بين المفرزة السعودية وبين جماعة «ابن رفادة» القائم بالفتنة، وانتهت بإخمادها ولم يبق لها نصير بعد هذا المصير، فقد قتل «ابن رفادة» وعلق رأسه في «ضبا» للعبرة.

وكان «حزب الأحرار» قد اتخذ في ترتيباته إقامة فتنة أخرى مع الأدارسة حكام «صبيا» في عهد «الحسن الإدريسي»، وقد تقارب وقت القيام بالفتنة في

الجنوب مع فتنة« ابن رفادة » في الشمال، وقد فشلت كلتا المحاولتين، وكانت نهاية « الحسن الإدريسي » ، التجاؤه إلى إمام صنعاء هو ومن معه ،وفي أثناء الحرب بين السعوديين واليمنيين، كان من جملة ما اشترط في معاهدة الصلح أن يسلم إمام اليمن الأدارسة» الذين كانوا قد لجأوا إليه، فسلَّمهم، وظلوا في رعاية «الملك عبد العزيز» وإكرامه لهم مدة حياته وإلى الآن.

مما جاء في قصيدة لخير الدين الزركلي البيت الذي سبق ذكره وهو:

«ما عرش مكة بالأمارة في ثقيف أو تميم»

والواقع كما قال خير الدين، فإن مكة تضفي على من يتولاها من العز والشرف والفخر والسؤدد والقيم المعنوية ما لا يضفيه أي بلد آخر، كما تحمله من التبعات والحقوق بما ليس لأي بلد. فإن قام بها وأداها. فقد جمع المجد من أطرافه. وسرى ذكره في أنحاء العالم بالشكر والحمد، وترك في الدنيا دوياً كما يقول المتنبي: « يداول سمع المرء أنمله العشر »[(١)].

وقد تهيأ للحكومة السعودية الحاضرة من الأسباب ما مكنها من أداء الواجب، وأصبح لها بذلك من السمعة الحسنة والثناء العاطر ما ملأ الدنيا ولهجت به الألسن في سائر أنحائها.

هذه المزية وهذه القيم المعنوية لمكة جعلت ملوك الطوائف ، بعد انحلال الخلافة العباسية، وفي آخر عهدها، بل وفي عهد منافسة الفاطميين للعباسيين دعواهم الخلاقة «بمصر» جعلتهم يتنافسون على الولاية على مكة وكل منهم يريد أن تكون إمارتها تحت رعايته، تنافساً أدى إلى إفساد الأمن والطمأنينة بها، وأوجد في تاريخها بقعاً سوداء تدعو إلى الحسرة والأسف، فقد تلتزم حكومة من حكومات الطوائف أو متولي «مصر» فرداً من عائلة أمرائها لينافس زميله أو ابن عمه، في الإمارة، الأمر الذي أفسد عليهم أخلاقهم بما يقع بينهم من القتال. وقد

---

(١) صدر البيت: « وتركك في الدنيا دوياً كأنما ».

يقع ذلك في أيام الحج بمشايعة من يقدم من أمراء الحجيج، فيلحق حجاج بيت الله والمكيين على السواء من القتل والنهب ما يرتاع له قلب كل مسلم مخلص، وتنتهك في أثنائه من الحرمات ما لا يتفق وتعاليم الإسلام وكرامة البلد وحرمته، وذلك مفصل في كتب كثير ممن أرخ لمكة.

وهنا ظاهرة بدت لي أثناء مطالعتي لبعض كتب من أرخ لمكة، وهي أنها لم تستقم عاصمة سياسية لأي ملك أو متغلب عليها أو خليفة ثار واستقل بها.

فبعد أن فتحها «النبي» صلى الله عليه وسلم، وأزال عنها أو ضار الشرك، عدل عن الإقامة بها، مع أنها أحب البقاع إليه كما جاء في الحديث، وولّى عليها «عتاب بن أسيد» أميراً عليها، ولما أعلن «عبد الله بن الزبير» استقلاله بها، وأعلن الخلافة فيها لم يدم ذلك سوى بضع سنوات ثم عادت إمارة تتبع «دمشق»، وحاول كثير من العلويين في العهدين الأموي والعباسي الإستقلال بها فلم يوفقوا؛ وآخر محاولة منهم في العهود المتقدمة كانت من «الحسن» المعروف «بأبي الفتوح الحسني»، فقد أعلن الخلافة منفصلاً عن الفاطميين ففشل ولم يوفق بسبب انصراف من ناصره على ذلك من «آل الجراح» سكان فلسطين بعد أن رحل إليهم وبويع هناك بالخلافة، مما اضطره للعودة إلى مكة وصلحه مع «الحاكم بأمر الله» وعودته أميراً من طرفه كما كان أرخ لحادثته هذه «تقي الدين الفاسي» في تاريخه «العقد الثمين».

وفي العهود الأخيرة القريبة، أعلن الشريف الحسين بن علي «من الأشراف العبادلة الحسنية» الانفصال عن الحكومة العثمانية، والاستقلال بها وتم له ذلك بمساندة الإنكليز في أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي النهاية، في سفرة له إلى عمان مقر ابنه «الأمير عبد الله» أعلن الخلافة على المسلمين، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، ثم اضمحل أمره. ولما بايع الحجازيون «جلالة المغفور له، الملك عبد العزيز» ملكاً على الحجاز، اشترطوا أن تكون عاصمة المملكة «مكة»، كما سبق القول، فلم يدم ذلك سوى بضع سنوات، ثم توحدت المملكة باسم «المملكة

العربية السعودية». وبعد أن كان لقب «جلالته ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها»، أصبح لقبه ملك «المملكة العربية السعودية» وأصبحت العاصمة السياسية للمملكة الموحدة «الرياض»، وعادت مكة إمارة كما كانت. فكأن الله سبحانه وتعالى تعلقت مشيئته أن لا تقصد مكة إلا للعبادة خالصة لوجهه الكريم، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ومما جاء في قصيدة خير الدين الزركلي قوله:

عصر البداوة قد توارى   عهده بين الغيوم

وجاء أيضاً قوله:

أترى ينم ابن السعود   إذا استوى عن طيب خيم
فيؤلف الوحدات طيـ   ـبة المنابت والأروم
ويهيب بالآحاد يوقظها   وبالحشد الجميم
أم يستبد كما استبد   مجانب السنن القويم؟
فيبيت يجرع ما تجرعه   سواه من السموم.؟

إن «الملك عبد العزيز بن سعود» أول من فكر في العهود الأخيرة في تخفيف أثر البداوة وسوق القبائل المتبدية إلى الاستقرار، فأنشأ لهم حول آبار المياه، القرى والمنازل، ونشر بينهم الدعاة لتعليمهم أصول الدين، وليتجهوا إلى الزراعة، وألف الوحدات وأيقظ الآحاد بالحشد الجميم، وأثبت، رحمه الله، عند القدرة وبعد استيلائه على الحجاز ما نم عن طيب خيم، فقد كان صفوحاً سموحاً.

أما أنه كان صفوحاً، فإنه لما استتب له الأمر في الحجاز و رغم أن جل من كان يضالع الهاشميين بل بعضهم ألف حزباً سماه «حزب الأحرار الحجازيين» لمناوأة «ابن مسعود» وإثارة العواطف ضده حتى بعد أن تمت بيعة الحجازيين له بالملك، فإن الحزب، لما أفلس لجأ كثير من أفراده يطلبون الصفح والعفو عنهم، فرحب بهم وأكرمهم، بل أسند إلى جملة منهم مناصب في الدولة لها

قيمتها ووزنها ، ولا زال بعضهم على قيد الحياة ينعم بما حباه به جلالته ؛ وهو أمر كفلق الصبح لا يجهله أحد في البلد .

وأما كونه سموحاً جواداً، فقد كتب الكثير ممن أرّخ له عن كرمه وسماحته وغير ذلك من خلاله النبيلة، ولما كنت ممن تشرف بالخدمة في ديوان جلالته في فجر مبايعة الحجازيين له بالملك. فإنني أكتفي بذكر حادثتين حصلتا وأنا أشاهد الواقع، فآثار السير تدل على المسير.

عندما عقد أول مؤتمر إسلامي بمكة، بعد البيعة، جاء بعض الصحفيين لتغطية أخباره وكان منهم شاب من مراسلي بعض صحف «بيروت» تعرض للملك بطلب حباته فأمر له بمبلغ ثلاثين جنيهاً ذهبا . وناهيك بقيمتها في ذلك الوقت ، فاعترض رئيس الديوان يقول لجلالته : « طال عمرك ، إن هذا المراسل يكفيه أقل من هذا العطاء » .

فأجابه «جلالة الملك» رحمه الله : «والله استحيت أعطي أقل من الثلاثين وإلَّا فإنني خابر».

ولم تكن الدولة في يسر وسعة آنذاك؟

«ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل».

وكان في المؤتمر جماعة من صحفيي «بيروت» منهم «حسين الحبال» صاحب جريدة « أبابيل »التي كانت تصدر في بيروت وكأنه كان غير مرضي عنه من «الشيخ يوسف ياسين»، فلم يتمكن من شهود المؤتمر وبالتالي سقط اسمه ممن أمر «جلالة الملك» بتوزيع كساوي عليهم، على عادته، فلم يخارجه ذلك، وجعل يتربص خروج الملك من مجلسه على مقربة من مكتب الديوان ، ولما ظفر به خارجاً استوقفه وطلب منه أن يتفضل بالوقوف برهة ليسمعه بيتين من الشعر نظمهما؛ فقال له «الملك» تفضل ، فأنشد :

«يـا أيهـا الملك الـذي إحسـانـه كالبحر أو كـالسيل إذ بلغ الـزبا

عـاد الـوفـود معبئين وقد أرى   عبئـاً ثقيـلاً أن أعـود بـلا عبـا

فأجابه الملك: «أبشر بعباءتين لا عباءة واحدة»، ثم أمر له على الفور بكسوتين كاملتين تشتمل على العباءة وغيرها، وبعد أن نال مراده قص علينا قصة أسوقها لطرافتها، وإن لم تكن مما نحن بصدده. قال:

في العهد العثماني، وفي زمن ولاية «السلطان محمد رشاد» ورئاسة «طلعت باشا» للوزارة دعت الحكومة العثمانية زمرة من الصحفيين من «بيروت» لتلقي عليهم بياناً قضت الظروف بإشاعاته، وكان من جملة من سافر إلى استنبول صحفي مسيحي يدعى «نصري»، وكانت سياسة الحكومة وقتئذ التلطف بالمسيحيين، ومحاباتهم، فجاءهم «نصري» يوماً إلى مقرهم الذي أنزلوا فيه يحمل ساعة ذهبية ذات قيمة أعطيت له باسم السلطان، ولم يعط أحد غيره، قال فأخذتني الغيرة ودون أن أخبر أحداً من الرفاق، ذهبت إلى دائرة التلغراف وأبرقت إلى الباب العالي برقية باسم السلطان قلت فيها:

أعـطيت « نصري» ساعـة   بـاسم المسيـح السيـد
فـامنـن علـيَّ بمـثـلهـا   بـاسـم الـنبـي مـحـمـد

وفي ثاني يوم دعاني طلعت باشا، وسلمني ساعة مثل ما أعطى «نصري» وتعجب، الرفاق الآخرون، ولكني لم أخبرهم بما صنعت.

يقول المكيون إذا صحب إنسان رفيقاً اسمه توفيق، فقد نال كل ما يصبوا إليه ويتمناه. وأصدق وصف قرأته في شأن جلالة المرحوم «الملك عبد العزيز» هو ما ذكره «خير الدين الزركلي»، فقد قال: «الملك عبد العزيز موفق».

ثم عرَّف التوفيق فقال: إنه قوة خفية من عالم الغيب يؤمن بها من تتبع أمثال سيرة «عبد العزيز» ثم قال:

« خطط الحرب فن، والتغلب أو بسط السيطرة فيه، والسياسة والإدارة وما إليها من شؤون المجتمع كل منهما فن له قواعده ومدارسه، ومن المدارس

التجارب والمران وطوال الممارسة، أما التوفيق فأمر فوق ذلك كله، لا قاعدة له ولا مدرسة ولا سابقة ينسج على منوالها، إلى أن قال بعد أن ساق واستعرض بعض أيام «جلالة الملك عبد العزيز» الأولى وما بعدها. أليس هذا الأمن الذي عم شبه الجزيرة من التوفيق؟ أليس ما تفتح لعبد العزيز من كنوز الأرض ذهبا ونفطاً من التوفيق؟ ».

بعد أن استولى «جلالة الملك عبد العزيز» على الحجاز أول ما وفق فيه أن طرح عن عاتقه قيود «معاهدة العقير»، واستبدل بها معاهدة «جدة» معاهدة الند للند.

وكان آخر ما عاناه جلالته خلافه مع اليمنيين على الحدود خلافاً أدى إلى الحرب، وقد كان فيها قائد الجيش من الجهة الجنوبية الغربية سمو نائبه العام إذا ذاك «جلالة الملك فيصل الآن»، وفي مثل المساق بين لا ونعم، تمكن سموه واستطاع أن يصل من« جيزان إلى الحديدة». مكتسحاً مئات الأميال من الحدود اليمانية، مما أدى إلى رضوخ إمام صنعاء للصلح الذي كان يسعى فيه بعض أعيان العرب الذين كانوا ضيوفاً على جلالة الملك« بمدينة الطائف » وإذا ببرقية من « إمام صنعاء » مؤداها كما يقول الخير الزركلي:« كفى » .

بلاد« يام »تحت حكمكم، أمرنا بسحب جندنا من «نجران» إلى آخرها، كما جاء ذلك مفصلاً في مؤلف خير الدين الزركلي «شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز» يرجع إليه من شاء.

وتم الصلح على ما يريده جلالة « الملك عبد العزيز »، وقد عفى جلالته في المعاهدة وردَّ جميع ما استولى عليه من القرى والمدن اليمانية، وهذا من التوفيق أيضاً.

وإذا العناية لا حظتك عيـونها نم فـالمخـاوف كلهن أمـان

سبق أن ذكرت ما قاله «جلالة الملك المرحوم» عندما قضى على «فتنة الدويش» ومن تتبعه من البغاة: «من اليوم سنحيا حياة جديدة» وحقاً ما قاله جلالته،

فالطمأنينة والأمان والاستقرار هي البسط التي يزهو عليها العمران وتزدهر الحياة بسائر فروعها.

وقد دخلت مكة ودخل الحجاز بل قلب الجزيرة كله في عهد جديد وانطلاقة وانتشار للوعي والثقافة والمعارف والعلوم، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة المباحة، ورخاء العيش مما لم تعهده الجزيرة من قبل، وتيسر لمكة من ذلك الشيء الكثير، مما جرى التنويه عنه في فصول سابقة، وسآتي على ذكر بعضه في فصول لاحقة.

وكانت الانطلاقة الكبرى الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، في عهد «الفيصل» جلالة الملك الحالي، ولقصر المدة منذ توليه الملك ومباشرته الحكم صح أن يقال عما حصل أنه من خوارق العادات، لأن معظم عهد الملك الراحل المرحوم «عبد العزيز» مؤسس المملكة، انقضى في الكفاح والدأب على توحيد قلب الجزيرة، ولم شعثها، وتثبيت الأمان والاستقرار فيها؛ ولما حل بعد وفاته عهد« الملك سعود »يغفر الله له، وإن لم يكن يخلو من نبضات فيما هدف إليه والده، فقد كان عضيده ومستشاره في أول أمره وولي عهده جلالة الملك الحالي «فيصل» العظيم، غير أنه بسبب ما لحق صحته من وَهَنَ، وما انتابه من أمراض لم تكن كل الأمور تجري على الوجه الصحيح مما اضطرت معه الأسرة المالكة والعلماء وأولو الرأي والقادة إلى تنحيته وتولية ولي عهده « الملك فيصل » الأمر بعده، فقبض على أزمة الأمور، قبض الربان الماهر، فسارت الأمور في أقوم طريق، والله يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم.

التعليم في مكّة

لما كان التعليم أساس كل رقي وتقدم وحضارة ، فإن الحكومة السعودية الحاضرة ، بعد أن استقر كيانها بمكة شرعت في إعادة فتح المدارس التي كانت في آخر عهد « الحسين » وأسست لذلك هيئة سميت بمديرية المعارف ، أخذت في التدرج والاتساع ، وانتشرت المدارس في سائر انحاء المدينة بكل مراتبها ودرجاتها ، من المدرسة التحضيرية ورياض الأطفال إلى الجامعة والمعاهد العليا المتخصصة ، والابتعاث إلى مناهل العلم في خارج المملكة .

ولما كان بحثي منصباً على مكة وحدها، فسوف أذكر ما نشأ بها من مدارس ومعاهد ودور للعلم والعرفان إلى العهد الذي يقف فيه قلمي عن الكتابة ، والا فان إنشاء المدارس والتوسع في وسائل التثقيف والعناية بذلك على اطراد مستمر ، فما تمر سنة وإلّا وتقوم بمكة مدرسة او اثنتين ولكن قبل ذلك سأذكر ما كان بمكة في آخر « العهد العثماني » و« العهد الهاشمي » عهد النهضة كما يسمونه ، ليتضح الفرق الهائل بين ما كان عليه الحال سابقا ، وما هو عليه الآن .

كان بمكة من المدارس الحكومية مدرسة في الدار التي كانت تشغلها « المدرسة الرشدية » في العهد العثماني في سوق « المعلاة » ومدرسة ابتدائية أخرى في « حارة الباب » في دار « لآل الفتنانة » ، ومدرسة كان أنشأها المرحوم

« الشريف الحسين » إبان إمارته في علو دكاكين كانت ملكا خالصا له « بالمسعى » ، سماها « المدرسة الخيرية » ، نواتها من مدرسة متواضعة خاصة أنشأها المرحوم « الشيخ محمد حسين خياط » وكان رجلاً فذاً ملماً بعدد من العلوم الشرعية والفلكية واللغوية ، وكان بطريق دراسة بعض كتب الصنائع التي ترجمت إلى العربية في عصره ، وحاول مرة إنشاء مصنع للصابون ، ولكنه لم يوفق لضعفه المادي ، فرحمة الله عليه رحمة واسعة .

وكانت مدرسة أرقى من هذه المدارس المذكورة سميت « المدرسة الراقية » أقيمت في « قلعة جبل الهندي » ، وقد ألمعت إلى ذلك عند الكلام على أيام حكم « الشريف الحسين » رحمه الله .

وقد اتخذت هذه البناية في العهد السعودي ، وفي زمن المرحوم « السيد طاهر الدباغ » ، عندما كان مديراً للمعارف ، مدرسة دعيت « مدرسة تحضير البعثات » كان يُرسل المتفوقون فيها إلى مصر وغيرها لاستكمال الدراسة الجامعية ، فكانت المصدر لما تشهده اليوم من أطباء وأساتذة جامعين في سائر الفنون والعلوم والمعارف(١) .

كما كانت توجد مدارس أهلية « كالمدرسة الصولتية» و« مدارس الفلاح » ،

---

(١) إن الابتعاث الى مصر سبق تأسيس مدرسة تحضير البعثات ، وكان ذلك في عهد مدير المعارف المرحوم « الشيخ ماجد كردي » ، ولذلك قصة أسوقها لطرافتها ، وهي ، ما حكاه لي الاستاذ الاديب الكبير « محمد سعيد العامودي » قائلاً : إنني وصديقاً لي وزميلي في الدراسة السيد « عبد الوهاب أشي » والسيد « محمد البياري »، بعد أن تخرجنا من مدرسة الفلاح في اجتماع عنَّ لنا ان نقترح ابتعاث الطلبة المتخرجين الى المعاهد العليا والجامعات « بالقاهرة » ، وفعلا حررنا عريضة ورفعناها لجلالة « الملك عبد العزيز » وذلك في عام ١٣٤٦ هـ . فسرَّ الملك بهذا الاقتراح ، وفي ثاني يوم استُدعينا للحضور بين يديه ، فقابلنا بكل سرور وترحاب واستحسان للفكرة ، وكلف مدير المعارف الآنف الذكر وبعض مستشاريه بأن يحققوا هذا المطلب ، وفعلاً وضع للإبتعاث الانظمة والترتيبات اللازمة . ولما جاء دورنا وطلبنا للمشاركة في الابتعاث أبى والدي ان يوافق على سفري فرضخت لرغبته وأمره ، واعتذر « محمد البياري » لأنه توظف في رئاسة القضاة في مركز مرموق ، واعتذر « عبد الوهاب أشي » لأن والدته ابت عليه ذلك . فاضطرت مديرية المعارف ان تبتعث غيرهم أذكر منهم « الدكتور يوسف الهاجري » و« فؤاد وفا » و« عبد الله باخطمه » ثم التحق بهم السيد « احمد العربي » ، وانضم اليهم من « القاهرة » =

وقد سبق التنويه عنهما في فصول سابقة من هذا الكتاب .

ومدرسة أنشأها « الشيخ عبد الحق » تلميذ الشيخ رحمة الله مؤسس « المدرسة الصولتية » سماها « المدرسة الفخرية العثمانية » نسبة لنواب « حيدر آباد » « عثمان علي خان » ، فقد كان أكبر معاونٍ لها بالتبرع ؛ ومدرسة في « المسفلة » دعيت « بمدرسة دار الفائزين » ، كما أنشأ الشيخ « سعد الله الهندي » مدرسة «بباب الباسطية» كان ممن درس بها الشيخ « محمد صالح قزاز » وكيل الأمين العام « لرابطة العالم الأسلامي » ، ولكنها لم تعمر طويلا لرحيل القائم عليها ورجوعه إلى الهند ، كما أنشأ بعض الاندنوسيين والماليسين المجاورين بمكة مدرسة أهلية سميت «مدرسة دار العلوم » ، وكان مقرها في البداية « بمحلة الشامية » ، ثم انتقلت إلى محلة « شعب علي » ولا تزال قائمة إلى الآن ، إلّا ان أغلب طلبتها من الاندنوسيين والمالسيين والفطاني رعايا « تايلند » . وبعض هذه المدارس بالمجان ، وبعضها بالأجر البسيط .

فأنت ترى ان ما كان موجوداً بمكة قبل عهد الحكومة الحاضرة لا يتجاوز عدد أصابع اليدين ، بعضها يعتبر إطلاق كلمة مدرسة فيه شيء من التجاوز . وكان يضالع هذه المدارس عدد من « الكتاتيب » لتحفيظ القرآن الكريم ، ومن الكتاتيب المهمة التـي كان لها أثرها في تخريج حفظة للقرآن « كتاب الشيخ عبد المعطي النوري » جد المرحوم « إبراهيم النوري » ، وكتاب الشيخ عبد الله حمدوة » . وقد انتظمت أنا شخصيا فيه لمدة عام ، وكان أولا في دار للمراغية

= السيد « ولي الدين أسعد » و« السيد محمد شطا » والسيد « جميل داوود المسلمي » وغيرهم ممن لم تحضرني اسماؤهم الآن . اما الثلاثة الذين سعوا لهذه الغاية فلم يقسم لهم الابتعاث ، وانطبق عليهم قول مدخل :

كالصيد يحرمه الرامي المجيد ويدركه من ليس بالرامي » .

ففي الاثر :

الصيد لمن قبضه ، لا لمن أثاره .

على ان مدرسة تحضير البعثات كانت المنبع الـثر الذي كان يرسل في كل عام العشرات من خريجيه الى « القاهرة » وغيرها .

على يمين الداخل « لباب العمرة » ، ثم انتقل إلى « باب الباسطية » ، ثم اتفق مع « الشيخ أحمد سوركين » أن يكونا سوية في « زاوية السمان » « بباب الزيادة » ، ثم بعد بضعة شهور اختلفا فانتقل مرة ثانية الى مكان آخر في « باب الباسطية » ، ولما أسس المرحوم الشيخ « محمد علي زينل » « مدارس الفلاح » سنة ١٣٣٠ هـ . نقل إليها « كتاب الشيخ عبد الله حمدوه » وكان النواة لها . أما الشيخ « احمد سوركين » فقد طلبته جميعة خير بأندنوسيا ، فترك الكتاب وانتقل إلى هناك وكان يوجد غير ذلك من الكتاتيب يطول ذكرها .

كما كان من وسائل التثقيف ما يدعى « بالخطاط » يقوم « بالمسجد الحرام » وعلى ما سمعت أنه في أوائل القرن كان يباشر التعليم فيه شخص يدعى « الشيخ محمد الفارسي »ممن نضج على يده في حسن الخط المرحوم السيد « علي كتبي » ، فلما توفي الفارسي خلفه في عمله وكان مقر الخطاط عند مدخل « باب السلام » مما يلي المسجد يجلس الأستاذ عند الباب وأمامه صندوق صغير فيه ما يلزمه من أدوات الكتابة وترى التلاميذ منتشرين في الرواق الموالي للباب كل اثنين أو ثلاثة أو اربعة مستندين إلى أحد الأعمدة ، وامام كل منهم محفظته فيها أدوات الكتابة وكان الحبر المستعمل في الكتابة الحبر الصيني الأسود ، مصنوع محليا والأقلام البوص مجلوبة من « أهوار البصرة » .

وكان ما يتعلمه التلميذ هو حسن الخط والإملاء ومبادىء فن الإنشاء والأعمال الأربعة في الحساب ، ومممن تخرج على يد السيد « علي كتبي المرحوم » الشريف شرف رضا » ، وقد تعلمت أنا شخصيا لدى السيد علي كتبي لمدة سنة ، ثم اختاره « الشريف الحسين بن علي « كاتباً عنده في ديوانه ، وخلفه السيد « محمد مرزوقي كتبي » فظللت معه شهراً ثم تركت الخطاط ، وقد ألغى هذا العمل « بباب السلام » بانتقال السيد « محمد مرزوقي كتبي » إلى المحكمة الشرعية كاتبا بها .

وكان المرحوم« الشيخ تاج غزاوي»ممن تخرج على يد والده« الشيخ فرج

غزاوي » في حسن الخط ، وكان يعمل كاتبا عند « الشريف علي بن عبد الله باشا » اثناء إمارته ، فلما فصل عن الأمارة « بالشريف الحسين بن علي » افتتح خطاطا في « باب الزيارة » على النسق الذي شرحته دام بضع سنوات ، ثم خلفه تلميذه « الشيخ إبراهيم حلواني » المعروف بخلوص .

وظل مكان الخطاط « بباب الزيارة » في نفس المسجد ، ثم رأى اولو الشأن أنه يحصل من بعض الأولاد في بعض الأحيان جلبة ، فكلف الشيخ إبراهيم حلواني » بالانتقال الى خارج المسجد وأعطته مديرية الأوقاف مكانا في باب الزيادة يعرف « بزاوية السمان » كان يشغله « الشيخ احمد سوركين » كتّاباً ، كما سبق القول ، وقد تخرج على يدي « الشيخ ابراهيم » المذكور كثير من الطلبة في إتقان الكتابة والإملاء والأعمال الأربعة ، خصوصاً من أبناء إخواننا من « الجالية الحضرمية » ، وممن كان يعلم حسن الخط شخص يدعى « الشيخ عبد الرؤ وف » من أهالي « فلمبان » من تلاميذه الأستاذ « محمد حلمي » خطاط المعارف على عهدي به ، وكانت ممارسته للتعليم في بيته خلف « المروة » في الزقاق الطالع إلى القرارة سابقا.

وكانت اول مدرسة أنشأت على الطراز المعروف الآن بمكة مدرسة أنشأها شخص يسمى « الشيخ عبد الكريم الطرابلسي » « طرابلس الشام » : في « بيت العنتبلي »في الشارع ما بين« باب العمرة»وباب الباسطية » قديما ، احترقت فاشتراها « الدهلوية »وهدموها وأنشأوا مكانها دكاكين ثم دخلت في توسعة المسجد الحرام . هذه المدرسة لم تدم طويلا ، بل حج السلطان مولاي « عبد الحفيظ » بعد عزله من « سلطنة المغرب » واحتلال الفرنساوين له ، وفي عودته من الحج في نفس العام ، صحب معه الشيخ « عبد الكريم « المشار إليه كما صحب معه أحد المهاجرين بمكة من اهل المغرب من علمائه ويسمى « الشيخ شعيب » ، وكان السلطان قد اشترى كثيراً من المخطوطات والكتب ، واعتزم طبعها ونشرها في المغرب .

هذا كل ما عرفته وشهدته من وسائل التعليم والتثقيف إلى نهاية عهد الاشراف، وهذا ما عدا ما يقام من دروس في المسجد بعد كل صلاة والصلوات الخمس ، فقد كان عدد غير قليل من علماء مكة وبعض العلماء المجاورين يقومون بالتدريس فيه ، حسنة لوجه الله تعالى ، وتبرعاً منهم ، فما تجد حصوة أو رواقاً ليس فيه حلقة من حلقات الدروس الدينية واللغوية وغيرهما ، من العلوم والمعارف ، وفي العهود الأخيرة كثر الطلبة الذين يحضرون خصيصا لتلقي علوم الدين خصوصا من إخواننا الاندنوسيين والماليسيين يقدمون خصيصاً لهذه الغاية ثم يعودون إلى بلدهم .

وحصل من ذلك نفع كثير ، فقد أخبرني السيد « ضياء شهاب » وهو من السادة العلويين ومن مواليد اندنوسيا وممن امتهن الصحافة هناك ، وغمرته حوادث ثورة الاندنوسيين على الحكومة الهولندية التي كانت تستعمرهم ما لا يقل عن ثلاثمائة سنة بعد الحرب العالمية الثانية ، انه اول من أفتى بوجوب الجهاد ، بل ذكر لي أن الكثير من قادة الثورة وممن تولوا المناصب الهامة في الحكومة بعد الاستقلال كانوا ممن تخرجوا من المسجد الحرام ، وذلك مما يدل دلالة واضحة على ما كان لدراستهم ومقامهم بمكة من حميد الأثر .

وجاء في مجلة « رابطة العالم الأسلامي » في العدد السادس من السنة الثامنة مقال للسيد « أسد شهاب » أخو « الضياء » بان « شركة إسلام » الأندنوسية ، وهي أول « حزب إسلامي » طالب بحقوق المسلمين ، استمد روح الجهاد من جوار الحرم الشريف ، يرجع اليه من شاء التوسع[١] .

---

(١) للمرحوم الشيخ عمر عبد الجبار كتاب في تراجم علماء المسجد الحرام في القرن الرابع عشر يرجع اليه من شاء كما ان للمرحوم الشيخ عبد الله ابو الخير كتابا مخطوطا في تراجم الكثير من علماء مكة سماه نشر النور والزهر سيقوم على طبعه الاديب الكبير الشيخ محمد سعيد العامودي فلعل ذلك يكون قريبا .

التعليم في العهد السعودي

أما وقد أتينا على ذكر ما كان قائما من مدارس ووسائل للتثقيف إلى نهاية العهد الهاشمي ، فلنذكر ما نالته مكة في العهد السعودي بالتدرج ، وذلك إلى نهاية الوقت الذي يقف فيه قلمي عن الكتابة ، وإلاَّ فإن التطور في التعليم في هذا العهد الزاهر متلاحق وآخذ في التوسع ، ومما سأذكره مما نشأ بمكة من مدارس ومعاهد للعلوم يتضح الفرق الهائل بين العهدين . فقد قامت بمكة المدارس والمعاهد الآتية :

عدد	
٣٣	مدرسة ابتدائية
١٠	مدارس متوسطة اعدادية
٣	مدارس ثانوية
١	كلية للشريعة
١	كلية التربية والتعليم
١	دار لكفالة اليتيم وتعليمه سموها مؤخرا (دار التربية الاجتماعية)
١	معهد المعلمين
١	المعهد العلمي
١	معهد النور « للمكفوفين »

هذه المدارس التي ذكرت هي القائمة تحت إشراف وزارة المعارف مباشرة ، ولما كانت الدراسة فيها يشغلها الكثير من حصص العلوم الحضارية والمدنية وليس هناك إلاّ معهد واحد لتحفيظ القرآن الكريم ، دفع ذلك جماعة من أولي الخير فأسسوا جمعية عامودها الفقري فضيلة الشيخ « محمد صالح القزاز » ، تصدت لإنشاء مدارس وتخصيص بعض المساجد لتحفيظ القرآن ، قائمة على التبرعات ، كما تقوم بعض المؤسسات بتقديم عون سنوي لها يقوم بأكبر قسط منه جلالة الملك « فيصل بن عبد العزيز » ، كعادته في كل عمل خيري ، ولقد شهدت في إحدى الجمع جماعة من تلاميذ بعض المساجد ومعلميهم في بداية مشروع توسعة الحرم ، يقوم التلميذ بتلاوة آيات من القرآن الكريم وفضيلة الشيخ « صالح قزاز » ينصت إليه لمعرفة مدى تقدم التلميذ في الحفظ ، وإتقانه التلاوة فهو ممن شرفهم الله تعالى بحفظ القرآن الكريم غيباً ، وهذا مما يدل على حرصه وعنايته على انتشار حفظة القرآن وتكاثرهم ، فجزاه الله عن عمله هذا خير الجزاء .

وقد بلغ ما تنفقه الجماعة على مدارس مكة وما اتخذ من مساجد في الحواري والأطراف لهذه الغاية ٤٠٨١٩٠ ريال ، وذلك حسب ميزانية عام ١٣٩٠ هـ على أن الجماعة لم تقصر نشاطها على مكة فقط بل امتد إلى جهات أخرى من المملكة ، وجزى الله الشيخ « صالح » ، ومن آزره من الجماعة ومن أمدهم بعونه ، كل خير . فإن حفظ القرآن الكريم وإجادة ترتيله من أفضل الغايات ، وقد جاء في الحديث « أشراف أمتي حملة القرآن » كما جاء أيضاً « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

ولم تهمل الجماعة النصف الثاني في المجتمع ، فأنشأت مدرسة لمن يرغب من الإناث في حفظ القرآن وتجويده ، فشكر الله مسعاها وأمدها بالعون .

وإن وزارة المعارف لا زالت تنشيء المدارس كلما دعت الحاجة ، فإن

الإقبال والحرص على التعليم والتعلم أمسى شديداً من الآباء والأبناء من سائر الطبقات . وفي طريقي الى « جرول » أشهر بناية تقوم في مواجهة دار « عبد الله السليمان » « بجرول » ، منصوب في ردهتها لوحة مكتوب فيها « مدرسة علي بن أبي طالب » ورحم الله « احمد شوقي » إذ يقول :

ورب صغير قوم علموه سما وصمى المسومة العرابا
وكان لقومه ذخراً ونفعاً ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتي يحدث العجب العجابا

وفي مكة ، كما في سائر مناطق المملكة مدارس ليلية لمحو الأمية بعضها أهلي وبعضها حكومي ، ورائد المدارس الليلية بمكة الأستاذ « عبد الله خوجة » ، فجزى الله كل عامل خيراً .

هذا ما علمته من شأن التعليم بمكة ، أما في سائر المملكة فإنني أنقل هنا ما جاء في إحدى الصحف المحلية ، مما يدل دلالة واضحة على اهتمام الحكومة بأمر التعليم وبثقتها أنه أقوى الدعائم ، لما يعود على المجتمع بالخير العميم والأساس الذي يقوم عليه كل تقدم وازدهار :

« المملكة تتقدم على جميع البلدان العربية في الإنفاق على التعليم »

عدد

٥٣٤ ألف طالب في عام ١٣٩٠ هـ مقابل عدد ٢٩٠٠٠ طالب في عام ١٣٧٣ هـ . وارتفعت ميزانية التعليم من إثني عشر مليونا من الريالات في عام ١٣٧٣ هـ إلى ستماية وأربعة وستين مليون عام ١٣٩٠ هـ .

وأظهرت إحصائيات تطور التعليم في « المملكة العربية السعودية » أنها البلد الأول في العالم العربي بما يصيب الطالب المواطن في الموازنة الخاصة به ، وأنها تتقدم على « مصر » و« سوريا » و« لبنان » في هذا المجال ، وأن نسبة الزيادة في موازنتها بلغت خلال ثمانية عشر عاماً ٥٥٪ ، وهي أكبر نسبة شهدها بلد

متطور في منطقة الشرق الأوسط .

وجاء في نشرة عن التعليم أن عدد طلاب المملكة بلغ على وجه التحديد « ٥٣٣٣٢٧ » طالباً ، كما جاء في النشرة موازنة بين « سوريا » و« مصر » و« لبنان » و« المملكة العربية السعودية » .

تعليم البنات

كان بمكة قبل عدة قرون نساء عالمات فاضلات ، بعضهن من رواة الأحاديث وغيره من كتب الفقه والدين ومستلزماته من علوم العربية ، وجاء في « العقد الثمين » « للفاسي » في الجزء الأخير منه ، من النسخة التي تفضل بالانفاق على طبعها معالي الأمين العام « لرابطة العالم الأسلامي » ووزير المالية الأسبق « الشيخ محمد سرور الصبان » تراجم لكثير من النساء المكيات وأخبارهن ، وبعضهن كن من أساتذة صاحب « العقد الثمين » تلقى عنهن بعض الأحاديث والاجازة بروايتها .

وجاء في ترجمة آمنة بنت عنان بن حسن بن عنان » ، أم محمد المكية ، قوله نقلت من جدى العلامة « جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن فهد الهاشمي » رحمه الله ما نصه :

أنشدنا « الشيخ قطب الدين محمد بن احمد القسطلاني » قال : أنشدتني والدتي « آمنة » :

لا يكـون الأمـر سهـلا كـله　　إنمـا الـدنيـا سهـول وحـزون
هـوّن الأمـر تـعش في راحـة　　قـلمَّـا هـونت أمـراً لا يـهـون
تـطلب الـراحـة في دار العـنى　　خـاب من يطلب شيئاً لا يكـون

وقال في ترجمة « خديجة » بنت الشيخ شهاب الدين احمد بن عبد العزيز ابن القاسم بن عبد الرحمن الشهيد الناطق الهاشمي العقيلي القويري » نقلا عن سبطها « الشيخ جمال الدين بن علي الشيبي المكي » ما خلاصته ؛ انه اتفق أن بعثت الى « الشيخ بهاء الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي » وهو في طريقه إلى المدينة للزيارة بحلواء ، وكتبت معها :

بعثت لكم بشيء من عقيدة هديته لقلته فضيحة
ولكنا لنخبركم بأنَّا عقيدة ودنا فيكم صحيحه

وأنها كتبت إليه بأبيات تمدحه بها على قافية النون ، فأجابها بأبيات على وزنها ورويها ، منها قوله :

أسعفتموا بالفضل والإحسان وربحتموا أجراً عظيم الشان
بقصيدة تحلو لدى كأنها أطوار أطوار من الأوطان
وإذا أردت جوابكم فكأنني أهدى الحصى بدلاً من المرجان

وكان لها عدة قصائد في المدائح النبوية .

ومن شاء المزيد من أخبارهن فعليه بمراجعة الجزء الثامن والأخير من « العقد الثمين » « للفاسي » رحمه الله .

وأخال أن الجمود اعترى المكيين في تعليم بناتهم من عدة قرون ، وأمسوا متأسين في تعليمهن بما يقول المعري :

علموهن الغزل والنسج والردن وخلوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة « بالحمد » و« الإخلاص » تغني عن « يونس » و« براءة »

وقد أسف بعضهم في قوله ، ولا أعرف من هو ، ولا في أي عصر نشأ :

« ما للنساء وللكتابة والقراءة والخطابة
هذا لنا ، ولهن منا أن يبتن على جنابة »

فقد كان ذلك منه جهلاً أوتجاهلاً ، فالنساء كما يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم « شقائق الرجال » وإن طلب العلم فريضة على كل مسلم وهن مكلفات بما كلف الرجال به من عبادات لها أحكام ، كما أن لهن مطلق التصرف في أموالهن وممتلكاتهن الخاصة . فيجب عليهن ان يعرفن أحكام الشريعة فيها ، وكيف يحسّن التصرف بها . وقائل البيت قصر عملهن على جعلهن وعاء لقضاء الشهوة وآلة لإنسال الولد، وقد يتدنى بعض الجهلة والوأماء فإذا عبر عن المرأة قال : « فلانة ، أعزك الله » . كأنه يذكر شيئا مستهجنا ، وبلغني أن بدو حضرموت إذا عبَّر عن المرأة قال « المذلولة » . وما ذلك إلا بقية نظرة جاهلية إلى المرأة وإلاّ فإن الله تعالى يقول : « ولقد كرمنا بني آدم » .

وهذا الاتجاه جعل الأمية تطبق على المكيات بجـرانها ، فلم يكن لهن ، من أول القرن الرابع عشر إلى العهد السعودي ، سوى بضع كتاتيب يتعلم بعضهن فيها بعض السور القصار من القرآن الكريم ، ويحفظنها ، وبعض الكتاتيب تضيف ، إلى تعليمهن بعض السور ، بعض أشغال الإبرة على منسج صغير يتعلمن عليه عمل اللَّف والنسلة الجاوي وعمل (الآوية) التي يستعملها النحلية أطراف ماكن يتلفعن به من الخمر (المدورات) .

ولما تشابكت المصالح مع بعض الأقاليم المجاورة ، وبالأخص « القاهرة » فمن توظف فيها في سفارة المملكة ، أو إدارة الطلبة الذين يبعث بهم للتعليم « بمصر » وبعض المكيين الذين قضت مصالحهم السكن بها ، سنحت لهم الفرص لإدخال بناتهم فيما يوجد بها من مدارس وكليات ، وبمرور الزمن حصل عدد منهن على شهادات عالية في مختلف العلوم كالطب والآداب وغيرهما ، فاوجد ذلك تطلعاً من المقيمين بمكة واستشرافاً إلى تعليم بناتهم .

وكان اول من فكر في ذلك المرحوم « عمر عبد الجبار[١] ، « وكانت قد

---

(١) قبل ان ينشىء المرحوم « عمر عبد الجبار » مدارس ،كانت هيئة مدرسةدار العلوم فكرة في إنشاء مدرسة للبنات تكون فرعاً لها ، وفعلا أسست مدرسة سمتها « مدرسة البنات الأهلية » ، إلا ان التعليم فيها كان على نطاق ضيق ، ولا زالت قائمة بمحلة الشامية الى الآن ويشرف عليها « محمد ياسين عشي فادن » .

هدأت وخفت النعرة عند بعض من لا يرى تعليم البنات ، فأنشأ في « الزاهر » مدرسة للبنات سماها « مدرسة الزهراء » ولمست الحكومة الحاضرة تلهف البنات على التعلم ، فعهدت الى مفتي المملكة ورئيس قضاتها . بإنشاء مدارس لتعليم البنات ، وكأنها بذلك كانت تهدف الى المراقبة على احتشامهن وتصونهن ، وقصر التعليم على العلوم الدينية وبذلك انتشرت مدارس تعليم البنات في سائر انحاء المملكة . وانتهى الوضع إلى أن أصبح التعليم فيها ، ومناهجه ، كتعليم الفتيان ، مع زيادة ما يليق بهن من عمل : كالتدبير المنزلي وغيره من الأعمال الخاصة بهن ، ونالت مكة من ذلك إلى نهاية عام ١٣٩٠ هـ ما يأتي تعداده من مدارس ورحم الله حافظ ابراهيم في قوله :

لا يموت الشعب ما دامت له ... قوة الجنسين تسعى للعمل

وقوله :

الأم مدرسة اذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

واليك تعداد عما قام بمكة من مدارس للبنات :

عدد	
٢٩	مدرسة ابتدائية
٣	مدارس متوسطة إعدادي
١	معهد المعلمات الثانوي
١	معهد إعداد المعلمات
١	معهد إعداد المعلمات الفني .

وسمعت بان الهيئة في طريقها لأنشاء جامعة للبنات تحتوي على مختلف العلوم فعسى ان يكون ذلك قريبا ، فيتخرج منها من السيدات الفاضلات من يُعدن مجد من سلف من نساء مكة مما جرى الإلماع عنه في أول هذا البيان . .

وما دمنا بصدد الكلام عن وسائل التثقيف والتعليم بمكة وما حصل فيها من تطور وارتقاء ، فلتذكر ما « لرابطة العالم الأسلامي » من دعم مادي وأدبي لبعض المدارس الأهلية والمؤسسات الدينية بمكة من التي ليس لها موارد ثابتة .

في عام ١٣٨١ هـ ، نظراً لما استشرى في بعض الدول العربية والاسلامية : من دعوة واعتناق للعصبية القومية ، فقد دعت الحكومة العربية السعودية لفيفاً من علماء الأقطار الأسلامية والعربية لعقد مؤتمر إسلامي بمكة ، للنظر فيما وصلت إليه حال المسلمين ومجتمعاتهم من تمزق وشتات ، وتناحر وانحراف ، عن مبادىء الدين الإسلامي الحقة ، مما جعلهم مزقاً ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » .

وكان من نتائج هذا المؤتمر أن قامت بمكة مؤسسة سميت « رابطة العالم الإسلامي » ، اختير أعضاؤها من نخبة من العلماء أعضاء المؤتمر ، على أن تعقد بمكة في كل عام دورات متتابعة للنظر فيما يهم المسلمين من الشؤون الدينية والثقافية ، ورفع مستواهم ، وغير ذلك ، أينما كانوا وحيثما كانوا . ومن حسن الحظ أن اختير لأمانتها العامة الرجل الإرادي الكفؤ الحازم معالي « الشيخ محمد سرور الصبان » وزير المالية الأسبق .

وقد كان لما تنشره وتمد به المؤسسات المعاهد الإسلامية الدينة في قارات الدنيا الخمس أطيب الأثر وأعمقه ، فقد قامت بإنشاء معهد دين إسلامي في عاصمة « الصومال » : « مقديشو » على نفقتها الخاصة ، ومدت بالعون المالي المؤسسات والنوادي والمراكز الاسلامية في إفريقيا وآسيا وأوروبا والأمريكتين ، بكل ما تستطيع من عون . ولا يمضي يوم دون ان يوصل إليها البريد ، من شتى انحاء العالم الاسلامي ، العشرات من الرسائل من المؤسسات أو الأفراد يطلب منهم ما يحتاج إليه من عون مادي أو من مطبوعات الرابطة في الموضوعات الثقافية والدينية ، وما يجب ان يعرفه المسلم ، لأن الرابطة قامت بطبع الآلاف من الرسائل الدينية بمختلف اللغات ، ومكتبتها تحوي العديد الوافر من تراجم معاني القرآن الكريم باللغات الأوروبية وغيرها من لغات بعض الشعوب الأسلامية ، تمد بها كل من يطلبها ويكون في حاجة إليها من سائر مسلمي العالم . وهي بسبيل القيام بطبع ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة اليابانية لنشرها وتعميمها في سائر « جزر اليابان » .

وتقيم في موسم حج كل عام ندوة للمحاضرات يحاضر فيها لفيف من العلماء المكيين او من يحضر لأداء فريضة الحج من غيرهم ، وفي نهاية الموسم تقوم الإدارة المختصة بجمع تلك المحاضرات وطبعها في كتاب توزعه على من يطلب ، وتبعث بنسخ منها إلى المؤسسات والمراكز الاسلامية في سائر الأقطار ، بالمجان ، ولها مجلة تصدرها شهريا باسم « رابطة العالم الإسلامي » ، وصحيفة اسبوعية باسم « اخبار العالم الإسلامي »

ولما كان ما يعنينا هنا هو ما ينال المؤسسات الخيرية العلمية القائمة بمكة مما سبق التنويه عنه في غير هذا المكان، فإنها تدعم بعونها المادي المؤسسات والمدارس التالية ، مما جعلها تستطيع القيام بواجبها أحسن قيام :

١ ـ مؤسسة تحفيظ القرآن التي سبق التنويه عنها في غير هذا المكان .

٢ ـ المدرسة الليلية لمحو الأمية لمؤسسها الفاضل الأستاذ « عبد الله خوجة » .

٣ ـ المدرسة العارفية

٤ ـ دار العلوم الدينية .

٥ ـ المدرسة المكية الأندنوسية .

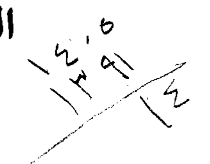
٦ ـ مدرسة النجاح الليلية .

وفوق ذلك فإن يديها مبسوطتان لمد كل من يطلب من تلاميذ المعاهد الدينية العليا ، ليس في مكة فقط ، بل في سائر المملكة ،فتمد كلا بما يحتاجه من كتب المراجع ، وما يفيده في دراسته ، وتوسيع ثقافته الدينية والتاريخية ، والتعرف على أحوال إخوانه المسلمين في سائر المعمورة .

وفي مقرها مكتبة مفتوحة يوميا لمن يريد المراجعة .

وقد كتب الشاب النابه « عبد الله رجب » مقالاً ضافيا نشرته له « مجلة البلاغ الكويتية » في عددها ٢٣ الصادر بتاريخ ٦ شعبان عام ١٣٩١هـ ـ واقتبسته عنها « جريدة عكاظ » يرجع إليه من أراد التوسع في المعلومات عن الرابطة .

الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله



قبل أن يتيسر لي طبع الكتاب فوجئت الرابطة وموظفوها بوفاة المرحوم الشيخ « محمد سرور » « بالقاهرة » يوم ٢ ذي الحجة ١٣٩١ هـ

والـمـوت تـقـاد عـلى كـفـه جـواهـر يختـار منهـا الـجيـاد

وقد نقل جثمانه إلى مكة في اليوم الثالث من ذي الحجة ودفن « بالمعلاة » في مشهد عظيم ، وقد كان موته خسارة عظيمة على محبيه وعارفي فضله ، فقد كانت له ، رحمه الله ، أياد جزيله على كثير ممن اتصل به ، وقد سبق القول في غير هذا المكان عما مارسه من أعمال في الدولة وغيرها من أوجه النشاطات ، وله أيادٍ على بعض الشباب سيأتي التلميح عنها في فصول لاحقة . وخلاصة القول انه كان فذا من الرجال :

والـنـاس ألف منهمو كـواحـد وواحـد كـالألف إن امـرأ عنى

اسكنه الله فسيح جنانه واسبغ عليه رحمته وغفرانه .

انطلاقة

كان فضيلة « الشيخ محمد صالح القزاز » يشغل في حياة « الشيخ محمد سرور » « وكيلا للأمين العام لرابطة العالم الأسلامي » ، ولما كان نظام الرابطة يقتضي أن أعضاء المجلس التأسيسي هم الذين لهم الحق في اختيار الأمين العام للرابطة ، وكانت وفاة « الشيخ محمد سرور » بعد انقضاء جلسات المجلس التأسيسي لعام ١٣٩١ ، فاقتضى الحال ان يشغل « الشيخ محمد صالح » منصب الأمين العام بالنيابة . ولما حان عقد المجلس التأسيس في شهر شوال ١٣٩٢ هـ كانت أول جلسة له للبحث في انتخاب أمين عام للرابطة ، وقد كاد الصواب يُجانب بعض الأعضاء ، ولكن الله غالب على أمره ، فحاز « الشيخ صالح القزاز » أغلبية الأصوات لأن يكون الأمين العام للرابطة ، وكان أحق بها وأهلها .

وما ان تولى زمام الأمور حتى حصلت انطلاقه عما كان عليه الحال ، وكشف فضيلته عن معدن وضاء ، فأوفد الوفود الى كثير من بلدان العالم ، وعقد منتدى علميا لموضوع « فلسطين » ، قام فيه خطيباً كأحسن ما يكون ، وأنشأ قصيدة في الموضوع ألقاها بالنيابة عنه أحد أعضاء المؤتمر ، ضمن فيها شطراً « للمتنبي » كبر له الحاضرون ، وقد كان في غاية البداعة في موضوعه ، وهو قوله :

إذا لـم يكـن من الـمـوت بـد فـليكـن مـوتنـا مـع الـشهـداء

ومن القصيدة :

ليس من مـات في الفـراش كمن مـات صريعـاً في حلبة الشجعـاء

ومنها

يا جنود الإسـلام ، هيا استجيبـوا فـالبـدار البـدار صـوت الفـداء

ذي فلسـطين للجهـاد تـنـاديكـ ـم أمـا تسمعـون يـا أبنـائي ؟

والقصيدة في نحو خمسة وأربعين بيتا نشرت في مجلة الرابطة .

واخيراً مما سعى فيه أنشاء مرصد لتثبيت أوقات الأعياد الأسلامية وغيرها ، لكثرة ما يقع فيها من المسلمين من خلاف ، سيكون مقره في مكة المكرمة أو ما حولها ، كما دعا المنظمات والمراكز الإسلامية في العالم للحضور الى مكة لعقد مؤتمر لما يرفع من شأن المسلمين والإسلام في أي جهة كان ، وأنشأ في هذا الموضوع قصيدة تربو على التسعين بيتا جاء فيها :

مـا لنـا لا نعيـد سـابق عهـد قـادة لـلشـريعـة الـسـمـحـاء

مـا بـنـا قـلة ولـكـن غثـاء كـغـثـاء يـذوب فـوق الـمـاء

ومنها :

وبلينا بـالبعـد عن شـرع « طـه » وتـعـاليـمـه ووحـي الـسـمـاء

هـذه حـالنـا فهـل من عـلاجٍ هـل لأمـراضـنـا دواء ؟

هـذه حـالنـا فهـل من طبيب ينقـذ الناس من خـطير الـوبـاء ؟

ومنها :

أنه ربـنـا ولـيس سـواه نـرتجيـه فـي الليـلة الـدهمـاء

هذا النشاط وأمثاله مما لم يحضرني ، جعل بعض أعضاء المجلس التأسيسي ، وأنا اسمع : يقول : إن الشيخ « محمد صالح القزاز » كان كنزاً مخفياً . .

وفي اعتقادي أن كل ما تقوم به الرابطة من أعمال فانه مستوحى من دعوة « جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز » المعظم إلى التضامن الإسلامى، والنهوض بالمسلمين من كبوتهم التي هم فيها ، ومن يمن هذه الدعوى من جلالته .

وإذا سخر الإله إناساً لسعيد ، فإنهم سعداء

هذا الذي ذكرته دعاني إلى أن أسأل فضيلته عما تلقاه من علوم في صباه فقال لي : كما تعلم فقد حفظت القرآن على « الشيخ سعد الله الهندي » ، (وقد سبق التنويه عن ذلك في غير المكان) . وقد درست شيئاً من العلوم على يد بعض علماء « المسجد الحرام » . وأخيراً التزمت دراسة « فتح الباري على صحيح البخاري » « لابن حجر » على فضيلة المرحوم « الشيخ احمد النجار » . وعلى أثر اختتامي للكتاب أجازني بتدريسه ، فدرسته مدة وجيزة أثناء اقامتي « بالطائف » ولكنني كما تعلم انصرفت للاشتغال ببعض الوظائف الحكومية والإدارية ، فشغلتني عن الاستمرار في الدرس . وقد كدت أجرأ ان أسأله كم قضى من السنين ، فتذكرت ما قاله « الامام مالك «للشافعي » رضي الله عنهما ، حين سأله عن عمره : « إمض لشأنك ليس من المروءة أن يسأل الأنسان عن عمره ، فإن أجاب إما استصغروه وإما استهرموه » . ولكني على وجه التخمين أقدر أنه قد جاوز السبعين بقليل ، فبارك الله في حياته وامده بعونه وتوفيقه .

بدء نشوء الصحافة بمكة وما وصلت اليه والحالة الادبية بها

سبق القول أن أول مطبعة تأسست بمكة أسسها المشير المرحوم « عثمان نوري باشا » على عهد إمارة المرحوم « الشريف عون الرفيق » ، كانت تصدر في كل سنة ما يسمى « السلمنامة » ينشر فيها كل ما يتعلق بأعمال الحكومة العثمانية في ذلك العهد ، وبالأخص ما يتعلق بالحجاز ، وبعد أن أعلنت المشروطية والحرية وتأسيس الدستور ، أخذ جماعة من موظفي الإدارة التركية يصدرون جريدة باسم « الحجاز » تصدر اسبوعيا باللغتين العربية والتركية، ولم تكن لغتها العربية من المستساغ ، فقد كان ما يكتب بها كلمات عربية بصيغة تركية وهو أمر طبيعي ، فان المهيمنين عليها والقائمين بالتحرير فيها ليسوا إلا موظفين من موظفي الإدارة التركية ، ثم عنَّ لبعض من اعتنق مبادىء « حزب الاتحاد والترقي » من موظفي الادارة التركية انشاء صحيفة سميت « شمس الحقيقة » للدعاية للحزب ، ولفت نظر الاهالي الى شعاراته « حريت عدالت مساوات » ولكنها لم تدم طويلاً ، فقد كان « الشريف الحسين بن علي » أمير مكة ، إذ ذاك ، رحمه الله ، لها بالمرصاد كما سبق القول في غير هذا المكان .

ولما كانت الحالة الفكرية والثقافة الادبية في البلدة ومن الأهالي لم تكن ذات ضجة تذكر ، فحلقات الدرس في المسجد الحرام اتجاهها إلى العلوم الدينية والفقهية ، وكان أغلب من يحضرها المهاجرون والمجاورون بمكة لهذه

الغاية ، اللّهم إلاّ بعض أفراد من المكيين ، والنادر منهم من يكون عنده إلمام بعلوم الادب والكتابة ودراستها ، على أن الطاغي على الاسلوب في النثر كان السجع وفي الشعر عند من يتعاطاه ، وما أقلهم ، الإفراط في التزام المحسنات البديعية ، ولم تكن سوى مدرسة واحدة نشأت في أواخر القرن الثالث عشر هي « المدرسة الصولتية » لم تخرج عن أوضاع الدراسة في المسجد الحرام ، والمدرسة التي كانت تسمى « بالمدرسة الرشيدية»، كانت تركية لحماً ودماً . ومن الغريب ان النحو العربي كان يعلم فيها باللغة التركية .

وليدرك القارىء انصراف الشباب عن النهل من العلوم والمعارف الادبية والتاريخية ، اللهم إلا قلة من أبناء العلماء ، أقص الحكاية التالية :

كنت في بدء صباي ، وعلى طريق الصدفة ، على اتصال بالمرحوم « الشيخ محمد بن خليفة النبهاني » ، فقد كان المذكور يدير دكان بقالة في محلة « قاعة الشفا » التي كنا نسكنها ، وقدر الله ان يحترق الدكان في عام ١٣٣٠ هـ وأصبح المذكور فارغاً من الشواغل .

وكان من طلبة العلم ، درس على والده « الشيخ خليفة » وعلى المرحوم « الشيخ محمد الخياط » علم الفلك ، وعلى غيره بعض العلوم الاخرى ، وعنَّ له أن يضع ذيلاً للكتاب « سبائك الذهب في أنساب العرب للسويدي » يربط فيه أنساب قبائل العرب إلى عصره الذي هو فيه ،ورغب إلى أن أعينه ، فكنا نذهب سوية إلى « دار الكتب » : (« كتب خانة ») وكان عملي معه أن اكتب ما يمليه علي مما يعثر عليه في بعض المراجع التي تمت الى موضوعه الذي تصدى له ، غير أنه بعد بضعة شهور عنَّ له ان يسافر الى البصرة ، وسافر فعلاً ، لكني علقت بالتردد على « دار الكتب » والمطالعة في كتب الادب والتاريخ ودأبت على ذلك نحو سنتين ، فقد كنت غير مكلف ، ومكفول من والدي ، وكان القيم على المكتبة المرحوم السيد « مصطفى كتب خانه » أثناء ترددي عليها . ثم بعد سنوات شاءت الاقدار ان نتقابل وان نكون على اتصال ببعض ، فان « الشريف الحسين »

بعد الثورة التي قام بها ، فصله من دار الكتب فلم يكن يرتاح له ولا لأخيه « اسماعيل » .

وفي بدء اتصالنا ببعض قال لي : كأني اعرفك او سبق لي بك صلة » . فقلت له : « نعم » ، وذكرت له انني كنت اتردد على دار الكتب يوميا مدة لا تقل عن سنتين أثناء ادارتك لها ، فقال : « الآن تذكرت وما كنت اظنك إلَّا من أهل البحرين او البصرة ، لأنني مدة عملي في إدارة المكتبة ، لم أشهد واحداً ممن في سنك من الأهالي يراجع المكتبة أو يأتيها . »

والصحافة كما هو معلوم لا تنشأ ولا تروج إلَّا بين جمهور قارىء ، والحال الى العقد الثالث من القرن الرابع عشر لم يكن الجمهور في مكة كذلك ، لهذا لم تجد الصحف والمجلات سبيلا ومجالا ، وظلت صحيفة « حجاز » هي الصحيفة الوحيدة التي تصدر اسبوعياً الى زمن ثورة « الشريف الحسين بن علي » .

ولما ثار « الشريف الحسين » وبحكم الحاجة والضرورة ، أنشأ صحيفة دعاها « القبلة » وقد ذكرت ذلك عند الكلام على إمارته وثورته ، وظلت تصدر إلى أن استولى جيش الحكومة الحاضرة عام ١٣٤٣ هـ على مكة . إلا أنه عندما اعتدت حكومة فرنسا على حكومة « الملك فيصل بن الحسين » « بدمشق » ، وقدم مكة المرحوم « عمر شاكر » صاحب « جريدة الفلاح » من « دمشق » أعاد إصدار جريدته بمكة ، ولكنها لم تعمر طويلا ، ومات المشار إليه بعد ذلك في حادث سقوط طائرة .

وعند حلول « جلالة المرحوم الملك عبد العزيز » بمكة في أواسط عام ١٣٤٣ هـ صدرت بمكة صحيفة دعيت « ام القرى » وقد نوهت عنها في فصل سابق ، صدرت لتواجه جريدة « بريد الحجاز » التي أصدرتها حكومة « الملك علي بن الحسين » بجدة للدعاية ضد الاستيلاء النجدي على البلاد ، وظلت تصدر إلى اليوم لكنها انكمشت وصارت تصدر اسبوعيا مقصور ما ينشر فيها على المراسيم الحكومية وبعض الإعلانات .

وفي عام ١٣٤٧ هـ أصدرت شعبة النشر التابعة لمديرية المعارف مجلة باسم « الإصلاح » ، لم تعمر ، وكانت مجلة دينية .

وفي عام ١٣٥٠ هـ صدرت جريدة « صوت الحجاز » ودام صدورها بضع سنوات . ثم توقفت عند نشوب الحرب العاليمة الثانية ، ثم عادت للصدور باسم « البلاد السعودية » ، وظلت تصدر بمكة ، ثم في التغيرات الاخيرة التي تمت في شؤون الصحافة ، صارت تصدر باسم « صحيفة البلاد » ، ونقلت إدارتها الى « جدة » .

وقد ظهرت بمكة صحف ومجلات لم تعمر طويلا فكانت كفقاقيع الماء ، والصحيفة الوحيدة التي ظلت تصدر الى اليوم هي صحيفة « الندوة » .

وللأستاذ « محمد سعيد العامودي » كتيب أسماه « من تاريخنا » . ذكر فيه نبذاً عن تاريخ الصحافة ، كما صدر كتاب « الصحافة في الحجاز » للدكتور « محمد عبد الرحمن الشامخ » ، يرجع اليه من شاء التوسع في الإطلاع . وسمعت ان « السيد عثمان حافظ » يعتزم إخراج كتاب شامل في « تاريخ الصحافة بالمملكة » فلعله يصدر قريبا[١] .

مما سقته عن الصحافة يتبين خمود الوعي الأدبي ، وتخلف الجمهور المكي ، في أول القرن ، وكان الواقع كما يقول « الاستاذ العامودي » في كتابه المنوه عنه : « الشعر الذي كان يقال عبارة عن كلمات منظومة مقفاة لا تعرف إحكام الوضع ، ولا حسن الاداء ، لأن الإحساس في المجتمع المكي من هذه الناحية قد وصل من الفتور إلى درجة الصفر » . وليس معنى هذا أنه لم يكن يوجد من فيه استعداد وقابلية ، فقد ذكر الاستاذ « محمد سعيد نفسه » في كتابه المشار اليه ، ترجمة للشاعر « عبد الواحد الجوهري » الشهير « بالاشرم » والمكنى « بأبي الحسن » من مواليد نهاية القرن الثالث عشر بعض أبيات غزلية لم تخل

---

(١) صدر بالفعل.

بعضها من الإجادة ، ويقول الاستاذ « محمد سعيد » إنه لا يشك مطلقاً أنه لو أتيح « للاشرم » ،على ما منحه الله من موهبة شعرية أصيلة ،ان يدرس الأدب كما يجب لما كنا نقرأ له الآن إلاّ شعراً من طراز آخر ، إلى آخر ما قاله في صدده ، إلى أن قال ما معناه : إن العصر الذي ترعرع فيه الشاعر كان في غاية الركود لهذا لم يستطع ان يخرج عن دائرته كما خرج امثاله في عصره في بعض الأقاليم المجاورة لما هيىء لها من التفتح ، وضرب مثلا بالشاعر « البارودي » بمصر .

وقد مر في فصل الماء والمشروبات بمكة ، عند الكلام على ولع المكيين بالشاي ، أبيات وجدتها عندي مكتوبة ومنسوبة اليه لا اتذكر من أين نقلتها ، او سمعتها ، وذكر الاستاذ العامودي » مقطوعة غزلية له جاء في مطلعها قوله :

على جيد هذا الظبي فلينظم الدر   وإلاَّ فما للدر قدر ولا فخر .

وهي مطرزة في أحد معاصريه .

وأخيراً اطلعت على مجموعة خطية بقلم الاستاذ « عبد الكريم بن عبد العزيز الخراشي » (ليسانس كلية المعلمين) نقلها من أصل محفوظ بمكتبة مكة المكرمة اكثر ما في المجموعة تشاطير أو تخاميس أو تطريز بأسماء ، عدا بعض مقطوعات قليلة بعضها في الغزل ، وبعضها في الهجاء أنقل منها هذين البيتين « للجوهري الاشرم » وهما :

بُليت بقوم كالبهائم لم يعوْ،   أراذل قوم في صفات أكابر
ولو شاء ربي خصهم بثلاثة :   قرون ، وأذيال ، وشق حوافر

وله أيضا بيتان في الغزل ، ضمن فيها شطراً لشاعر قديم ، وهما :

وظبي من الأتراك قبَّلت ثغره   فبادر بالتلطيف قصد التجمل
وأوما إلى الخد الاسيل وقال لي: « تنقل فلذات الهوى في التنقل »

وله ايضا بيتان وهما :

تصورت بدر التمِّ ، مذ غاب مؤنسي   أنيسا ، وقلت البدر منه قريب

محجبـة عني الغمـام بـذيله فـواعجبـاً حتى الغمـام رقيب

وفي المجموعة كثير من الابيات القديمة عن عصره منحوله له .

وقد عاجلت المنية الشاعر المذكور ، فإنه كما يقول الاستاذ « العامودي »من مواليد عام ١٢٧٨ هـ ، توفي عام ١٣١١ هـ ، فهو إذن قد اعتبط في ريعان شبابه .

وقد ذكر السيد العامودي عَرَضاً ، في الكلام عن حياة الاشرم ، السيد « حسن سحره » فإنه كان معاصراً « للاشرم » وكان بينهما مهاجاة .

وأنا أحفظ للسيد « حسن سحره » بيتين قالهما في مكار من « حمَّارة الطائف » ، وقد كان إلى نهاية عهد « الشريف الحسين بن علي » لـحمَّارة « الطائف » ، موقف في المكان المعروف بالخريق مقابل جدار المقبرة ، والبيتان هما :

ومكـاريـاً عـاينت في وجنـاتـه وردا يـلوح وجـلَّنـارُ يُـقـطف
أخذ الكرى مني وأحرمني الكَرى بيني وبينك ، يا مكاري ، الموقف[1]

ولا أعرف للمذكور غير هذين البيتين ، وهي منقولة مشافهة ممن عاصره والواقع كما قال الاستاذ « العامودي » أن الأشرم كان شاعراً موهوباً لو وجد البيئة الصالحة والثقافة الوافية لأعطى أجمل وأكمل مما وجدناه له .

وممن كان يقول الشعر وينظم النظم الحسن على حد قول صاحب كتاب « النور والزهر » في ذلك العصر المرحوم « الشيخ أحمد » امين بيت المال وقد سبق ان ذكرت له بعض مقطوعات من ارجوزته في الشاي ، وكان رحمه الله ، على ما سمعت ، من العلماء الفكهين وقد نوهت سابقا أنه غيّر نظم « الأجرومية » « للشيخ العمروسي » إلى الغزل ، ويقول صاحب نشر « النور والزهر » انه ذيلها بأبيات يمدح فيها أمير مكة الاسبق الشريف « عبد الله باشا محمد بن عون » ، وانه

---

(١) لا شك ان مثل هذا الشعر غير مستلطف

يرجع في نسبه إلى أرومة « آل زين العابدين » ولم يتيسر الوقوف على نظمه على غير ما ذكرت ولعلي أعثر قبل أن يتيسر لي طبع الكتاب على شيء من نظمه ، ولو مما بدل به « منظومة العمروسي » فقد يتبين منها قوة شاعريته . ويقول صاحب « نشر النور » انه من مواليد عام ١٢٥٥ هـ وانه توفي عام ١٣٢٣ .

وممن نظم الشعر ووجد في ذلك العصر المرحوم « الشيخ احمد نظيف » وأظن ان وفاته كانت إما في عام ١٣٢٥ هـ او في أوائل ١٣٢٦ هـ . وقد كان رحمه الله انيقا في ملبسه ومطعمه ومشربه ، وكان يمتهن المحاماة أمام المحاكم ، وبسبب ما غضب عليه الشريف عون الرفيق « فنفاه إلى جدة » وظل بها بضع سنوات ثم لما مات « الشريف عون الرفيق » في أواسط عام ١٣٢٣ هـ رجع الى مكة ولم يعش طويلا ، وكان رقيق المشاعر فعندما كان منفياً « بجدة » كان يجعل عند باب داره ، وعلى استمرار ، سبيلا للماء العذب ، وقل في « جدة » من يفعل ذلك خصوصا ممن كان في طبقته ، من متوسطي الحال ، لعزة الماء العذب وغلو ثمنه . في ذلك العصر ، واشترى عبداً وعلمه فنون الطهي ، وعاش بعده ، وكان قد أعتقه في حياته ، فصار يعمل طاهياً في الولائم . وأذكر ان أسمه «أمان».

ومن المؤسف رغم انه كان على صلة بوالدي ، رحمهما الله ، لم يتيسر لي الاطلاع على شيء من منظوماته ، لقصر مدة مقامه بمكة ، بعد رجوعه من « جدة » ، وقد كنت إذ ذاك لم أبلغ الحلم : وقد وقفت مؤخراً على أبيات له أرخ بها بناء المرحوم العلامة « الشيخ رحمة الله الدهلوي » لمسجده « بالخندريسة » ، ثم رأيتها أيضا في كتاب المرحوم « عمر عبد الجبار » حينما ترجم له ، وهي :

على أيمن الدانين بالسفح من كدا — مقام كريمٌ للمصلى تجددا
دعائمه شيدت على البر والتقى — وأرجاؤه للدين والعلم والهدى
أحاطت به الأنوار من كل جانب — وطاب لأهل العلم والرشد موردا
بناه الهمام ، الحبر ، ذو الفضل والندى — ولا غرو قد أضحى ، إماما مجددا
فلله ما أبداه ذا البحر في الورى — من النفع في نشر العلوم ، وشيدا

له الفوز ما قال « النظيف » مؤرخا   بما قاد « أنشا رحمة الله مسجدا »

ومن عرف بالشعر في هذا العصر المرحوم « الشيخ » عثمان راضي بن محمد بن ابي بكر بن محمد الراضي» ولد عام ١٢٦٠ هـ وتوفي عام ١٣٣١ هـ ، وقد ترجم له خير الدين الزركلي في كتابه « الأعلام » ، وقال عنه : إنه أديب الديار الحجازية وشاعرها في عصره ، مولده ووفاته ، بمكة ، يكثر الإقامة بالطائف ، وله ديوان شعر في مجلدين وله « الأنوار المحمدية » في شرح بديعية ، لأحد معاصريه في ٦٠٠ صفحة ، وهو من أكمل شروح البديعيات وأغزرها مادة في الأدب ، وله نقد « للرحلة الحجازية » « للبتنوني » لم تكمل ، نوه عنها خير الدين الزركلي أيضاً في كتابه « ما رأيت وما سمعت » ، وقد ذكرت ذلك في فصل سابق من هذا الكتاب ، ولم يتيسر لي الوقوف على شيء من شعره سوى بيتين فقط هما :

لا تنكروا شوقي إلى أم القرى   وتهتكي بين الورى في ذكرها
فأنا ابنها ، من أهلها ، ورضيعها   من ثديها ، وربيبها في حجرها

وقد تبارى في تشطيرها بعض معاصريه ممن ينظم الشعر بما لا يخرج عن مبناها ومعناها .

وممن اشهر بالشعر وكان مكثرا منه ، خصوصا التخميس والتشطير وما أشبه مما هو مألوف ورائج في ذلك العصر ، المرحوم « عبد المحسن الصحاف » وقد ترجم له خير الدين الزركلي « في كتابه الاعلام » نقلا عن مقال نشرته « أم القرى » بتوقيع « احمد بن خليفة النبهاني » يؤ بنه فيه وينعى ما لاقاه بعد وفاته من إهمال وعدم التنويه به من مواطنيه .

وجاء في ترجمة « خير الدين الزركلي » قوله :

« عبد المحسن بن يعقوب الصحاف » شاعر عاش في بؤس ، ولد بالبحرين وانتقل طفلا مع والده إلى مكة ، فتعلم فيها ومدح بعض الملوك والأمراء

وأرباب المناصب ، له حماسة وغزل ، ارتفعت شهرته في أيامه وخلف مجموعات من نظمه لا تزال مخطوطة . وإنه من مواليد عام ١٢٩١ هـ وتوفي عام ١٣٥٠ هـ .

وقد عرفت المذكور شخصيا ، وكان كما قال خير الدين الزركلي : « عاش في بؤس ، فقد أدركته حرفة الادب كما يقولون ، وعهدي به لم يتزوج ، وما كان يعيل سوى أمه التي واكبته الحياة ، ولا أدري هل ماتت قبله أو مات هو قبلها .
ومما وجدته منسوبا اليه في بعض المجاميع بقلم بعض معاصريه قوله :

تموت الأُسْدُ في الغابات جوعاً ... وتأكل ما اشتهت عورُ الذئابِ
وتمكث بالطوى زمنا طويلا ... ولحم الطير يطرح للكلابِ
وذو جهل ينام على سرير ... وينعم بالحرير المستطابِ
وخنزير ينام على فراشٍ ... وذو أدب ينام على الترابِ

ومما وجدته له ايضا قوله :

لا تعرضنَّ على الرواة قصيدة ... إلاّ بحول مر من تجريبها
واحذر تقدمها إلى المعنى بها ... ما لم تكن بالغت في تهذيبها
فاذا رويت الشعر غير مهذب ... كانت خرافا تعدو وتجري بها
وإذا نطقت به بغير روية ... جعلوه منك وساوساً تهذي بها

وله في هذه المجاميع التي رأيتها الكثير من التخاميس والتشاطير ، فقد كان رحمه الله ، يستجيب لأي طلب وفي أي وقت ، في الشارع في أي دكان يعتاد الجلوس عنده من معارفه وفي الاجتماعات التي يشارك فيها . وكان كما قال « النبهاني » يمدح الملوك والامراء وفي قصيدة مدح بها المرحوم « الشريف الحسين بن علي » بعد الثورة جاء فيها قوله :

« البحر انت وهذا العالم السمك ... فان تخليت عنهم ساعة هلكوا »

فقال له « الحسين » : ولا كل هذا لا لا يابني » مما جعل بعضهم يتندر عليه

بسبب ذلك ، فرحمة الله عليه ، لقد عاش فقيراً ومات فقيراً .

ومن الفقهاء الذين يتعاطون قول الشعر المرحوم الشيخ « علي بن حسين المالكي » وكان يقال عنه (سيبويه زمانه) لضلاعته في علم النحو ، وقد ترجم له المغفور له « عمر عبد الجبار » في كتابه « علماء مكة » وقرأت له في « الرحلة اليمانية » قصيدة له يهنىء فيها المرحوم « الشريف الحسين بن علي » أمير مكة بعد عودته من فك حصار « أبها » ، عندما حاصرها السيد محمد الادريسي « أمير صبياء» عام ١٣٢٩ هـ ، جاء في أولها :

العيد هنيء إذ نلت الهنا أبداً — بفوز فتحك « أبها » في كمال هدى

ويقول في أخرها :

ما قال نجل « حسين » عرش جدكمو — علِّي احسانكم المالكي سعدا
محمود نصرك سعد الدين ارخه — ان تنصروا الله ينصركم اهل هدى

١٣٢٩ هـ .

ورحم الله من قال :

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه — فليس خليقا ان يقال له شعرا

ولقد ظل الشعر وظل النثر على مستواهما الذي وصفت إلى أن أعلنت الحرب العالمية الاولى عام ١٣٣٢ هـ عام ١٩١٤ م وثار « الشريف الحسين بن علي » على الاتراك ، وتأسست « جريدة القبلة » بالمرحوم السيد « محب الدين الخطيب » ، وأقام بمكة السيد « فؤاد الخطيب » ردحاً من الزمن خالطهما فيها زمرة من الشباب من طلبة ما كان أنشىء من مدارس ، ولم يكن لذلك أثر قوي ، فلما زالت حكومة الشريف الحسين واستتب الأمر للحكومة الحاضرة ، وكانت « مدارس الفلاح » « والمدرسة الراقية » التي أسسها المرحوم « الشريف الحسين » قد أتت أكلها وأخذت المجلات المصرية تتوارد على البلاد « كالرسالة » « والثقافة » وغيرهما . بدأت مواهب بعض الشباب المكي تبرز وأخذ

الوعي والادراك يتجلى وأول من دون انتاج قرائحهم وأخرجها في كتيب المرحوم « الشيخ محمد سرور الصبان » سماه « أدب الحجاز » صدر بعده كتاب « وحي الصحراء » جمع المرحوم « محمد سعيد عبد المقصود » « وعبد الله بلخير » .

وقد تصدى « الشيخ محمد سرور الصبان » لرعاية الناشئة ، لأنه لما أسس « جمعية الاسعاف » أقام فيها في بعض الليالي ندوات ظهر فيما يلقن فيها من محاضرات مواهب للكثير منهم ، ولم تقتصر رعايته ، على ذلك بل كان يحدب على من يتوسم فيه النبوغ ويشجعه مادياً وادبياً ، وله في هذا السبيل أيادٍ تذكر وتشكر .

وكان مما برزت معه القدرة على النظم وإجادة النثر بين الشباب الحجازي إبتعاث الطلبة إلى « مصر » وغيرها من عواصم البلاد العربية ، وقد نجم من بينهم من أتى بالجيد ، وجاء في كتاب « ادب الحجاز » وكتاب « وحي الصحراء » وكتاب « شعراء الحجاز » في العصر الحديث وشبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز لخير الدين الزركلي ، وفي عدد ممتاز من « مجلة المنهل » ، تراجم للكثير من أدباء الحجاز ، ونماذج من نظمهم ونثرهم ، وظهرت لبعضهم مؤلفات ودواوين مطبوعة متداولة بين الأيدي ، يرجع اليها من شاء التوسع .

الكشافة بمكة

في كتيبي الذي أخرجته عن الايام التي قضيتها في « عسير » بالجهة الجنوبية من « المملكة » وطبعت عام ١٣٧٥ هـ لمناسبة طرأت ، قلت ما نصه : « أمنية وأمل » ، وسبح الخيال واستعرض ما نحن عليه ، سكان المدن المتحضرة في الحجاز من رخاوة وطراوة وضعف لا تقوى معه على مواجهة ما تسوق إليه أحياناً بعض ضروب الحياة ، وواجبات الوطن ، وتمنيت لو تقوم بين شبابنا اليوم فرق للكشافة لما في تعاليمها من التمرن ، وإيجاد القدرة على مجابهة هذه الاحوال وغيرها .

وقد حقق الله هذه الأمنية ، وقامت في كل مدرسة من مدارس المملكة فرق للكشافة ، وحصل بها نفع . فقد طوعتهم وزارة المعارف ، (ولا شك ان ذلك بتوجيهات جلالة « الملك فيصل المعظم ») لخدمة الحجيج ، ووفود بيت الله الحرام أثناء موسم الحج ، ونظراً لما لمسته الوزارة من جليل النفع ، صارت تدعو فرق كشافة بعض الدول العربية والإسلامية للمشاركة ، نظراً لما في هذا التجمع ، والاتصال والقيام بخدمة دينية جليلة ، من وسيلة للتعارف والتقارب والوحدة بين شباب الامة العربية والاسلامية .

وفي موسم عام ١٣٩٠ هـ تجمع كشافة نحو خمسة وعشرين دولة عربية وإسلامية وقد اعطى جلالة الملك المعظم إهتمامه الخاص بذلك ، فشرف بذاته الكريمة افتتاح تجمعهم بثغر « جدة » وانطلاقهم منها لما تجمعوا لأجله .

وقد علمت مؤخراً ان وزارة المعارف ستدخل في أعمال الكشافة بعض التعاليم العسكرية ، لما في ذلك من فوائد تجعل فرق الكشافة جنداً خليقاً بما يطلب منهم للدفاع عن الوطن عند الحاجة لذلك .

دليل الموضوعات العامة

الدليل العام

أ



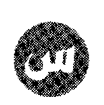
ت

ح



ر

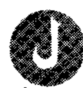
ز



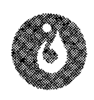
ض

ط

ك



م



هـ



ي